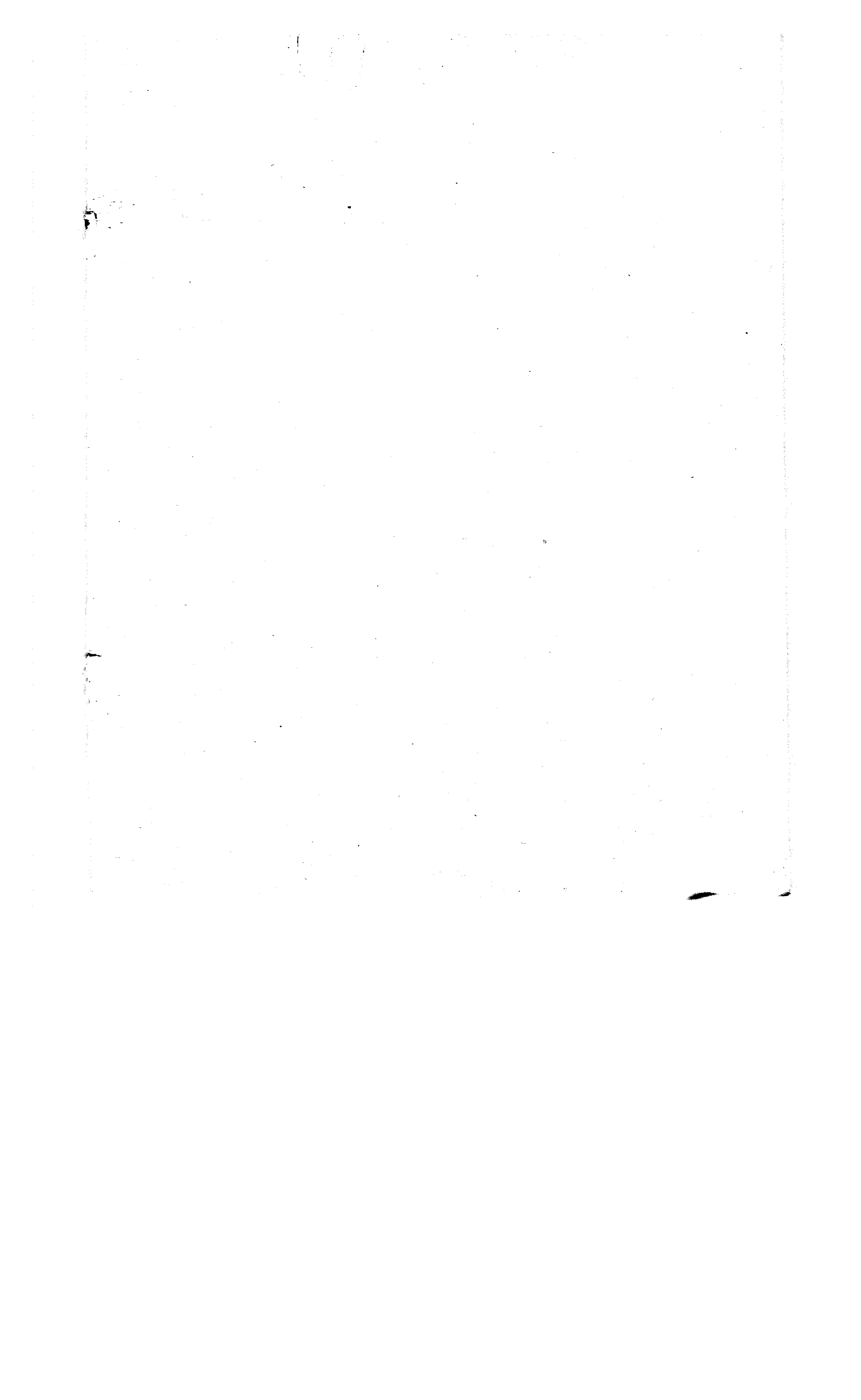
العالم العربى الحديث والمعاصر

دكتور مصطفى محمد رمضان

أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة

كلية اللغة العربية بالقاهرة - جامعة الأزهر



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

العالم العربي في التاريخ الحديث والمعاصر له مشاكل كثيرة تتعلق بوحدته ونهضته فمثلاً من ناحية الوحدة حاول الاستعمار منذ مطلع العصور الحديثة أن يعمق الفرقة بين مناطق العالم العربي وشاركت العوامل المذهبية في هذه الفرقة واستغل الاستعمار هذه العوامل في توسيع هوة الفرقة بين أجزائه لكي يظهر ضعيفاً أمام الأعداء الذين جاسوا خلال الديار .

وكانت عوامل الفرقة التي تتصل بالجنس واللون كان الاسلام في الماضي قد قضى على هذه العوامل ، حيث كان المسلمون سواسية كأسنان المشط لا فرق لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وكلهم كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وعندما نسي العرب هذه المبادئ في فترة ضعفهم أصبحت كل منطقة تتحدث عن ماضيها قبل الاسلام فالمصريون يتحدثون عن فرعونيتهم ، والشوام يتحدثون عن تاريخهم الفينيقي ، والمغاربة يتحدثون عن تاريخهم البربرى وهلم جرا .

فمثلا المغرب العربي كان دولة واحدة أيام المرابطين (٤٥٠-٥٤٠هـ) والموحدين (٥٤٠-٦٠٩هـ) ، وبدأت سمات الانقسام بين أجزاء المغرب العربي تظهر في القرن الثالث عشر حينما اضمحلت دولة الموحدين وحلت محلها بالتدريج دول ثلاث :

١- دولة الحفصيين في تونس .

٢- دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط (الجزائر) .

٣- دولة بنى مرين في المغرب الأقصى (مراكش) .

وبلغ التفكك السياسى في شمال أفريقيا أقصاه في أوائل القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى مما سهل على الغزاة الأسبان الاستيلاء على كثير من موانئ المغرب الأمر الذى دفع المغاربة للاتصال بالدولة العثمانية لإنقاذهم من الغزو الأوروبى .

أما في المشرق العربي في الجزيرة العربية فكان التفكك السياسى أكثر وضوحاً في شرقى الجزيرة العربية حيث ظهرت كيانات ضعيفة في شرقى الجزيرة العربية في (عمان)و (قطر) و(الأحساء) و(الكويت) ولم تستطع هذه الكيانات أن تقف أمام الغزو الأوروبى وعلى الأخص الانجليزى عندما جاس الانجليز خلال الديار فسيطروا عليها بسهولة لأنه لم يكن لها قوة موحدة تواجه هؤلاء الغزاة وظلت هذه الكيانات موجودة الى يومنا هذا ، وتُسَبب ضعفاً في الموقف العربي الموحد في الوقت الراهن .

وأيضاً كانت مصر وبلاد الشام في كثير من فترات التاريخ الاسلامى تحت قيادة موحدة أيام الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، وبدأت تنفصم عرى الوحدة بين الشام ومصر على أيام العثمانيين الذين كان همهم في المقام الأول أن يبسطوا سلطانهم على هذه الأماكن مما أضعف شوكتها أمام الغزاة الأجانب فداهموا البلاد وهى ممزقة وتمكنوا منها .

ومن النتائج الخطيرة أن الدولة العثمانية لم تشرك العرب في الجندية وأعفت المواطنين من التجنيد فأضعفت فيهم الروح الحربية القتالية وكانت تتعقب من يحمل السلاح منهم وظلت في حرب دائمة مثلا مع اليمنيين لأنهم أبوا أن يسلموا سلاحهم ، واعتبرت الدولة العثمانية أن مسألة الجندية خاصة

بالانكشارية فقط لأنها حكمت تلك البلاد بنظرية مستوحاة من بيئتها الرعوية الأولى فى أواسط آسيا والتى تكون العناصر فيها ثلاثة :

الراعى ، والراعية ، وكلب الحراسة ، فطبق العثمانيون هذه النظرية على الشعوب التى دانت لهم فالراعى : هو السلطان العثمانى والرعية : هم الشعب وكلب الحراسة : هم انكشارية من الاتراك وحدهم ولا شأن للشعب بقضية الدفاع عن نفسه فهى من شئون كلب الحراسة ونتج عن هذا استرخاء فى عضلات العرب ونسيان للجندية وأضعاف للروح القتالية ونسيان لمسائل التسليح وتطويره لأنها كانت من مهام الدولة العثمانية وظل هذا الوضع فى البلاد العربية من ٣٠٠ سنه فى بعض المناطق إلى ٤٠٠ سنه فى مناطق أخرى ، وعندما واجه العرب الغرب المسيحى بعد ضعف الدولة العثمانية وسقوطها فى النهاية كان من أهم المشاكل العويصة (ومازالت) هى مسألة إعادة الروح العسكرية وإعادة التسليح وإعادة تنظيم الجيوش وتصنيع السلاح وما يتصل بذلك من المشاكل التى ستظل شغل العرب والمسلمين الشاغل حتى يتمكنوا من صنع سلاحهم بأنفسهم وتدريب جيوشهم بروح إسلامية وأيد إسلامية دون اعتماد على الغرب المسيحى وهيهات أن يخلص لهم فى هذا المجال .

ولعل اخطر النتائج قاطبة هو ان الحضارة الإسلامية والثقافة العربية تأخرت عن غيرها من الحضارات والثقافات الأوربية لأن الزعامة ضاعت من العرب وكان التقدم الذى أحرزه العالم الإسلامى باللغة العربية ولم يكن فى مقدور الترك ان ينهضوا بالتراث الإسلامى والعلوم الإسلامية لأن هذا التقدم قطع أشواطا طويلة باللغة العربية وكان قد تضخم حيث يصعب نقله إلى اللغة التركية التى لم تكن مهيأة لذلك ولم يكن الأتراك أيضا كشعب عسكرى مهيأ لهذا العمل ، ولقد منعت العنصرية التركية الترك من ترك لغتهم ومواصلة

الحضارة الإسلامية باللغة العربية فتمسكوا بلغتهم ولم يتعرفوا على التراث الإسلامي ليهضموه لا بالتركية ولا بالعربية وظلوا أمة عسكرية فحسب وحالت طبيعتهم العسكرية دون ان يدفعوا الثقافة العربية الإسلامية دفعات إلى الأمام ووقع عبؤهم العسكرى على الشرق العربى فترة طويلة ،وعلى الرغم من انهم حموه فى فترة كان مهددا فيها من الغرب المسيحى إلا انهم أضروه ضورا بليغا ربما من غير قصد فقد أضروه فى مضمار الحضارة وانسوه كثيراً من فنون التقدم الحضارية والعسكرية فى فترة عصر النهضة الأوربية ، فبينما كان الغرب الأوربي يتقدم كان الشرق الإسلامي والعربى قد توقف والحكمة الحضارية تقول : " إن من لم يتقدم يتأخر " .

ولم تزل الدولة العثمانية ان ضعفت بعد أن اتسعت اتساعاً مهولا ولم تستطع معه ان تجدد نظمها وإدارتها ولما كانت عظمتها مبينة على أساس قوتها العسكرية لذا عندما سقطت هيبتها العسكرية سقطت الدولة نتيجة للضربات التى سددها الغرب المسيحى إليها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وذلك بعد ان تغلغلت فيها الامتيازات الأوربية التى شجعت الغزو الفكرى الذى ساعد فى تمزيق الأفكار والأوطان .

وأصبحت بلدان الخلافة العثمانية فى يد الاحتكارات الأوربية الرأسمالية وظهرت الأطماع الاستعمارية لاقتسام أملاك الدولة العثمانية التى أطلقوا عليها تركة الرجل المريض وحاول سلاطين العثمانيين أن يقوموا بمحاولات اصلاحية اتخذت النظام الغربى نموذجا لها ولم تكن الدعوة إلى الإصلاح نابعة من الشعب بل جاء من الحكام أى أنها ثورة من القمة وليست من القاعدة وكان الهدف الرئيسى لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ على رجال السلطة ولهذا امتد الإصلاح فى المقام الأول إلى إصلاح اله الحرب والنظم العسكرية وقد فشلت هذه

المحاولات الإصلاحية أيام السلطان سليم الثالث (١٢٠٤ ــ ١٢٢٢هـ) وأيام محمود الثانى (١٢٢٣ ــ ١٢٥٥هـ) وغيرهما من السلاطين الذين أتوا بعدهما فى القرن الثالث عشر الهجرى نظراً لان هذه المحاولات لم تأخذ بعين الاعتبار الصيحات المخلصة المنبعثة من الجزيرة العربية التى تنادى بالإصلاح على أساس التوحيد الخالص من كل دخيل وعلى أساس عقائد السلف الصالح اى بالبناء على قواعد الماضى التى أسسها الجدود ، وبدلا من أن تتعامل الدولة العثمانية مع هذه الصيحات وتصغى لها التفتت إليها لتضربها كما سنرى فيما بعد .

وأود أن اقدم الشكر لكريمتى العزيزة يمنى التى قامت بكتابة هذا الكتاب فى الكمبيوتر وطبعته على طابعة الليزر ، فلها منى الدعاء الخالص بالتوفيق من الله فى مستقبل حياتها الزوجية انه سميع الدعاء .

القاهرة فى أول يناير سنه ٢٠٠٠م

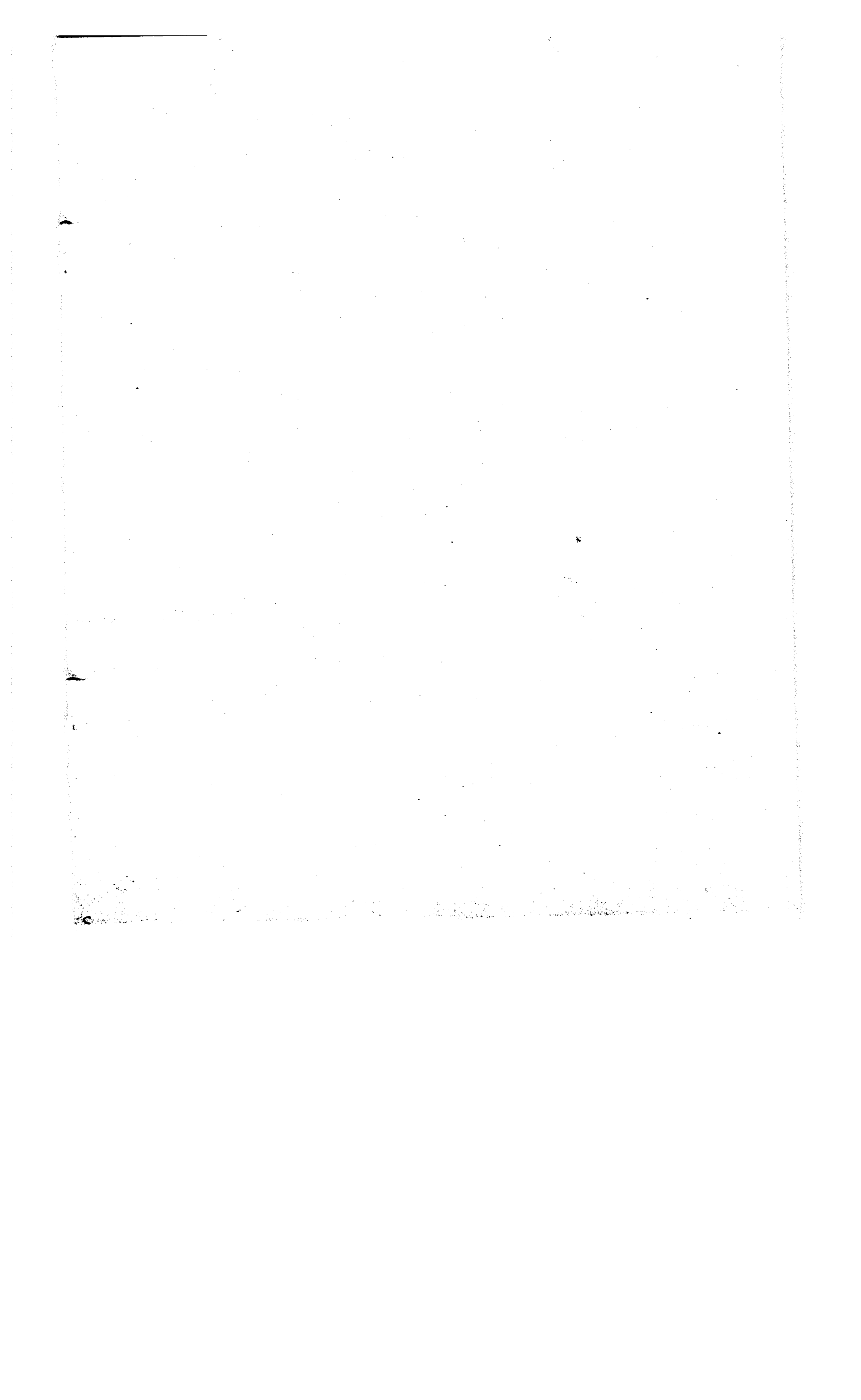
أ . د . مصطفى رمضان

الباب الأول

البلاد العربية في جزيرة العرب

الفصل الأول

اليــمــن



الفصل الأول

اليمن في مطلع العصور الحديثة

الحكم العثمانى الأول باليمن ٩٤٥-١٠٤٥هـ(١٥٣٨-١٦٣٥م):

كان تزايد الخطر البرتغالى في النصف الأول من القرن العاشر الهجرى في البحر الأحمر والمياه الهندية أمراً يمثل تهديدا مباشراً للنفوذ العثمانى في منطقة البحر الأحمر وتهديداً للأماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز التى دخلت في حوزة الدولة العثمانية منذ فتح مصر عام ٩٢٣هـ ، وكانت الدولة العثمانية قد وصلت في مطلع العقد الخامس من القرن العاشر الى أوج عظمتها وقوتها البحرية والبرية في عصر السلطان سليمان المشرع .

وكان الأمر أيضاً باليمن يقتضى عملاً حاسماً لتقوية الوجود العثمانى باليمن بعد أن اضطربت أحواله بين كل من المماليك والزيديين والطاهريين . على الرغم من اعلان المماليك في اليمن الطاعة للعثمانيين بعد أن وصلتهم أنباء سقوط دولتهم في مصر على يد العثمانيين سنة ٩٢٣هـ .

ومن ثم بدأ اهتمام العثمانيين بإعداد حملة بحرية الى اليمن والهند وبدأو الاعداد لهذه الحملة منذ عام ٩٣٧هـ في السويس على يد (سليمان باشا الخادم) الذى كان والياً على مصر من سنة ٩٣١هـ والذى ظل في منصبه حتى سنة ٩٤١هـ حيث غادرها في تلك السنة الى العراق للاشتراك في حملة

السلطان سليمان المشرع لفتحه ، ولا شك أن فتح العثمانيين للعراق في سنة ٩٤١هـ أدى الى ازدياد اهتمام السلطان سليمان بالمعركة الدائرة مع البرتغاليين وذلك بسبب إمتداد النفوذ العثمانى حينذاك الى سواحل الخليج العربى الشمالية فأصبحوا بذلك وجهاً لوجه أمام البرتغاليين فقد دخل أمراء (البصرة) و (القطيف) و (البحرين) في طاعة العثمانيين بعد فتح العراق . ولأن البرتغاليين قد أقاموا علاقات ودية مع الصفويين في فارس نتج عنها إمداد البرتغاليين للفرس بمعونات عسكرية وبعض العمال والفنيين لتعليم الفرس صناعة المدافع الكبيرة وكيفية إستخدامها الأمر الذى أقلق الدولة العثمانية .

وبالاضافة الى ما تقدم فقد أرسل سلطان كجرات بالهند (بهادرشله) الى السلطان سليمان سنة ٩٤٣هـ يطلب منه إرسال مدد عسكرى إليه للصمود أمام الوجود البرتغالى الذى استولى على ميناء (ديو) حتى لا تضطر سلطنة كجرات الى عقد صلح مهين مع البرتغاليين ، بيد أن البرتغاليين قطعوا الطريق على هذه الاتصالات حتى تمكنوا من قتل بهادر شاه في سنة ٩٤٣هـ قبل أن تدركه المعونة العثمانية لاتهامه بمراسلة العثمانيين سراً واستعانته بهم ضد البرتغاليين .

وعلى كل حال فقد تم في المحرم من عام ٩٤٥هـ تكوين حملة بحرية كبيرة تتألف من ٨٠ سفينة من مختلف الأنواع و ٢٠ألف جندى من جنود مصر والشام وبعض الانكشارية بقيادة سليمان باشا الخادم الذى عاد الى ولاية مصر بعد فتح العراق منذ سنة ٩٤٣هـ وهى فترة ولايته الثانية على مصر .

وكان (سليمان الخادم) في نظر المؤرخين لا يصلح لقيادة هذه الحملة لكبر سنه فقد كان في حوالى الثمانين من عمره ولشهرته بالغدر وسفك الدماء وضعف العقل والرأى وقد كان من مماليك سليم الأول الخصوصيين ، كما كان

من الخصيان الذين تربوا في القصر السلطاني بين الحريم وكانت لديه عقدة خاصة بنشأته ، بالاضافة الى أنه لم يكن جنديا في الانكشارية ولم تكن له علاقة بالبحرية .

وعلى الرغم من هذه العيوب الخاصة بشخصية قائد الحملة سليمان باشا الخادم إلا أنه تمكن من فرض السيطرة العثمانية على سواحل اليمن الغربية والجنوبية وإن أخفق في حملته على الهند .

وقدمت الحملة بميناء (جدة) ثم تقدمت الى (جزيرة كمران) فأقامت فيها بعض الوقت وفي غضون ذلك قام كل من (عامر بن داود الطاهرى) والامام (شرف الدين) بالاتصال بسليمان باشا ليطلب معاونة الحملة له ضد الآخر فبسط سليمان لكل منهما الجواب ووصلت الحملة الى عدن في ٧ من ربيع الأول سنة٩٤٥هـ فأظهر عامر بن داود حسن استقبالها وفتح أمامها أبواب المدينة حتى يحصل الجنود على ما يشاؤون من طعام ومؤن بناء على طلب سليمان باشا الخادم ، وعلى الرغم من ذلك فقد استعمل سليمان اسلوب الغدر في الاستيلاء على عدن عقب دخولها وقام العثمانيون بأعمال السلب والنهب في المدينة .

وفي نفس الوقت كان سليمان الخادم قد استدعى (عامر بن داود) الى سفينته فتوجه إليه عامر لاستقباله وإظهار الحفاوة به ولكن سليمان باشا أمر بشنقه ومن معه من رجاله على سارية سفينته وتركهم معلقين لمدة ثلاثة أيام وامر سليمان بقتل من بقى من آل طاهر ومصادرة ممتلكاتهم بحجة أنهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين [1] ، ويعتبر عامر بن داود الطاهرى آخر الحكام الطاهريين وبموته انتهى حكم هذه الأسرة من اليمن . وقد تم استيلاء العثمانيين

---

(1) أحمد حسين شرف الدين ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٦٥ .

على عدن بعد خمسة أيام من وصولهم ، وقامت الحملة بتحصينها وتقويتها بالمدافع وعين أحد العثمانيين وهو الأمير بهرام حاكما عليها ومعه حامية عثمانية مكونة من حوالى ٥٠٠ جندى .

وأرسل الخادم الى اسلامبول يخبر السلطان بأنه فتح عدن قهراً ولم يكن هذا من الأمانة في شيء وعلى كل حال فقد كان لهذا الأسلوب الغادر الذى استعمله سليمان في عدن أثره السئ في نفوس اليمنيين ، فقد افقدهم الثقة في العثمانيين وضيع على العثمانيين فرصة تكوين جبهة اسلامية قوية في البحار الاسلامية لمواجهة الغزو البرتغالى ، وكان له الأثر السئ أيضا على مسلمى الهند الذين وصلتهم أخبار سليمان وغدره فتوجسوا منه خوفا واعتقدوا أن العثمانيين قوم لا أمان لهم ولا يوثق بعهدهم .

وانطلقت الحملة بعد استيلائها على عدن الى (ديو) بالهند لتحقيق الجزء الثانى من خطتها ولكنها فشلت في تحقيق شيء يذكر في الهند نظراً لضعف قائدها وضعف حلفائها الهنود في (كجرات) وغيرها وارتيابهم في العثمانيين وخوفهم من غدرهم ، بالاضافة الى عدم قدرة الحملة على منازلة البحرية البرتغالية .

ومن ثم فما كادت تقوم بحصار بعض القلاع البرتغالية هناك حتى فكت الحصار عندما علمت بنجدة برتغالية كبيرة قادمة عن طريق البحر وعادت الى ميناء (الشحر) باليمن في ٤ من رجب سنة ٩٤٥هـ وتفرغت لفتح باقى السواحل اليمنية واخضاعها للسيطرة العثمانية .[1]

---

[1] د . السيد مصطفى سالم ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٦-١٤٨ .

وبمجرد أن وصل سليمان الى (الشحر) أصدر أمره بتولية السلطان (بدر الطويرق) حكم حضرموت تحت السيادة العثمانية على أن يدفع أموالا سنوية قدرها مائة ألف أشرفي[1] للعثمانيين .

ثم تقدم بعد ذلك الى (عدن) ومنها الى (المخا) حيث أنزل جنوده الى الساحل استعداداً لخضاع المماليك في (زبيد) للعثمانيين وقد لجأ الى أسلوبه المعروف بالغدر ، فأرسل الى حاكم زبيد المملوكي ويدعى (بالناخوده أحمد) وطلب منه الحضور الى (المخا) لمقابلته كما أرسل إليه بخلعه ومرسوم فيه الأمان ومناه بتعيينه نائبا عثمانياً في اليمن ، وبعد تردد خوفا من غدر سليمان توجه أحمد لمقابلة الخادم فأمر بقتله فور وصوله في ٨ من شوال ٩٤٥هـ ثم قام بتعيين عثماني هو (مصطفى بك) نائب غزة السابق حاكماً لزبيد والمناطق الساحلية من تهامة التي كانت تخضع للمماليك .

الزيدية والعثمانيون :

وكان القضاء على الطاهريين في عدن وعلى المماليك في زبيد يعني بداية المواجهة المباشرة بين العثمانيين والقوة الثالثة في اليمن وهى قوة الزيديين وقد حاول سليمان باشا استدراج الامام شرف الدين عن طريق الرسل كما فعل مع المماليك وعامر بن داود الطاهرى ولكنه لم يفلح معه في اسلوبه الغادر وظل يتبادل معه الرسائل دون جدوى حتى غادر سليمان اليمن ، كما حاول الخادم الاستيلاء على (تعز) ومخاليفها (أقاليمها) التي كانت تابعة لشرف الدين حتى يربط بين عدن وزبيد ولكنه لم يستطع وأخضع ميناء (جيزان) للسيادة العثمانية وطرد منه والى أشراف مكة .

---

[1] الأشرفي : هو الدينار الذى ضربه الأشرف برسباى في مصر .

ثم قفل سليمان الخادم عائداً الى مصر فوصل الى جدة في ٢٢ من شـــوال سنة ٩٤٥هـــ ولكنه تلكأ في طريق عودته الى إسلامبول خوفاً مـــن عواقـــب الأمور المرتقبة ومحاولة منه لتغطية فشله لدى سلطان الباب العـــالى فبقـــى في الحجاز أكثر من شهرين ، ثم قضى نحو خمسة أشهر في مصر عمل خلالها علـــى نشر الدعاية الكاذبة حول انتصاره المزعوم على البرتغاليين .

وعلى الرغم من ذلك يمكننا القول بأن حملة ســـليمان الخـــادم حققـــت الاستيلاء على منطقة السواحل اليمنية فقط من جيزان شمالا الى الشحر جنوباً ، أما جهات اليمن الداخلية فقد ظلت تحت حكم الزيديين بزعامة شرف الديـــن ، كما حققت الحملة أيضا القضاء النهائى على الكيان الطاهرى الهزيل الذى كان يلفظ أنفاسه الأخيرة في عدن ، ونقل سليمان السلطة في تهامة من يد الممـــاليك أصحاب النزعات الانفصالية الى موظفين عثمانيين تعينـــهم الدولـــة العثمانيـــة مباشرة ويتم تغييرهم على فترات متقاربة .

وبعد فشل حملة سليمان الخادم على الهند لم يفكر العثمانيون في سياســـة هجومية ضد البرتغال[٤] ، وظلوا ينهجون سياسة دفاعية قوامها الســـيطرة علـــى البحر الأحمر وإغلاقه.[٥] كما ترتب على هذه الهزيمة أيضاً أن البرتغاليين شـــنوا هجوما كبيراً على البحر الأحمر في سنة ٩٤٨هـــ ولكنه لم يحقق أهدافاً جوهريـــة سوى الاعلان عن مقدرة البرتغاليين على رد الصاع صاعين للعثمانيين ، إذا مـــا فكروا مرة أخرى في الذهاب الى الهند وهو الأمر الذى لم يحدث بعـــد ذلـــك إطلاقاً ، وكانت حملة الخادم هى الأولى والأخيرة للعثمانيين على الهند .

وإذا كان العثمانيون قد تمكنوا بعد ذلك من وقـــف التوســـع البرتغـــالى وتأمين البلدان العربية ومن بينها اليمن من عدوان البرتغاليين فإنهم قد عجزوا في النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية وهى تحطيم السيطرة البرتغاليـــة في البحـــار

الشرقية وشق طرق للتجار والملاحين العرب ، ويرجع سبب إخفاق العثمانيين في تحقيق هذه الغاية الى عجزهم عن تألفة المسلمين في البحار الشرقية ليوحدوا قواهم جميعا لمكافحة السيطرة [1] البرتغالية غير أنهم حاولوا التمسك ببلاد اليمن والابقاء على تبعيتها لهم ، وثار اليمنيون كثيراً على هذه التبعية لانتزاع حريتهم وخاصة عندما بالغ العثمانيون في اتباع سياسة الغدر والتسلط والعنف إزاء المعارضة اليمنية ، ولهذا فإن تاريخ اليمن الحديث ملئ بالثورات العنيفة ، والمقاومة الضاربة ضد العثمانيين الذين لم يتمكنوا من البقاء في اليمن بعد فتحها سنة ٩٤٥هـ أكثر من قرن واحد من الزمان ثم تركوها ولم يعودوا إليها إلا في منتصف القرن التاسع عشر (١٣هـ) ليقيموا حكمهم فيها قرابة نصف قرن آخر تحولت فيه اليمن الى مقبرة للعثمانيين بسبب كثرة قتلاهم بها .

ولم تكد تمض فترة طويلة بعد فتح عدن حتى أعلنت القبائل اليمنية ثورتها على الحامية العثمانية المرابطة بالمدينة وتمكن العثمانيون من إخماد الثورة بقوة بحرية بقيادة القائد (بيرى) .

وقد اتخذ الوالى العثمانى (مصطفى باشا غزة) من (زبيد) مركزاً لاقامته وأرسل عماله الى أقسام تهامة التى امتدت الى (جيزان) الواقعة في شمال اليمن ، كما توجه هذا الوالى الى الحجاز لأداء فريضة الحج في سنة ٩٤٦هـ واستصحب معه محملاً يمنياً تضرب أمامه الطبول وتنفخ الابواق [2] وحاول العثمانيون المحافظة على تسيير قافلة للحاج سنويا تخرج من اليمن ومعها المحمل اليمني تعبيراً على تكريمهم للأماكن المقدسة الاسلامية بالحجاز ومحاولة منهم للظهور بمظهر المحافظ على شعيرة الحاج لاجتذاب قلوب اليمنيين إليهم .

---

(١) صلاح العقاد ، الاستعمار في (الخليج الفارسى) ، ص٦ .

(٢) عبد الله الجرافى ، المقتطف من تاريخ اليمن ص٨٩ ، ص٢٠ .

وبعد رحيل سليمان الخادم بدأ الصراع بينهم وبين الامام شرف الدين في حروب وجهات شتى يصعب سردها وإنما يهمنا الاطار العام لها ، وقد تمكن العثمانيون من السيطرة على (تعز) سنة ٩٥٢هـ كما سقطت بعدها صنعاء في قبضتهم سنة ٩٥٤هـ [١] ولكن المحافظة على صنعاء أو غيرها من المدن الجبلية لم يكن أمراً هيناً أمام مقاومة اليمنيين الصلبة .

وهنا سنجد ظاهرة جديرة بالتسجيل وهى أنه على الرغم من أن غالبية أجزاء اليمن عدا المناطق الجبلية في الشمال يدين معظم سكانها بالمذهب الشافعى السنى إلا أنهم قد إلتقوا مع إخوانهم الزيديين لمقاومة العثمانيين على الرغم من أنهم سنيون مثلهم وذلك بسبب عدم الثقة بالعثمانيين وقوادهم الذين ضربوا أسوأ الأمثلة في معاملة اليمنيين ونظراً لهذا التضامن اليمنى في مقاومة العثمانيين باستعمال أساليبَ الوقيعة بين اليمنيين ، وقد فعلوا ذلك مع الامام (شرف الدين) وابنه (المطهر) عندما أوقعوا بين الرجل وابنه مما أحدث فتنة في اليمن أثارت قتالاً مروعاً بينهما شغلهما عن العثمانيين ، وانتهى هذا الصراع بتنازل الامام لابنه (المطهر) حقناً للدماء وتجميعاً للصف ، وبعد وفاة الإمام شرف الدين سنة ٩٦٥هـ مضى إبنه المطهر قدماً في مقاومة الدولة العثمانية حتى تمكن من استعادة صنعاء سنة ٩٧٥هـ وعقد صلحاً مع العثمانيين انسحبوا بموجبه الى زبيد وتهامة .

وعندما علمت الدولة العثمانية بالمقاومة الضارية بزعامة (المطهر) ضدها في اليمن ارسلت حملة عثمانية بأحدث الأسلحة في عصرها يقودها (سنان باشا) وهو من أبرز القادة العثمانيين وغادرت الحملة مصر في ١٧ من رجب ٩٧٦هـ (٥ من يناير سنة ١٥٦٩) ونزلت أغلب قوات الحملة في (ينبع) ثم

---

[١] على يد الوالى العثمانى أزدمر .

زحفت براً على (جيزان) فهرب أميرها المطهر في أول شـــوال ٩٧٦هـــ ثم أسرع الى تعز فاستولى على حصنها المنيع (القاهرة) بعد جهد كبير ، ثم استعاد صنعاء في صفر ٩٧٧هـــ ولولا إشفاق (المطهر) على أهل (صنعاء) لما استطاع القائد سنان الاستيلاء عليها ، ذلك أن المطهر رأى كثرة ما ألم بأهالي صنعاء من تحمل المشاق بسبب كثرة الحروب الدائرة بين ظهرانيهم فغادرهـــا طائعـاً الى حصن (ثلاء) المنيع بحجة .

ثم دامت الحروب بعد ذلك حتى عام ٩٨٠هـــ حيث مات المطهر الـذى أتاح موته للعثمانيين مزيداً من السيطرة على اليمن الأمر الذى جعـــل الـوالى العثماني حسن باشا (٩٨٨-١٠١٣هـــ) يتمكن بعد ذلك من الاستيلاء علـى (ثلاء) و (مدع) و (عفار) و (ذى مرمر) و (الشرفين الأعلـــى والأسـفل) و (صعدة) مركز الامامة الزيدية فقضى بذلك على المقاومة اليمنيـــة فـترة مـــن الوقت.

على أن القتال استؤنف بضراوة بعد ذلك عندما تولى الأمامة رجل قـوى هو المنصور القاسم بن محمد (١٠٠٦-١٠٢٩هـــ) وتمكن اليمنيون بعد ذلك من إخراج العثمانيين من اليمن بعد أن كبدوهم كثيرا من الضحايا وذلـــك في عهد إمامة محمد بن القاسم (١٠٢٩- ١٠٥٤هـــ) في سنة ١٠٤٥هـــ .

ومن الأشياء التى ساعدت على نجاح الثورة اليمنية إضطـــراب أحـوال الدولة العثمانية نفسها حينذاك وانشغالها في المنازعـــات الداخليـــة والحـروب الخارجية الأمر الذى جعل العثمانيين لا يستطيعون مساندة ولاتهـــم في اليمـــن المساندة الكافية ، ولا يفكرون في استعادة اليمن بعد إخراجهم منها .

وكانت القوات العثمانية تتكبد بصفة دائمة خسائر فادحة في الأمـــوال والأرواح مما جعلها تفكر في الجلاء عن اليمن تخلصاً من هذا الحلم المزعج الذى

عاشوا فيه قرابة قرن من الزمان ، وخاصة أن سلطانها ضعف في مصر والبحار الشرقية وقلت أهمية البحر الأحمر بعد الاقبال على طريق رأس الرجاء الصالح ، كما كان لوقوع اليمن في أقصى جنوب البلاد العربية بعيداً عن عاصمة الدولة العثمانية ، وصعوبة توصيل الامدادات إليها ، والتكاليف الباهظة التى كانت تتحملها الدولة من أجل بقائها ، بالاضافة الى أن الجنود يعتبرون أن اليمن منفى لهم ، كل ذلك يدعم فكرة جلاء العثمانيين عن اليمن في وقت هدأت فيه المنافسة البرتغالية وخبا فيه نجم الدولة الصفوية بموت عباس الأول الصفوى سنة ١٠٣٩هـ . وهكذا كان جلاء العثمانيين عن اليمن الذى تم في سنة ١٠٤٥هـ في عهد مراد الرابع استجابة طبيعية لما فرضته المقاومة اليمنية العنيفة من ناحية والظروف والملابسات الدولية من ناحية أخرى .

ومن الملاحظ أن العثمانيين لم يتمكنوا من فرض النظام الاقطاعى في اليمن على الرغم من أنهم فرضوه في كثير من البلدان التى خضعت لهم ، ويلاحظ أيضاً أن العثمانيين في هذه الفترة حافظوا على حماية ثغور اليمن من البرتغاليين .

والملاحظة الهامة التى يجب أن يسجلها المؤرخ لليمنيين هو أنهم لم يتركوا السلاح إطلاقاً وظلوا يدافعون عن استقلالهم بخلاف الدول العربية الأخرى التى تركت حمل السلاح وتركت مسألة الدفاع عنها للعثمانيين . ولا شك أن المقاومة العنيفة التى أبداها اليمنيون بزعامة الإمام شرف الدين وأبنائه (المطهر) و(شمس الدين) من بين العوامل التى ساعدت على تجميع القوى الزيدية فيما بعد حول الامام القاسم بن محمد ١٠٠٦–١٠٢٩هـ وابنه محمد بن القاسم ١٠٢٩–١٠٤٥هـ ونجاح اليمنيين في إخراج العثمانيين من اليمن ، فقد أصبح المذهب الزيدى في اليمن قوة سياسية قادرة على أن تعلن تمردها وثورتها على السلطة القائمة وتطالب بالسلطة دونها لأنها أحق بها من وجهة نظر

مذهبهم ، وكانت هذه الثورة ذات مضمون إجتماعى لأنها كانت تحارب فساد الحكم العثمانى وتطالب برفع الظلم عن اليمنيين.

والحقيقة أن العثمانيين قاموا ببعض الخدمات في اليمن فهم أول من وضع خريطة سياسية لليمن وعرفوه تعريفاً سياسياً واضحاً ، وقسموا اليمن الى تسعة ألوية هى ألوية : (صنعاء) و(مخا) و(زبيد) و(تعز) و(صهلة) و(كوكيان) و(طويلة) و(مأرب) و(عدن) . ولم تصل يد العثمانيين الى بعض المناطق المتيعة مثل : مأرب وصعدة ونجران وشهادة وغيرها التى ظلت تحت سلطة الأئمة والمشايخ المحليين .

حكم الأئمة في اليمن في الفترة من ١٠٤٥-١٢٣٤هـ(١٦٣٥-١٨١٨م):

بعد أن تم إخراج العثمانيين من اليمن سنة ١٠٤٥هـ تمتعت باستقلالها الذاتى لمدة قرنين من الزمان تحت حكم الأئمة الزيديين الذين امتد نفوذهم في عهد الامام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم سنة ١٠٥٤-١٠٨٧هـ فشمل لحج وعدن وبلاد البيضا ، ويافع وحضرموت ، ومعظم تهامة والمخلاف السليمانى وكان عهد هذا الامام من أزهر العهود باليمن فقد عم الرخاء وازدهرت الحركة العلمية .

ومن الأمور الجديرة بالتسجيل أن النشاط التجارى البحرى [illegible] البحر الأحمر في هذه الفترة على إثر إنسحاب الأسطول العثمانى من البحر الأحمر وأخذت السفن التجارية تدخل البحر الأحمر الى ميناء (المخا) اليمني فكانت تفرغ حمولتها هناك وتقوم السفن اليمنية بحمل هذه التجارة الى بقية موانىء البحر الأحمر في الحجاز ومصر والساحل الأفريقي وأصبح لليمنيين مراكز تجارية في بلدان البحر الأحمر وبقى بعضها في مصر حتى النصف الأول

من القرن الحالى ، وأصبح للبن اليمنى شهرته العالميـــة وقـــد أشـــار الرحالـــة الدانماركى (نيبور) الذى زار اليمن في ١١٧٧هـــــ (١٧٦٣م) الى سياســـة التسامح التى كانت تتبعها اليمن مع العناصر غير الاسلامية يومئذ ممـــا أدى الى تنشيط حركة التجارة بين اليمنيين والأجانب .

وعلى الرغم من جلاء العثمانيين عن اليمن فقد ظلوا متمســـكين مـــن الناحية النظرية بأنهم أصحاب الحق في البلاد اليمنية وكـــانوا يكـــررون هـــذه الدعوى كلما استدعى الأمر ذلك . غير أن حكم أئمة صنعاء اعتراه الضعـــف والانهيار نتيجة التنافس على الامامة وعدم الاستقرار الذى يساعد عليه نظـــام الحكم الزيدى نفسه الأمر الذى شجع الحكام المحليين في أرجاء اليمـــن علـــى الانفصال والاستقلال ، فانفصلت حضرموت وأعلن شيخ قبيلة العبادل نفســـه مستقلا في (لحج) سنة ١١٤١هـــ (١٧٢٨م) وسيطر على (عـــدن) بعـــد أن تحالف مع جاره سلطان يافع سنة ١١٤٨هـــ(١٧٣٥م) واتفقا على أن يتبـادلا معاً خراج عدن بالمناوبة . أما القسم الشمالى من اليمن فكان الأئمة الزيديـــون قد أسندوا حكمه (لآل خيرات) الذين قسموه فيما بينهم الى اقطاعات منفصلـة ، ثم استقلوا عن الأئمة وانصرفوا لمصالحهم الشخصية عن مصالح رعايـــاهم ، فقاس اليمنيون من جراء ذلك اشد المتاعب والأهوال ولم تنعم بلادهم بـــالوحدة السياسية .

الحكم العثمـانى الثـانى فـي اليمـن(١٢٨٨-١٣٣٥هــ)(١٨١٨-١٩١٨م):

على الرغم من خروج العثمانيين من اليمن سنة ١٠٥٤هـــ واســـتمرار حكم الأئمة في اليمن نحو قرنين من الزمان إلا أن الأتراك ظلوا يعتقدون أنهـــم أصحاب اليمن من الناحية النظرية وواتتهم الفرصة للعودة الى اليمن من جديـــد

عندما بسط محمد على نفوذه في اليمن سنة ١٨١٨-١٨٤٠م وبعد افتتاح قناة السويس للملاحة سنة ١٨٦٩م الذى كان فتحها من العوامل التى سهلت للعثمانيين عملية الاتصال السريع بسفنها من البحر المتوسط الى البحر الأحمر ومن ثم فكروا في إعادة النظر في نفوذهم في الجزيرة العربية وعلى الأخص اليمن وكانت الأمامة الزيدية تجتاز محنة شديدة في هذه الفترة بسبب الضعف الذى حل بالأئمة والفساد الذى استشرى في جميع أنحاء اليمن وكثرة المنازعات وكانوا يحتاجون الى حكم قوي يضبط الأمور في البلاد ، فساعدت هذه العوامل الداخلية والخارجية في دخول الأتراك الى اليمن مرة أخرى .

ومن الأمور التى هيأت الجو لعودة العثمانيين هى فترة الاحتلال المصرى لليمن من سنة ١٨١٨ حتى سنة ١٨٤٠م . إذ أن قوات (محمد على) وجدت فرصة مناسبة وهى اتصال إمام اليمن بها لإخراج الوهابيين من اليمن الشمالى ، وتمكنت قوات محمد على في الفترة الممتدة بين عامى ١٨١٤و١٨١٩ من القضاء على فلول الوهابيين بشمال اليمن وأعادت المناطق التى استولوا عليها الى إمام صنعاء (المهدى عبد الله) في سنة ١٨٢٠م وكان محمد على قد رأى أن أهالى عسير ومنطقة الساحل الشمالى اليمنى يناصرون الوهابيين ويناوشون وحدات جيشه في الحجاز .

لهذا وجه حملة الى شمال اليمن تمكنت من الاستيلاء على ميناء (قنفدة) في سنة ١٨١٤م وقد أمر محمد على بتحصين هذا الميناء توطئة للزحف الى داخل اليمن [1] .

وبعد سقوط الدرعية في أيدى قوات محمد على في شهر سبتمبر ١٨١٨م حول جيش محمد على عملياته الحربية من الميدان النجدي الى اليمن ، فتحركت

---

(١) د . فاروق أباظة ، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص١٠١ - ١٠٢ .

قواته لتقضى على فلول الوهابيين في شمال اليمن في ديسمبر ١٨١٨م وتم لهم ذلك في سنة ١٨٢٠م وسلموا شمال اليمن الى إمام صنعاء المهدى عبد الله على أن يدفع مبلغاً من الخراج سنويا الى الباب العالى من محصول البن اليمنى [١] .

وبذلك أعادت قوات محمد على تبعية إمام اليمن للسيادة العثمانية وأصبح منذ ذلك الوقت لمحمد على ومصر نوع من السيادة في ظل التبعية العثمانية على الساحل الغربي للبحر الأحمر .

وأقام المصريون إدارة منظمة في اليمن أثناء وجودهم بها في الفترة التى امتدت حتى عام ١٨٤٠م وأتاحت هذه الادارة استقراراً نسبياً في اليمن لم تنعم به من قبل في عصور الأئمة المملوء بالمنازعات وقد اعتنت مصر بمحصول البن وشجعت اليمنيين على غرس أشجار البن وتكثيرها [٢] .

وهذا مما جعل بريطانيا التى كانت تتربص بموانى اليمن تتحرك بسرعة وخاصة أن (بالمرستون) رئيس وزراء بريطانيا كان يحقد على محمد على ويتوجس من تحركاته ، ولذلك حذرت الحكومة البريطانية محمد على من البقاء في اليمن أو الاستمرار في التوسع عندما أرسل (بالمرستون) رسالة الى محمد على تبلغه أن الحكومة البريطانية يسرها أن ترى القوات المصرية تغادر اليمن ليتفوغ محمد على لإنشاء نظام إدارى ممتاز في المنطقة التى يحكمها فعلاً بدلاً من تكريس جهوده في الحملات التوسعية في المناطق المجاورة [٣] .

وكانت بريطانيا قد قامت بتحركات في البحر الأحمر وخاصة بعد قلقها من فتوحات محمد على في الجزيرة العربية بدراسة سواحل البحر الأحمر

---

[١] المرجع السابق ص١٠٤-١٠٥ .

[٢] د . فاروق أباظة ، المرجع السابق ، ص١١٧ ، ١٢٦ .

[٣] د . فاروق أباظة ، المرجع السابق ، ص١١٧ ، ١٢٦ .

والساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ولبعض الجزر القريبة المنتشرة في البحر العربي والمحيط الهندى تمهيداً لبسط سيطرتها على مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، ومن بين هذه الجزر جزيرة سقطرة التى تتحكم في مدخل خليج عدن مبتعد عن عدن بمسافة ٥٠٠ ميل من ناحية الجنوب الغربي وهى هامة لمن يريد التحكم في مدخل البحر الأحمر .

وكان امتداد نفوذ محمد على الى بلاد اليمن قد وجه بريطانيا لبذل كل جهودها على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر واحتلال عدن والمنطقة المحيطة بها بما عرف بعد ذلك باليمن الجنوبي .

وتمكنت بريطانيا من عقد معاهدة مع حاكم (مخا) في ١٥ يناير سنة ١٨٢١م التى تم بموجبها تحديد الرسوم الجمركية على التجارة البريطانية وتأمين حماية البريطانيين في الموانئ اليمنية [1] واعتقد الباب العالى ومصر أن هذه العمليات ما هي إلا مقدمة لفتح الطريق الى صنعاء والسيطرة على اليمن .

وفي ١٩ من يناير ١٨٣٩م تقدمت بريطانيا لاحتلال عدن بسبب عوامل استراتيجية ومصالح اقتصادية تخص بريطانيا ، وخوفها من هيمنة محمد علي على طريق مواصلاتها الى الهند بعد ظهور قواته في الخليج العربي والبحر الأحمر . الأمر الذي تطلب منها البحث عن مركز يمكنها من التصدى له ووضع حد لتطلعاته وخاصة بعد أن توغل في أملاك الدولة العثمانية في الشام والأناضول ، وأنها اهتدت الى أن عدن هى أنسب موقع لتحقيق هدفها .

ويمكننا أن نشير الى الاخراج البريطانى لأسباب واهية أخرى عادة تتعلل بها بريطانيا وغيرها من الدول الاستعمارية فقد ذكرت بريطانيا أن سبب الاحتلال كان إثر حادث طفيف جرى بين بعض الرعايا البريطانيين التابعين

---

[1] فاروق أباظة ، عدن ، ص١٠٨ .

لشركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت قد اتفقت قبل ذلك مع سلطان عدن " أحمد عبد الكريم العبدلي " على إقامة محطة للوقود في خليج عدن على طريق الهند سنة ١٨٠٢م وبين رعايا السلطان " محسن بن فضل العبدلي " وقد انتهز البريطانيون فرصة هذا الخلاف واحتلوا ميناء عدن وساعدته قوات من صنعاء لم يجد بداً من قبول قوات الاحتلال بعد عدة معارك كانت الغلبة فيها لقوات الاحتلال الإنجليزى .

وهكذا ضاعت منطقة عدن الاستراتيجية الهامة من العرب وسيطر عليها الانجليز وقامت بريطانيا بنقل كثير من عملائها ورجالها الهنود وعلى الأخص من طائفة البهرة ومن الصوماليين واسكنتهم في منطقة عدن وما حولها وسيطرت على جزيرة (كمران) في البحر الأحمر وجزيرة (بريم) في مضيق باب المندب و (سقطرة) في مدخل خليج عدن بالمحيط الهادى .

وكانت أول معاهدة تعقدها بريطانيا مع سلاطين الجنوب بعد احتلالها لعدن تلك المعاهدة التي عقدتها سنة ١٨٤١(١٢٥٥هـ) مع سلطان (لحج) " محسن بن فضل العبدلي " وأخذوا يستخدمون سياسة فرق تسد وانتهجوا طريقة تمزيق الجنوب الى عدة إمارات ومشيخات بغية جذب أعيان البلاد واستمالتهم واحداً بعد الآخر لتوقيع اتفاقيات الحماية البريطانية مقابل دراهم معدودة تصرف للمشايخ شهرياً من خزانة عدن على مرأى ومسمع من أفراد الشعب المغلوب على أمره [1] .

وكانت تنص معاهدة سنة ١٨٤١م مع السلطان " محسن العبدلى " تنص على تخويل البريطانيين نفوذاً واسعاً في منطقة اليمن مقابل مرتب سنوى قدره

---

[1] أحمد حسين شرف الدين ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٢،٣٨ .

٦٥٠٠ ريال تصرف للسلطان واتباعه مع اعفائه هو وأولاده من العوائد والرسوم عند دخولهم عدن أو خروجهم منها .

وهكذا توالت الأتفاقيات مع باقي سلاطين مناطق اليمن في (صبيحة) و (العقارب) و (الحواشب) و (العلوي) و (الفضلى) و (العوالق) و (العليا) و (العوالق السفلى والعليا) و (يافع العليا والسفلى) و (الضالع) وغيرها وكلها تنص على فرض الحماية الانجليزية على هؤلاء السلاطين وقبض مرتبات من الحكومة الانجليزية [١] .

وبقيت عدن قاعدة استعمارية لبريطانيا تؤثر في الموقف السياسي والاستراتيجي في العالم العربي .

وحاول العثمانيون فرض الوحدة على اليمن ، واليمنيون كعادتهم يحاولون من جانبهم التخلص من هذه الادارة العثمانية وبخاصة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فأرسلت الدولة العثمانية حملات متتالية الى هذا الاقليم العربي بقيادة (مختار باشا) ثم (أحمد فيضي باشا) ثم (عزت الألباني) وسارت الحملتان الأخيرتان على اليمن في عهد إمام قوي هو الامام " يحيى حميد الدين " سنة ١٩٠٦م وسنة ١٩١٠م [٢] .

المملكة المتوكلية باليمن :

تولى امامة الزيدية باليمن الامام " يحيى " الذى تلقب بلقب (المتوكل على الله) في عام ١٩٠٦م ويعتبر الامام ٨٧ في سلسلة أئمة الزيدية باليمن وبدأ يكافح ضد الدولة العثمانية ، وبايعه العلماء واجتمعت إليه الوفود من بلاد حاشد وحجور والأهنوم وشهادة وسفيان وغيرها ، وقد حاول " حميد الدين "

---

[١] المرجع السابق ، ص٣٩-٥٣ .

[٢] د . جلال يحيى ، العالم العربي الحديث ، ج٢ ص٨٢-٨٣ .

إخراج الأتراك وحاصر صنعاء وغيرها من المراكز التى كانوا يحتلونها واستقرت نيران الحرب بين " حميد الدين " والأتراك وحاصر صنعاء وفتحها ، ثم خرج منها ودخلها الأتراك ، ثم زحف الأتراك على شهادة ، ووقعت بينهم وبين حميد الدين معارك حامية الوطيس انهزم فيها الأتراك واشتد ساعد القبائل اليمنية[١] .

وأخذ اليمنيون في مطاردة التراك الذين فروا الى الأودية تاركين كثيراً من الأسلحة التى غنمها اليمنيون وقد امتلأت البقاع حول شهارة بجثث الأتراك .

وفي سنة ١٣٢٨هت (١٩١٠م) عين الأتراك والياً جديداً على اليمن يسمى محمد على باشا . وأراد معاملة أهل اليمن بقسوة ، فشمر " حميد الدين " عن ساعد الجد وتصدى لحربة وحاصر صنعاء واحتل بعض مراكز الأتراك عنوة.

وظل الحال على ذلك بين مد وجذب بين الأتراك واليمن حتى قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م ودخلتها تركيا مع ألمانيا ضد الحلفاء وهزمت الدولة العثمانية مع ألمانيا سنة ١٩١٨م وسمح الأتراك لحميد الدين بدخول صنعاء فدخلها في صفر سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) فأستقبله العلماء والأعيان ورجال الدولة .

وتطلع الامام حميد الدين الى مد نفوذه الى أطراف اليمن وتهامة وغيرها ، وولى العمال والقضاة في البلاد ، وأمن السبل وأخمد الثورات التى قام بها رجال القبائل وقبض على اليمن بيد من حديد [٢] .

---

[١] عمر رضا كحالة ، العالم الاسلامى ، ج٢ ، ص١٤٣ .

[٢] المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٤٤ .

اليمن في عهد الامام يحيى حميد الدين(١٩٠٤-١٩٤٨م):

منذ أن دخل الامام يحيى صنعاء ومد نفوذه الى جميع أطراف اليمن بعد الحرب العالمية الأولى واليمن يشهد عصراً جديداً ، حيث أعاد بناء الدولة التى أصبحت تنتسب إليه ، وتسمى " الدولة المتوكلية اليمنية " والمتوكلية نسبة الى اللقب الذى أسبغه على نفسه وهو :"المتوكل على الله " .

ولا شك أن اليمن في عصر الامام يحيى بدأ مرحلة جديدة هامة من تاريخه تبدأ بمبايعته بالامامة عقب وفاة والده " الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين " في ربيع الأول سنة ١٣٢٢هـ (يونيو سنة ١٩٠٤م) وتنتهى باغتياله في ربيع الثانى سنة ١٣٦٧هـ (فبراير سنة ١٩٤٨م) .

وقد جاهد الامام يحيى في سبيل الحصول على استقلال اليمن ، وحارب دولة الخلافة العثمانية صاحبة النفوذ في ساحل " تهامة " من بلاد اليمن ، واستطاع أن يحصل على استقلال اليمن عقب الحرب العالمية الأولى في سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) . وتأكد هذا الاستقلال وصودق عليه واعترف به دوليا في سنة ١٣٤١هـ (سنة ١٩٢٣م) في الدورة الثانية لمؤتمر الصلح الذى عقد " بلوزان" لتسوية المسائل التى كانت لم تسوَّ بعد بين الترك والحلفاء [1] .

لكن بقيت اليمن الجنوبى وقاعدته " عدن " في يد الانجليز كقاعدة استعمارية تتحكم بها بريطانيا في مدخل البحر الأحمر وهذا التحكم يؤثر في الموقف السياسى والاستراتيجى العربى ويؤثر في علاقة القوى العربية والاقليمية الواحدة بالأخرى . ويقضى على تدعيم العلاقات بين القوى العربية والاسلامية في منطقة البحر الأحمر .

---

[1] د . محمد عبد الله ماضى ، دولة اليمن الزيدية –نشأتها –تطورها – علاقاتها – مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول سنة ١٩٥٠م ص٣٤-٣٥ .

وعلى الرغم من وجود البريطانيين في عدن إلا أن الامام يحيى بدأ كفاحـــه ضد الدولة العثمانية وهو ما أوجزناه في الفقرة السالفة ونتناوله بالتفصيل فيمـــا يلي :

اعتمد الامام يحيى في نضاله على أن الدولة العثمانية تركـــت الشـــرائع الاسلامية جانبا إبان حكمها لليمن، وكانت تدعى في الماضى أنها دولة الاســـلام الكبرى تحافظ على شرائعه ، لكن الواقع يختلف عن هذا الادعاء ، وتقدم الامام يحيى بطلباته الى الدولة العثمانية سنة ١٩٠٦م والتى تتلخص في ضرورة " تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية الغراء " وعدم تولية أحد من أهـــل الكتـــاب علـــى المسلمين . وترك الامام يتصرف في أمور تعين القضاة وحكام الشرع وعزلهـــم ، ومعاقبة الخائنين والمرتشين وإقامة الحدود الشرعية على مرتكبي الجرائـــم مـــن المسلمين واليهود ، كما أمر الله تعالى بها ، وأجراها رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، ثم أبطلها الموظفون الترك في اليمن ، وكذلك طلب أن يشرف علـــى الأوقاف الاسلامية في اليمن للإنفاق منها على التعليم .

وترك الامام يحيى للدولة العثمانية امر المحافظة على أمن اليمن الخارجى من اعتداء الدول ، كما ترك لها جباية الأموال بواسطة مشايخ البلاد وتحت نظـــارة مأمورى الدولة ، دون أن تكون له علاقة باستلام الأموال الأميرية ، وكذلـــك ترك لها تخصيص الرواتب للحكام والمأمورين . وطلب إعلان العفـــو العـــام في اليمن ، واعترف بسلطان الدولة العثمانية ودعا الله أن يؤيده .[1]

ورفضت الدولة العثمانية مطالب الامام يحيى وشروطه حيث رأى فيـــها انتقاصا لحقوق سيادتها ، ورات أنها تتصادم مع السياسة التى حاولت تطبيقـــها لإدخال وسائل الادارة الحديثة في ولاياتها ، والدخول في زمرة المجتمـــع الأوربى

---

[1] د . جلال يحيى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٨٥ .

الحديث ، وحاولت أن تثبت للامام يحيى أن هذه الادارة الحديثة لا تتعارض مع الشريعة الاسلامية .

وأرسلت الدولة العثمانية الى الامام يحيى وفداً من عشرين عالما من علماء الحجاز يناقشه في مطالبه الاسلامية ، ولكن الامام يحيى شرح لهم أن أجداده لم تكن لهم إرادة سوى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الشريعة ، وتعديل المسائل وإرشاد الجاهل ، وتقريب المؤمنين وإرشاد الظالمين ، ثم شرح ما كان بين والده والموظفين الأتراك الذين كثرت معاصيهم وارتكبوا الشهوات ظاهرا بلا حياء واحتشام ، حتى مضى لسبيله وانتصبنا لذلك المقام ، ولم نقم والله لدرهم ولا لدينار ، وختم قوله بإصراره على موقفه .

وحاول اكتساب علماء الحجاز الى موقفه فقال : " ها نحن نناشدكم الله والاسلام ، هل تجدون ناسخا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر المخوف ؟ أم هل تجدون من محرم للدفاع عن الأموال والأعراض والنفوس والبنين والبنات ؟ أم هل من مانع لقتال من أضاع أركان الاسلام ؟ أم هل من تثريب على من اقتضى الأثر بآيات قرناء القرآن والحجة على الأمة في كل عصر وآوان ؟ الذين أوجب الله محبتهم على كل بنى الانسان ، أم هل من ناسخ لآيات : ومن لم يحكم بما أنزل الله [1] ......" [2] وفشل العلماء في الوصول الى حل مع الامام يحيى .

---

[1] هذه إشارة الى الآيات الكريمة في سورة المائدة في قوله تعالى :

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " آيةرقم ٤٤.

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " آية رقم ٤٥ .

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون " آية رقم ٤٧ .

[2] انظر : أمين سعيد ، اليمن الناشر دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة سنة ١٩٥٩ ، ص٣٠-٣١ ، وانظر : د . جلال يحيى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ص٨٥ -٨٦ .

موقف ثوار الاتحاد والترقى من اليمن سنة ١٩٠٨:

قامت ثورة جماعة الاتحاد والترقى من ضباط الجيش العثماني واستولت على الحكم في سنة ١٩٠٨م من السلطان عبد الحميد وكانت أكثر تشددا في رفض مطالب الامام يحيى ،فقد كان رجال الاتحاد والترقى يريدون توحيد الامبراطورية العثمانية على أسس مركزية في الادارة على أن تصبح جميع الولايات تركية لها نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ، فلا فرق بين العربي والتركي أو الكردى ، ولا فرق بين المسلم والذمى ، ومن هنا وجدت الحكومة الاتحادية أن من واجبها القضاء على مقاومة الامام يحيى .

فأرسلت حملة عسكرية الى اليمن بقيادة عزت باشا الألباني سنة ١٩١٠م ، وشارك في أركان حربها كل من : (عصمت اينونو) و (عزيز على المصرى) و (سليم الجزائرى) لإخضاع اليمن والقضاء على نزعته الانفصالية وعلى روحه في التمسك بالاسلام وتعاليمه .

لكن عاملا جد في توجه رجال الاتحاد والترقى السياسى على الرغم من اصرارهم على ضرورة تطبيق الادارة المدنية في اليمن ، وهذا العامل هو ضرورة احترامهم للروابط الاسلامية وخاصة في الأقاليم الاسلامية التى لا توجد بها أقليات مسيحية مثل اليمن ، فعادوا الى تطبيق سياسة السلطان عبد الحميد الاسلامية ، ومن ثم أخذ ضباط الحملة الأتراك والعرب يتفاوضون مع الامام يحيى ووصلوا معه الى اتفاق .

اتفاق "دعان "سنة ١٩١٠م :

رأى رجال الاتحاد والترقى ضرورة إقامة مفاوضات سلمية مع الامام يحيى للوصول الى حل وسط وصدرت الأوامر الى ضباط الحملة بذلك ، فعقدت جلسات للمفاوضات في "دعان" مع القائد عزت باشا الألباني ،

بمشاركة عصمت إينونو ، وعزيز على المصرى وسليم الجزائرى ، ووصلوا مع الامام يحيى الى اتفاق يحترم بموجبه السيادة العثمانية ، وفي مقابل ذلك اعترفوا باستقلال اليمن داخليا ، وعلى الأخص في مجال تطبيق الشريعة الاسلامية [١] واصبح للامام بموجب هذا الاتفاق حق انتخاب حكام على المذهب الزيدى لأقاليم اليمن وإمارته الداخلية وإنتخاب قضاة من الزيدية بما فيهم أعضاء ومحكمة الاستئناف ورئيسها ، على أن يكون للسلطات العثمانية حق التصديق على هذا الاختيار في النهاية ، كذلك أصبح للامام يحيى حق الاشراف على جميع الشئون الخاصة بالأوقاف والوصايا ، كما أصبح من حقه استلام الهدايا والهبات من الزيدية ، كما نصت اتفاقية " دعان " على ضرورة جباية الأموال الأميرية بحسب الشرع ، وتعهد الامام بدفع عشر حاصلاته للدولة .

وتكاد تكون مواد اتفاقية دعان هى ذات المطالب والشروط التى سبق أن قدمها الامام يحيى الى السلطان العثمانى عبد الحميد سنة ١٩٠٦ عقب دخوله صنعاء ورفضها السلطان من قبل .

ولقد نظمت هذه الاتفاقية علاقة اليمن بالدولة العثمانية حتى خروج تركيا من الحرب العالمية الأولى ، وانسحابها من كل اقاليمها العربية [٢] ، وخلاصة القول أن هذه الاتفاقية اعترفت بمركز الزيدية الخاص باليمن وبمركز الامام يحيى على وجه الخصوص .

اليمن إبان الحرب العالمية الأولى :

ظهرت أهمية اليمن إبان الحرب العالمية الأولى التى اندلعت بين الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وحلفائهما) من جهة وبين(ألمانيا والدولة العثمانية وحلفائهما)

---

(١) محمد عزة دروزة ، نشأة الحركة العربية الحديثة ، بيروت ١٩٤٩م ص ٧٠ .

(٢) د . جلال يحيى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ص ٨٧ .

من جهة أخرى وزادت أهمية اليمن من الناحية الاستراتيجية نظرا لموقعها الجغرافى مطلة على مدخل البحر الأحمر ومشرفة على مضيق باب المندب وقريبة من القرن الافريقى الذى يرتع فيه الاستعمار البريطانى والألمانى والفرنسى والايطالى . وشعرت القيادة التركية وحلفائها الألمان بأهمية هذا الموقع وضرورته في الصراع ، وأنها من الممكن استغلاله في مهاجمة عدن لإخراج الانجليز منها ومن محميات الجنوب والسيطرة على مدخل البحر الأحمر ، وتستطيع تركيا الاتصال بالألمان في مستعمرتهم تنجانيقا في شرق أفريقيا للتعاون معهم في طرد الانجليز من كينيا وزنزبار ومعاونة محمد بن عبد الله الصومالى الثائر ضد البريطانيين ومساعدته على تحرير بلاده .

وكانت منطقة عسير في شمال اليمن تحت حكم (محمد الادريسى) وفي ثورة معلنة على الدولة العثمانية ، وتدخلت إيطاليا في ثورة عسير لصالح الادريسى ، وسبق أن كانت حرب مع الدولة العثمانية بسبب غزوها لليبيا ، وتعاون الادريسى مع إيطاليا واستلم منها الأموال والأسلحة والذخائر وقبل دخول بعثة عسكرية إيطالية الى بلاده لتنظيم وتدريب رجاله وإعدادهم لمحاربة الدولة العثمانية .

لم تتدخل اليمن في هذه الحرب وظلت موالية للدولة العثمانية ومحافظة على روابطها الاسلامية معها ، واستمرت في هذا الموقف طوال مدة الحرب .

وأرسلت تركيا فرقتين عسكريتين الى اليمن ، وحاولت بريطانيا التفاوض مع الامام يحيى لكنه لم يقبل الغدر بالدولة العثمانية كما حصل من الشريف حسين شريف مكة وظل على وفائه بعهوده وجفائه للإنجليز ، بل وقامت قوات الدولة العثمانية بمساعدة الزيدية بالتوغل في منطقة المحميات البريطانية في جنوب اليمن ونجحت في تحرير سلطنة "لحج" ولكنها لم تقو على مهاجمة "عدن" .

لكن ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية منعت مزيداً من الامدادات التركية الى اليمن وخاصة القوة التى كانت بقيادة " خيرى بك " والتى اضطرت الى الرجوع الى الشام بسبب ثورة الشريف . وحرم الإمام يحيى من المدد وقطع خطوط مواصلاته مع الدولة العثمانية ، ولكنه لم يغير موقفه من تركيا وزود رجال الحامية العثمانية في بلاده بما يحتاجون إليه من زاد ، وقدم لهم القروض حين انقطع وصول رواتبهم .

وعندما اضطرت تركيا الى قبول الهدنة بعد هزيمتها مع ألمانيا وخرجت من الحرب مستسلمة بلا قيد ولا شرط ، طلب القائد الانجليزى في عدن من القائد التركى في اليمن التسليم والخروج برجاله من اليمن واتصل بإمام اليمن وأبلغه ضرورة إجلاء القوات التركية من بلاده ، وحاول الامام يحيى وقائد الأتراك الاتصال بالدولة وإبقاء القوات التركية والادارة التركية في اليمن ، ولكن الانجليز أصروا على ضرورة تسليم الأسلحة والجلاء .

فقرر القائد التركى ترك الأسلحة والذخائر للإمام يحيى واستقل مع جنوده السفن التى نقلته الى مصر . بناء على أوامر صادرة له من حكومة اسلامبول بموجب شروط إنهاء الحرب . لكنه قبل مغادرته أصدر بلاغا للشعب اليمنى مؤثراً للغاية قال فيه :

" نحن مجبورون على التخلى عن اليمن ومفارقة أهلنا المجاهدين الذين اشتركوا معنا في الجهاد منذ أربع سنين ومع أننا كنا على استعداد لبذل أرواحنا ودمائنا في سبيل المحافظة على تربة اليمن المقدسة إلا أننا مضطرون للتقيد بتعهدات حكومة الآستانة وأوامرها ..... وعلى كل فإننا نتمنى ونحن

نغادر اليمن مضطرين لإخواننا في الدين الاتحاد والاتفاق التام ، وأن يقـــاوموا استيلاء الأجانب ، ويصدوهم عن بلادهم ، فيكون ذلك عزاء لنا [١] "

وبعد خروج الأتراك من اليمن أصبح اليمن يقع بين إيطاليـــا في أرتريـا وبريطانيا في جنوب اليمن والسعودية في شماله لكنه كان يتطلع الى منطقة عسير في الشمال وكان بها الشريف الادريسى وكان أمام اليمن يعتبرها جـــزءا مـــن اليمن .

الادريسي وإمام اليمن :

كان يوجد بمنطقة عسير باليمن الامام " محمد بن علـــى الادريســـي " ومنطقة عسير تتكون من تهامة عسير على البحر الأحمر ومن عسير جبال السراة ، وكانت في العصر العثمانى تسمى " لواء عسير " حتى سنة ١٩١٢م ، ويحـــد عسير من نواحى جبال السراة صعدة في الجنوب ، ومن الشمال منطقة " زهران " وحدود عسير من جهة تهامة جنوبا "وادى أبي عريش " وشمالاً " وادى دوقـة " بالقرب من "الليث " ومن الشرق قبائل قحطان القاطنة شرقى صعدة ، ومـــن الغرب البحر الأحمر [٢] .

والامام محمد بن على الادريسي نسبه يتصل بالامام إدريس بن عبـــد الله بن الحسن الذى فرَّ من الحجاز الى المغرب وكون دولة الأدارسة بـــالمغرب وأول من نزل من أسرته بعسير جده أحمد بن إدريس الذى كان متصوفا على طريقتـــه الأحمدية ، والاما محمد بن على تعلم في الأزهر وعاد الى عسير وتـــولى إمـــارة

---

[١] المرجع السابق ، ج٢ ص٩١ .

[٢] خير الدين الزركلى ، شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ، ج٢ ص٥٣١-٥٣٢ نقلا إن الرحلة اليمانية للبركاتى .

عسير [1] وناوأ العثمانيين وبسط سيادته على تهامة من شمال الحديدة الى جنوبي القنفذة وبعض جبال السراة ، وأمدته إيطاليا بأسلحة لأنها كانت في حرب مع الدولة العثمانية في ليبيا منذ عام ١٩١١م حين أغارت على طرابلس وبنغازى ، وعجز متصرف أبها " سليمان شفيق باشا " عن مقاومة الادريس .

وكانت البحرية الانجليزية قد هاجمت ميناء الحديدة واحتلته قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى وسلمته الى محمد بن علي الادريسي الذى اشترك في الأعمال الحربية الى جانب الحلفاء فحرمت صنعاء من مينائها الطبيعي فكان هذا الحادث حافذا للامام يحيى للاحتكاك بالشريف الادريسى في عسير على الرغم من محاولة الانجليز التقارب مع الامام يحيى وعقد معاهدة صداقة معه فاشترط الامام يحيى على بريطانيا أن تعيد له ثغر الحديدة منفذ صنعاء على البحرالأحمر . ولكن محاولاته باءت بالفشل .

وعقد الادريسي معاهدة صداقة مع الحكومة البريطانية في سنة ١٩١٥م بعد اعلان الحرب وجددت المعاهدة سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧م) واعترفت بريطانيا بسيادته على منطقة عسير من (اللحية) جنوبا الى (القنفذة) شمالا وتعهدت بحمايته من أى تعد خارجي .

ولكن الادريسي وقع بين نارين الشريف حسين من الشمال والامام يحيى من الجنوب ، فالشريف حسين يعتبر عسير جزءا من الحجاز والامام يحيى يعتبرها جزءا من اليمن ويعمل على ضمها إليه أو على الأقل يضم الحديدة ميناء صنعاء

---

[1] الأصل في اطلاق اسم عسير على المنطقة المحددة بعاليه اطلاق اسم " قبيلة عسير " على هذه البلاد الـ[illegible] تسكنها ويقال "بلاد عسير " أو " ديرة عسير " على الرغم من أن المنطقة يسكنها غيرها من القبائل ولكـ[illegible] نظراً لسيطرة قبيلة عسير القحطانية على غيرها غطى اسمها على تلك القبائل .

انظر : فؤاد حمزة ، رحلة الى بلاد عسير .

المطل على البحر الأحمر ، فلجأ الإدريسي الى الملك عبد العزيز بن سعود سلطان نجد لحمايته الى أن توفى سنة ١٩٢٣م .

وبعد وفاة محمد بن على الادريسى خلفه على عسير ابنه على وكان ضعيفا وقام نزاع بينه وبين أخيه الحسن على الامارة فانتهز الامام يحيى الفرصة وزحفت قواته على الحديدة واحتلتها واحتل جزء كبيرا من ساحل عسير ١٩٢٤م .

احتكاك اليمن بالسعودية :

لجأ الحسن الذى بايعه أهل عسير دون أخيه الى الملك عبد العزيز الذى كان قد دخل الحجاز سنة ١٩٢٦م(١٣٤٥)هـ وعقد معه معاهدة في الطائف وضع بمقتضاها ما بقى من مملكة الادريسى تحت حماية عبد العزيز آل سعود ، واحتفظ عبد العزيز بالشئون الخارجية تاركا للحسن إدارة بلاده يساعده في أعماله مندوب سعودى وهذه المعاهدة هي المعروفة بمعاهدة الطائف سنة ١٩٢٦م .

كان من الطبيعى أن يربط الامام يحيى بين الأطماع البريطانية في الجنوب وبين حماية السعوديين للأدارسة ، وخاصة أن الانجليز قاموا بتسوية المشكلات بين السعوديين والعراق وشرقى الأردن وهى مناطق نفوذ بريطانية ، فاتجه الى ايطاليا وهى تنافس بريطانيا في منطقة البحر الأحمر ، وتحكم منطقة أرتريا على الساحل الافريقى المواجه لليمن ، ورأت ايطاليا في ذلك فرصة تساعدها على التحكم في مدخل البحر الأحمر ، وتحكم منطقة أرتريا على الساحل الافريقى المواجه لليمن ، ورأت إيطاليا في ذلك فرصة تساعدها على التحكم في مدخل البحر الأحمر عند باب المندب ، فأسرعت في ارسال حاكم في مدخل البحر الأحمر عند باب المندب ، فأسرعت في ارسال حاكم عام أرتريا مندوباً فوق

العادة الى اليمن في زيارة رسمية [1] في أغسطس ١٩٢٦م فأكرم اليمنيون استقباله .

وتم عقد معاهدة مع الامام يحيى في ٢ من سبتمبر ١٩٢٦ اعترفت فيها ايطاليا باستقلال اليمن وكمال سيادته ، وتعهدت ايطاليا بعدم التدخل في شئون اليمن الداخلية ، وتعهد الطرفان بتسهيل التبادل التجارى ، وجعلت هذه المعاهدة من اليمن منطقة نفوذ اقتصادى لإيطاليا ، وبدأت اليمن في استيراد البضائع والآلات والفنيين من إيطاليا ، وربطت هذه المعاهدة بين البلدين لمدة عشر سنوات ، وكانت أولى المعاهدات الدولية التى اعترفت بمملكة اليمن وأجبرت إيطاليا الانجليز على الاعتراف بهذه المعاهدة .

وزاد شعور بريطانيا بالضيق بعد أن أجبرتها إيطاليا على الاعتراف في شهر يناير ١٩٢٨ بأن اليمن أصبح منطقة نفوذ اقتصادى لإيطاليا لا يزاحمهم فيها مزاحم ، وزادت على اثر ذلك المناوشات بين اليمن وبريطانيا في جنوب اليمن لكنها انتهت بعقد معاهدة في ١١ من فبراير ١٩٤٣ للصداقة اعترفت فيها بريطانيا باستقلال اليمن ، وتعهد فيها الطرفان بالعمل على سيادة السلم بينهما ، وإبقاء الحدود على ما هى عليه حتى تتم مفاوضات بشأنها ونصت على سريان المعاهدة لمدة (٤٠ عاما) ولا شك أن الامام يحيى وقع هذه المعاهدة لكى يتفرغ للأطماع السعودية في شمال اليمن .

الغزو السعودى لشمال اليمن :

أبلغ عبد العزيز بن سعود الامام يحيى بالمعاهدة التى تم عقدها مع الحسن الادريسى فأصيب الامام يحيى بصدمة لأنه كان يعتبر أن منطقة عسير جزءا لا يتجزأ من اليمن التاريخى (جيزان – ونجران – وأبها – وبلاد غامد – وزهران)

---

[1] د . جلال يحيى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ص٩٢-٩٣ .

وكلهم من العرب القحطانيين ، وتألم الامام يحيى من قبول ابن سعود وضع الادارسة تحت حمايته بعد الدور الخياني الذى لعبوه ضد دولة الخلافة الاسلامية أثناء الحرب العالمية . ويذكر الدكتور جلال يحيى أن الملك عبد العزيز في هذه الفترة " بدأ يحسب للسياسة وشئون الحكم حسابها ، مقللا بذلك من قيمة عامل الاخلاص المطلق للمبادئ الاسلامية خاصة وأن وضعية القوى الاسلامية كانت قد تغيرت من الناحية السياسية بعد الحرب " [1] .

فأرسل عبد العزيز الى الامام يحيى وفدا لمحاولة الوصول الى تسوية ولكن وجهات النظر كانت متباعدة بين الطرفين حيث أصر اليمنيون على أن اقليم عسير جزء من بلادهم وأنه ليس للإدريسى أى حق فيه ولا لأى حكومة حق السيادة عليه ، بينما أصر السعوديون على أن اقليم العسير لا يدخل في نطاق اليمن وانتقل من الأدراسة الى السيادة السعودية وطالبوا اليمن بالاعتراف بهذه السيادة ففشلت المفاوضات .

وعلى الرغم من أن الطرفان توصلا في ديسمبر من عام ١٩٣٠م الى اتفاق على حسن الجوار وتسليم المجرمين السياسيين وغيرهم من الطرفين ، ولكن الأمور تطورت بسبب لجوء أحد الذين هاجموا السعوديين في الحجاز (وهو ابن رفادة) الى اليمن وأعلن بعض الأدارسة الثورة على السعوديين ولجأوا الى اليمن ، وطلبهم عبد العزيز فرفض الامام يحيى تسليمهم وقال بأنه سيحدد اقامتهم ويمنعهم من أى نشاط ضد السعوديين .

فرد عبد العزيز على الامام يحيى بإلغاء إمارة الأدارسة وضمها الى مملكته واقترح تثبيت الحدود بين البلدين على ما هى عليه ، وظلت الأمور بين شد وجذب بين الطرفين وتمسك كل من الطرفين بموقفه واستحال الوصول الى حل

---

[1] المرجع السابق ، ج٢ ص٩٥ .

مرض لكلاهما . ولجأ الملك عبد العزيز الى اعلان الحرب سنة ١٩٣٤ في ٢٢ من مارس وكانت الغلبة للسعوديين ولم تتدخل الدول الأوربية [١] وكانت القيادة في هذه الحرب لفيصل بن عبد العزيز في تهامة وسعود بن عبد العزيز في جبال السراة وتوغلت قواتهما في أراضي اليمن حتى استولت على الحديدة من اليمن [٢] وانهار جيش الامام يحيى في أقل من شهر فأبرق الى مصر يستنجد بها فاعتذرت مصر . فلجأ الى عبد العزيز يطلب الصلح وتقدم وفد الى الملك عبد العزيز يطلب الوساطة لحل النزاع كان منهم الأمير شكيب ارسلان والحاج أمين الحسيني والسيد هاشم الأتاسي ومحمد على علوبة ونزلوا ضيوفا على الملك عبد العزيز في الطائف ، وأرسل الامام يحيى الى الملك عبد العزيز رسالة يقول له فيها:

" يكفي ما قد كان ونعوذ بالله من شرور المتربصين بالاسلام الدوائر لتحقيق مطامعهم " ووافق الملكان على التفاوض على أساس انسحاب الجنود اليمنية من منطقة نجران واعادة اللاجئين والأدارسة الى السعوديين ، وبدأت المفاوضات بين الطرفين في حضور وفد المؤتمر الاسلامي وانتهت بعقد معاهدة الطائف .

معاهدة الطائف :

في ١٢ من يونيو ١٩٣٤ (المحرم ١٣٥٣هـ) تم عقد معاهدة الطائف بين الطرفين وهي تتكون من ٢٣مادة وعهد تحكيم وثلاث رسائل متبادلة [٣] .

---

[١] كانت قوات أيطاليا وبريطانيا وفرنسا لا ترغب في أن تصل قوات عبد العزيز الى مدخل البحر الأحمر ، انظر محمد رفعت ، التوجيه السياسى للفكرة العربية الحديثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص٣١٤.

[٢] خير الدين الزركلى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ص٦٠٣ .

[٣] خير الدين الزركلى ، المرجع السابق ، ج٢ ص٦٠٥ .

تتلخص في رغبة الطرفين في انهاء حالة الحرب بينهما وجمع كلمة الأمة الاسلامية وتأسيس علاقات حسن جوار وعدم اعتداء وتثبيت الحدود بينهما واعترفت السعودية باستقلال اليمن ودعمت سلطتها في اقليم عسير ، وأمر عبد العزيز بالجلاء عن جميع الأراضى التى كانت لليمن واحتلتها جيوشه .

وفي العام التالى قامت لجنة مشتركة وضعت الحدود بين الدولتين [1] ولكن زاد تعاون اليمن مع ايطاليا ، وفي المقابل زاد تعاون بريطانيا مع السعودية الى أن اتفق الطرفان ايطاليا وبريطانيا سنة ١٩٣٨ بعدم التدخل في كل من اليمن والسعودية وهو الاتفاق المعروف باتفاق الجنتلمان ، على أن معاهدة الجنتلمان لم تعمر طويلا حيث قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ ، والتزم اليمن الحياد ، ولكن ميول الامام يحيى كميول معظم حكام العرب في ذلك الوقت كانت الى جانب دول المحور .

دخول الجامعة العربية :

وإبان الحرب العالمية دعت مصر الدول العربية المستقلة في عام ١٩٤٤م لإقامة جامعة للدول العربية فاشترك اليمن في مفاوضات الاسكندرية بعد طول عزله وخوف من الاحتكاك بالخارج ، وظهر من اليمن ترحيب بفكرة التعاون مع البلاد العربية الشقيقة ولكن على اساس احتفاظ كل دولة بكامل سيادتها ، وأصر مندوب اليمن على ضرورة كون التعاون قائما على أساس المساواة بين كل الدول العربية لا فرق بين كبير وصغير ، وكأنها مساواة بين القادة .

---

[1] محمد رفعت ، مرجع سبق ذكره ، ص٣١٥ .

ولكن اليمن كان متحمسا للتعاون في المجال العسكرى الى أبعد حد وبذلك زاد على السعودية في هذا المجال ، وفي المجال السياسى إبتعد كل البعد عن فكرة الوحدة العربية [1] .

فلما اتفق ملوك العرب ورؤساؤهم على ميثاق الجامعة العربية في ٢٢ مارس ١٩٤٥م وعرف امام اليمن أن السعودية قبلته حين ذلك صادق عليه مع زملائه العرب .[2]

ثورة اليمن عام ١٩٤٨م :

في عام ١٩٤٨ كان الامام يحيى قد بلغ الثمانين من عمره واصبح مثقلا بالأمراض واصيب بالشلل وكان اليمنيون قد ضاقوا زرعا بحكم الأئمة وذلك لأنهم كانوا يضربون القبائل ببعضها ، ويتخلصون من الشخصيات والعائلات الكبيرة ، ويأخذون ابناءهم رهائن في قصور الأئمة ، ويتخلصون من الشخصيات والقيادات الفكرية الذين ينبهون الشعب بحقوقه .[3]

فقامت ثورة فبراير عام ١٩٤٨ على يد وزير الدولة عبد الله الوزير ، وكان ينتسب الى أسرة عريقة سبق لها حكم البلاد ، وكانت قد ذاعت اشاعة بموت الامام يحيى ، فسارع عبد الله الوزير وقتل الامام يحيى واثنين من أبنائه وبعض أعوانه ، وكانت الجاليات اليمنية في مصر والهند وأندونيسيا وسنغافورة وشرقى إفريقيا هى المحركة لهذا الانقلاب للقضاء على الأوضاع البالية في اليمن والتى عانى منها الشعب اليمنى منذ العصور الوسطى .

---

[1] د . جلال يحيى ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ص١١٤ .

[2] محمد رفعت ، مرجع سبق ذكره ، ص٣١٧ .

[3] د . رافت الشيخ ، تاريخ العرب المعاصر ، ص١٩٦ .

لكن كان أكبر معارض للثوار هو الملك عبد العزيز بن سعود الذى حافظ على عهده مع الامام يحيى وأعلن معارضته للثورة ، وسارع بمد الأمير أحمد بن يحيى بعونه ، وكاد يرسل قواته الى اليمن لولا أن وصلته الأنباء بأن الأمير أحمد سيف الاسلام قد تحرك من مقره في "تعز" واستمال إليه بعض القبائل المجاورة لصنعاء ضد الثوار فانضموا إليه وتحرك قاصداً صنعاء وقضى على الثوار وقبض على عبد الله الوزير وأعدمه هو وأنصاره ونودى بالأمير أحمد اماما على اليمن واعترفت به الدول العربية وجامعة الدول العربية .

عصر الامام أحمد بن يحيى ١٩٤٨-١٩٦٢م:

عندما تولى الامام أحمد لمس الحاجة الملحة الى اصلاح البلاد ، فأقام مطبعة ومحطة للراديو ومصنعاً للغزل ، واستقبل بعثة فرنسية من المهندسين لإقامة مرافئ جديدة للموانى ، وقامت حركة ثورية في البلاد بزعامة أحد إخوة الامام أحمد وهو عبد الله ، وكان يمثل الامام في الأمم المتحدة وعلى جانب غير قليل من الخبرة والاستنارة ، وتحرك الامام بسرعة فائقة فقضى على الثورة وراح ضحيتها أخ الامام ومن معه من الثوار .

ولما قامت الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨م كان اليمن أول ملبٍ لها ولدعوة التضامن العربى وتأليف اتحاد يجمع بين الدول العربية باسم " الدول العربية المتحدة " وأوفد ولى عهده الأمير بدر الى القاهرة ووقع وثيقة الاتحاد مع جمال عبد الناصر مع احتفاظ كل دولة بشخصيتها وبنظام حكمها ويكون لمواطنى دول الاتحاد الحق في العمل وتولى الوظائف في دول الاتحاد دون تفرقة ، وتتبع الدول سياسة خارجية واحدة .

الإمامة الزيدية في اليمن :

يعتبر الامام الهادى (يحيى بن الحسين بن القاسم) الذى يتصـــل نسـبه بالحسن بن على بن أبي طالب أول إمام في اليمن كما سـبق أن ذكرنـا وقـد استدعاه بعض أهل اليمن في الشمال ووصل الى صعدة في سنة ٢٨٤هـ حيث بويع إماماً وكانت عاصمته (صعده) ومعظم أئمة اليمن من أولاده وعددهـــم تسعة وخمسون إماماً وهم الذين يسمون بالحسنيين وبعضهم القليل ينتسـب الى الحسين .

ويلاحظ على سلطان الأئمة أنه ظل محصوراً في الجهة الشمالية من اليمـن أى في المناطق الجبلية ويمكننا القول أن دولة الأئمة قد ظلت راسخة الأقـدام في المنطقة الشمالية من اليمن منذ قيام الهادى حتى ثورة سنة ١٩٦٢م التى أطاحت بحكم الأئمة في اليمن أى ما يقرب من ١١٠٠ عام ويرجع ذلـك الى سـبب واحد في نظر المؤرخ أحمد حسين شرف الدين الى وجود العـدد الكـافى مـن الهاشميين الذين كانوا يحتمون على أنفسهم وجوب القيـام بالإمامـة بمجـرد إحساس أحدهم بشيء من الأفضلية على الآخر ولم يحدث في الغالب أن مـات إمام ولم يعقبه أمامين أو أكثر كل منهم يرى أنه حقيق بالإمامة ، وهذه الرغبـة أى رغبة الأحقية ، هى التى ساعدت الدولة على الاستمرار والبقاء طيلة هـذه القرون مع ملاحظة ما كانت تجره على البلاد من ويلات التطاحن والصـراع والانقسامات ثم ما خلفته من ضغائن وأحقاد بين القبائل جعلتهم يعيشـون في صراع مستمر [1] .

وقد ظلت مناطق مثل تهامة وحضرموت وتعز مغلقة أمام نفوذ الأئمة على الرغم مما بذلوه من جهد وطاقة في سبيل سياستهم التوسعية باسـتثناء بضـع

---

[1] أحمد حسين شرف الدين ، اليمن عبر التاريخ ، الطبعة الثالثة ١٩٨١م ، ص٢٤٥-٢٤٧ .

سنوات من عصر الإمام شرف الدين حيث سيطرت فيها قواته على تعــز وإب من سنة ٩٤١هـ-٩٤٥هـ ووصلت الى عدن جنوبا والى أبواب زبيد غرباً .

وكما كان للمذهب الزيدى بعض المحاسن التى أشرنا الى بعضها سـابقاً ، فإن المذهب أيضاً كانت له بعض السلبيات فقد كان للسادة هيمنة في اليمـن على ما عداهم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً لدرجة جعلت منهم طبقة ممتـازة لها سيادة وامتيازات معينة على غيرها من الطبقات الأخرى وأبرزت نوعاً مـن الصراع في اليمن بين فئاته المختلفة كانت له مساوئه في المجتمع ، فإذا نظرنـا الى اشتراط النظرية الزيدية أن يكون الامام من نسل النبى صلى الله عليـه وسـلم جعل لطبقة السادة الذين ينطبق عليهم هذا الشرط إمتيازهم من خلال سيطرتهم على المراكز الحساسة في اليمن باستغلالهم للدين ، فكانوا أسمى طبقات اليمـن وأوفرها إحتراماً واعتزازاً فقبضوا على عنان العقائد والميـول ووجـهوا الآراء والنزعات ، وكان إذا صادف اليماني واحداً من هؤلاء السادة مهما صغـرت سنه ورق حاله فإنه يهوى على ركبتيه ويديـه بـالتقبيل ، وكـل الإمـارات والوظائف الهامة في اليمن كانت للسادة بادئ ذى بدء مهما قلـت معرفتـهم وكفايتهم ، وكل صدقات القطر والهدايا والنذور الدينية على الاعياد والمواسم وغيرها من الأوقاف كانت تجبى لهم مهما كثر مالهم وسعد حالهم ، كما كـان هناك تفرقة عنصرية من ناحية الزواج حيث كانت مصاهرة السيد لأحد مـن عامة الشعب ممنوعة والقاعدة أن يصاهر السادة بعضهم بعضاً .

ويأتى بعد السادة في الترتيب الطبقى القضاة أى العلماء وهم مؤهلـون في علوم الدين والشريعة الاسلامية الزيدية وكانوا يقاسمون السـادة في وظـائف الإدارة والقضاة ، وقد زادت قبيل الثورة اليمنية ١٩٦٢م كراهيـة الشـعب للسادة والقضاة باعتبارهم شركاء للسادة في السيطرة على شئون البلاد ، وقد

روى الرحالة العربي أمين الريحاني قصة يرجع تاريخها الى وقت زيارته لليمن في أوائل الثلاثينات من القرن الحالي أن سيدا خلع نعله لجندى ليحمله معه وهم مسافرون وقال الريحاني : " فاقترب الجندى مني وهمس قائلا .... كل الناس في اليمن فقراء ما عدا السادة ، والسيد طماع وكسلان ومتكبر وهذا هو المثل " وأشار الى السيف وهذه هي أعمالهم وأشار الى الحذاء " .

وتلى طبقة السادة وطبقة العلماء من ناحية المكانة الإجتماعية طبقة كبار ملاك الأرض الذين كانوا يسيطرون أيضا على جزء من إحتكار التجارة وكانوا يظهرون الولاء للسادة المتغلبين وكانوا تقليديين في نظرهم وكان الفلاحون الصغار يستمدون مركزهم من اعتمادهم على ملكيتهم البسيطة أما من ليس له أرض في ذلك المجتمع الزراعى فكان في الدرك الأسفل من الناس ، وكان أصحاب الحرف يكونون طوائف مغلقة وراثية .

والانتقال من طبقة الى أخرى يكاد يكون معدوما والى جانب هذه الطبقات توجد جماعات تعيش على هامش الحياة كجماعات " الأخدام " في تهامة وهم خليط من أصل حبشي وزنجي وكانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم ويقومون بالترفيه كالرقص والموسيقى وتلاقى طبقة الأخدام معاملة لا توصف بأنها إنسانية .

أما اليهود اليمنيون فقد هاجر معظمهم الى فلسطين سنة ١٩٥٠م [1] وكانوا حوالى ٧٠ ألف وكانت لهم قرى تبلغ ٣٥٩ قرية (وقاع اليهود) في صنعاء وكانوا يعيشون في جو من التسامح الديني وعندما كان العثمانيون في اليمن حرصوا على إشعارهم بالأمن والطمئنينة واعتبروهم أحد العوامل الاقتصادية الهامة في البلاد وكانوا مهرة في مجال صناعة المعادن والتجارة وسمح

---

[1] أحمد حسين شرف الدين ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٣ .

لهم الأتراك بامتلاك الحدائق والأراضى غير أنهم لم يسمحوا لهم بإقامة المـــدارس والكنائس وإن كانوا سمحوا لهم باقامة بيوت غير مطلية ليقيموا فيها شعائرهم ، وعندما أعاد الأئمة سيطرتهم مرة أخرى على اليمن في أعقاب الحرب العالميـــة الأولى عاد وضع اليهود الى ما كان عليه قبل العثمانيين .

الثورة اليمنية وعهد الجمهورية :

وفي سنة ١٩٥٩ مرض الامام أحمد وذهب الى ايطاليا للاستشفاء فانتـــهز إبنه غيابه وأقام بعض الاصلاحات لكن بعد عودته ألغاها ، ولم يلبث الامـــام أن توفى عام ١٩٦٢ ونودى بالبدر إماماً ، لكن تحرك رئيس أركان الجيش " عبـــد الله السلال " وأعلن الثورة على النظام الامامى الملكى وقام الشعب ينـــاصره ، وأعلن قيام الجمهورية العربية اليمنية ، واعترفت بالدولة الجديدة دول كثيرة في مقدمتها مصر والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية.

ولجأ الامام البدر الى المملكة العربية السعودية وبدأ يشن حرب عصابـــات بمعاونة السعودية والأردن وناصرت بريطانيا حركة الامام المخلوع لأنها كـــانت تخشى أن تتعرض محميات جنوب اليمن لعدوى الثورة ضد بريطانيا [1] .

وتم عقد معاهدة بين حكومة الثورة وبين الجمهورية العربيـــة المتحـــدة (مصر) أخذت مصر على عاتقها حماية الثورة عسكرياً واقتصاديا واجتماعيـــا ، وأرسلت مصر قواتها الى اليمن وتولت مقاومة القوات التى ترسلها الســـعودية والأردن الى اليمن . وتدعمت ثورة اليمن وخرجت القوات المصرية من اليمـــن سنة ١٩٦٨ بعد تضحيات كثيرة كان أهمها النكسة التى أصيبت بها مصر أمـــام إسرائيل عام ١٩٦٧ بسبب غياب غالبية الجيش المصرى باليمن .

---

[1] محمد رفعت ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٢٠-٣٢١ .

وتم جلاء الانجليز عن اليمن الجنوبي في عام ١٩٦٧ ولكنه مني بالنفوذ الشيوعي الذى أثقل كاهله ، ودخل في وحدة مع اليمن الشمالي في عام ١٩٩٠م ونجحت رغم تعثرها بحروب أهلية في سنة ١٩٩٤م ، ويدخل اليمن الآن تجربة الديمقراطية تحت قيادة الرئيس (على عبد الله صالح) (١٩٩٧) في حكومة بائتلاف من الحزبين الرئيسيين : ١-حزب المؤتمر الشعبي العام ٢- وحزب تجمع الاصلاح .

وإذا أردنا أن نوضح الخريطة السياسية المستقبلية لليمن فلابد أن نوضح ما وراء الحزبين الكبيرين السالفين من قوى تؤثر في مسيرة اليمن الحديث .

فحزب المؤتمر الشعبي هو الحزب الأول والحاكم ورئيس الجمهورية ورئيس الحزب هو (على عبد الله صالح) وهو من قبيلة (حاشد) التى هى أقوى القبائل في اليمن وقوته تنبع من الشمال الزيدى .

وحزب (تجمع الاصلاح المحافظ) يقوم على تجمع أربع قوى هى القوة القبلية خصوصاً من قبيلة حاشد ، وقوة التجار ، وقوة الإخوان المسلمين بزعامة الشيخ (عبد الوهاب الآنسى) ، وقوة التيار السلفى بقيادة الشيخ المتشدد (عبد المجيد الزندانى) وهذا الحزب بزعامة رئيسه الشيخ (عبد الله الأحمر) ورئيس البرلمان في اليمن .

تأتى بعد ذلك أحزاب أقل تأثيراً في الخريطة السياسية مثل الحزب الاشتراكى الذى كان يحكم اليمن الجنوبي قبل الوحدة وهزمت فصائله في حرب الوحدة سنة ١٩٩٤م وتواءمت بقاياه مع الوضع الجديد بعد هزيمته ، وحزب البعث ، والحزب الناصرى ، وبعض الأحزاب الاسلامية الصغيرة المعبرة عن الزيدية أو الشوافع ، ولعل مما يعوق حركة اليمن حالياً وجود كثير من التيارات الجهادية المتطرفة التى وجدت من اليمن ملجأ لها بعد مطاردتها في كثير

من البلدان الاسلامية مثل " الأفغان العرب " ، والجيـــش العـــالمى للتحـــالف الاسلامى ، بالإضافة الى التنظيمات اليمنية مثل جيش عدن الاسلامى .

وهذه التيارات المتطرفة قامت بخطف الاجانب في الآونة الأخيرة وعـــدد حالات الأختطاف ٢٠ حالة في النصف الثانى من ســـنة ١٩٩٨م ثم حـــوادث تفجير أنابيب النفط التى تمر في مضارب القبائل من مراكز الانتـــاج الى مـــوانى التصدير الأمر الذى أقلق الدولة وهز هيبتها في الداخل والخـــارج ، في وقـــت كانت فيه الدولة في عزلة إقليمية بسبب أنحيازها للعراق في حرب الخليج الثانية على إثر غزوه للكويت الأمر الذى فرض عليها قطيعة خليجيـــة مـــع وقـــف المساعدات الكثيرة التى كانت تتلقاها من دول مجلس التعاون الخليجى ، وقـــى الله أم العرب ومنبع حضارتهم القديمة شر الانقسام القبلى والمذهبى .[1]

---

[1] صلاح الدين حافظ ، مقال عن اليمن ومستقبله ، الأهرام عدد ٢٧ يناير سنة ١٩٩٩م .

الفصل الثانى

الكويت

الفصل الثانى

الكويت

ظهور الأسر الحاكمة في الخليج :

كان الشاطئ العربى من عمان الى العراق في مطلع العصـــور الحديثـــة يخضع لحياة قبلية مضطربة ليس فيها إستقرار ولا هيمنة لقبيلة على أخرى ، وفي القرنين ١٧،١٨ بدأت تظهر قوى ودماء جديدة في الساحل العربى كاليعاربة في عمان ، وأسرة الصباح في الكويت ، والسعوديون في الأحساء ، وآل خليفة في قطر والبحرين ، والجلاهمة في قطر والقواسم في ساحل عمان .

ويرجع أصل هذه الأسر الى (قبائل العتوب) التى خرجت مـــن نجـد بسبب القحط الذى أصابها وتوجهت الى ساحل الخليج لكى تطل منه على العالم الخارجى علها تجد سبيلا الى الرزق فاستقر اليعاربة في عمان وقد عرفنـــا مـــن شأنهم كثيرا عند حديثنا عن عمان ، وأستقر آل الصبـــاح في الكويـــت ، وآل خليفة في قطر والبحرين ، والجلاهمة في قطر [1] وبـــنى كعـــب في عربســـتان والقواسم وبنى ياس في ساحل عمان .

وبذلك تكونت إمارات الكويت وقطـــر والبحريـــن وســـلطنة نجـد والأحساء . وعربستان في الساحل الايرانى . وإمارات ساحل عمان في أبو ظـبى ودبى والشارقة وغيرها .

وعمان هى الدولة الوحيدة في الخليج التى لها امتداد حتى قبل ظـــهور الاسلام ، وهى دولة محورية في مدخل الخليج العربى تواجه إيران وتطل على بحر

---

[1] د . صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج ، ص٥٦ ، ٥٧ .

العرب فلها صلات بالهند وباكستان وأفريقيا ، وشرق آسيا فمن هنا كانت ومازالت لها أهمية استراتيجية في المنطقة العربية ، ولها سياستها التي تنفرد بها عن غيرها من دول الخليج . على الرغم من وجودها في عضوية مجلس تعاون الخليج مع السعودية والكويت وقطر والبحرين والامارات العربية المتحدة .

ونتناول فيما يلي تاريخ كل إمارة من إمارات الخليج العربي مبتدئين أولا بإمارة الكويت تحت زعامة أسرة الصباح :

لم يرد ذكر الكويت في تاريخ العرب في صدر الاسلام وفي التاريخ الوسيط ، وحين قدم البرتغاليون الى ساحلها في القرن السادس عشر الميلادى ، لم يرد لها ذكر في وثائقهم ؛ مما يدل على أنها لم تكن موجودة بعد .

والكويت تصغير (كُوت) ، والكُوت كلمة عراقية تطلق عادة على جملة من بيوت الفلاحين المتجاورة المعدة لخزن الزاد والمتاع والوقود ، ويقال إن الكلمة تطلق عند العراقيين على البيت المربع المبنى كالقلعة والحصن ، ثم يبنى حوله بيوت صغيرة بالنسبة إليه ، ويكون هذا البناء عادة على الشاطئ ليتخذ (فُرْضَة) أو ميناء للبواخر والسفن ومنه في العراق (كوت العمارة) على نهر دجلة[1] .

وفي دائرة المعارف الاسلامية أن (الكُوت) كلمة هندية معناها القلعة [2] وسميت إمارة الكويت بهذا الاسم ، لوجود حصن صغير كان قائما مكان بقعتها وقد بناه في أواخر القرن الحادى عشر الهجرى (محمد بن عريعر) زعيم بنى خالد

---

[1] د . حسن سليمان ، الكويت ماضيها وحاضرها ، نشر المكتبة الأهلية ، بغداد ١٩٦٨م ص٧-٨ .

[2] بلدان الخلافة الشرقية ، كي لسترنج ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، نشر مؤسسة الرسالة بيروت ، ١٩٨٥ ، ص٥٧ .

، وجعله مستودعا للذخيرة والزاد ، ولما قدم آل الصباح لهذه المنطقة منحه لهم ابن عريعر ، فاتخذوه نقطة ابتداء لإنشاء الكويت [١] .

ويروى الشيخ عبد الله السالم الصباح حاكم الكويت في الفترة من (١٩٥٠-١٩٦٥م) أنه في نهاية العقد الأول من القرن الثامن عشر (١٧١٠م) دفع قحط دائم أسرة الصباح - وكانت ذات نفوذ كبير في قبيلة عنزة بأسرها التي يرجع أصلها الى بكر بن وائل من قبائل ربيعة ، وآل الصباح عشيرة من فرع من فروع قبيلة عنزة يسمى (الشملان) - دفعهم الى الهجرة من وسط نجد بحثا عن موطن أيسر عيشا ، وصحبتها أسرة آل خليفة وتحركوا في البداية نحو الجنوب الى وادى الدواسر ، ولكنهم وجدوه أقسى حالا من نجد ، فرجعوا الى (الزبارة) في شبه جزيرة قطر على الخليج العربي ، ومعهم أسر أخرى عريقة ... وحين وجدوا الأحوال في قطر غير حسنة ، تحركوا بماشيتهم ومتاعهم الى موقع ناء ، هو موقع الكويت الحالية .

وحاولوا تأمين مقامهم لدى الأتراك الذين كانت لهم السيادة في البصرة والسيطرة على مناطق الخليج فبعثوا (الشيخ الصباح) الى الباشا التركى رسولا يبين له أنهم فقراء نزحوا في طلب العيش ولا يبغون ضراً لأحد ، فنجح في سفارته وسمح لهم الباشا التركى في الاقامة .

وهكذا أسست الكويت في بداية القرن الثامن عشر من قبيلة بنى عتبه الذين تزعمتهم أسرة الصباح ونمت نموا واضحا في السنوات الخمسين الأولى من حياتها [٢] .

---

[١] د . حسن سليمان ، المرجع السابق ، ص٨ .

[٢] د . سيد نوفل ، مرجع سابق ، ص١٦٥ .

ويعتبر موقع الكويت البوابة الشمالية الشرقية لشبه الجزيرة العربية ولجنوب العراق ويجعلها هذا الموقع تسيطر على تجارة المرور في هذه المنطقة ، كما جعلها الموقع قطراً بحرياً تعتمد في حياتها على التجارة البحرية وصيد الأسماك واللؤلؤ من الخليج قبل اكتشاف النفط .

وكان في صحبة آل الصباح في بداية نزولهم بالكويت آل خليفة والجلاهمة ، وبعد أن أتخذت القبائل الثلاث الكويت موطنا لها ، اتفقوا عام ١٧١٦م فيما بينهم على أن يتولى آل الصباح شئون الحكم ، وآل خليفة التجارة ، والجلاهمة العمل في البحر ، على أن يقتسم الجميع الأرباح بينهم بالتساوى .

وبعد مضى خمسين سنة على الاتفاق أى سنة ١٧٦٦م رأى آل خليفة أن ينفصلوا عن الحلف فصرحوا لآل الصباح بأنهم ينوون الهجرة الى (الزُّبَارة) للاستقلال بها وحكم البحرين [١] وتخلص آل الصباح بعد ذلك من الجلاهمة ، فامتنعوا عن مقاسمتهم الوارد وطردوهم من الكويت فلجأوا الى آل خليفة في (الزُّبَارة) فأجروا لهم من الرواتب ما يتناسب مع مركزهم [٢] .

واستقل آل الصباح بحكم الكويت وحدهم ، وكان أول حكامهم هو الشيخ (صباح الأول) الذى حكم في الفترة من سنة ١١٣٠هـ-١١٩٠هـ (١٧١٨-١٧٧٦م) وقد مكث في الإمارة مدة طويلة مكنته من تأسيس حكم قوى لأسرة الصباح . وفي الخمسين سنة الأولى من تأسيسها نمت الكويت نموا سريعا في السكان وفي الثروة وفي الأهمية ، وزاد في تقدم الكويت وعمرانها استيلاء الفرس على البصرة سنة ١٧٧٦م فهاجر الكثيرون من سكانها الى

---

[١] حافظ وهبة ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٣٥م ، ص٩٥-٩٦ .

[٢] حسن سليمان ، مرجع سبق ذكره ، ص١٥١-١٥٢ .

الكويت وتحولوا الى مينائها التجارى وبدأت تشارك موانئ الخليج في التجارة ، وأخذت سفنهم تحمل التجارة من الهند الى البصرة وغيرها من موانئ الخليج .

وهذا ما دفع الكويت في عهد الشيخ عبد الله بن صباح ١١٩٠-١٢٢٩هـ(١٧٧٦-١٨١٤م) الى التسلح حتى بات أسطولها التجارى على جانب كبير من القوة للدفاع عن تجارتهم ولعل هذه القوة هى التى منعت الإيرانيين من التفكير في احتلال الكويت بعد احتلالهم للبصرة عام ١٧٧٦م وكان عهد الشيخ عبد الله عهد رخاء ، وقد ساعد هذا الرخاء ، وهذا الأسطول القوى الذى امتلكته الكويت في عهده على صد كل من كانت تسول له نفسه التفكير في غزو الكويت .

وفي هذا الوقت حاول السعوديون غزو الكويت والاستيلاء عليها ففشلوا في كل محاولاتهم [١] .

وعندما وصل المصريون الى شواطئ الخليج العربى بعد فتحهم للحجاز (١٨٣٨م) وضعوا مندوبا لهم في الكويت وكانت وظيفته سياسية في عهد الشيخ جابر بن عبد الله (١٢٢٩-١٢٧٦هـ=١٨١٤-١٨٥٩م) [٢] وتنحصر مهمة المندوب المصرى في تسهيل مرور القوافل والسفن المصرية التى تدعو الحاجة مرورها بالكويت [٣] .

علاقات الدولة العثمانية وبريطانيا بالكويت:

في سنة ١٧٧٦م بدأت علاقات بريطانيا بالكويت عندما اضطرت بريطانيا بعد استيلاء الفرس على البصرة الى تحويل بريدها البرى الى الكويت

---

[١] حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص٩٦ .

[٢] المرجع السابق ، ص٩٧ .

[٣] حسن سليمان ، ص١٦١ .

وتحولت السفن الانجليزية القادمة الى الخليج العربي حاملة البضائع كـــي تنقـــل منها براً الى بغداد ودمشق وحلب وغيرها ، وصـــارت البضـــائع تـــرد الى الكويت من مسقط والهند والبحرين وغيرها من موانئ الخليج والشرق .

وهذه الحركة التجارية أثارت غيرة السلطات التركية وتجددت مخاوفهم من أن يكون تقدم ميناء الكويت سببا في نقص أهمية ميناء البصرة ، ومن هنـــا بدأت المناوأة التركية لآل الصباح وحاول الأتراك إثبات سلطانهم في الكويـــت ففي سنة ١٨٦٩م تم افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية مما يسر للأســطول التركي العبور الى البحر الأحمر والخليج العربي ففكرت تركيا في بسط نفوذهـــا على شرقي الجزيرة العربية وفي هذه السنة تولى (مدحت باشا) ولاية بغداد عام من ١٨٦٩-١٨٧٢م لذلك رسم خطة الاستيلاء على الكويـــت والبحريـــن وقطر والحلول محل الدولة السعودية في نجد والأحساء .

وفي ١٨٧٠م استصدر مدحت باشا فرماناً بإعلان الكويت سنجقا تابعا لمتصرفية الأحساء ، ومنح شيخ الكويت لقب قائمقام دون دفع رسوم للبـــاب العالي ، وترفع سفن الكويت العلم التركي ، وفي سنة ١٨٧١م رفعت الحكومة العثمانية مدينة البصرة من متصرفية الى ولاية مستقلة عن بغداد ، وأصبحـــت تضم سنجق الكويت ومتصرفية الأحساء .[١]

وفي سنة ١٨٩٦م أصبح الشيخ (مبارك الصباح) حاكمـــا للكويـــت وحاول أن يحافظ على علاقاته بالدولة العثمانية .

وحاول الشيخ مبارك الحصول على الاستقلال الذاتـــي مـــن الدولـــة العثمانية فرفضت طلبه ، فتوجه الى بريطانيا يطلب حمايتها إتقاء للتبعية للأتـــراك ، لكن الحكومة البريطانية أهملته في البداية ، ولكن عندما حاول الأتراك في ســنة

---

[١] حسن سليمان ، ص١٩٧-١٩٩ .

١٨٩٨م الاستيلاء على الكويت ونفى الشيخ مبارك الى إستانبول على احدى السفن بحجة تعيينه عضوا في مجلس شورى الدولة إلتجأ الى الانجليز فأنقذوه من الأتراك ، وأعلنوا في تلك السنة حمايتهم على الكويت ووقع الشيخ في سنة ١٨٩٩م اتفاقا مع بريطانيا يلتزم فيه بعدم التصرف في أى جزء من أرضه ولا يستقبل أى وكيل لبلد آخر دون موافقة بريطانيا . [١] ووافق في سنة ١٩٠٠م على عدم استيراد الأسلحة أو تصديرها ، وفي سنة ١٩٠٤م وافق الشيخ مبارك على إنشاء مكتب بريد لبريطانيا في الكويت مع عدم السماح لأى حكومة أخرى بإنشاء مكتب بريد لها في الكويت .

وفي سنة ١٩١٣م رحب مبارك بإيفاد من يبحث عن البترول في الكويت ، وقرر أنه لن يمنح الامتياز في هذا الشأن الى أى شخص سوى من تعينه الحكومة البريطانية .

وهذه كلها منح من حاكم الكويت لا تقابلها التزامات من الجانب البريطاني ، ويلاحظ فيها إبعاد تركيا عن الكويت وغيرها من الدول ، وعلى الأخص روسيا التى كانت تحاول أن تصل الى الخليج وكذلك ألمانيا .[٢]

وقد ذكر حافظ وهبة أن الشيخ مبارك أخبره بتلك القصة وذكر له قصر نظر الأتراك وسعيهم الدائم لإضعاف العرب مما اضطر هؤلاء الى الالتجاء الى الدول الأجنبية ، غير أن بريطانيا اضطرت الى اعلان الحماية على الكويت إبعادا لكل نفوذ أجنبى على الكويت [٣] .

---

[١] سيد نوفل ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦٧ .

[٢] د . سيد نوفل ، المرجع السابق ، ص١٨٢-١٨٤ .

[٣] حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص٩٩-١٠٠ .

حماية بريطانيا وتبعية تركية :

في سنة ١٩١٣م تحركت تركيا وعقدت معاهدة مع بريطانيا بموجبها اعترفت تركيا بالمعاهدات والاتفاقات التى عقدت بين بريطانيا وأمير الكويت وبأن الكويت قضاء مستقل في أموره الداخلية ، وتابع للدولة العثمانية وتحت حماية بريطانيا ، على أن يكون للدولة العثمانية ممثل لدى أمير الكويت . [١]

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م ودخلتها تركيا مع ألمانيا ضد الحلفاء وبريطانيا ، أعلنت بريطانيا الحماية على الكويت وقطعت كل صلة بينها وبين تركيا ، وتعهدت الكويت بأن تقوم بهجوم على بعض المواقع التركية في الخليج ، وذلك مثلما فعل الشريف حسين بن على في الحجاز ، هذا على الرغم من ظهور شيء من العطف على تركيا من الشعب الكويتى ، وظهر اتجاه لمساعدة تركيا دولة الخلافة الاسلامية .

وفي مقابل مساعدة الكويت لبريطانيا أثناء الحرب ، تعهدت بريطانيا بتأمين أراضى الكويت وإبعادها عن مطامع تركيا .

نظام الحكم في الكويت :

على الرغم من القيود التى وضعتها بريطانيا على الكويت ، فإنها حاولت أن تمارس وظائفها كدولة في وظائف الحكم الأساسية الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية ، وتوفير الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية لشعبها ، ورعاية الموارد الطبيعية وحسن استغلالها وعلى الأخص البترول .

وكان شيخ الكويت يرأس الدولة ويعين له معاونون من أسرته يشبهون الوزراء ، يتولون إدارة دوائر الحكم المختلفة ، فهناك نائب حاكم الكويت ويتولى قيادة القوات المسلحة ورئاسة الشرطة والأمن العام ، وهناك رئيس

---

(١) سيد نوفل ، ص١٦٩-١٧٠ .

المعارف والمحاكم ورئيس للشئون الاجتماعية والمطبوعات والنشر والتجـــارة ، ورئيس للشئون المالية وشركات البترول ، وآخر للبلدية والأشـــغال ،وغـــيره للصحة ، وكذلك للكهرباء والماء والغاز ، وكذلك للأوقاف والبريد والـــبرق والجمارك .

وهؤلاء الرؤساء مجلس أعلى للكويت شبيه بمجلـــس الـــوزراء يعـــالج الشئون العليا للدولة .[١]

ويلاحظ أن الشئون الخارجية أهملت لأن بريطانيا كان لها الحق فيـــها بموجب الاتفاقات المعقودة مع شيخ الكويت وقد كان هناك منذ سنة ١٩٥٠م سكرتارية لحكومة الكويت تتولى الاتصال بين دار الاعتماد البريطانيـــة وبـــين حاكم الكويت ، وتتولى الاتصال بالدول والمنظمات الخارجية وليس لها الحق في عقد أي اتفاق دون أخذ رأى الحكومة البريطانية وهى نواة لوزارة الخارجيـــة .

أما بالنسبة للقضاء فكان شيخ الكويت هو كبير القضاة وكانت محـاكم الكويت لا تتولى سوى شئون القضاء لأهل الكويت وغيرهم مـــن المســـلمين الخاضعين للقانون الوطنى الاسلامى وحدهم .

أما الأجانب من رعايا الكومنولث البريطاني ورعايا الدول الأجنبية غـــير الاسلامية ، فكان المقيم السياسى البريطاني هو الذى يتولى شئون القضاء بالنسبة لهم . طبقا للقوانين الأجنبية التى وضعتها بريطانيا لمستعمراتها في الخارج .

وفي سنة ١٩٦٠م أصبح للمحاكم الكويتية الحق في ولايـــة القضـــاء بالنسبة لجميع سكان الكويت وطنيين وأجانب [٢] وكانت بريطانيا تجلب كثـــيرا من الهنود الى منطقة الخليج بصفة عامة والى الكويت بصفة خاصة وتشجع على

---

[١] المرجع السابق ، ص١٩٠-١٩٣ .

[٢] المرجع السابق ، ص١٩٣-١٩٤ .

إقامتهم ومنحهم الجنسية أحيانا بينما تحد من العمالة العربيـــة في الخليـــج وفي الكويت . وتساعد على إيجاد العمالة من دول الكومنولث البريطاني بدلا مـــن العمالة العربية ، وفي هذا خطورة على عروبة الخليج وإسلامه .

البترول في الكويت :

كانت الكويت تعتمد في الماضي على التجارة في الخليج وعلى صيـــد اللؤلؤ والاسفنج من مياه الخليج ، ولكن بعد اكتشاف البترول في مطلع هـــذا القرن تغيرت حياة الناس ، ففي عام ١٩٤٦م بدأت الكويـــت بتصديـــر أول شحنة من البترول الى الخارج بحضور المقيم السياسي البريطـــاني في الخليـــج وكبار الأمريكيين والبريطانيين في شركة نفط الكويت .

وأخذ انتاج البترول يزداد حتى أصبحت أكبر البلاد المنتجة للبترول في الشرق الأوسط ، وتأتي بعد السعودية الآن في الانتاج والاحتيـــاطي . ويمتـــاز بترول الكويت بأنه يستخرج على بعد ثلاثة أقدام ونصف قـــدم مـــن سطح الأرض ، ولا تستعمل المضخات في رفعه من الأرض وإنما يتدفق طبيعيا .[1]

وبذلك أحدث البترول انقلابا في حياة الشعب الكويتي من الفقـــر الى الغنى ، فقد توفرت للكويت امكانيات واسعة لقيام نهضة حضاريـــة في شـــتى المجالات الصناعية والعلمية والثقافية والتجارية ورفع مستوى المعيشة للكثير مـــن أفراد الشعب الكويتي .

غير أن ارتفاع مستوى المعيشة لم يشمل كافة المواطنين رغم قلتهم فـــلا يزال هناك كثير منهم يعيشون عيشة بدائية بدوية ، وهذا مـــا لاحظـــه أحـــد الكتاب البريطانيين [2] حين دخل الكويت لأول مـــرة ، فذكـــر أن الدهشـــة

---

[1] المرجع السابق ، ص١٩٩ .

[2] هو رودريك أوين في كتابه : سنة ١٩٥٧ The Goldem Bubble الذى نقل عنه د . سيد نوفل .

أستولت عليه حين رأى في عالم الخليج الغنى رجالا يلبسون الخـــرق الباليـــة . ونساء ملفوفات في السواد ، يعيشون في فقر مدقع ويرعون الماشـــية والغنـــم والماعز .

ويعلق الدكتور سيد نوفل على ذلك بقوله : ولعله كان من تمام حديث هذا الكاتب البريطانى أن يستذكر كذلك ....أن هذه المنطقة من أهم منـــاطق الاسترليني البريطانية ، وأن القسم الأكبر من حصيلـــة البـــترول في الكويـــت المملوكة للحكومة مودع في بنوك بريطانيا باسم مستندات أو قروض ومستغل لرفاهية الشعب البريطانى ومتاعه ، بل قد يستثمر في العدوان على هؤلاء العرب الذين يدريهم ، وعلى إخوان لهم في بقاع أخرى من وطنهم الكبير[1].

ونظرا لثروة الكويت الكبيرة من البترول فقد ظلت محل أطماع جيرانها الأقوياء ، وعلى الأخص العراق وإيران ، أما بالنسبة للعراق فإنه ظل ينظـــر الى الكويت على أنها كانت تابعة له في الماضى عندما كانت سنجقا (أى لواء) تابعـــا لولاية البصرة العراقية ويرغب في ضمها إليه ، إلا أن هذه الرغبة ظلت كامنـــة في عهد الملكية (١٩٢٠-١٩٥٨م) في العراق نظرا لأن الملكية في العراق هـــى من صنع بريطانيا ، ويعرف البيت الهاشمى المالك في العراق أن بريطانيا حليفته لا يمكن أن توافق على هذه الأطماع .

أطماع العراق في الكويت :

وعندما قامت ثورة في العراق سنة ١٩٥٨م وأطاحت بالبيت الهاشمى ، رحبت الكويت ترحيبا شديدا بالثورة ، وافتتح العراق قنصلية له في الكويـــت عند قيام الحكم الجديد ، مشيرا بذلك الى أنه ينوى الاعتراف بالكيان الكويتى ،

---

[1] المرجع السابق ، ص٢٠١-٢٠٢ .

لكن المفاجأة كانت شديدة عندما أعلن (عبد الكريم قاسم) قائد الثورة في ٢٤من يونيو ١٩٦١م المطالبة بضم الكويت .

فاستنجدت الكويت ببريطانيا لحمايتها وذلك طبقا للمعاهدات السابقة بينها وبين الكويت والتى تنص على حمايتها ومنها معاهدة المساعدة المتبادلة مع بريطانيا سنة ١٩٦١م [1] ولكن سرعان ما رحبت الكويت بعرض الجامعة العربية الذى يقضى بحلول قوات عربية مختلطة تحت قيادة سعودية محل القوات البريطانية ، رغم أن الكويت لم تكن بعد عضوا بالجامعة العربية .

وهكذا بدت في ظاهر الأمر وكأنها بعيدة عن النفوذ البريطانى لكن ظلت معاهدة المساعدة المتبادلة تعتبر في نظر حكومة الكويت بمثابة صمام الأمن أثناء إشتداد الحرب الباردة العربية .

وسرعان ما ربطت الكويت مع الولايات المتحدة الأمريكية بروابط قوية وتم تزويد الكويت بأسلحة أمريكية تحسبا لعواقب الأمور المرتقبة .

وعندما سقطت حكومة (عبد الكريم قاسم) سنة ١٩٦٣م اعترف العراق بالكويت ، وهدأ التوتر بين البلدين مؤقتا ، ودفع الكويت ثلاثين مليون دينار للعراق ، ووافق مجلس الأمة الكويتى مبدئيا على مشروع نقل مياه شط العرب الى الكويت ، لكن أزمة عدم الثقة ظلت قائمة بين البلدين ، فلم ينفذ المشروع .

لكن تجددت مشاكل الحدود بين الكويت والعراق في أوائل السبعينيات ، بسبب صراع العراق مع إيران وادعاء العراق بأنه أقدر الدول العربية من الناحية الحضارية والعسكرية للدفاع عن عروبة الخليج في مواجهة الأخطار

---

[1] د . صلاح العقاد ، الاستقرار والعوامل المضادة في الكويت ، مقال في مجلة السياسة الدولية ، عدد (٤٣) في يناير ١٩٧٦م .

الخارجية . ولما كان العراق لا يمتلك سوى مساحة محدودة حيث يطل على الخليج بمساحة ضيقة طولها ٧ أميال غير صالحة للملاحة توجد أمامها جزيرة الفاو العراقية التى تكونت من طمى شط العرب ولذلك يكاد العراق يكون بلا سواحل من طرف الساحل الشمالى للخليج لا تمكنه من إقامة بحرية قوية ، وميناؤه الوحيد هناك هو ميناء (أم قصر) الذى لايستند الى عمق في الداخل ، فقد ألح العراق على ضرورة تعديل الحدود ، وذلك بتفسير الاتفاقات السالفة تفسيرا متمشيا مع المصلحة القومية العربية ، وعلاوة على ذلك فقد طالب بجزيرتى (وربة) و (بوبيان) لتكونا قاعدتين لمناورة الأسطول العراقى ، ويتضح من ذلك أن أهداف العراق استراتيجية قبل أى شيئ آخر .

والعراق منذ عصر الملكية ينظر الى الكويت كإقليم عراقى أخذ منه وسد طريقة الى الخليج ، وكان (نورى السعيد) رئيس وزراء العراق في عهد الملك فيصل الثانى الهاشمى يقول : " إن العراق عندما ينهض سوف يتخلص من السدادة الكويتية التى وضعها الإستعمار لتسد الزجاجة العراقية ، وبذلك يمكن لنا أن نتنفس ويمكن للعملاق العراقى أن يخرج من الزجاجة أو من القمقم كما يقولون " لأن من ينظر الى خريطة العراق والكويت يرى كأن العراق أشبه بالزجاجة والكويت أشبه بسدادة لهذه الزجاجة التى تقع فوهتها على الخليج العربى .

لكن الكويت ذكرت أن المنطقة المتنازع عليها تضم آبار بترول غنية ، ولجأ العراق للضغط على الكويت باحتلال بعض المواقع في مارس ١٩٧٣م (مركز الصامته) أحد المراكز الكويتية على الحدود ، لكن السعودية تدخلت وتم حل الأزمة .[1]

---

[1] المرجع السابق .

وزاد من التوتر إعلان وزير خارجية الكويت أن بلاده لا تتخلى بـــأى شكل من الأشكال على جزيرة (بوبيان) سواء عـــن طريـــق إيجـــار أو منـــح تسهيلات لأنها تقع قرب شاطئ الكويت .

وعقب حرب أكتوبر ١٩٧٣م ارتفعت أسعار البترول فـــزاد دخـــل الكويت ودعت دول المواجهة لتخصيص نسبة من الدخل لدول المواجهة مـــع اسرائيل لا سيما أنها هى التى ضحت وأوجدت الظروف الملائمة لرفـــع ســـعر البترول ومضاعفتة أكثر من ثلاثة أضعاف دفعة واحدة ، فـــرد وزيـــر ماليـــة الكويت بعنف على هذه المطالب قائلا : " ليس لأحد كائنا مـــن كـــان ، أن يفرض علينا إتاوة نلتزم بها ، وإنما تقوم حكومة الكويت بأداء دورها الوطـــنى بالطريقة التى نراها مناسبة .وأدى هذا التصريح الى نتائج سلبية في الأوســـاط العربية.

الحرب العراقية الإيرانية :

عندما قامت الثورة الايرانية سنة ١٩٧٩م تربصت لها أمريكا وبريطانيا ، وخشيت دول الخليج من تأثيرها في دولها ، وتوترت العلاقات بين العـــراق وحكومة الثورة على الرغم أن كلا البلدين عقد اتفاقية في ســـنة ١٩٧٥م في الجزائر وأدت الى تسوية المشاكل بينهما ، لكن العراق انتـــهز حـــل الخميـــنى للجيش الإيرانى واعتماده على مليشيات الثورة الاسلامية وقام العراق بـــالهجوم على الحدود الإيرانية سنة ١٩٨٠م بمباركة أمريكية وغربيـــة وخليجيـــة ، وأعلن العراق الغاء اتفاقية الجزائر من جانب واحد ، وظلت هذه الحرب حـــتى عام ١٩٨٨م فقضت على امكانيات البلدين الاقتصاديـــة ، بجـــانب أن دول الخليج النفطية تحملت كثيرا من نفقات الحرب . وكان ضرب الثورة الإيرانيـــة بيد عربية منسجما مع أهداف الغرب لكى تمنع تحالف العرب مع الفرس ضـــد

أطماع الغرب وتتعمق الكراهية والحقد بين الشعبين الذين كـان باتفاقـهما في الماضي نتج عنه نهضة العالم الاسلامي العلمية وحضارته وقوته .

لكن العراق بعد انتهاء الحرب مع إيران كان يطلب مكافأته على هـذه الحرب الذى خسر فيها كثيرا ، وكان صدام حسين يرى الكويت بمثابة الجـائزة التي سيحصل عليها ، وحاول صدام أن يستثمر انتصاره بعلاقات طيبـة مـع الأمريكان ، ولكن الاعلام الأمريكى لم يمهله ولم يعطه الفرصة ، وبدأ في سـنة ١٩٩٠م يركز على خطورة صدام حسين العسكرية وقوته التي خرج بها بعـد انتصاره على إيران ، واشتركت اسرائيل في الهجوم عليه وبدأت تهدد العـراق بضربة أخرى وقائية ، وكانت قد ضربت المفاعل النووى العراقى إبان حـرب العراق مع إيران سنة ١٩٨١م [١] .

خلاف العراق مع الكويت :

ودخلت العراق مع الكويت في خلاف بسبب حصص النفط واتهمت الكويت بأنه السبب في انخفاض أسعار النفط ، لأنه ينتج أكثر من حصته ويغرق السوق بالبترول وأن ذلك يضر بالعراق ، وتحركت أطماع العراق القديمـة في الكويت ، وتحرشت القوات العراقية بها ، وشاركت السـفيرة الأمريكيـة في إغرائه باحتلال الكويت قائلة : " إن أمريكا لا تتدخل في نزاعات بين العرب ".

احتلال الكويت :

في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠م احتل العراق الكويت وادعى أنها جزء من بلاده ، وأطلق عليها المحافظة رقم ١٩ من بلاده ، وثـار العـرب في الخليج والعالم العربي ، وأهم من ذلك ثارت أمريكا ، ولم تقبل أن يكون في يد صدام حسين ثلث بترول الخليج يتحكم فيه ويهدد الباقي .

---

[١] انظر : للمؤلف ، المسلمون في آسيا الوسطى وإيران ، ص١٦٨-١٨١ .

واستنجدت الكويت بأمريكا ، فأرسلت أمريكا قواتها الى الخليج ومعها قوات انجليزية وفرنسية ثم عربية مصرية وسورية وخليجية ، وبعض الدول الاسلامية ، وظهرت قوة أمريكا في السيطرة على الأمم المتحدة ، بعد ضعف الاتحاد السوفيتي الذى أصبح يستجدى المعونات من أمريكا .

وبدأ العراق يشعر بأنه محاصر بقوى معادية وأغلقت في وجهه كل السبل ، ففكر في اللجوء الى إيران في أزمته ، رغم ما جرى بين البلدين من حرب ، فأعلن (صدام) فجأة استجابة من طرف واحد لكل طلبات إيران ، وبعث الى طهران برسل على مستوى عال ، وأبدى الإيرانيون استعدادهم للتعامل مع الموقف بمرونة ، على الرغم من تحرك أطراف عربية ودولية ضد هذا التقارب ومنها سوريا والكويت ، وأخذت إيران من العراق كل ما كانت تود أن تأخذه ، الأمر الذى جعل الناس يقولون : ولماذا كانت تلك الحرب المهلكة طوال ثماني سنوات ؟

ووقعت الحرب ولم تستفد العراق من هذا التنازل الضخم شيئا ، وتحطمت قوة العراق العسكرية ، وضربت قوات التحالف كل منشآته ، وكاد العراق يمزق الى ثلاث دول : دولة كردية في الشمال ، ودولة شيعية في الجنوب ، وثالثة سنية حول بغداد . لكن الأطراف العربية خشيت من هذه التجزئة وتركيا هى الأخرى خشيت من وجود دولة للأكراد .

وفوجئت السعودية التى كانت تعد لحكومة مؤقتة للعراق ، أعدتها وحرصت على طابعها السنى وكانت المفاجأة قاسية للسعودية التى تخشى الشيعة لأنهم يتمركزون بالدرجة الأولى في شريط يمتد من جنوب العراق الى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ويرى البعض [1] بأنهم قاموا بأدوار بارزة في تاريخ الحركة

---

[1] محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج ، ص٥٧٤ .

القومية العربية ، لكن بعض المؤسسات الرسمية للفكر السنى لم تستطع في كثير من الأحيان تقدير هذا الدور ، وقد راحت هذه المؤسسات تخلط مرات كثيرة مفترضة وجود خلافات أعمق بين المذاهب الاسلامية ، وبدلا من أن تحاول مؤسسات السنة الواثقة من نفسها بحكم أغلبيتها الساحقة في العالم العربى تقريب الخلافات بين المذاهب فإنها – واعية أو غير واعية – راحت تزيد الفجوة غير مدركة أنها بذلك تفتح ثغرات لا داعى لها في الجسم العربى[1] .

وفي مارس عام ١٩٩١م والسعودية لا تخفى سعادتها بما حدث للعراق جاءت يقظتها المفزعة من هذه السعادة بمخاوفها من أن الشيعة على وشك الاستيلاء على السلطة في العراق ، وأن الخطر الشيعى أصبح العدو رقم واحد حتى بعد "صدام حسين" وأنه إذا نجح الشيعة في الجنوب واستولوا على بغداد ، أو إذا أقاموا دولة لهم في الجنوب فقط ، فإن المد الشيعى سوف يصل من هناك الى الكويت والى البحرين ، ويندفع الى المنطقة الشرقية للسعودية ، وبالذات منطقة القطيف وعاصمتها " الظهران " عاصمة البترول السعودى ، وإذن الأمر جد خطير .

ولكن الجيش العراقى ، الذى عاد من معركة الكويت خاسرا يلعق جراحه ، اندفع الى الجنوب الشيعى والشمال الكردى الذى كانت تعد فيه مؤامرة شبيهة بمؤامرة الجنوب ضد العراق ، وجرت معارك شرسة غير متكافئة ، إستطاع فيها الجيش العراقى أن يستعيد السيطرة على الشمال والجنوب ، وتخلت الأطراف الخارجية عن معاونة الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال خوفا من عواقب الأمور المرتقبة ، والنتائج المزعجة من إقامة دولة شيعية في الجنوب أو كردية في الشمال .

---

[1] المرجع السابق ، ص٥٧٤ .

واكتفت الولايات المتحدة الأمركية وحلفائها بتشديد الحصار الاقتصادى والعسكرى على العراق ، وملاحقته بتدمير إمكاناته العسكرية الباقية ، وفرض حصار بترولى عليه ، وفرض مناطق لحذر الطيران في الشمال والجنوب ، بعد أن أصبح مجلس الأمن أداة طيعة في يدها ، وعدم وجود قوة موازية تقف أمام جبروت أمريكا .[١]

وتعدت المسألة من إخراج العراق من الكويت الى فرض هيمنة على منطقة الخليج من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، وتم عقد عدة معاهدات مع دول الخليج للدفاع المشترك وأصبحت هناك قواعد عسكرية ثابتة في المنطقة لأمريكا وبريطانيا مدفوعة الأجر على حساب دول الخليج تهدد سلام المنطقة وتجعل المنطقة على أبواب الحرب كل عدة شهور بسبب ما تقوم به هذه القوات من قصف للعراق يكاد يكون يوميا الآن (١٩٩٩م) .

---

[١] انظر : للمؤلف ، المسلمون في آسيا الوسطى وإيران ، ص١٨٠ .

الفصل الثالث

البحرين

الفصل الثالث

البحرين

إمارة البحرين تتكون من أرخبيل من الجزر في خليج البحرين يحدهـــا شرقا شبه جزيرة قطر ،وغربا منطقة الأحساء التابعة للمملكة العربية السعودية ، ومساحتها ٢١٣ ميلا مربعاً ، وأهم جزر البحرين هي جزيرة البحرين الـــتي يبلغ طولها ثلاثين ميلا وعرضها عشرة أميال ، وبها عاصمة البحرين (المنامة) .

ومن أهم الجزر جزيرة (المُحَرَّق) وهي في الشمال الشرقي من جزيـــرة البحرين ، وبين الجزيرتين ميناء عميقة تستخدم كقـــاعدة بحريـــة بريطانيـــة ، وللبحرية الأمريكية وحدات هناك أيضا ، ومطار المُحَرَّق يعتبر أكبر المحطـــات الجوية في الخليج العربي .[1]

وسكان البحرين نصفهم من الشيعة والنصف الآخر من السنة وأكـــثر الشيعة من القرويين ، كما أن أغلب أهل السنة من سكان المـــدن في (المنامـــة) و(المُحَرَّق) و(البديع) و(الحِدّ) وهم يشتغلون بالتجارة . وأكثر القبائل نفـوذا في البحرين هم العتوب (من بني عتبه) والسادة (الأشراف) والدواسر ، فبنو عتبة لهم بالعائلة الحاكمة صلة النسب ، والسادة نفوذهم مستمد من اتصال نسـبهم بالنبي الكريم ، و(الدواسر) نفوذهم مستمد من سلوكهم الحسن في الجزيـــرة ، ومن ثروتهم التي اكتسبوها من التجارة ، وهناك جالية صغيرة مـــن الإيرانيـــين والهنود .

---

[1] د . عائشة راتب ، العلاقات الدولية العربية ، ص١١٣ .

ويذكر حافظ وهبة الذى عاشر أهل البحرين : " والحياة في البحرين تختلف عنها في جزيرة العرب ، فليس في البحرين كما في جزيرة العرب روح التعصب لعدم مصاهرة غير العرب إلا في العائلة الحاكمة فقط ، وليس في البحرين كما في الجزيرة البعد عن الكماليات ، وتجد في البحرين أثر الروح الفارسية والهندية في المآكل والبناء ، وفي الملابس وبعض العادات [١] " .

أصل حكام البحرين :

سبق أن ذكرنا أن آل خليفة حكام البحرين من العتوب وينتسبون الى جدهم الأعلى (خليفة بن محمد العتبى) من قبيلة عنزة من ربيعة ، كان يقيم مع قومه في أرض الهَدَّار من بلاد الأفلاج من نجد ، وكانت له زعامة فيهم ، وانتقل الى الكويت بجمع منهم ، واستمر في زعامتهم الى أن توفى وخَلَفَه ابنه محمد سنة ١١٦٠هـ =١٧٤٧م [٢] .

وآل خليفة نزلوا أولا بالكويت مع آل الصباح والجلاهمة ، واتخذوا من الكويت موطنا لهم منذ سنة ١٧١٦م(١١٢٩هـ) وانفصل آل خليفة عن آل الصباح سنة ١٧٦٦م ونزلوا (الزُّبَارة) في قطر ، واستقروا بها وتبعهم الجلاهمة ، واشتغلوا بصناعة الغوص على اللؤلؤ بحكم وقوع هذا الميناء في مواجهة البحرين حيث يوجد أفضل المغاصات للبحث عن اللؤلؤ بسبب وجود ينابيع مياه عذبة تحت سطح البحر .

وبفضل هذه الصناعة تحول آل خليفة من مجتمع بدوى الى مجتمع رأسمالى دفعة واحدة حتى أنهم أصبحوا يقرضون أصحاب السفن التى تشتغل بالغوص نظير احتجاز نسبة من اللؤلؤ ، وتفوقوا في هذا الميدان على ممثلى حكام

---

[١] حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص١٠٤ .

[٢] الزركلى ، الأعلام .

الفرس في البحرين وهم (آل مذكور) ، وكان ذلك من أسباب النـزاع الـتي انتهت باستيلاء آل خليفة على جزر البحرين [1] سنة ١٧٨٢م (١١٩٧هـ) بزعامة (أحمد بن محمد بن خليفة العتبي) ، فبعد معركة على أبواب الزُبارة انتصر أهلها على شيعة البحرين واستولوا على البحرين وظل أحمد يحكم البحرين وقوى شأنه ، الى أن توفى سنة ١٢٠٩هـ-١٧٩٤م ودفن بالمنامة عاصمة إمارتهم الجديدة . وتولى بعده ابنه سلمان (١٢٠٩-١٢٣٦هـ) (١٧٩٤-١٨٢٠م) وتولى بعد سلمان أخوه (عبد الله بن أحمد) الذى حكم من سنة ١٢٣٦-١٢٦٥هـ= (١٨٢٠-١٨٤٩م) وتوجد في وثائق قصر عابدين بالقاهرة أن خورشيد باشا قائد حملة محمد على في نجد عقد اتفاقا مع (عبد الله بن أحمد) آل خليفة سنة ١٨٣٩م ينص على : التحالف بين أمير البحرين ومحمد على ويقدم له المساعدة التى يطلبها ، ويدفع أمير البحرين لمصر زكاة البحرين سنويا وقدرها ثلاثة آلاف ريال ، ويقدم أمير البحرين المراكب والسفن لحكومة محمدَ على في حالة تسيير جيوش مصرية في الخليج ، ويقيم في البحرين مقيم مصرى يشرف على المصالح المصرية . [2]

غير أن هذا الاتفاق لم يدم بسبب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م بين الدولة العثمانية والانجليز وروسيا وبروسيا والنمسا القاضية بإرجاع محمد على الى حدود مصر .

واستقر آل خليفة في البحرين ، ولا شك أن جزر البحرين كانت أفضل من مدينة (الزُبَاره) سواء من حيث إمتداد العمران أم من حيث مصايد اللؤلؤ والزراعة ، واستحق أحمد آل خليفة الذى استقر بجماعته في البحرين

---

(١) د. صلاح العقاد ، التيارات السياسية ، ص٥٨ .

(٢) الزركلى ، الأعلام ، ترجمة عبد الله بن أحمد آل خليفة .

لقب (أحمد الفاتح) وعلى الرغم من أن كثيرا من القوى المحيطة بآل خليفة حاولت أن تخرجهم من البحرين مثل الفرس والجلاهمة وسلاطين مسقط والدول السعودية المتعاقبة ، إلا أن آل خليفة نجحوا في المحافظة على الاستقرار بها بالحيلة والدهاء في كثير من الأحيان ولم يكن في مقدورهم المواجهة العسكرية.

وازداد نفوذ آل خليفة ونمت ثروتهم ولا سيما بعد احتلال الفرس للبصرة سنة ١٧٧٥م ، وانتقل بذلك جزء كبير من تجارة اللؤلؤ والتجارة الهندية الى الكويت وموانئ قطر والبحرين ، وخاصة أن أهل البحرين عرفوا بأنهم من أقوى وأكفأ الملاحين العرب في الخليج وأنهم يملكون جانبا كبيرا من تجارة الهند ، وهم يفضلون التجارة عن حياة الاغارة على السفن في الخليج .

علاقتهم بالإنجليز :

نظراً لأن آل خليفة كانت مقدرتهم العسكرية أقل من جيرانهم والطامعين فيهم ، فقد كانوا في حاجة الى قوة تحميهم ، وكانت هذه القوة هي قوة الانجليز البحرية الذين جاسوا خلال الديار وأصبحت قوتهم البحرية هي الظاهرة على غيرها من القوى البحرية البرتغالية والهولندية والفرنسية والعثمانية وغيرها من القوى الغربية والمحلية .

ففى سنة ١٨١٩م رحب أمير البحرين بعقد أول تعهد من التعهدات المنفردة التى عقدتها بريطانيا مع مشيخات وإمارات الخليج العربى تعهد فيها بالامتناع عن القرصنة وتجارة الرقيق .

ويلاحظ أن هذا التعهد معناه عدم الاشتراك في مقاومة الأساطيل الدخيلة ، لأن ما سماه الانجليز قرصنة كانت نوعا من الكفاح ضد الاستعمار وسبق أن قام به المجاهدون ضد البرتغاليين والهولنديين وغيرهم ونجحوا فيه الى

حد إجلاء القوات البرتغالية عن الخليج . فيعتبر هذا التعهد فاتحة للتعهدات التى عقدها بريطانيا مع مشيخات الخليج الأخرى وساهم في القضاء على مقاومة الاستعمار الانجليزى وفتح الطريق الى الاتفاقات المانعة التى كانت عبارة عن فرض الحماية على امارات الخليج .

أما بالنسبة لتحريم الرقيق فإن الانجليز أول من قام بهذه التجارة عبر المحيط الأطلسى الى أمريكا ، وعندما بدأت المصانع تعمل بالآلة البخارية وسدت مجالا كبيرا في مجال العمل حتى أصبحت هناك وفرة في الأيدى العاملة فإن بريطانيا بدأت تطرد الرقيق من بلادها وتستغنى عنهم في مستعمراتها ثم ادعت العوامل الانسانية بمنع تجارة الرقيق ، في الوقت الذى كانت مناطق الخليج وغيرها من المناطق العربية في حاجة الى عمالة الرقيق الذين هم بالنسبة لها الآلة البخارية ، فكانت عملية تحريم تجارة الرقيق مضرة بالبلاد التى لم تتطور صناعيا مثل بريطانيا وغيرها من البلاد الصناعية .

وفي سنة ١٨٨٠م عقدت الحكومة البريطانية مع الشيخ (عيسى بن على آل خليفة ١٨٧٠-١٩٢٤م) حاكم البحرين اتفاقا مانعا أعلن فيه شيخ البحرين :

" بأنه لا يتفاوض أو يدخل اتفاقا مع دولة أجنبية بدون إذن الحكومة البريطانية ، ثم أكمل هذا الاتفاق باتفاق ثان سنة ١٨٩٢م .

وورد في الاتفاق سنة ١٨٩٢م ما يلى : " أنا عيسى بن على شيخ البحرين .... على نفسى وبالنيابة عن خلفائى أتبع الشروط التالية :

١. لن أدخل بحال من الأحوال في أى اتفاقية أو علاقة مع أية دولة عدا الحكومة البريطانية .

٢. وإني لن أوافق بدون مصادقة الحكومة البريطانية على اقامة وكيل أية حكومة أخرى في بلادي .

٣. وأنني بأي حال من الأحوال لن أتنازل ولن أبيع ولن أرهن ولن أعطي للاحتلال أي جزء من بلادي إلا للحكومة البريطانية .[١]

وفي سنة ١٨٩٣م أعطى شيخ الكويت للوكيل السياسي الإنجليزي في البحرين حق الفصل في قضايا الأجانب ثم توسع هذا الحق حتى شمل القضايا التي فيها صالح الأجانب [٢] .

وكان هذا هو نظام الحماية دون إعلانه ، ومن أهم مظاهره الاشراف على السياسة الخارجية للبحرين ولكن بريطانيا أطلقت علية نظام الاتفاقات المانعة .

ولذلك أصبح من السهل على الحكومة البريطانية عزل الحاكم الذى لا يروق لها ، ولذلك فإنها عندما غضبت على الشيخ عيسى بن على [٣] (١٨٧٠-١٩٢٤م) الذى سبق أن عينته فإنها لم تتورع عن عزله بحجة أنه محافظ على كل قديم ، واتفقت الحكومة مع أبنائه على أن يختم الشيخ حياته السياسية ويعتكف في بيته وينوب عنه إبنه الأكبر (الشيخ حمد)، فاحتج الشيخ على هذا العمل الذى لا يتفق مع روح الصداقة . وظل حمد في الحكم يرعى حق والده عيسى الى أن توفى والده سنة ١٣٥١هـ(١٩٣٤م) وبعد وفاة والده استمر حمد في الحكم حتى توفى بالسكتة القلبية سنة ١٩٤٢م .

---

[١] د . عائشة راتب ، مرجع سبق ذكره ، ص١١٣-١١٤.

[٢] حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص١١٩ .

[٣] توفى الشيخ عيسى سنة ١٣٥١هـ= ١٩٣٤م .

فتولى الحكم بعده إبنه سلمان بن حمد الذى ازدهرت البحرين في عهده من (١٩٤٢-١٩٦١م) فكثرت فيها المدارس والمستشفيات وأندية الأدب ، وكان يقول الشعر الملحون (١) .

وأعقب هذا تغييرا في مجال التدخل الانجليزى في شئون البحرين حيث تم وضع مستشار انجليزى منذ عهد الشيخ حمد لمساعدته في الأمور الهامة ، وأقيم على الجمارك أيضا مدير بريطاني (٢) .

كما عينت بريطانيا في سنة ١٩٠٢م معتمدا إنجليزيا في البحرين يشرف على الشئون الداخلية للبحرين . وبذلك أصبح للإنجليز الاشراف على الشئون الخارجية والداخلية .

وفي ١٤ من مايو ١٩١٤م تعهد شيخ البحرين لبريطانيا بأنه إذا تم اكتشاف البترول في بلاده فإنه لن يباشر استغلاله بنفسه ولن يقبل طلبات أى جهة بخصوص النفط بدون استشارة المعتمد السياسى في البحرين وبدون موافقة الحكومة السامية البريطانية .

ولما تم اكتشاف البترول في البحرين سنة ١٩٣٢م احتكرته شركة انجليزية سميت شركة بترول البحرين ، وهى شركة مسجلة في كندا ، وشمل الامتياز كل أراضى البحرين وينتهى في سنة ٢٠٢٤م (٣) .

وحدث نزاع بين قطر والبحرين حول ملكية بعض الجزر في المياه بين البلدين ، وإزاء تمسك قطر بمطالبها قدمت البحرين طلبا هى الأخرى بملكية مدينة (الزُّبَارة) التى نشأ فيها آل خليفة من قبل . ولجأت قطر في هذا النزاع

---

(١) الزركلى ، ترجمة حمد بن عيسى وسلمان بن حمد .

(٢) حافظ وهبة ، جزيرة العرب ، ص١٢٠ .

(٣) د . عائشة راتب ، مرجع سبق ذكره ، ص١١٤ .

مؤخرا (١٩٩٩م) الى محكمة العدل الدولية ، بينما تقول البحرين إن النـــزاع يمكن أن يحله مجلس التعاون الخليجى ، ومازال الموضوع حـــتى يومنـــا هـــذا (١٩٩١م) لم يحل ويسبب توترا بين البلدين في الوقت الراهـــن ، وفي حالـــة موافقة الدولتان على التحكيم فإن محكمة العدل يمكن لها أن تباشر قضية النزاع معتمده على الوثائق التى في حوزة كل منهما ، لكن بريطانيا سيكون لهـــا دور كبير في حل هذا النـــزاع أو إثبات الملكية لأحدهما نظرا لأن جميـــع الوثـــائق الخاصة بالحدود هى في حوزة بريطانيا ، وهى التى كانت تخطط هذه الحدود في الماضى .

الفصل الرابع

قطر

الفصل الرابع

قطـــر

كانت شبه جزيرة قطر تخضع في مطلع العصور الحديثة أحيانا للسعودية ، وأحيانا لإمارة البحرين . وترجع صلة البحرين بقطـــر الى أن آل خليفـــة عندما تركوا الكويت نزلوا أولا في قطر واستقروا بميناء الزُبارة ونمت ثروتهم في هذا الميناء بفضل صناعة اللؤلؤ ، ثم انتقلوا في عهد (أحمد بن محمد بن خليفـــة) من قطر الى البحرين وتغلبوا على آل مذكور ممثلى حكام الفرس في البحريـــن سنة ١٧٨٢م وظلوا يسيطرون على الزبارة ويجمعون الضرائب من قطر .

وظل آل خليفة يدعون حق السيادة على ميناء الزبارة الذى خرجـــوا منه لغزو البحرين حتى بعد قيام إمارة قطر سنة ١٨٦٨م . لكن قبـــائل قطـــر كثرت ثوراتهم ضد حكومة البحرين ، ففى سنة ١٨٦٣م قـــام (عيســـى بـــن طريف) بثورة ضد الحكم البحراني بسبب كثرة المكوس المقررة على القبـــائل رغم فقر البلاد ، لكنها لم تنجح لأن (قبائل النعيم) كبرى القبـــائل في قطـــر لم تشارك فيها ، وفي سنة ١٨٦٦م تجمعت معظم قبائل قطر وقامت بثورة تحـــت زعامة (محمد آل ثاني) الذى كان يعمل جامعا للضرائب لحساب آل خليفـــة . ونجحت الثورة لاشتراك قبائل النعيم فيها .

عهد قاسم بن محمد آل ثاني :

توفى محمد آل ثاني في سنة ١٢٩٥هـــ (١٨٧٨م) ، فتولى إبنه (قاســـم) الحكم من بعده وجعل عاصمته (الدوحة) إحدى قرى قطـــر وكـــانت تابعـــة

للبحرين ففصلها عنها قاسم بعد معارك كثيرة، وكاد يستولى على البحريـــن ، واتصل قاسم آل ثانى بالعثمانيين ليحموه من آل خليفة الذين ارتبطوا ارتباطـــا وثيقا ببريطانيا ، فوجد قاسم في العثمانيين حلفاء طبيعيين يحمونه من أطمـــاع آل خليفة . وظل على علاقة قوية بالعثمانيين حتى الحرب العالميـــة الأولى [1] . ومنحته الدولة العثمانية رتبة (قائمقام) .

وحدث صراع بين عيسى بن خليفة حاكم البحرين وبين قاسم بن محمد آل ثانى على ميناء الزبارة الذى كان مهد آل خليفة وتسيطر عليـــه قبيلـــة آل النعيم ، وناصر العثمانيون مطالب قطر وناصر الانجليز مطـــالب البحريـــن ، وبسبب ذلك تعرضت موانى قطر لضرب مدافع الأسطول البريطانى ، وساءت العلاقات بين قاسم والانجليز حتى سحبت الجالية الهندية من قطر ســنة ١٨٨٧م ودمر الاسطول الانجليزى ميناء الزبارة سنة ١٨٩٥م فاندثر منذ ذلك الحـــين ، ولم تفعل الدولة العثمانية شيئا سوى الاحتجاج دبلوماسيا ، ولعل ذلك الموقـف هو الذى جعل الشيخ قاسم يتحول بالتدريج عن ولائه للعثمانيين [2] .

هذا ويعتبر الشيخ قاسم ين محمد آل ثانى هو بانى دولة قطر الحديثـــة ، وتم توحيد شبه جزيرة قطر على يديه ، واستمر في الحكم حـــتى وفاتـــه ســـنة ١٩١٣م . وكان مولده في سنة ١٢١٦هـــ(١٨٠١م) فيكـــون قـــد عـــاش ١١٢سنة وقد تزوج ٩٠ مرة وكان لديه كثير من الجوارى ، وكان يحب كثرة النسل ويقال بأنه كان إذا ركب ، ركب معه ستون فارسا صليـــه ، واسمـــه في

---

[1] الزركلى ، شبه الجزيرة في عهد عبد العزيز ، ج١ ، ص٦٦ ، وصلاح العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ١٦٦ .

[2] د . صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص١٨٩ .

لهجة أهل قطر " جاسم) يقلبون القاف جيما ، كما يفعل العراقيون والكثير من أهل الخليج ، وجمع ثروته من تجارة اللؤلؤ وكان يمتلك ٢٥ سفينة للغوص [١] .

عهد عبد الله بن قاسم :

وتولى من بعده إبنه (عبد الله بن قاسم) سنة ١٩١٣م حتى سنة ١٩٤٩م وفي عهده تدفق البترول في قطر فأنعش الحياة الاقتصادية ، وشهدت قطر في عهده نهضة في شتى المجالات . ففى ١٧ من مايو سنة ١٩٣٥م حصلت شركة بترول قطر ، وهى شركة انجليزية تابعة لشركة البترول العراقية على امتياز البحث عن البترول في قطر واستغلاله وأصبحت لهذه الامارة أهمية خاصة في أعقاب اكتشاف البترول سنة ١٩٣٧م .

غير أنه عقد في سنة ١٩١٦م معاهدة مع بريطانيا إبان الحرب العالمية الأولى كانت سببا في فرض الحماية على قطر ، والسبب في ترك قطر للدولة العثمانية والاعتماد على بريطانيا أن الدولة العثمانية كانت مشغولة بمشاكلها في البلقان منذ عام ١٩١٣م ودخلت الحرب مع ألمانيا فحاصرتها بريطانيا في الخليج والبحر الأحمر والحجاز ، فكان من الطبيعى أن يتجه حكام قطر الى بريطانيا . وتنازلت الدولة العثمانية عن جميع حقوقها في قطر لبريطانيا وتعهدت بريطانيا أنها لن تسمح بتدخل شيخ البحرين في أمور قطر الداخلية أو ضمها الى أراضيه .

وقد تعهدت قطر في هذه المعاهدة (١٩١٦م) بعدم التنازل أو التصرف في أى جزء من قطر إلا بموافقة بريطانيا ، وتعهدت أيضا بعدم الدخول في علاقات مع حكومات أجنبية إلا بموافقة بريطانيا ، وأصبح لبريطانيا بمقتضى هذه الاتفاقية حق تعيين معتمد سياسى ومستشار لمعاونة شيخ قطر ، وهذه

---

[١] الزركلى ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٦٦ .

المعاهدة على نسق الاتفاقيات المعقودة مع البحرين وسائر إمارات الخليج وفي ساحل عمان [١] .

وفي سنة ١٩٤٩م توفي (الشيخ على عبد الله بن قاسم آل ثاني) حكم الامارة حيث تنازل له والده لظروف صحية ، وتولى الشيخ على حكم الامارة في حياة أبيه وقد ظل الشيخ على في الحكم حتى سنة ١٩٦٠م ، وصلح حال الامارة في أيامه وتدفق البترول وقام العمران ، وكان الشيخ على محبا للأدب والعلم فنشر نحو مائة كتاب في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والأدب كانت توزع مجانا على مستحقيها وغيرهم [٢] .

وفي سنة ١٩٦٠م تنازل عن منصب الأمير لأبنه أحمد وتوفى الشيخ على في سنة ١٩٧٤ن ودفن بالدوحة .

عهد الشيخ أحمد بن على آل ثاني(١٩٦٠-١٩٧٢م):

نصت وثيقة تنازل الشيخ على لابنه أحمد على أن يكون الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني (ابن أخي الشيخ على) وليا للعهد ونائبا للحاكم الجديد ، وظل هذا الإزدواج في الحكم حتى سنة ١٩٧٢م . وفي خلال هذه الفترة كان هناك خلاف بين الرجلين ويقول المعاصرون بأن الشيخ أحمد كان تقليديا في تفكيره ، وكان الشيخ خليفة ميالا لفهم التطورات التى طرأت على قطر وعلى منطقة الخليج بأسرها . ولذلك كان هناك صراع دائم بين الرجلين ، وظهرت مواهب الشيخ خليفة أثناء مباحثات قيام دولة اتحاد الامارات العربية بين دولة الامارات وقطر والبحرين في الفترة من سنة ١٩٦٨م حتى سنة ١٩٧١م ، فقد حاول

---

[١] د . عائشة راتب ، العلاقات الدولية ، ص١١٥ .

[٢] الزركلي ، الأعلام ، ترجمة على بن عبد الله آل ثاني .

الشيخ خليفة أن يحتفظ لقطر بمركزها الاستقلالي وتم اعلان استقلال قطر سنة ١٩٧١م .

وكان الشيخ أحمد منصرفا تماما عن شئون الحكم وكان مغرما برحلات الصيد التي كان يقوم بها في ايران ، وكان يقضي أشهر الصيف في قصره الذي بناه في سويسرا . وأثناء اعلان إستقلال قطر كان في جنيف فاضطر المقيم السياسي البريطاني في الخليج الى مقابلته هناك ليوقع معه مراسيم إنهاء معاهدة الحماية بين بريطانيا وقطر ، فاستغل الشيخ خليفة هذا الموقف وأعلن استقلال بلاده في قطر في احتفال مهيب فظهر أمام الشعب القطري بمظهر الحاكم الحقيقي لقطر ، وهذا مما مهد له للقيام بانقلاب على عمه الشيخ أحمد ويستولي على الحكم في فبراير سنة ١٩٧٢م وينهي بذلك حكم الشيخ أحمد الذي استمر نحو اثني عشر عاما [1] .

وفي عهده تم اصدار النظام الأساسي لدولة قطر ، ويوضح هذا النظام أسس الحكم في قطر ، إلا أن الشيخ أحمد عطله إذ كان يخشى من تنفيذه أن يفقده هو وأعوانه العصبية القبلية التي كانوا يتمتعون بها في الحكم .

عهد خليفة بن حمد (١٩٧٢-١٩٩٥م):

قام خليفة بانقلابه بينما كان الشيخ أحمد في رحلة صيد في ايران بين بندر عباس وشيراز وكان رد فعل الشعب مؤيدا للشيخ خليفة بالإضافة الى تأييد أعضاء الأسرة الحاكمة وقواد الجيش ، وبعد ذلك تولى الشيخ خليفة تحديث بلاده وإقامة حكومة على أسس عصرية وحدثت نهضة تعليمية وثقافية في قطر وتم إنشاء كثير من المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية وجامعة قطر.

وفي سنة ١٩٧٧م أصدر الشيخ خليفة بن حمد مرسوما بتعيين إبنه حمد

---

[1] د . أحمد شلبي ، مصدر سبق ذكره ، ج٧ ، ص٦٥١-٦٥٢ .

وليا للعهد ووزيرا للدفاع ، وكان منصب ولى العهد شاغرا منذ فبراير سنة ١٩٧٢م ، وكان الشيخ حمد ولى العهد في السابعة والعشرين من عمره ، وتلقى تعليما مدنيا وعسكريا راقيا خارج قطر . [١]

وتكررت مأساة عزل الوالد بحجة أنه غير عصرى فقد قام الشيخ حمد ولى العهد بعزل والده الشيخ خليفة في سنة ١٩٩٥م وتولى منصب حاكم الامارة وكان والده في رحلة الى أوربا ، وقد لقى هذا العزل تأييداً من الأسرة ومن دول الخليج ماعدا دولة الامارات وهاجم الشيخ خليفة إبنه واقمه بالعقوق وتوعده بحرب شرسة وكان الشيخ خليفة يضع في بنوك أوربا أموالا قيل أنها بلغت عشرة مليارات من الدولارات البترولية التى حاول الشيخ حمد الابن الحصول عليها من البنوك المودعة فيها باسم والده .

وهذه المشاكل توضح كيف أن الأسر الحاكمة تضع أموال بلادها في بنوك أجنبية بأسماء الحكام ، وتبعد هذه الأموال عن الاستثمار في بلادها أو أى بلد عربى ، وبعد سقوط الحاكم تظهر المشاكل الخاصة بالأموال المجمدة في الخارج ، وهذا حدث من قبل مع شاه إيران عند خلعه فقد كانت له كثيرا من المليارات في بنوك أوربا وأمريكا ولم تستطع حكومة الثورة حتى الآن الحصول عليها فكأن الدول الغربية مشاركة لهؤلاء الحكام في قريب أموالهم ولا تقبل عودة هذه الأموال الى الشعوب التى هى صاحبة المصلحة الحقيقية وصاحبة الحق في هذه الأموال .

---

[١] المرجع السابق ، ص٦٥٠، ٦٥٢ .

الفصل الخامس

عـــمـــان

الفصل الخامس

عمـــــــان

عمان من الأقاليم الاسلامية الهامة التى لعبت دوراً في تاريخ الاســــلام ، فيما يتعلق بنشره فيما وراء البحار سواء في شرقى أفريقيـــا أو في الهنـــد أو في جنوب شرقى آسيا ، ودولة عمان كانت في الماضى تشمل ما يعرف اليوم بدولة الأمارات العربية المتحدة التى شغلت جزءا هاما منها الآن وهو الساحل العمـانى على الخليج العربى ، وانفصل عنها هذا الجزء بألاعيب الاستعمار الانجلـيزى في الخليج العربى وأطلقوا على هذا الساحل الذى فصلوه من عمـــان (الســـاحل المهادن) أو (ساحل الصلح) ، فعمان قبل أن تفقد هذا الجزء كانت تقع علــى الخليج العربى أيام أن كانت تشمل دولة الامارات وتكونت من هـــذا الجـــزء المنفصل مؤخراً دولة الامارات المتحدة وهى مكونة من عدة إمارات هـى : ١– أبو ظبى ٢–دبى ٣–الشارقة ٤–أم القوين ٥–عجمان ٦–رأس الخيمـــة ٧– الفجيرة .

ويدخل فيها أيضا اقليم "ظفار" على البحر العربى في الجنوب وعاصمتــها في الداخل (نزوى) وانتقلت الآن الى مسقط على البحر العربى .

وتقع عمان في أقصى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة العربية وتمتد شمـال بحر العرب الى أن تصل الى قطر هذه هى حدودها في الماضى قبل اقتطاع دولـة الامارات العربية المتحدة منها ، ويحدها اليمن في الغـــرب والســعودية مــن

الشمال والغرب . وسكانها خليط من عرب الشمال النزارية ويطلق عليهم في عمان (الغافرية) ، ومن عرب الجنوب القحطانيين الذين يسمون بالأزد ويطلق عليهم في عمان (الهناوية) ، وبها خليط وافد من الأفارقة والهنود والفرس .

وينقسم السكان الى طائفتين متميزتين: هما الحضر والبدو.

فأما الحضر: فهم الذين يسكنون الساحل وبخاصة "مسقط" و"صحار" و"قريات" و"صور" وغيرها من مدن الساحل وهؤلاء هم الذين يجمعون خليط السكان الوافد من أفريقيا وإيران والهند .

أما البدو: فيعيشون في المناطق الداخلية وهم أكثر فطرة وبساطة وهم شديدو المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم .[١]

وتنقسم عمان الى عدة مقاطعات : منها مقاطعة الباطنة: التى تطل على خليج عمان الى الشمال من مسقط وهى سهل خصيب ، ومقاطعة عمان: وهى المقاطعة الداخلية وتضم (الجبل الأخضر) كما تضم المناطق المحيطة بهذا الجبل والتى توجد بها العواصم القديمة والمدن الشهيرة مثل (نزوى) و (الرستاق) و (سمايل) والمقاطعة الشرقية: وأهم نواحيها (المضيبى) و(وادى بنى خالد) ومقاطعة جعلان: واسمها مشتق من اسم سكانها القدامى وأهمها بلاد بنى بوحسن وبوعلى وصور ومقاطعة ظفار الجنوبية: وتتألف من سهل ساحلى منبسط تحاذيه الجبال وتتبعها عدة جزر مواجهة للساحل في البحر العربى وهى جزر (كورياموريا) و (مصيره) و (جزيرة الغنم) وتقع عند مدخل مضيق هرمز [٢] .

---

(١) عمر رضا كحالة ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص٤٤٣ ، د . أحمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ، ج٧ ، ص٢٧٤ .

(٢) د. أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ج٧ ص٢٧٤ ، عمر رضا كحالة ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، ص٤٤٣ .

وعمان تقلّب اسمها على مر الزمن بين (مسقط) و (عمان) وكان اسـم عمان هوالغالب في الماضى ، ولما انتقلت عاصمة البلاد من الداخل الى الساحل واختيرت (مسقط) لتكون العاصمة سميت البلاد سلطنة عمان ومسقط وكانت الامامة في الداخل ومقرها (نزوى) والسلطنة على الساحل ومقرها (مسقط) وهذا هو الذى عرّض البلاد للتقسيم في فترة من الفترات ، الامامة في الداخل والسلطنة على الساحل ، وأخيرا قام السلطان قابوس بتوحيد البلاد فجعل اسمها سلطنة عمان وجعل العاصمة (مسقط) وهذا هو الوضع الذى استقر مؤخراً.

وتعد (مسقط) الآن أعظم الموانى على خليج عمان ، ونشاطها التجارى واسع مع الهند وأفريقيا وجنوب شرقى آسيا وبلاد فارس وغيرها من بلاد العالم ومن الموانى المهمة أيضا (صحار).

وكانت "صحار" في الماضى هى العاصمة وتقع على البحر في خليج عمان كما ذكر ذلك "الاصطخرى" و"ابن حوقل" ، كما كانت "الرستاق" في الداخل عاصمة لعمان في يوم من الايام في الفترة من (١١١٢- ١١٩٧هـ)هذا بالإضافة الى (نزوى) كما سبق أن ذكرنا التى كانت عاصمة لعمان نحو ألف عام .

عمان في صدر الاسلام :

كان الرسول عليه الصلاة والسلام عندما دعى أهل عمان الى الاسلام فاستجابوا فأقر أبناء الجلندى من الأزد على عمان (جيفر وعبد) وهم كانوا حكامها فظل آل الجلندى في ناحيتهم على الطاعة والسكون طوال العصرين الراشدى والأموى وعقب النزاع الذى دار بين على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان نشأت فرقة (الخوارج) واتجه أكثرالخوارج الى المناطق النائية في العالم الاسلامى في اليمن وشمال أفريقيا وعمان وسجستان وكرمان ومنذ ذلك

التاريخ أصبحت عمان مركزاً للخوارج فلما آل أمر الخلافة الى بنى أمية أعلن الخوارج عداءهم لمعاوية وأصبحت عمان أهم مركز لهم ووجد أهل عمان في ذلك فرصة لإعلان استقلالهم وساعدهم على ذلك أن بلادهم في الطرف الجنوبي من الجزيرة العربية .

وعلى ايام (الحجاج بن يوسف الثقفى) بالعراق حاول الحجاج بسط سلطانه على عمان وقام صراع طويل بين جيوش الحجاج وأهل عمان وانتصر الحجاج في نهاية الامر وفر زعماء أسرة الجلندي من وجه الحجاج الى بلاد الزنج (زنجبار) واضعين أساسا لدولة في أفريقيا .

ولاشك أن سكان عمان اتخذوا مذهب الخوارج وسيلة لإعلان استقلالهم عن الدولة الاسلامية في دمشق ، وكان يقودهم في البداية (نافع بن الأزرق) و (قطرى بن الفجاءة) و (عبد الله بن إباض) لكن أكثرهم أتباعا هو عبد الله بن إباض ولذلك نسب إليه مذهب العمانيين فقالوا عنهم (الإباضية) ، وأهل عمان يكرهون أن يطلق عليهم (خوارج) لأنهم لا يريدون أن يرتبطوا بجماعة خرجوا على الامام على كرم الله وجهه ويفضلون أن يرتبطوا بعبد الله بن إباض الذى خرج على عبد الملك بن مروان ، وهم معتدلون في المذهب ، ولذلك يقول الدكتور أحمد شلبى بأن المذهب الاباضى في طبيعته أقرب مذاهب الخوارج الى أهل السنة ، وهم يعتبرون أنفسهم ورثة للفكر الاسلامى الأصيل الذى جاء به القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد شرح مذهبهم هذا بتوسع المؤرخ العمانى (عبد الله السالمى) في كتابه تحفة الأعيان [1] .

والعمانيون يختارون الامام ممن تتوفر فيه شروط القوة والعلم والعدالة والفضل والورع ولا يشترط أن يكون من قريش ولا من العرب ، وهذا الرأى

---

[1] عبد الله السالمى ، تحفة اعيان ، ج١ ص٦٠-٦٦ .

في البداية هو رأى الانصار عندما تناقشوا في سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخذ بهذا الرأى بعد ذلك الخوارج مثل (قطرى بن الفجاءة التميمى) ويستندون في رأيهم الى قاعدة وضعها القرآن الكريم وبينتها السنة الشريفة وهى أن التقوى أساس التفاضل بين الناس قال تعالى : { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } وقال عليه الصلاة والسلام :" ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى " ، لكن القرشيين وعلى رأسهم المهاجرين تمسكوا بقول أبي بكر الصديق : " الأئمة من قريش " وشاع بين المسلمين أن هذا حديث شريف وإن كان كثير من المؤرخين يرفض هذا الحديث ويجعله قولاً من أقوال ابى بكر يقصد به الأئمة من قريش يعنى لأن قريش أقوى القبائل ، وخاصة أن هناك فريق ثالث يرى تخصيص الخلافة بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم شيعة (على بن أبي طالب) ويتمسكون أن الخلافة يجب أن تكون في آل البيت أى تنحصر في اسرة معينة ولا يحبذون فكرة الانتخاب في اختيار الخليفة ويرون أن تكون الخلافة لعلى ثم لأولاده من بعده عن طريق الوراثة ويدعون أن رسول الله أوصى لعلى بالخلافة وهو أمر لم يثبت [1] .

عمان في العصر العباسى :

واستعاد أهل عمان سلطانهم كاملاً على ايام الدولة العباسية ، فقد انتهز خوارج عمان الثورة العباسية وانقلابها على الأمويين وخرج (الجلندى بن مسعود الأزدى)على طاعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٤هـ فأرسل إليهم العباسيون جيشاً يقوده (خازم بن خزيمة) فهزمهم ودخل (نزوى) عاصمة آل الجلندى وقتل الجلندى بن مسعود الأزدى .

[1] د . حسن ابراهيم وأخيه على ، النظم الاسلامية ، ص٩ .

وبعد عودة الجيش العباسي التهز خوارج عمان الفرصة وفرضوا سلطانهم على عمان بزعامة (محمد بن عبد الله بن أبي عفان الأزدى) حوالى سنة ١٤٥هـ واستمرت إمامتهم في هذه النواحى أربعة قرون ، ولم يبذل العباسيون أى جهد يذكر للقضاء عليها .

وحاول القرامطة إقتحام عمان سنة ٢٨٦هـ ولكن الامامة الإباضية صمدت أمامهم واستمرت كما حاول البويهيون التدخل في شئونهم ولكنهم فشلوا أيضاً [١] .

وينقسم تاريخ عمان الى خمس فترات تاريخية :

١- فترة حكم الولاة من الدولة المركزية الاسلامية على أيام الراشدين والأمويين ، وامتدت حتى سنة ١٣٥هـ .

٢- فترة الأئمة الاباضية ١٤٥-٩١٣هـ (٧٥٢-١٥٠٧م) .

٣- عصر الاحتلال البرتغالى من ٩١٣هـ-١٠٣٤هـ (١٥٠٧-١٦٢٤م) .

٤- فترة الأئمة من بنى يعرب من سنة ١٠٣٤-١١٥٤هـ (١٦٢٤-١٧٤١م) .

٥- فترة سلاطين البوسعيد من ١١٥٤هـ (١٧٤١م) الى الوقت الحاضر .

وقد تميزت الفترة الثانية وهى فترة الأئمة الاباضية بكثرة الصراع على الامامة وظهرت فيها أسرة (آل نبهان) الذين كونوا لهم ملكاً عدة قرون ولكن سلسلتهم لم تكن منتظمة وأحياناً تعددت الأئمة في وقت واحد وأحياناً خلت

---

[١] د . حسين مؤنس ، الأطلس الاسلامى ، ص٢٠٦ .

البلاد من وجود الأئمة تماماً ، وكان أول إمام لهم هو (الحوارى بن مطـــرف) سنة ٢٩٢هـــ .

وأهم ملوك بنى نبهان هم : (أبو عبد الله محمد بن عمر بـــن نبـــهان) و (الفلاح بن المحسن النبهانى) و (عرار بن الفلاح) وظلت حركة بنى نبـــهان حتى القرن التاسع الهجرى ، وبعد ذلك ظهر الأئمة من اليعاربة .

الاحتلال الأجنبي :

في نهاية فترة حكم آل نبهان سادت الفوضى وكثر الأئمـــة مـــن (آل نبهان) ومن غيرهم ، فضعفت بلاد عمان فأصبحت تغرى الأعـــداء بـــالهجوم عليها فحدث هجوم عليها سنة ٦٧٤هـــ من بلاد فارس ، فقد هـــاجم أهـــل شيراز عمان وأحتلوا (نزوى) لكنهم لم يستطيعوا الاستقرار في البـــلاد ، وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادى أتى الاستعمار البرتغـــالى الى عمـــان ، وفي البداية حاول البرتغاليون أن يقيموا مراكز لهم للتموين فأتجهوا الى موانئ عمان التى كانت مراكز تجارية نشطة فأحتلوا (صـــور) و (قريـــات) و (مســـقط) و (صحار) سنة ١٥٠٧م وكانت القوات البرتغالية بقيادة (البوكيرك) الـــذى دمر سفن مسقط ومبانيها وبدأوا في إقامة القواعد والقلاع لتدعيم مركزهـــم وسيطرتهم على هذه الموانئ الاستراتيجية ذات الموقع الملاحى الممتاز ، واســـتولى البرتغاليون كذلك على (خليج عمان) وعلى جزيرة (هرمز) في مدخل الخليـــج العربى سنة ١٥٠٧م ، وبدأ الصراع الطويل بين العمانيين والبرتغـــاليين الـــذى قاده الأئمة اليعاربـــة الذيـــن حكمـــوا مـــن ســـنة ١٠٣٤هـــ الى ســـنة ١١٥١هـــ(١٦٢٤-١٧٣٨م) .

فترة اليعاربة :

أصل اليعاربة من العرب الشماليين المعروفين بالنـزارية ويعرفـون في عمان بـ (الغافرية) وكانت قبيلتهم قبل ظهور الزعيم (ناصر بن مرشد) قبيلـة عادية من قبائل عمان فلما حدثت النـزاعات الداخلية والاستعمار الخـارجي ظهر (ناصر بن مرشد) وقاد قبيلته للدفاع عن البلاد وتم تعيينه إماماً في سـنة ١٠٣٤هـ(١٦٢٤م) ، وبدأ في توحيد البلاد تحت قيادته والقضاء على حكام المناطق الخارجة عن طاعته واتجه بعد ذلك لمحاربة البرتغـاليين الذيـن دامـت سيطرتهم أكثر من مائة عام ، وساعدته ظروف خارجية وهى أن دولة البرتغـال سقطت تحت سلطان أسبانيا فيما بين سـنة ١٥٨٠م و ١٦٤٠م وحـاولت أسبانيا أن ترث الاستعمار البرتغالى في الشرق ومن هنا ضعف حماس البرتغـاليين تحت الحكم الأسبانى مما ساعد الحركات التحررية في المستعمرات البرتغالية علـى أن تنجح في وقت ظهرت فيه (هولندا) و (بريطانيا) كمنافس على الاستعمار ، وقام صراع طويل بين الدول الاستعمارية أضعف البرتغاليين فسـاعد ذلـك العمانيين على التخلص من البرتغاليين وساعد عمان كل مـن (الانجلـيز) و (الفرس) ضد البرتغاليين .

إجلاء البرتغاليين :

وبعد هزيمة البرتغاليين في هرمز بدأ (ناصر بن مرشد) يطرد البرتغـاليين من بلاده في (مسقط) و (صحار) و (مطرح) ، وبعد وفاة ناصر تولى الامامـة بعده ابن عمه سلطان بن سيف ، وكان سلطان عوناً لابن عمه في أثناء حكمـه ولهذا استمر النضال في عهده ضد البرتغاليين ، فتم طردهم مـن (مسـقط) و (مطرح) سنة ١٦٥٨م ، وبدأ يتتبعهم في المراكز الاستعمارية الأخـرى الـتى أنشأوها في شرقى أفريقيا وعلى الأخص في (زنجبار) و (الصومال) على الرغـم

من أنه لم يكن له مطامع في الصومال ، واتجه بعد ذلك الى تعمير بلاده وتجديد القلاع والحصون للحفاظ على استقلال البلاد واهتم بالتجارة ، وكانت عمان قوة موحدة خلال هذا الصراع .

وبعد موت سلطان سنة ١٠٧٩هـ دب الخلاف بين أبنيه (بلعرب) و (سيف) وكان (بلعرب) أكبر سناً فأخذ مكانة أبيه لكن نازعه أخوه (سيف) وقام صراع كبير بينهما لكن مات (بلعرب) فخلا الجو لسيف بن سلطان ، وهكذا كلما حقق العرب بعض الانتصارات وهدأت أحوالهم . على الجبهة الخارجية بدأوا في النزاعات الداخلية التى تضعفهم وتنال من قوتهم أكثر مما يناله أعداؤهم منهم ولهذا يعلق الدكتور أحمد شلبى على هذه الظاهرة التى تتكرر في التاريخ العربي فيقول :

" وهذه الحادثة تكررت في التاريخ العربي في مختلف العصور ، فإن العرب تجتمع كلمتهم عند الشدائد ، فإذا حققوا نصراً بسبب وحدتهم أسرعوا الى الفرقة والخلاف ، وكان جديراً بهم أن يجنوا ثمار تعاونهم في تعاطف وابتهاج ، ولم ينل الاعداء من العرب أكثر مما نالوا هم من أنفسهم " [1] .

واثناء الصراع بين سيف وأخيه تمكن البرتغاليون من احتلال الجزر المواجهة لساحل عمان فقام سيف بن سلطان باسترداد هذه الجزر واستولى سنة ١٦٩٨م على (مونباسه) في شرق أفريقيا التى كانت تعد عاصمة المستعمرات البرتغالية في شرق أفريقيا بعد حصار دام ٣٣ شهراً ، وبعد سقوطها انتهى تفوق البرتغاليين في شرق أفريقيا .

ولما أصبحت هناك أملاك للعمانيين في آسيا وافريقيا كان من الواجب إنشاء أسطول كبير لحماية مستعمرتهم الجديدة في شرق أفريقيا لكى يستطيعوا

---

[1] احمد شلبى ، موسوعة التاريخ الاسلامى ، ج٧ ، ص٣٢٨-٣٢٩ .

بهذا الأسطول أن يناوئوا الأساطيل الأخرى الانجليزية والفرنسية والهولندية في البحار الشرقية ، ومن ثم بلغ عدد سفن الأسطول ثمانية وعشرين سفينة كبيرة يحمل بعضها ثمانين مدفعاً مما يدل على تقدم عمان في فن الملاحة وتسليح السفن[١] .

كما أنشأ اليعاربة جيشاً جراراً ضم حوالى (٩٠ألف مقاتل) وشيدوا القلاع والحصون واهتموا بالزراعة وشقوا مجارى المياه المسماه بالأفلاج .

وهناك عدة عوامل ساعدت العمانيين في هذه الفترة ، ونجحوا في إجلاء البرتغاليين عن سواحل عمان وشرق أفريقيا وهى : قوة عرب عمان وتفوقهم في الملاحة البحرية ، وضعف البرتغاليين في هذه الفترة ، بالإضافة الى أن البرتغاليين في هذه الفترة كانت لهم مراكز تجارية فقط ولم يتوسعوا إستعمارياً في هذه المناطق ، وإنما كان إنشاء قواعد تجارية لهم لضمان سلامة الطريق البحرى بين لشبونة والهند ، فضلاً عما أنتهجه البرتغاليون في حكمهم من أساليب عنيفة أتصفت بالاستبداد والجور فأثارت الناس عليهم .[٢]

ولا شك أن العمانيين أستفادوا من تجربة البرتغاليين في الربط بين شرق أفريقيا وساحل عمان ، ونشأت لديهم فكرة إنشاء دولة في شرق أفريقيا وسواحل عمان مركزها في زنجبار وهذا المشروع هو المشروع الذى سينفذه فيما بعد (آل بوسعيد) الذين تولوا الحكم في عمان بعد اليعاربة .

البوسعيد (١١٥٤هـ = ١٧٤١م) :

يرجع أصل البوسعيد الى القحطانيين المعروفين في عمان (بالمناوية) فقبيلتهم هاجرت من اليمن الى عمان ، وأول حاكم لهم كان هو (أحمد بن

---

[١] المرجع السابق ، ص٣٢٩ .

[٢] د . جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ، ص٢٢ .

سعيد) الذى كان في البداية مستشاراً لآخر حكام اليعاربة (سيف بن سلطان)
وكان خبيراً بالتجارة والاقتصاد ، وبذلك بدأ (أحمد بن سعيد) طريقه الى المجد
والشهرة وعهد إليه (سيف بن سلطان) بإدارة ميناء (صحار) وهو الميناء الهام
من الناحية التجارية ، وفي غضون ذلك تصارع (سيف بن سلطان)
و(سلطان بن مرشد) على الحكم ومات الرجلان أثناء الصراع فأتيحت الفرصة
لأحمد بن سعيد لكى يرث حكم اليعاربة وتصدى لأطماع الفرس في بلاده
وقضى عليهم وبايعه العمانيون بالإمامة سنة ١١٥٤هـ (١٧٤١م) .

غير أن لقب الامامة لم يطل بقاءه في بيته وأن أكثر قادة هذه الأسرة قنعوا
بلقب (السيد) بدلاً من الامام وذلك لأن العمانيين كانوا غير مقتنعين به إماماً
عليهم لأنه تغلب على الأمر بعد فتنة ولم تتوافر فيه الشروط المطلوبة لإمامة
إباضية صحيحة [1] ، وأيما كان الأمر فإن (أحمد بن سعيد) أسس أسرة حاكمة
في عمان هى (أسرة البوسعيد) في سنة ١٧٤١م .

وتعرضت دولة البوسعيد للأخطار من الداخل والخارج .

فمن الداخل: كان الزعماء الإباضية غير معترفين بإمامة أحمد بن سعيد ،
وقام هؤلاء الزعماء يعارضون سلطة حكام الدولة داعين الى إحياء الامامة
الإباضية .

فعبد الله السالمى صاحب كتاب "تحفة الأعيان بسيرة آل عمان " يقول :
" إن أهل العلم لم يروا صحة بيعته لأنها كانت على غير مشورة من المسلمين ،
وأن اسم الامامة قد ثبت له عند الخاص والعام إسما دون حكم فأولاده يقال لهم
أولاد الامام " كما يطعن السالمى أيضاً في عقد البيعة بقوله : " إنه كان عقداً

---

[1] المرجع السابق ، ج٧ ، ص٣٣٥ .

بعد فتنة وتغلب على الأمر " وعلى ذلك لم يتوافر في ذلك العقد الشروط المطلوبة لإمامة إباضية صحيحة [١] .

وحاول (أحمد بن سعيد) تقوية مركزه عن طريق زواجه من إبنه الامام (سيف بن سلطان) اليعربي الامام السابق له لكي يوجد صلة نسب بين الأسرة السابقة وبين أسرته التي ينحدر أغلبها من التجار الذين لم يمارسوا أى نوع من أنواع الحكم والنفوذ ، ومع ذلك ثار اليعاربة عليه ، وكان منهم (بلعرب بن حمير اليعربي) الذى أيده الغافرية (عرب الشمال).

لكن أحمد بن سعيد استطاع أن يتخلص من منافسة بلعرب كما تخلص من منافسة أحد أبناء سلطان بن مرشد الذى حاول أن يعقد الامامة لنفسه بعد وفاة أبيه .[٢] .

ومع ذلك فإن (أحمد بن سعيد) ترك لليعاربة شيئا من النفوذ في داخل عمان ، فظلوا يمارسون سلطاتهم المحلية الاقطاعية ، في الجبل الأخضر .

وفي مطلع القرن التاسع عشر زاد اهتمامهم بالخارج وتركوا الداخل ، وركزوا سلطاتهم في (مسقط) وفي شرق أفريقيا ، ولم يهتموا بالتأييد الديني لسلطتهم ، وإنما اعتمدوا على التأييد من حلفائهم الانجليز ، وشغلوا أنفسهم بالشئون التجارية ، وتلقبوا بلقب سلطان ، الى جانب الامامة التى كانت في (الرستاق) في الداخل .

ومن هنا بدأ الصراع بين الامامة والسلطنة ، وفي عهد (حامد بن سعيد) (١٧٧٩– ١٧٩٣م) تم نقل العاصمة الى (مسقط) واصبح لدولة عمان

---

[١] السالمي : تحفة الأعيان ، ج٢ ص١٦٢–١٦٣ والسالمي من أهم المراجع العربية في تاريخ عمان من وجهة نظر الامامة الاباضية طبع القاهرة سنة ١٣٣٠هـ في جزءين ، جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد ، ص٤٧ .

[٢] جمال زكريا قاسم ، المرجع السابق ، ص٤٧ .

علاقاتها مع الدول الأجنبية فيما وراء البحار . وأصبح لهم دخل كبير من الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية .

وفي عهد سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦م) زادت علاقة الدولة بالإنجليز ، وأصبح سعيد في تحالف معهم ويستمد منهم القوة للبقاء في الحكم ، ولا يهتم بلقب امام ، وأغدق على نفسه لقب سلطان ، ولما كان التأييد له من الداخل ضعيفا بدأ يعتمد على الجنود المرتزقة في جيشه من عناصر (البلوش)و (الزيجلوس) من السند وسواحل مكران ، وقد عرفت هذه العناصر بشجاعتها في القتال وولائها للحكام بشرط أن تجد ما يكفيها من رواتب واسلاب ولا يزال الجيش الرسمى للسلطنة يعتمد عليهم حتى الآن .

وكان البوسعيد يفرضون رسوما جمركية علي البضائع التى تأتى من الخارج مقدارها ٥% من قيمة البضائع الأجنبية وكانوا يجنون ٥, ١% على تجارة المرور (الترانزيت) وهى التجارة العابرة من الخليج وإليه . بالإضافة الى دخلهم من ممتلكاتهم في شرق أفريقيا ، ودخلهم الخاص من أملاكهم الخاصة في عمان . وكان لهم دخل أيضا من صيد اللؤلؤ واستخراجه .[١]

وتعرضت دولة عمان في نهاية القرن الثامن عشر للغزو الوهابى ، فقد حاول الوهابيون نشر دعوتهم السلفية في عمان وكان عرب الشمال من (الغافرية) أكثر استجابة لها من عرب الجنوب القحطانيين (الهناوية) الذين هم أكثر تمسكا بالمذهب الباطنى الإباضى ، ولعبت النزعة القبلية دورا كبيرا في انقسام البلاد ، فأصبح (الغافرية) في الغالب من أهل السنة ، و(الهناوية) إباضية [٢] .

---

[١] د . جمال زكريا ، ص٥٧ -٥٩ .

[٢] د . صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربى ، ص٥٠ .

لذلك عاش الزعماء الدينيون في الداخل من عمان غير معترفين بسلطة حكام البوسعيد ، ولذلك حفل تاريخ الدولة بصراع عنيف بين حكامها من ناحية وبين المتمسكين بالإمامة الإباضية من ناحية أخرى ، وكانت بريطانيا تتدخل بطريق غير مباشر ، وأحيانا بطريق مباشر لمساندة حلفائها من سلاطين البوسعيد [١] الذين تحالفوا مع سلاطين الدولة .

أما في الخارج : فقد عاصرت دولة البوسعيد في سنواتها الأولى الصراع الانجليزى الفرنسى الذى كان قد وصل الى أقصى مدى له في البحار الشرقية بصفة عامة والبحار العربية بصفة خاصة ، ولذلك حرص حكام البوسعيد محافظة منهم على استقلالهم ، على استغلال التنافس القائم بين الدولتين تأييدا لمركزهم وضمانا لإبقاء نفوذهم .

وظل سلاطين البوسعيد خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر يتأرجحون بين صداقتهم لفرنسا من ناحية وصداقتهم لبريطانيا من ناحية أخرى ، ومحالفة إحداهما أحيانا أخرى الى أن حدد سقوط المستعمرة الفرنسية في جزيرة موريس في عام ١٨١٠م مستقبل دولة البوسعيد في علاقاتها بالإنجليز الذين انفردوا منذ ذلك التاريخ بالسيطرة على بحار الشرق ، وبالتالى السيطرة على حكام البوسعيد [٢] .

وساعدهم على ذلك إنشغال فرنسا بالحروب النابليونية في أوربا ، فتمكنوا من تحطيم النفوذ الفرنسى في تجارة الشرق وانتزعوا من فرنسا معظم مستعمراتها في الهند وبعض المراكز التى كانت لها في بحار الشرق .[٣]

---

[١] د . جمال زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٧م ص المقدمة .

[٢] المرجع السابق ، المقدمة .

[٣] المرجع السابق ، ص٢٦ .

بداية اتصال العرب بشرق أفريقيا :

ترجع صلة العرب بشرق أفريقيا الى النصف الثانى من القرن الأول للميلاد كما يذكر ذلك المؤرخ بطليموس (اليونانى) ومنذ هذا التاريخ كانوا بدأوا يتجرون مع شرق أفريقيا بالعاج والعبيد ووصلوا الى حدود (موزمبيق) وبعد ظهور الاسلام إزدادت هذه التجارة في شرق إفريقيا إزدياداً عظيما حتى إنقلبت في نحو القرن الثامن الى إستعمار حقيقى ، وتأسست في أوائل القرن العاشر (مقديشيو) – (باراكا) .

وساعدت العوامل الجغرافية على نشاط حركة الملاحة بين منطقة الجزيرة العربية وبين ساحل إفريقيا الشرقي ، لأن الرياح الموسمية التى تهب على منطقة المحيط الهندى تمكن السفن الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود ، ففى فصل الخريف تدفع الرياح الموسمية السفن في إتجاه شمالى شرقى تمكنها من العودة الى قواعدها في شبه الجزيرة العربية . [1]

ومن الملاحظ أن العرب لم يقتصر نشاطهم على شرق إفريقيا وحدها وإنما إندفعوا بفضل حركة الرياح الموسمية الى الشرق الأقصى حيث ثبت وجود عدة مستعمرات عربية في سواحل الهند والصين وجنوب شرقى آسيا ، وكان لأولئك العرب الفضل الكبير في نشر الاسلام في تلك البقاع .

وكما إستفاد العرب من الرياح الموسمية كذلك إستفاد الهنود منها الذين كانوا يفدون الى هذه البلاد ، وكان لهم شأن في التجارة أيضاً مثل العرب وظلت أسرار الرياح الموسمية مع العرب والهنود الذين إحتفظوا بها لأنفسهم الى أن عرفها الإغريق ، وأشيع خطأ فضل إكتشافها لهم .

---

[1] د . جمال زكريا قاسم ، مرجع سبق ذكره ، ص١٢ .

ولما جاء البرتغاليون الى شرق أفريقيا كان العرب هم الذين أعطوهم أسرار هذه الرياح للوصول الى الهند وكان الملاح العربى (أحمد بن ماجد) هو الذى قاد سفينة فاسكوداجاما الى الهند سنة ١٤٩٨م ، وكانت هذه بداية الاستعمار الأوربي للبحار الشرقية في العصر الحديث كما كان من نتائج ذلك تحول تجارة الشرق من طريق الخليج العربى والبحر الأحمر وغيرها من الطرق البرية والبحرية القديمة الى طريق رأس الرجاء الصالح ومنه الى أوربا .[1]

وشارك الفرس أيضاً في التوغل في أفريقيا ففى سنة ٩٧٥م جاء الفرس من (شيراز) وأسسوا مركزاً لهم هناك يُسمى (كليفا) وتوغلوا في السواحل الى (روديسيا) طالبين الذهب ، وانتشروا على طول الساحل الشرقى ووصلوا الى (مقديشيو) و (باراكا) و (مالبندى) و (مومباسه) و (زنجبار) و (بمبا) عند (دار السلام) الحالية وغيرها من الموانى والمدن وأصبحت هناك إمارات فارسية صغيرة بين الإمارات العربية .

ولما جاء الإستعمار الى تلك البلاد وجدوا فيها المدنية الإسلامية مؤسسة ولها مراكز حضارية ، ولم يقتصر هؤلاء العرب والفرس على التجارة في أعمالهم هناك بل إشتغلوا بالزراعة وعلموا غيرهم ، وغرسوا شجر الكوكو وعدداً لا يحصى من أشجار الجزيرة العربية وفارس مثل المانجو والرمان والأترج وقصب السكر وأدخلوا زراعة القطن والسمسم الهندى والبهارات الهندية والأرز ، وجلبوا كثيراً من حيوانات بلدانهم .

وبقيت المدنية الاسلامية قروناً طويلة في هذه السواحل ، لكنها في القرن التاسع عشر أدخلها العرب الى الداخل وعندما جاء البرتغاليون وضعوا حداً للدور الأول من مدنية العرب عندما إحتلوا (زنجبار) سنة ١٥٠٣م (وباراكا)

---

[1] المرجع السابق ، ص١٦-١٧ .

سنة ١٥٠٤م و(كليفا) سنة ١٥٠٥م و (مونباسا) سنة ١٥٠٥م وكان مقصدهم بهذا الاحتلال تأسيس قواعد تجارية للبضائع التى تأتى من الهند ووضع اليد على معادن الذهب في (سفالا) ، وأصبح البرتغاليون هم السادة في تلك السواحل الى أواسط القرن السابع عشر .

وفي سنة ١٧٥٠م بدأ عرب سواحل عمان بقتال البرتغاليين وإجلائهم من ساحل عمان أولاً، كما ذكرنا ذلك من قبل عندما تحدثنا عن دولة اليعاربة ، فلما أجلوهم من سواحلهم في عمان هاجموهم في مستعمراتهم بالهند وفي شرق أفريقيا وأعادوا فتح مراكزهم التى أسسوها في شرق إفريقيا من جديد وهى (زنجبار) و (بمبا) و (مونباسه) وغيرها في آواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

ثم إن حروباً داخلية في عمان حملت السلطان (سعيد) على تحويل مركزه وعاصمته الى (زنجبار) ثم صار (ماجد) إبنه سلطاناً لشرقى إفريقيا وإبنه الآخر (تويني) سلطاناً في مسقط وهذا في نحو سنة ١٨٥٦م ثم توفى (ماجد) وخلفه أخوه (برغش) ، وفي أيام هذا السلطان بدأت الحوادث التى إنتهت الى تقسيم هذه السلطنة العربية ، وبالجملة فالسلطنة العمانية العربية التى استمرت الى آخر القرن التاسع عشر قد تمكنت من التوغل في داخل إفريقيا أكثر من جميع الدول التى قبلها .

ولم تكن التجارة هى الدافع للعرب على هذا النشاط بل الزراعة أيضاً التى كان العرب يستجلبون لها العمالة من داخل البلاد ، وازدادت تجارة الرقيق بإزدياد النشاط الزراعى ونمو الزراعة في السواحل وأسس العرب في الداخل مدينة (طابورة) وغيرها ووصلوا الى (الكونجو) الأعلى وأسسوا فيها مدناً وقرى

وكانت لهم هناك قوات عسكرية مسلحة لحماية قوافلهم ولا شك أن العـــرب بحضارتهم كانوا يفيدون الأمم الافريقية .

وانتشر الاسلام مع المدنية العربية في تلك الأسقاع أينما ذهب العـــرب ، في الصومال وكينيا وأوغندا وموزمبيق والكونجو . [١]وأصبح سكان هذه الديار هم خليط من العرب والعجم والهنود والأفارقة .

ولما بدأت ألمانيا تكون بعض الشركات الاستعمارية في شرق افريقيا كـــان ذلك على حساب سلطنة عمان ، ففى ٨ من أبريل سنة ١٨٨٨م أســـتأجرت الشركة الألمانية الاستعمارية من سلطان (زنجبار) مكوس الســـواحل ، فلمـــا أرادت وضع اليد عليها ثار العرب ومعهم الأفارقة ثورة عظيمـــة لكراهيتـــهم للجنس الأوروبي وكان قائد هذه الثورة الشيخ (أبو شيرى) لكن الألمان أخمـــدوا هذه الثورة في سنة ١٨٩٠م ، وتمكن الجيش الألماني بمساعدة الأسطول من غزو هذه البلاد والتمكن منها وإستعمارها .[٢]

عهد سعيد بن سلطان بن أحمد ١٨٠٦-١٨٥٦م:

سعيد بن سلطان هو أبرز شخصيات أسرة البوسعيد ، ويعتبره البعـــض [٣] من الشخصيات الهامة في تاريخ العرب الحديث ، وأهم ما قام به هو أنه قـــام بتجربة فريدة من نوعها ، وهى إنشاء أول دولة عربية إفريقية في شرق إفريقيا ، ولم يحظ باهتمام كاف من المؤرخين العرب ، وربما كان ذلك راجعـــا الى بعـــد بلاده والمناطق التى زاول فيها نشاطه ، أو لأن الكتاب المعـــاصرين الآن قـــد يقللون من تقديره باعتبار أنه استسلم للسياسة البريطانية ، وكـــان في بعـــض

---

[١] لوثروب ، حاضر العالم الاسلامى ، من مقال للأمير شكيب أرسلان بعنوان شرقى إفريقيا ، ج٣ ص٦٩-٧٧ .

[٢] المرجع السابق ، ج٣ ، ص٧٤-٧٥ .

[٣] د. صلاح العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ص١٢٣ .

الأحيان أداة لتقوية نفوذها ، هذا على الرغم من اهتمام المؤرخين الغربيين بحياة السيد سعيد لمنجزاته في شرق أفريقيا ولأن الأوربيين استفادوا من تمهيد العـرب لتلك المنطقة وفتحها للتجارة العالمية .

ولم تكن مشكلات السيد سعيد في عمان قاصرة على ثورات القبـائل ، ووطأة الوهابيين من جهة واحات (البوريمى) وإقليم (الظاهرة) فحسب ، إنمـا تعرض حكمه لعصيان الحكام من أقاربه ، وأشهر حوادث العصيان هى تلـك التى تزعمها (حمود بن عزان) في الثلاثينات ، وكان يحكم ميناء (صحار) الميناء الثانى في السلطنة بعد (مسقط) وهو يقع على مائة ميل شمال العاصمة ، وكـان الانجليز قد قدموا تعهدا بمساعدة السيد سعيد على الاحتفاظ بممتلكاته الساحلية ، فتدخل الانجليز لمنع سقوط مسقط لكنهم لم يذهبوا الى حد اسقاط حكومـة (صحار) وقد استندت هذه الحكومة الى المعارضة الإباضيـة المعاديـة للنفـوذ الأجنبى .

وبدأت سياسة بريطانيا تتغير بالنسبة للتدخل في داخل الجزيـرة وذلـك عندما جاء التوسع المصرى الى بلاد العرب ، فاتصل الانجليز مباشرة برؤسـاء قبائل (النعيم) و(الظواهر) للتحالف ضد المصريين ، واجتمع مع رؤسائهم المقيم الإنجليزى في (العجمان) سنة ١٨٤٠م ووعدهم بالدفـاع عنـهم وزودهـم بالأسلحة .

وفي سنة ١٨٤٤م عهد سعيد لابنه ثوينى بإدارة مسقط واصبح في معظـم الوقت في (زنجبار)وعين إبنه ماجد لإدارة (زنجبار) وحاول سعيد ضم البحريـة الى ممتلكاته ولكن بريطانيا رفضت .

وشهد سعيد في نهاية حياته تقلص ممتلكاته الآسيوية وبدأت تتفكك الدولة العربية الكبرى التى أنشأها أسرة البوسعيد فقد بدأت إيران في استعادة مينـاء

(بندرعباس) منذ ١٨٤٦م ، والتزمت بريطانيا الحياد في هذا النزاع ، وشددت إيران الحصار عليه في سنة ١٨٥٥م . وبعد وفاة السيد سعيد سنة ١٨٥٦م أصبح مركز العمانيين ضعيفاً به ، واحتل الإيرانيون الميناء سنة ١٨٦٨م .

الامتيازات الأجنبية في عمان :

في ٣١ من مايو سنة ١٨٣٩م عقدت بريطانيا معاهدة مع السيد سعيد لتنظيم التجارة والملاحة وتحديد الرسوم الجمركية ، وتقديم المساعدات الى السفن البريطانية التى تمر بموانى السلطنة ، وترتب على تلك المعاهدة إمتيازات قضائية في عمان للإنجليز ، فنصت المعاهدة على أن يتولى القنصل البريطانى الفصل في المنازعات التى تحدث بين الرعايا البريطانيين المقيمين في السلطنة ويؤخذ رأيه في القضايا التى تنشأ بين البريطانيين وبين العرب ، وكان هذا يسرى على الهنود رعايا انجلترا ، وكان عددهم يصل الى خمسة آلاف في عام ١٨٣٩م في موانى السلطنة ، وكانوا يسيطرون على التجارة الخارجية للبلاد .[١]

وبذلك دخلت الامتيازات القضائية في سلطنة عمان التى كانت تعانى منها الدولة العثمانية ، وظفرت فرنسا بمعاهدة مع السيد سعيد سنة ١٨٤٤م تمنحها نفس الامتيازات التجارية والقضائية التى نصت عليها معاهدة سنة ١٨٣٩م مع انجلترا .

تقسيم السلطنة :

في سنة ١٨٥٩م حاول (ثوينى بن سعيد) الاستيلاء على زنجبار ، وتوحيد السلطنة ولكن اعترض الانجليز ، وتوسطوا في الأمر في سنة ١٨٦١م بلجنة تحكيم حكمت باستقلال زنجبار عن السلطنة .

---

[١] المرجع السابق ، ص١٣٦ -١٣٧ .

وذكرت اللجنة في تقريرها : أن الطريقة التى يتولى بها الحكـــم أعضـــاء الأسرة الحاكمة وهى أسرة بوسعيد إنما تقوم على أساس الانتخاب ، وإنه عقـب وفاة سعيد بن سلطان انتخب أهالى (زنجبار) وملحقاتها إبنه السـيد (مــاجد) حاكماً عليهم ، وعلى ذلك فليس هناك مبرر لمطالبة السيد ثوينى بالسيطرة على ممتلكات أخيه وينبغي إذن أن يبقى كل منهما سلطانا مكانــه [1] ، علــى أن يدفع حاكم زنجبار إعانة سنوية لحاكم مسقط لتعويض الفرق بين موارد (زنجبار) الكبيرة وموارد (مسقط) ، وهذه الاعانة لاتعنى التبعية ونص التحكيم علـى ألا يتدخل عرب عمان في شئون شرق أفريقيا . [2] وهذا التحكيم هو الذى مــهد لفرض الوصاية الانجليزية على كلتا الدولتين .

ويمكن الرجوع الى كتابنا عن اليقظة الاسلامية في العالم الاسلامي لمعرفــة نهاية سلطنة زنجبار العربية المسلمة التى ضمتها تنجانيقا إليها ســنة ١٩٦٣م ، بعد مذبحة مروعة قضت على العرب في زنجبار بقتل بعضهم وإجــلاء البعــض الآخر الى مسقط وعمان .

السواحليون :

لما اختلط العرب والفرس والهنود والأفارقة في شرق أفريقيــا كونــوا عنصرا جديدا يسمى (السواحليون) وأصبحت لهم لغة جديدة هى خليط مــن العربى واللغات الإفريقية الأردية الهندية والفارسية وهذه اللغة الجديدة تســمى (اللغة السواحلية) ونتج عن اختلاط العرب مع السود والفرس والهنود جنس جديد سمر الوجوه تقاطيعهم لطيفة وهم أهل نظافة ينظفون أسنانهم ويغتســلون دائما ولا يستعملون الوشم مثل الزنوج ويختتنون لأنهم مسلمون ومن عاداتهم

---

[1] د . جمال زكريا قاسم ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٦٦ .

[2] د . صلاح العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٢ .

لبس البياض ويجعلون على رؤوسهم غطاءا أبيض وقد يلبسون الطربوش الأحمر ونساؤهم لا يتنقبن ولكنهن يأتزرن بشيء اسمه (الشقة) يغطى الجسم ويجعلون على الاحاق شيئا إسمه (كسونو) وهم إجمالا سواء منهم سكان المدن أو القرى لا يشبهون في شئ سكان الداخل من الزنوج وعندهم أدب وكياسة ومن صفاقم حسن المعاشرة وقرب الألفة وسرعة العاطفة والبر بالأهل والحنو على الأولاد ويحبون السكن بعضهم بقرب بعض ومنازلهم بغاية النظافة بل الشوارع التى بين بيوقم نظيفة ويبنون بيوقم صفوفا ويغرسون أمامها صفوفا من الأشجار الكبيرة وأينما وجد السواحلى إعتنى بغرس الشجر.

أكثر أعمال الحقول تقوم به نساؤهم فأما الرجال فيصطادون السمك ويتاجرون بالبضائع أو يحملون الاثقال وبالاجمال تعد هذه الأمة من الأمم الموصوفة بالوداعة وعندهم ميل الى الطرب يحبون الغناء ويعزفون بالطبول .

اللغة السواحلية :

ومن أثار التواجد العربي اللغة السواحلية التى كان أهل ساحل شرق أفريقيا يكتبونها بالحروف العربية ، وأما الآن فتكتب بالحروف اللاتينية ، والسواحلية مزيج من العربية وعدة لهجات من لغة البانتو الافريقية .

ومع ذلك فإن المفردات العربية تصل نسبتها في اللغة السواحلية حوالى ٢٢% بينما المفردات البرتغالية والانجليزية أو الالمانية والايطالية بالاضافة الى الفارسية والهندية مجتمعة لا تتعدى نسبتها في السواحلية ٦% .

ولم يكن هذا الأثر للغة العربية الذى يعادل أضعاف الأثر الذى تركته اللغات الأجنبية الأخرى إلا وليد الاتصال السلمى الهادئ للعرب بإخوالهم الأفارقة على الساحل الشرقى الافريقى .

وقد حاولت الدوائر الاستعمارية الألمانية والبريطانية وغيرها تحريم استعمال اللغة السواحلية في دواوين الحكومات في شرق أفريقيا .

ومع ذلك أوضح إحصاء أجراه (مسترولسن) ونشرته جريدة (الفلق) الصادرة في زنجبار في عدد ٣ من رجب ١٣٥٨هـ الموافق ١٩ من أغسطس ١٩٣٩م أن ٥٥ شخصا من بين ١٠٠ في جزيرة زنجبار يكتبون بالحروف العربية ، وشخصا واحدا يكتب بالحروف اللاتينية ، وسبعة أشخاص يكتبون بكل من الحروف العربية واللاتينية وسبعة وثلاثون شخصا أميا .

ولكن جهود المنصرين الآن تتجه الى التربص بالمفردات العربية في تلك اللغة ، وهم بصدد اسقاط الأصول العربية بحجة الوصول الى لغة سواحلية بانتوية خالصة [1] .

مفردات من العربية في السواحلية :

في مجال شئون المنزل : سقف . غرفة . صحن .

في مجال الاسرة : عم . بنت . صديق . أهل .

في مجال التجارة : بيع . فائدة . خسارة . رهن . رخيص . غال .

الأعداد : ستة . سبعة . عشرون . ثلاثون . أربعون . خمسون . ستون . سبعون . ثمانون . تسعون . مائة .

في مجال الدين : الزكاة . التوبة . الرحمة . الفجر . الصبح . الظهر [2].

والعربي العماني بدأ يقل وجوده هناك وكانت له هيئة جميلة جدا في زنجبار وتلك السواحل وكانت على العربي سيماء الشرف حتى الى ما بعد سقوط سلطنة العرب هناك وانقضاء دورهم السياسي والتجاري ، فلم يزل الباقون

---

[1] عادل خفاجة ، الاثر العربي في اللغة السواحلية ، مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤١٥هـ يناير ١٩٩٥م .

[2] المرجع السبق ، ذات المقال .

منهم يعيشون معيشة الأكابر محفوفين بالحشم ولا يعملون بأيديهم وهم يناظرون الهنود في التجارة وكانت منهم بيوتا غنية كثيرة لكنها هوت في الفقر بسقوط دولة العرب السياسية ولكنها بقيت حافظة وقارها وكرامتها ، لأن العرب في تلك البلاد هم أشراف البلاد لا يشتغلون بأيديهم أينما وجدوا ويرتدون ملابس بهية منها ما يسمونه القفطان وهو من الجوخ الأسود المطرز مفتوح من الامام تحته قميص أبيض طويل يسمى (كانزو) ثم نطاق واسع يحملون من فوقه خنجرا محلى بالفضة وهم طوال القامات رشاق القدود سمر الألوان ظاهروا الرصانة تجد حركاتهم كلهم موزونة بدون تملق بل بشيء من الإنقباض .

ويوجد صنف آخر من العرب إسمه (شحرى) نسبة الى الشحر من جهات حضرموت ، فهذا الصنف ليس من النمط الأول لأنهم فقراء يتاجرون بالسجاد والزيت ، وليسوا ممن يقدرون على مزاحمة الهنود في التجارة [١] .

وقد تعرض الحكم العربي الاسلامي في المنطقة للضعف إثر وفاة (ماجد بن سعيد) عام ١٨٧٠م فخلفه أخوه الصغير (برغش بن سعيد) وأخذت السياسة الاستعمارية تنفذ الى المنطقة وتعمل على تقسيمها بين الدول الاستعمارية الكبرى ، فأخذت ألمانيا تنجانيقا بينما كان الإنجليز أصحاب النفوذ الأكبر في (زنجبار) وكانت سلطتها ضعفت إثر وفاة (برغش بن سعيد) عام ١٨٨٨م الذى شهد تقسيم بلاده في حياته وخلفه (سيد خليفه) ولما هزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وقسمت مستعمراتها على الحلفاء والمنتصرين وكانت تنجانيقا من نصيب انجلترا بعد أن وضعت تحت وصاية عصبة الأمم .

---

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامي ج٣ ص٧٦ .

وقد استقلت تنجانيقا عام ١٩٦١م وأصبحت ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الأنجلو فونية) أما سلطنة زنجبار فقد استقلت عام ١٩٦٣ ، وكان سلطانها (سيد خليفة) قد توفى سنة ١٩٦٠م وخلفه ابنه (جمشيد ابن عبد الله خليفة) وما أن تم الإستقلال حتى حدث انقلاب عسكرى برئاسة (عبيد كرومى) الذى نصب نفسه رئيسا لجمهورية زنجبار وخلع (سيد جمشيد) ونكبت الأسرة العربية التى كانت تحكم زنجبار وقتل أكثر من ١٦ ألف من العرب لأن الأنقلابيين عدو الأسرة الحاكمة أسرة دخيلة مستعمرة وقتل معهم ٥٤ ألف من المسلمين .

ولم تنته دسائس الاستعمار عند هذا الحد وإنما ضمت تنجانيقا اليها (زنجبار) في سنة ١٩٦٤م في إتحاد عرف بإسم (تانزانيا) تحت رئاسة (يوليوس نيريرى) الشيوعى رئيسا للجمهورية الاتحادية وعين (عبيد كرومى) نائبا للرئيس وفي عام ١٩٧١م أعلنت الحكومة أنها كشفت محاولة لفصل زنجبار عن تنجانيقا وأدعت أن بعض المتآمرين كانوا من زنجبار وبعضهم الآخر من عرب كينيا ونفذت أحكام الأعدام فيمن أرادت التخلص منهم ممن وقعوا تحت قبضتها وبعد ذلك بقليل تم اغتيال (عبيد كرومى) نفسه [1] .

---

[1] د . محمد السيد غلاب وآخرون ، البلدان الاسلامية والاقليات المسلمة في العالم المعاصر ص٥٤٢ – ٥٤٥ .

الفصل السادس

الإمارات العربية المتحدة

الفصل السادس

الامارات العربية المتحدة

يطلق هذا الاسم على مجموعة من الامارات كانت تابعة لعمان وتقع على الساحل العماني ، وقد قسم هذا الساحل على الرغم من صغره الى سبع إمارات لا يكاد يبلغ تعداد أى منها قرية صغيرة ، وتمتد هذه الامارات من حدود قطر الى مدخل الخليج العربي وهذه الامارات هى :

(أبو ظبى) و(الشارقة) و(دبى) و(رأس الخيمة) و(أم القوين) و(عجمان) و(الفجيرة) ، وأطلقت عليها بريطانيا إمارات الساحل المهادن أو (ساحل الصلح) أو (ساحل القراصنة) ، [1] وتحتل دولة الامارات مساحة من الأرض تقدر بحوالى ٧٧,٧٠٠ كم مربع .

وسبب ظهور هذه الكيانات أنه في نهاية القرن الثامن عشر اتجهت بعض القبائل العربية الى القيام بمغامرات بحرية للاستيلاء على السفن التجارية التى تمر بمياه الخليج وخاصة السفن الأجنبية وهى قبائل : (القواسم) ، و (بنو ياس) ، و بو على (آل على) و (بنو كعب) . وكانت أشدهم قبيلة القواسم التى أحرزت شهرة واسعة في مجال الجهاد البحرى ضد الأجانب في الخليج .

وتزلت هذه القبائل البحرية على الشاطئ الممتد من (خور العديد) في جنوب قطر حتى رأس مسندم أى في مسافة ٦٤٠كم وهى منطقة كثيرة

---

[1] د . سيد نوفل ، مرجع سابق ، ص١٤٨-١٤٩ .

التعاريج ومن ثم يسهل على القوارب الصغيرة السريعة أن تتخذ منها ملجأ من تتبع السفن الكبيرة .

وهذا الساحل كان تابعا لأئمة عمان في عهد اليعاربة وفي بداية عصر البوسعيد قام (راشد بن مطر) بفصله عن التبعية (لأحمد بن سعيد) ، واتخذ من (رأس الخيمة) مقرا له كزعيم لقبيلة بحرية قوية هى قبيلة القواسم وكانوا يتخذون العلم الأبيض شعارا لهم ، وأخذ (دياب بن عيسى) من أسرة البوفلاح يجمع حوله (بنى ياس) واتخذ من جزيرة (أبو ظبى) [1] مقرا لقبيلته وكانوا يتخذون العلم الأحمر شعارا لهم . وبدأت هذه القوى البحرية بغاراتها البحرية على السفن الدخيلة في الخليج بلا هواده .

وهذه الأعمال كانت جزءا من الجهاد البحرى ضد الأعداء الذين جاسوا خلال الديار العربية بأساطيلهم ومنعوا التجارة العربية وبدأوا في تفتيش السفن العربية ونصبوا أنفسهم حكاما في منطقة الخليج يرجع إليهم المشايخ العرب في كل شيء .

وهذه الأعمال الجهادية تحدث عنها المؤرخون الانجليز بأنها قرصنة ، ونسبوا الى أنفسهم فضل القضاء عليها . ولكن الدكتور صلاح العقاد يقول :

" ومن الصعب التمييز بين القرصنة وبين الحروب البحرية . وقد رأينا أن الأوربيين باختلاف جنسياتهم مارسوا القرصنة في منطقة المحيط الهندى منذ ظهور البرتغاليين بها في القرن السادس عشر ، وفي العصر الذى نحن بصدده الآن (القرن١٨م) كانت فرنسا ترخص لبعض بحارتها المشهورين بالجرأة أن يهاجموا سفن الأعداء وأن يحصلوا على الغنائم التى تنتج عن ذلك لحسابهم الخاص ، ولعل هذا هو أهم فرق بين القرصنة وبين الحروب الرسمية أى أنه إذا

---

[1] د . العقاد ، التيارات السياسية ، ص٩٧ .

تم الاستيلاء على السفن لحساب الدولة فإن ذلك يكون من أمور الحرب المتعارف عليها ، وإذا استولى عليها افراد لحسابهم الخاص أصبحت قرصنة " [١]

وعلى ذلك فإن هذه الاعمال لا تعد قرصنة لأنها كانت تتم لحساب رئيس القبيلة . ومما يؤسف له أن كثيرا من الكتب العربية نقلت حكم الانجليز على هذه الأعمال بأنها قرصنة من الكتب الانجليزية وغيرها من الكتب الغربية. حتى أن الخرائط العربية مازال يطلق فيها على ساحل عمان اسم (ساحل القرصان) وهذه مشكلة النقل من الكتب الغربية حرفيا دون فهم للأوضاع التى كان يعيشها البحارة العرب الذين منعوا من التجارة خارج الخليج بسبب الهيمنة الغربية على التجارة الشرقية والبحار الشرقية .

النفوذ الانجليزى والقوى البحرية :

وفي بداية النفوذ الانجليزى في الخليج كانت القبائل العربية البحرية كالقواسم وبنى ياس يشكلون قوة بحرية كبيرة ، وكانوا يعملون في نقل التجارة من الخليج الى سواحل المحيط الهندى وشرق أفريقيا ، وعندما ظهرت السفن الانجليزية هددت هذا النشاط .

فقد وصفتهم الوثائق البريطانية بأنهم أقوى قوة بحرية من بين كل جيرانهم بما فيهم حاكم مسقط ، وجاء في الوثائق أن أسطول القواسم قد أصبح قوة لا يستهان بها حيث بلغ عدد سفنهم ٨٧٣ سفينة منها ٦٣ سفينة كبيرة ، وتضيف الوثائق أن أحد المقيمين البريطانيين في الخليج يذكر أن القواسم كانوا يبحرون في عدد من السفن تتكون من سبعين سفينة كبيرة ، على ظهر كل منها من ثمانين الى مائتى رجل يتجهون بنشاطهم البحرى شرقا الى سواحل الهند وجزر الهند الشرقية وغربا الى البحر الأحمر ، وبلغ شعور القواسم بقوتهم

---

[١] المرجع السابق ، ص٩٦-٩٧ .

البحرية ومدى سيطرهم التامة على مياه الخليج أنهم فرضوا على سفن شوكة الهند الشرقية البريطانية دفع ضريبة نظير السماح لهم بالإبحار في الخليج العربي مما اعتبره الانجليز ماسا بكرامتهم .

لكن أعجبني قول الباحث الإماراتي ناصر على باخشوين : في رسالة له للماجستير كنت أحد أعضاء مناقشتها [١] : " من حق أى دولة أو إمارة مستقلة أن تطالب الدولة التى تستخدم موانيها سواء البرية أو البحرية بدفع الرسوم والضرائب المتعارف عليها مقابل استخدامها لهذه الموانى ، لكن حكومة الهند البريطانية أبت ذلك بتعنت وتكبر ، بل إنها لم تترك القواسم في حالهم حيث رمتهم بتهم هم براء منها ، ومن خلال هذه التهم استطاعت أن تصل الى إمارات الساحل المهادن (ساحل عمان) وتفرض عليها اتفاقيات غير متكافئة"[٢]

والجدير بالذكر أن قيام القواسم بهذا النشاط البحرى ضد الانجليز لم يكن الهدف منه القيام بأعمال السلب والنهب والقرصنة ، وإنما كان هدفه الدخول في مواجهة مع المستعمر الغاصب لإجباره على الرحيل من المنطقة ، ومن خلال ما كانت تقوم به حكومة الهند البريطانية في بومباى من دعاية اعلامية مركزة ضد القواسم ، وكانت بدايتها لقصد تأديبهم لكن الأمور تطورت أكثر من ذلك بكثير .

ولذلك فإن القواسم تحالفوا مع الحركة السعودية التى لها نفس الأهداف الجهادية ، ولما كان هناك تعاون بين (سلطان بن أحمد البوسعيدى) وبين الانجليز فكان من الطبيعى أن تشمل حركاتهم السفن العمانية والانجليزية

---

[١] تمت مناقشتها في ربيع سنة ١٩٩٥م تحت اشراف الدكتور محمد جمال الدين المسدى وعضوية كل من د . مصطفى رمضان ود. عبد الله عبد الرازق وكيل معهد الدراسات الافريقية ، والرسالة كانت في آداب القاهرة . وعنوان الرسالة : " سياسة بريطانيا تجاه إمارات الساحل المهادن "

[٢] الرسالة السابقة ، ص١٣ .

معا وتمكن القواسم من قتل (سلطان بن أحمد البوسعيدى) في عودته من العراق واستولوا على (بندر عباس) الذى كان في يد قوات سلطان مسقط سنة ١٨٠٤م مما أدى الى سيطرتهم على جانب مدخل الخليج مما اعتبره الانجليز تهديدا للملاحة البريطانية في المنطقة .

الحملة الانجليزية الأولى :

أعدت حكومة الهند الانجليزية حملة بالتعاون مع حكام مسقط استولت على بندر عباس في سنة ١٨٠٥م وحاصرت جزيرة قشم التى كانت في حوزة القواسم ، ودخل الطرفان في مفاوضات انتهت بتوقيع اتفاقية في ٦ من فبراير ١٨٠٦ في بندر عباس تتكون من ست مواد كلها في صالح بريطانيا [١] .

وعلى هذا فليس من الصحيح أن الانجليز اصطدموا بالقواسم في إطار مكافحة القرصنة ، ولكن كما يقول الدكتور صلاح العقاد " إذا دققنا النظر في الوثائق البريطانية المعاصرة نلاحظ أن ممثلى شركة الهند الشرقية الانجليزية في الخليج كانوا يشكون من منافسة التجار العرب لهم لذلك انتهزت الشركة هذه الفرصة فخصصت بعض الحملات العسكرية لتحطيم الملاحة العربية باسم مكافحة القرصنة أحيانا ، ومكافحة تجارة الرقيق أحيانا أخرى وتحالفت مع الحكام العرب الذين اتفقت مصلحتهم مع الانجليز للاحتماء من امتداد الدولة السعودية الأولى الى منطقة الخليج [٢]" .وفي سنة ١٨٠٨م أسر القواسم السفينة البريطانية مينيرفا وحطموا طرادا إنجليزيا .

---

[١] المرجع السابق ، ص١٤ .

[٢] د . العقاد ، مرجع سبق ذكره ، ص٩٩-١٠٠ .

الحملة الانجليزية الثانية :

فأعد الانجليز حملة ثانية للإنتقام من القواسم وتحالفوا مع (فارس) بجانب تحالفهم مع سلطان مسقط ، في عام ١٨٠٩م وكانت التعليمات تقضى بتدمير مراكز القواسم البحرية ، والسفن الراسية فيها مع ملاحظة عدم الاصطدام بالوهابيين وتقضى بالتعاون مع السلطات الفارسية ومع الامارات الأخرى في جزيرة العرب ، وأخذت الحملة تهاجم مراكز القواسم .

ونزلت الحملة الانجليزية في (رأس الخيمة) وقامت بتخريبه وألحقت أضرارا جسيمة بالميناء ، واعترف (لوريمر) المؤرخ الرسمى للخليج من قبل حكومة الهند بأن كثيرا من البحارة في هذه الحملة عادوا بثروة كبيرة من المسلوبات التى استولوا عليها [١] ، وعلى ذلك فلم يكن هناك فرق بين أعمال الانجليز وأعمال من سموهم بالقراصنة .

كما هاجمت الحملة بعض موانى السعودية ولذلك أسرع السعوديون لنجدة حلفائهم القواسم ، الذين أرسلوا بعض رجالهم الى الساحل العمانى ، لكن الانجليز حاولوا الاتصال بالسعوديين لتفسير موقفهم لحاكم الدرعية واستجاب لرغبة الانجليز بمنع حلفائه من الاشتباك معهم في الخليج .

وقامت السعودية باستدعاء (سلطان بن صقر) زعيم القواسم واحتجزته بالدرعية وعينت موظفا في ساحل عمان يتبع الدرعية تبعية مباشرة ، وبناء على ذلك توقف نشاط القواسم نحو ثلاثة أعوام .[٢]

---

[١] المرجع السابق ، ص١٠٢ .

[٢] المرجع السابق ، ص١٠٢-١٠٣ .

تفكك إتحاد القواسم :

لكن الفترة من سنة ١٨١٣ حتى سنة ١٨١٩م شهدت نشاطا متصاعدا للقواسم ضد السفن الانجليزية ، وحدثت إشتباكات امتدت ساحتها من سواحل الهند الغربية حتى الخليج العربي وقد نجح القواسم في هذه الفترة نظرا لانشغال الانجليز بالحروب النابليونية ، وتمكن سلطان بن صقر من الفرار من الدرعية سنة ١٨١٦م ولم يستطع أن يسترد زعامته ، وتفكك الاتحاد القبلى الى إمارات صغيرة وانحصر نفوذه في (الشارقة) ، بينما استقلت فروع من القبيلة بموانئ (رأس الخيمة) و (أم القوين) و (العجمان) ، والى الشمال منها استقرت أسرة البوفلاح في جزيرة (أبو ظبى) منذ سنة ١٧٦١م لكنها قوة برية أكثر من كونها قوة بحرية .

وبعد انتهاء الحروب النابليونية خرجت بريطانيا منها منتصرة ، فأرسلت حملة في سنة ١٨١٩م وكانت القوات المصرية قد قامت باحتلال الدرعية وقضت على الدولة السعودية الأولى ووصلت الى شواطئ الخليج فعرض الحاكم العام على (ابراهيم بن محمد على باشا) الاشتراك في الحملة لضرب القواسم ولكنه رفض ، كما رفض سعيد الاشتراك مع المصريين خوفا من أن يمتد نفوذهم الى بلاده ، لكنه قبل الاشتراك مع الانجليز وحده وسمح لقوات الحملة بالنزول الى أراضيه [1] ووصلت الحملة الى رأس الخيمة في أوائل ديسمبر ١٨١٩م وعلى الرغم من عدم تعادل القوى فقد أظهر القواسم بسالة فائقة في الدفاع عن ميناء (رأس الخيمة) ، فظل الانجليز يضربونها

---

[1] ناصر على باخشوين ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦ .

بمدافعهم ستة أيام متواصلة قبل أن يستطيعوا النـــزول بها ، ولم تقم بعد ذلـــك حركة مقاومة تذكر في الموانى الأخرى . [١]

على اثر هذه الاحداث تفكك القواسم الى عدة إمارات هى :

١- الشارقة : وفيها سلطان بن صقر من القواسم .

٢- رأس الخيمة : وفيها فرع من القواسم .

٣- أم القوين : يحكمها حاكم من قبيلة آل على .

٤- العجمان : من قبيلة النعيم وهم فرع من القواسم .

٥- الفجير : وقد استقلت سنة ١٩٠١م عن الشارقة تحت زعامة حمد بن عبد الله الشرقى .

أما قبائل (بنو ياس) وهى قوى برية في الغالب فقد استقلوا بـــأبوظبى ، وفي عهد شخبوط (١٧٩٣-١٨١٦م) تأكدت زعامة (البو فلاح) على قبيلـــة (بنى ياس) وتحالفت مشيخة أبو ظبى مع سلطنة مسقط أما الامارات المتفرعـــة من القواسم فتتحالف مع السعودية . [٢]

ودخلت بريطانيا مع رؤساء القبائل الساحلية في معـــاهدات مختلفـــة جعلت بريطانيا حكما في شئون جنوب شرق بلاد العـــرب . وتعـــهد شـــيخ القواسم بتسليم السفن الحربية ويحتفظ بمراكب الصيد ومعنى ذلك نزع سلاح القواسم .وخصص الانجليز ست سفن حربية للقيام بدوريات بحريـــة لمراقبـــة الملاحة في الخليج ، وأنشأت بريطانيا وكالة لها في الشارقة لأن فيـــها زعامـــة القواسم .

---

[١] ناصر باخشوين ، ص١٦ .

[٢] د . العقاد ، ص١٠٤-١٠٥ .

وخرج فرع من البوفلاح وهى قبيلة (بوفلاسه) الى دبى وشرع في تأسيس مشيخة وكانت دبى من توابع أبو ظبى ومساحتها تبلغ ١٥٠٠ ميل مربع ، وتقع مدينة دبى على جانبى خور طوله عشرة أميال ، وأحد جانبى هذا الخور يسمى (برديره) ويعرف الجانب الآخر باسم (بر دبى) وينتقل الناس بين البرين بالمراكب الشراعية ، وفي سنة ١٩٦١م أقامت الامارة جسرا للانتقال بين البرين ، وأقيم حديثا نفق تحت الماء للربط بين البرين ، ومن ثم فإن موقع مدينة دبى يسمى (فينيسيا الخليج) ، وأصبحت أهم مركز تجارى في الخليج بفضل نشاط أسرة (آل مكتوم) الحاكمة في إمارة دبى وهى فرع من فروع بنى ياس في (أبو ظبى) .

وأهم حكامها الشيخ (سعيد آل مكتوم) الذى حكم الامارة في الفترة من ١٩١٢ الى ١٩٥٨م . وتولى الحكم بعده الشيخ (راشد بن سعيد آل مكتوم) ، الذى عرف بجده ونشاطه في مشروعات هامة بالإمارة ، ونجح في استثمار أموال من قطر والكويت في مشروعات بدبى .[1] وتدفق البترول في دبى سنة ١٩٦٨م فزاد اقتصادها وزادت الحركة التجارية بها .

أهمية إمارة أبو ظبى :

إمارة أو ظبى أكبر إمارة في الخليج من حيث المساحة فهى أكبر من مساحة كل من الكويت وقطر والبحرين إذ تبلغ مساحتها ٦٧,٣٤٠ كم٢ كما أن سكان أبو ظبى يشكلون ٤٠% من مجموع سكان الامارات ، وتقع هذه الامارة في الجزء الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية ويحدها من الشمال الخليج العربى ، ومن الشرق إمارة دبى ، وسلطنة عمان ومن الشمال

---

[1] د . أحمد شلبى ، مرجع سبق ذكره ، ج٧ ، ص٦٦٦-٦٦٧ .

الغربي دولة قطر ، ومن الجنوب المملكة العربية السعودية ، وتمتد سواحلها بطول ٤٠٠ كم ، كما تتبعها ٢٠٠ جزيرة في الخليج .

وقد أسس الأسرة الحاكمة في الإمارة في أواخر القرن الثامن عشر الشيخ (عيسى بن نهيان) الذى جمع (بنى ياس) تحت لوائه ، وخلفه إبنه دياب بن عيسى ، ومات دياب ، فتولى الزعامة إبنه شخبوط الأول (١٧٩٣-١٨١٦م) وأصبح بنو ياس بفضل الشيخ شخبوط قوة كبيرة في المنطقة الى أن تولى حكم الامارة في سنة ١٨٥٥م أميرا قويا هو زايد بن خليفة الذى امتد حكمه حتى سنة ١٩٠٩م ، ويعتبر عهده من أزهى عصور الامارة ، وهو الذى استطاع أن يسترد واحة البوريمى من القوات السعودية في معركة كبيرة .

وبعد الشيخ زايد توالىحكم أبو ظبى في أسرة آل نهيان حتى أل الحكم الى أمير قوى محبوب في الداخل وفي العالم العربى هو الشيخ (زايد بن سلطان) في سنة ١٩٦٦م وهو الذى حقق للإمارات فكرة الاتحاد ، فمنذ أن تولى حكم أبو ظبي وهو يعمل على تطوير إمارته بسرعة فائقة ، واستطاع أن يقيم أجهزة الدولة الحديثة ، واستقدم الخبراء في شتى المجالات ، وبدأ يشارك في النشاط الدولى ، فهذه الاستنارة في إدارة البلاد بالإضافة الى الثورة الطائلة جعلت رئاسته للإتحاد أمرا مقبولا من الجميع .

وهذه الامارات المتفرعة عن القواسم وهى الشارقة ورأس الخيمة وعجمان والفجيرة وكذلك أبو ظبى ودبى من بنى ياس واجهت مشاكل عديدة بعد أن تمكنت بريطانيا من نزع سلاحها فبلادها قاحلة ، وكان من الممكن أن تحول المشيخات نشاطها البحرى الى التجارة لولا أن تلك الاتفاقات عقدت في نفس الوقت الذى أخذت فيه الملاحة البخارية الأوربية تنتشر بمنطقة المحيط الهندى ، فلم يكن بوسع المراكب الشراعية منافستها ، وبما أن حياة المشيخات

ترتبط بالبحر فقد تدهورت أحوالها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وصارت بحاجة مستمرة الى المساعدات الخارجية ، واستغلت بريطانيا ذلك لكى تخضعها لنفوذها عن طريق الاتفاقات المانعة .[١]

وبجانب ذلك هناك مناطق متنازع عليها بين الامارات وتتداخل أراضى كل إمارة في أراضى الإمارات الأخرى ، وبريطانيا تساعد على هذا التداخل الذى يوجد النزاعات التى يجعل منها هى الحكم الوحيد في المنطقة .

إتحاد الامارات : ولما أعلنت بريطانيا في سنة ١٩٦٨م قرارها بالجلاء عن شرقى السويس قبل نهاية سنة ١٩٧١م ، أصبح من المحتم أن يوجد كيان جديد قوى بالمنطقة فبدأت المشاورات والمفاوضات من أجل اتحاد هذه الامارات السبع [٢] .

لكن ظل التنافس بين الشارقة مركز القواسم والتى كانت تتطلع لزعامة الامارات ، وبين أبو ظبى مركز بنى ياس ، ومما قوى هذا الصراع أن القواسم كانوا ينحدرون من عرب الشمال (الغافرية) وبنى ياس من عرب الجنوب القحطانيين (الهناوية) أو الأزد .

لكن أبو ظبى ودبى كانتا سباقتان الى المضى في الاتحاد ، غداة إعلان بريطانيا الجلاء عن المنطقة سنة ١٩٧١م ، وذلك بفضل أمير أبو ظبى الشيخ (زايد بن سلطان) وأمير دبى الشيخ (راشد المكتوم) ، وكانت الفكرة منذ البداية متجهة الى اقامة اتحاد يشمل قطر والبحرين مع الامارات السبع في ساحل عمان (المتصالح) ولكن الأصل التاريخى قام بدور معوق ، فقطر والبحرين ينتميان لدولة البحرين القديمة (هجر والاحساء) وأن الامارات السبع كانت تابعة

---

[١] العقاد ، ص١٢٢ .

[٢] د . أحمد شلبى ، ص٦٧٠-٦٧١ .

لعمان فكان هناك تباين بين الأطراف المتفاوضة من أجل الوحدة ولذلك فضلت قطر والبحرين الاستقلال .

بينما مضت أو ظبى ودبي في تنفيذ فكرة الاتحاد ، فأعلن الشيخ زايد و الشيخ راشد مكتوم قيام اتحاد بين الامارتين ، ومن هذه البداية كان التحرك الواسع ليشمل الامارات السبع ، فأعلن قيام الاتحاد بين ست إمارات في ١٨ يوليو سنة ١٩٧١م وهى : (أبو ظبى) و(دبى) و(الشارقة) و(الفجيرة) و(أم القوين) و(عجمان) ، ورفضت (رأس الخيمة) الالتحاق بهذا الاتحاد آنذاك ، ولكنها عادت فقررت الالتحاق عندما أعلن قيام دولة الامارات العربية المتحدة في ٢ من ديسمبر ١٩٧١م .[١]

وتم اختيار الشيخ " زايد بن سلطان آل نهيان " رئيسا للدولة الجديدة مدة خمس سنوات ، وتجدد رئاسته تلقائيا وسرعان ما أصبحت الدولة الجديدة عضوا في الجامعة العربية وتلعب دولة الامارات دورا كبيرا في القضايا العربية والاسلامية بفضل قيادة الشيخ زايد بن سلطان الذى أعلن سياسته العربية في وضوح بقوله : " إننا نبدأ من لا شيء ؛ فنحن لا نقوم بإصلاحات معينة ، ولكننا نقوم بعملية بناء من العدم ، ولا نأخذ دورنا في بلادنا فحسب ، ولكننا نلتزم بالخير لدول الخليج ولدول الوطن العربى كله " .

ويؤكد دستور الدولة على أن الباب مفتوح لكل الأشقاء الراغبين في الانضمام الى الاتحاد ، وتؤمن دولة الامارات بالوحدة العربية الشاملة ، كما تؤمن بانها جزء لا يتجزأ من الوطن العربى الكبير .[٢]

---

[١] المرجع السابق ، ج٧ ، ص٦٧١-٦٧٢ .

[٢] المرجع السابق ، ج٧ ، ص٦٧٣-٦٧٤ .

ونظام الاتحاد يقوم على أساس التمييز بين ثلاثة أنواع من الامـارات في المجلس الوطنى الاتحادى وعدد أعضائه أربعين عضوا .

١ – امارتان رئيسيتان هما : أبو ظبى ودبى ، ولكل منهما ثمانية مقاعد في المجلس الوطنى الاتحادى ، التى تصدر قراراته بأغلبية خمسة أصوات بشرط أن يكون من بين هذه الأصوات الخمسة صوتا أبو ظبى ودبى .

٢–اثنتان متوسطتان هما : الشارقة ورأس الخيمة ولكل منهما ستة مقاعد .

٣–وثلاث إمارات صغيرة وهى : العجمان وأم القوين والفجيرة ولكل منـــها أربعة مقاعد .[١]

وثورة النفط ينحصر معظمها في أبو ظبى وكان هذا عاملا رئيســيا في جعل رئاسة حاكم أبو ظبى مقبولة ، فالإمارة تقدم ٨٥% من ميزانية الاتحاد مع الاحتفاظ بدخلها منفصلا عن إيرادات الدولة ، وروعـــى أن يكــون رئيــس الوزراء من إمارة دبى ، فاختير ولى عهد هذه الامارة لكـــى يــرأس الــوزارة الاتحادية . وتقوم الحكومة الاتحادية بتقديم الخدمات الضرورية لأية دولة حديثة كالتعليم والصحة وبناء الطرق والتمثيل الدبلوماسى ، وهو ما تعجز عنه إمارة صغيرة غير منتجة للنفط مثل رأس الخيمة .[٢] وينص دستور الدولــة بإنشـاء محكمة اتحادية تختص بالنظر في المنازعات بين الإمارات وكذلـــك في مطابقـــة القوانين التى تصدرها المجالس المحلية والحكام أو عدم مطابقتها للدستور ، وهـذه المحكمة من أهم مظاهر الوحدة . ويترك لكل إمارة حرية اختيار الطريقة الـــتى تعين بها نوابها في المجلس الوطنى وقد اختارت جميع الامارات أسلوب التعيين .

---

[١] العقاد ، التيار الوحدوى ومعوقاته ، مقال في مجلة السياسة الدولية عدد ٤٠ لسنة ١٩٧٥م عن مؤسسة الأهرام .

[٢] العقاد ، المرجع السابق ، نفس المقال .

الفصل السابع

المملكة العربية السعودية

الفصل السابع

المملكة العربية السعودية

الدولة السعودية الأولى :

ضعفت الدولة العثمانية وتكالبت عليها كثير من الدول الأوربية الطامعة في أملاكها ، ولم تستطع الدولة أن تواجه الأوضاع المتردية في ولاياتها ، ولم تستطع من ناحية أخرى أن تواجه الأطماع الأوربية في أراضيها . ولما وصل الحال الى هذا الحد من الضعف ارتفعت الأصوات المخلصة في شتى أنحاء العالم الاسلامى تنادى بالاصلاح لاعادة المسلمين الى سابق عظمتهم .

وكان التيار العام الجارف هو تيار الاصلاح على أساس عقائد السلف الذى يقول بأن الشريعة الاسلامية التى حققت للمسلمين الأوائل العزة والرفعة والمنعة بين الأمم في الأزمنة الماضية كفيلة بأن تحقق لهم العزة والمنعة من جديد إن هم عادوا اليها خالية من شوائب الانحراف وسوء التطبيق .

وقد انبعث هذا التيار في قلب الجزيرة العربية وقاده الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ) (١٧٠٣-١٧٩٢م) هذا التيار الذى امتد ومازال يمتد حتى اليوم الى شتى بقاع العالم وانبثقت منه مختلف الحركات الاسلامية في مختلف بلدان العالم الاسلامى في العصر الحديث .

والشيخ محمد بن عبد الوهاب ولد في بلدة العيينة من اقليم نجد وتربى في بيت علم على مبادئ المذهب الحنبلى وآراء ابن تيمية في الاصلاح والتفقه في الدين معروفا بالتقوى والسلوك الصالح بين ذويه وأهله ، وحج في مطلع شبابه

لبيت الله الحرام في مكة المكرمة ، وطلب العلم في المدينة المنورة وساح في كثير من البلاد المجاورة كالشام والعراق وفارس ثم عاد الى نجد ، وقد تميز غضبا لما رآه من سوء حال المسلمين فصحت عزيمته على القيام بدعوة اصلاحية للعودة بالاسلام الى نقائه الأول وعظمته لدى المسلمين الأوائل .

وبدأ يبشر بدعوته الاصلاحية التى قوامها محاربة البدع والخرافات التى سادت في العصر العثمانى فأمر بهدم المزارات التى أصبح الناس يتوجهون إليها من دون الله ودعا الى نبذ ما لم يرد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، حتى يخلص الاسلام من البدع والرجوع به الى بساطته الأولى .

وأعلن الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته صراحة وشاع أمره في بلدان العارض في (حريملا) و (العيينة) و (الدرعية) و (الرياض) وأتى إليه كثيرون من أهل تلك البلاد وانتظموا في سلك دعوته ، وألف كتابه "التوحيد الذى هو حق الله على العبيد" وترك (حريملا) لأنها غير صالحة للدعوة لأن أهلها تآمروا على قتله ، وذهب الى (العيينة) مسقط رأسه بدعوة من أميرها (عثمان بن معمر) فكثر أتباعه بها وقصده الناس . وهدم كثيرا من القباب والمساجد المقامة فوق القبور . وقطع الأشجار التى كانت لها قداسة عند البدو من سكان اقليم نجد .

وبدأ يطبق قواعد الشرع وحدوده بمعاونة الأمير فبلغ ذلك (سليمان آل محمد) رئيس بنى خالد في الأحساء [1] ، وكان عثمان بن معمر عاملا له ،

---

[1] كان بنو خالد يسيطرون على الساحل الشرقى للجزيرة العربية في الأحساء والقطيف وسواحل قطر والبحرين وهم من الشيعة ولهم نفوذ في داخل نجد يصل الى وادى حنيفة وكان عثمان بن معمر عاملا لهم ، في زمن سليمان آل محمد فقد كانت له يد طولى في أرض العرب سيما في نواحى العراق مما يلى نجد وفي نجد نفسها وكذا أطراف الشام،إذ معسكره كبير ودولته كبيرة وعظيمة وشجاعته معروفة وقومه الخوالد أهل=

فاتصل بابن معمر يطلب منه قتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأخافه إن لم يفعل أن يقطع عنه الخراج ويمنع تجاره من الورود الى موانى الخليج .

فأمر ابن معمر الشيخ بمغادرة (العيينة) إذ ليس له حول ولا قوة إذاء محاربة سليمان ، فقصد الشيخ (الدرعية) ، وكان قد أصبح له فيها أتباع ومن بينهم أخوين لأميرها (محمد بن سعود) وهما (ثنيان) و(مشارى) . لعله يجد فيها المكان الصالح لدعوته ، وكانت رسائله لبث الدعوة قد سبقته إليها من قبل.

وينتسب أمير الدرعية (محمد بن سعود) الى أسرة يرجع أصلها الى عشيرة عنزه من قبائل ربيعة ، وربيعه أحد فرعين كبيرين يكونان القبائل العدنانية الشمالية وهى : ربيعة ومضر ، ومضر هى التى لعبت دورا كبيرا في تاريخ الاسلام ومنها قريش التى منها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت ربيعة منافسة لمضر على مدى التاريخ الاسلامى فقد حسدت ربيعة مضر لوجود الرسول عليه الصلاة والسلام منهم وجاء الخلفاء الراشدون وخلفاء الدولة الأموية والعباسية منهم . فأخذت ربيعة موقف المعارضة من الخلفاء في هذه العصور كلها فمنهم خرج الخوارج والقرامطة والغلاة الذين دوخوا الأمويين والعباسيين .

وفي مطلع العصور الحديثة خرج من ربيعة من منطقة نجد مجموعة من القبائل تسمى (العتوب) ، أو (عتبه) من منطقة الأفلاج في جنوب نجد كما سبق أن أوضحنا . وكان من بين من خرج من الافلاج الأسرة السعودية وكان يقودهم (مانع بن المسيب) الملقب (بالمريد) جد آل سعود فكان يقطن بلدة (الدروع) من أعمال القطيف ، ثم استقرت الأسرة بعد ذلك قرب (الدرعية

= بأس شديد ، وكان يغزو نجد ، إن لم يرضه كل واحد من حكامها بشيئ .انظر : د.عبد الرحيم عبد الرحمن ، الدولة السعودية الأولى ، ص٣٢-٣٣ .

في أواخر القرن السابع عشر بزعامة (مقرن بن مرخان) الذى أختار الدرعية عاصمة له سنة ١١٠٠هـ (١٦٨٢م) .[1]

وقد وجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب طريقه ممهدا الى أمير الدرعية (محمد بن سعود) ، فعندما وصل إليها في اليوم الذى أخرج فيه من العيينة وصل الى دار تلميذه الشيخ (أحمد بن سويلم) وكان من بين مستقبليه (ثنيان) و(مشارى) من أخوة الأمير محمد بن سعود وهما اللذان حاولا إقناع أخيهما الأمير بمقابلة الشيخ ، فتردد بادئ الأمر فلجأ الأخوان الى زوجته (موضى بنت أبي وطبان) من آل كثير ، وكانت ذات فطنة وذكاء فأخبراها بما يدعوا إليه الشيخ وبأهداف دعوته فأرتاحت نفسها لما سمعت من أخبار الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ثم أختارت الوقت المناسب للتحدث الى زوجها في هذا الأمر وقالت له : " إن هذا الرجل ساقه الله إليك وهو غنيمة فأغتنم ما خصك الله به" [2] .

فأقتنع الأمير بقولها ودعا أخاه مشارى وطلب منه أن يدعوا الشيخ لمقابلته ولكن مشارى أستعطف أخاه الأمير في أن يسير بنفسه لمقابلة الشيخ وقال له : " سر إليه برجلك وأظهر تعظيمه وتوقيره ليسلم من أذى الناس " ،فسار الأمير محمد بن سعود الى بيت (أحمد بن سويلم) وهناك رحب بالشيخ وقال له : " أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة ، فقال الشيخ وأنا أبشرك بالعز والتمكين وهى كلمة "لا إله إلا الله" من تمسك بها ونصرها ملك

---

[1] د . عبد الرحيم عبد الرحمن ، الدولة السعودية الأولى ، ص١٤ .

[2] د . عبد الرحيم عبد الرحمن ، الدولة السعودية الأولى ، ص٤٠-٤١ .

بها البلاد والعباد وهى كلمة التوحيد وأول ما دعت إليه الرسل من أولهـــم الى آخرهم "[١] .

ولكن الأمير خشى أمرين بعد أن يقوم بنصرة الدعوة :

أولا : أن يهجره الشيخ الى مكان آخر ويستبدل به غيره .

ثانيا : أن يقف الشيخ في وجه ما يأخذه من مال من أهل الدرعية ، لكن الشيخ طمأنه ووعده بأن يعوضه الله من الغنائم ما هو خير من الذى يأخذه من أهـــل الدرعية فبايعه الأمير على الجهاد في سبيل الله وإقامة شرع الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتم التحالف بين الشيخ والأمير على نصرة الحـــق ومحاربـــة مظاهر الشرك .

وكانت هذه بداية طيبة لآل سعود أنتشر نفوذهم بعد ذلك عن طريـــق الجهاد في شتى أنحاء الجزيرة العربية بعد أن كان أمرهم محصـــورا في الدرعيـــة فقط وليس لهم نفوذ في خارجها ، وكان هذا الإتفاق بين الأمير والشيخ حجر الزاوية في بناء الدولة السعودية الأولى وكان هـــذا الاتفـــاق أيضـــا في ســـنة ١١٥٨هـ (١٧٤٥م) .

وفي أعقاب هذا الاتفاق سارع كثير من رؤساء البلـــدان الى الدرعيـــة يخطبون ودها ، ومنهم من أعلن مناهضته للدعوة واستغرقت عمليـــة توحيـــد إقليم نجد أكثر من أربعين عاما خاضت خلالها أسرة آل سعود حربا طويلة مع مدن وقرى هذا الأقليم .

وكان أقوى أعدائه وأشدهم كراهية له هو : عرار شـــيخ الأحســـاء فأرسل إليه أول جيش سنة ١١٧٠هـ (١٧٥٧م) فهزم محمد بن سعود هـــذا الجيش وبدد شمله .

---

[١] عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج١ ، ص١١ .

وبعد وفاة محمد بن سعود سنة ١١٧٩هـ (١٧٦٥م) قام ابنه عبد العزيز من بعده بالأمر وقاد الجيش السلفى الى أقاصى أقاليم بلاد جزيرة العرب فانتصر فيها نصرا كبيرا وقد حاول شريف مكة (الشريف غالب بن مساعد) أن يصد دعوة الوهابيين ولكنه فشل .

ونظرت الدولة العثمانية الى الدولة السعودية بنظرة ملؤها الخوف نظرا لأنها تدعو الى خلافة عربية ونبذ الحكم العثمانى الذى كان سببا فى تأخر المسلمين وتوفى محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) بعد أن قويت دعوته وانتشرت في الجزيرة العربية .

وفي سنة ١٢١٦هـ (١٨٠٢م) دخل سعود بن عبد العزيز مكة وأجلى عنها الشريف غالب ، وأخرج من كان بمكة من الأتراك ، ثم استولى على المدينة بعد فتح مكة بسنتين وامتدت دعوتهم الى عسير واليمن .

ونجحت الدعوة فى تحويل كثير من قبائل الجزيرة من حياة الضياع التى عمادها التقاتل والتناحر على أتفه الأشياء الى رجال ذوى مبادئ سامية يستشهدون من أجلها ، كما أصبح لهم قوة لا تطاق وعزيمة لا تنثنى بسبب العقيدة الدينية التى بثها فيهم ابن عبد الوهاب ، وتملكهم شعور دينى جياش شحذ هممهم بالتصميم .

فانتشرت الدعوة بفضل هؤلاء الرجال فى جميع أنحاء نجد وامتدت الى الحجاز وأطراف الشام والعراق واعتبر الوهابيون هذا النجاح مجرد خطوة أولى فى سبيل فتح العالم الاسلامى قاطبة فتحا اصلاحيا دينيا تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية [1] .

---

[1] لوثروب ، حاضر العالم الاسلامى ، الطبعة الرابعة ، ج١ ، ص٢٩١ .

حملة محمد على لضرب الدولة السعودية :

وتعطلت مواسم الحج السنوية واضطربت تركيا إزاء امتداد دعوة الوهابيين واستيلائهم على الحرمين الشريفين ومنعهم الحجاج الذين لا يتبعون تعاليمهم . فاستنجدت (بمحمد على باشا) وطلبت منه أن يقضى على حركتهم ، وكان نفوذهم في ذلك الحين قد بلغ أقصى مداه ، ولم تجئ سنة ١٨١١م التى جهز فيها محمد على جيشه لقتالهم حتى كان سلطانهم قد امتد من أقصى الجزيرة الى أقصاها [1] .

فأعد محمد على جيشا بقيادة ابنه (أحمد طوسون) وكان في السابعة عشر من عمره ، ورتب له أبوه حفلة كبيرة لإلباسه خلعة القيادة وانتقاله الى معسكر الحملة (وهى الليلة التى تخلص فيها من المماليك في مذبحة القلعة) . وبلغ الجيش ثمانية آلاف رجل كثير منهم من البدو . تحت إشراف كبير تجار مصر السيد محمد المحروقى الذى تكفل بالصرف على هذه الحملة .

وتحركت الحملة برا وبحرا الى ينبع ومعها أربعة علماء من علماء المذاهب الأربعة ، وواجه الجيش المصرى قوة الوهابيين في أوجها ، وعلى رأسهم أمير شديد المراس قوى الشكيمة بعيد النظر وهو الأمير (سعود بن عبد العزيز) الملقب بسعود الكبير ، يمتاز موقفه بأنه يحارب حربا دفاعية في بلاده ومفاوزه وبين معاقله ورجاله .

وقد وجد الجيش المصرى مساعدة من سكان الثغور الحجازية (كجدة) و (ينبع) لأنهم تضرروا بسبب انقطاع قوافل الحاج فقد كانت أرزاقهم تأتيهم من الحجاج فكانت هذه العوامل هى التى قوت مركز الجيش المصرى فاحتلت الحملة (ينبع) بسهولة وزحفت الى (بدر) فاحتلها الجيش . ولكنهم هزموا عند

---

[1] عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، ص١٣١ .

وادى (الصفراء) فارتدوا الى ينبع ولم يبق من الجيش المصرى سوى ثلاثة آلاف من حملة ثمانية آلاف .

ولو أن الجيش السعودى الذى دافع عن وادى الصفراء كان أكثر عددا وأكثر دراية بفنون القتال لتعقبوا جيش طوسون بعد الهزيمة وكان المحقق ألا ينجو منه أحد .

وصلت أنباء هزيمة الجيش المصرى الى محمد على ، وعمل طوسون على استمالة رؤساء القبائل فيما بين ينبع والمدينة بالهدايا فمهد له هذا السبيل للإستيلاء على المدينة ومكة . وأمده والده بالمدد فتحرك قاصدا المدينة وانضم إليه كثير من قبائل (جهينة) و (حرب) واحتل (الصفراء) بفضل مؤازرتهم وتدبير شريف مكة (الشريف غالب) وتم فتح المدينة وفتح مكة في يناير ١٨١٣م بفضل معاونة الشريف غالب وتم احتلال الطائف في ٢٩ من يناير ١٨١٣م .

ولكن ما لبث أن تحرج موقف الجيش المصرى فسافر (محمد علـى) الى الحجاز ومعه مدد من الرجال ، وبعد هدنة عاد محمد على الى مصر وسافر (ابراهيم باشا) بن محمد على لقيادة الحملة فانتقل بالحملة من نصر الى نصر حتى تم له فتح (الدرعية) معقل آل سعود والدعوة السلفية وعاصمتهم ، وكانت تبعد عن المدينة المنورة التى اتخذها ابراهيم باشا قاعدة لتحركاته الحربية حوالى ٤٠٠ ميل .

وكانت (الدرعية) مؤلفة من خمسة أحياء محصنة تحصينا منيعا وفيها بعض المدافع للدفاع عنها . واستمر حصارها ستة أشهر ودافع عنها الوهابيون دفاع الأبطال واشترك نساؤهم في القتال فكان دفاعهم عنها مجيدا . وسلم عبد الله بن سعود المدينة لإبراهيم باشا ، ثم أرسل إبراهيم الأمير

السعودى عبد الله بن سعود الى مصر ومنها الى الأستانة كما هى رغبة السلطان.

وانتهت الحرب الوهابية بانتصار الجيش المصرى وبسط نفوذ مصر في بلاد العرب ، وكانت هذه الحرب كما يقول عبد الرحمن الرافعى " من أشق حروب مصر في عهد محمد على وأكثرها ضحايا وأعظمها نفقات .... وكادت الحملة المصرية تقع في الأسر لولا أن القيادة الوهابية كان يعوزها الحزم والكفاية والنظام " [١] .

وكانت الحرب الوهابية من وجهة النظر المصرية المعاصرة للأحداث عملا عدائيا ضد إخوة مسلمين قاموا بدعوة سامية لتخليص الدين من الخرافات والبدع ، فالجبرتى وهو معاصر لأحداث هذه الحرب ، ويعكس وجهة النظر المصرية تجاهها ، لم يكن راضيا عنها وسجل أحداثها بمرارة ظاهرة ، تدل على عدم الرضا والاستنكار ، وسجل بعض منشورات الدعوة الوهابية التى وصلت الى مصر في كتابه (عجائب الآثار) وعلق عليها بالاستحسان قائلا : " أقول أن كان كذلك فهذا ما ندين به نحن أيضا وهو خلاصة لباب التوحيد . وما علينا من المارقين والمتعصبين " وقد بسط الكلام في ذلك ابن القيم في " إغاثة اللهفان" والمقريزى في " تجريد التوحيد " ...[٢] .

ولما انقطع الطريق على حجاج مصر والشام في سنة ١٢٢٣هـ قال :"ومن الحوادث في تلك السنة انقطاع الحج الشامى والمصرى معتلين بمنع الوهابى الناس عن الحج والحال كذلك فإنه لم يمنع أحدا يأتى الى الحج على الطريقة المشروعة وإنما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها

---

[١] الرافعى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦٢ .

[٢] عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج٣ ص٢٧٢ .

الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة ، وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله ولم يتعرض لهم أحد بشـــيء ، [١]
وقد عاب الجبرتى على قافلة الحج الشامي رجوعها في عام ١٢٢٢هـ من غير حج لأن الوهابيين شرطوا عليهم أن يحجوا بدون طبل وزمر ، فقال :"رجعـــوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم " [٢] .

وبذلك نرى أن الحركة الوهابية كانت حركة إصلاحيـــة إســـلامية ، وعليه لم تكن الحرب التى خاضها محمد على ضدهم وبـــذل فيـــها المصريـــون أرواحهم وأموالهم ، لم تكن حربا ضرورية وكانت مصر في غنى عنها ، ولقـــد ارتكب إبراهيم باشا بن محمد على في هذه الأراضى المقدسة كثيرا من الجرائـــم الوحشية ، كان على رأسها أنه حكم بقتل جميع رؤساء المذهب الوهـــابي مـــن رجال الدعوة .

وأسدل الستار الى حين على فصل من أهم فصـــول اليقظـــة العربيـــة الاسلامية عندما قضت الدولة العثمانية على الدولـــة الســـعودية الأولى ســـنة ١٢٣٣هـــ .

الدولة السعودية الثانية :

وبعد سقوط الدولة السعودية الأولى أخذ التصدع في البيت الســـعودى والانحلال يظهر وأخذ أعداء الدولة من النجديين يستفيدون مـــن الفرصـــة ، واختلف آل سعود فيما بينهم على الامارة ، كما طمع غيرهم فيها ، فطمع فيها (محمد بن مشارى بن معمر) صاحب العيينة فانتقل الى الدرعية وأخذ يســـتميل الناس إليه ، فدانت له (العارض) و (الوشم) و (سدير) غير أن أمر ابن معمـــر لم

---

[١] المصدر السابق ، ج٤ ، ص٩٠ .
[٢] المصدر السابق ، ج٤ ، ص٥٣ .

يدم ، فإن مشارى بن سعود وصل الى الدرعية سنة ١٨٢٠م وانتزع الأمر من ابن معمر بلا مقاومة تذكر غير أن ابن معمر قام ثانية فاسترد الامارة وألقى القبض على مشارى .

لكن ظهر من آل سعود رجل قوى هو (تركى بن عبد الله بن سعود) الذى استرد ملك آل سعود وقبض على ابن معمر وولده وقتلهما ، ويعد تركى هو المنشئ للدولة السعودية الثانية لآل سعود الذى استخلص الرياض من يد قوات (محمد على) واتخذها قاعدة لحكمه في سنة ١٨٢٤م واستمر تركى يحكم حتى مقتله على يد أحد أفراد أسرته وهو (مشارى بن عبد الرحمن بن سعود) في سنة ١٨٣٤م حيث خلفه إبنه فيصل الذى امتدت فترة حكمه الأولى حتى سنة ١٨٣٨م حين هزم أمام قوات محمد على واستسلم وقبل السفر الى القاهرة ، وتولى حكم نجد أحد أفراد الأسرة السعودية باسم محمد على ، وهو (خالد بن سعود) [١] .

وعقب انسحاب قوات محمد على من شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٤٠م دب الخلاف بين (خالد بن سعود) و(عبد الله ابن ثنيان) ، ولكن (فيصل بن تركى) تمكن من الفرار من مصر وعاد الى نجد واستطاع أن يسترد حكم نجد ودانت له (الأحساء) و(القصيم) و(العارض) حتى أطراف الحجاز وعسير[٢] وقد ساعده على ذلك انسحاب الجيوش المصرية من شبه الجزيرة العربية بموجب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م . [٣] وسار (فيصل بن تركى)

---

[١] د . عبد الرحيم عبد الرحمن ، تاريخ العرب الحديث ، ص٣٣١-٣٣٢ .

[٢] الزركلى ، الأعلام ، ج٥ ، ص١٦٤ .

[٣] كحالة ، ج٢ ، ص١٥٨ .

بدولته خطوات بعيدة في حسن النظام والادارة وأعاد للدولة حيويتها ومكانتها ، وكف بصره في أخريات حياته .

وفي أخريات حياته حاول أن يقيم مع بريطانيا علاقات ودية ، لكن الدولة السعودية الثانية بعد وفاته سنة ١٨٦٥م شهدت حربا أهلية بين ولديه عبد الله وسعود ثم كانت نهايتها في سنة ١٨٩١م حينما رحل عبد الرحمن بن فيصل ومعه أبناؤه وفي مقدمتهم عبد العزيز الى البادية متنقلا ومنها الى قطر ومنها الى الكويت حيث أقام في ضيافة الحكومة العثمانية .

وأتاحت عملية رحيل (عبد الرحمن بن فيصل) الفرصة أمام (محمد بن عبد الله بن رشيد) أن يستولى على السلطة في الرياض وقضى على حكم آل سعود وقوى علاقته بالدولة العثمانية . وفي عام ١٨٩٧م مات محمد بن رشيد وتولى (عبد العزيز ابن رشيد) حكم حايل ونجد .

الدولة السعودية الثالثة :

لكن الدعوة جددت شبابها عندما ظهر فى مطلع القرن الحالى الميلادى قائد قوى هو (عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود) حفيد محمد بن سعود الكبير ، فاستولت التعاليم الاصلاحية على مشاعره وتملكه شعور بالتصميم على اعادة الحركة الى قوتها لاعادة الأمة العربية والاسلامية مرة أخرى لمكان الصدارة فى السياسة والفكر . وعلى الرغم من قلة رجاله الا أن الايمان الذى تسلح به كان أقوى من كل العقبات ((وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله)) فنجح برجاله القلائل فى اعادة تجميع أنصار الحركة الذين فرقتهم الدولة العثمانية من قبل وأعاد سلطة الحركة السلفية والدولة السعودية من جديد منذ أن أعاد فتح الرياض سنة ١٣١٩هـ (١٩٠٢م) من جديد .

حيث خرج عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من الكويت ١٣١٩هـ - ١٩٠١م ، ومعه أربعون رجلا كلهم من آل سعود والموالين لهم ، وسار بجماعته ، وقد التف حولهم عشرون رجلا ، فوصل الى حدود الرياض أول الليل ، فترك من قومه هنالك عشرين رجلا على مسافة ساعتين من الرياض ، وتقدم بالاربعين الآخرين ، ولما وصل الشمسية خارج الرياض ، ترك من جماعته ثلاثين على رأسهم أخوه محمد بن عبد الرحمن ، ثم تسلق سور البلد ودخل عبد العزيز القصر باعجوبة ، وتبعه من رجاله خمسة عشر فقط وكمنوا في داخله ، وبعد دقائق خرج (عجلان) فصادفوه في الطريق فأدركه عبد العزيز بطلقة لم تدرك منه مقتلا ، فتبعه عبد العزيز ، وتصارع ابن سعود وعجلان ، واخذ رجال (عجلان) يطلقون النار من نوافذ الحصن المشرفة على السوق فقتلوا اثنين من رجال ابن سعود ، وجرحوا أربعة وتراجع المهاجمون ، وهنا دخل (عبد الله بن جلوى) ابن عم عبد العزيز وعدا وراء عجلان الذى افلت من عبد العزيز فرماه بطلقة أودت بحياته ، وبعد ساعة من تبادل رجال عبد العزيز وحرس القصر النار ، سلم حرس القصر على أن يتركوا أحياء ظنا منهم أن عبد العزيز معه من الجند ما يكفى للقضاء عليهم ، وما كاد النهار لينتصف حتى أذن المؤذن أن الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن ، وأن عجلان عامل ابن الرشيد قد قتل ، فسمع الناس واطاعوا .

وأخذ عبد العزيز بعد فتح الرياض يعمل لنقض إمارة ابن الرشيد واسترداد ملك آبائه واجداده وقد تم له ما اراد ، وقد مكث اكثر من عشرين سنة يجالد ويغالب الخصوم من النجديين والاشراف والاتراك ، يضربهم حينا ويلين حينما يرى السياسة واللين انجح من الخصام والقتال .[1]

---

[1] عمر رضا كحالة ، العالم الاسلامى ، ج١ ، ص١٥٨-١٥٩ .

ولأول مرة منذ صدر الاسلام تتحقق الوحدة العربية في الجزيرة العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ما عدا بعض الأطراف في اليمن وساحل عمان وامارات الخليج التى تمركز فيها الاستعمار الانجليزى .

وعلى الرغم مما حققه (آل سعود) من نصر الا أن عاهلهم كان على الدوام ينزل على رأى الجماعة وشوراها فلم يمتهن حرية أتباعه وبنى قومه وكانت حكومته قوية عادلة فانقطع التعدى وأمن الناس السرقات وانتشر الأمن وسادت الطمأنينة والراحة وذلك نظرا لسيادة الحكم بالقرآن وبشريعة الله الذى هو أعلم بمن خلق ، وأعلم بما يصلحهم فى حياتهم ومعاشهم ، نعم عادت السيادة للحكم بشريعة الله بالقرآن بعد أن أهملت زمنا طويلا وسادت شريعة الغاب بين قبائل العرب مرة أخرى ، ثم كانت العودة الرشيدة تحت راية التوحيد لكى يسود المجتمع الاسلامى من جديد .

غير أن هذه اليقظة الاسلامية قابلها تحديان خطيران : التحدى العسكرى الذى وجهته الدولة العثمانية اليها فقضى على نهضتها الأولى ، والتحدى الثانى : هو المخطط الاستعمارى الفكرى عن طريق المستشرقين وأعوانهم من المبشرين وأعوان الغرب من المسلمين فوصفوها بأنها حركة رجعية للعودة الى الحياة البدائية ، وخلقوا حركة موازية لها هى حركة التجديد الغربى التى أخذ رجالها يحملون لواء الخصومة الواضحة للفكر الاسلامى ومقوماته وأسسه ، وإثارة الشبهات للانتقاص من اللغة العربية والاسلام والتاريخ والتراث . وكان هذا التحدى هو أخطر ما واجه الدعوة نظرا لأن الاستعمار أعطاه إمكانيات الذيوع والانتشار بفضل أجهزة الدعاية الحديثة التى يسيطر عليها من صحافة ومدارس واذاعات لأن الدعوة السلفية عجزت فى بداية نشأتها أن تصل الى مثل هذا النشاط الاعلامى .

وأعاد التاريخ نفسه في الجزيرة العربية على يد عبد العزيز فقد استطاع هذا القائد أن يخضع الشعور القبلي العربي المتناحر من جديد وبث فيهم الأفكار التي بنت الدولة الاسلامية الأولى ، ووجه ارادتهم القتالية من حالة الضرب ضد بعضهم الى حالة الضرب مع بعضهم من أجل سيادة التوحيد والوحدة من جديد .

محاولة تحضير البدو :

لقد كان أهم ما ساعد الملك عبد العزيز على بناء الدولة السعودية الثالثة هو محاولته تحضير البدو واستقرارهم لأن هذا يمنع عملية إعتدائهم على بعضهم للسلب والنهب ، فقد عمل على إيجاد أماكن للاستقرار حول آبار المياه في أماكن صالحة للزراعة سماها (الهجر[1]) وكلمة الهجر معروفة في الجزيرة العربية بأنها هجرة البداوة الى حياة الاستقرار وبذلك عرفت منطقة البحرين في شرقي الجزيرة العربية التي اعتمدت على الزراعة بأنها منطقة هجر .

وعرف عبد العزيز من تجاربه المتكررة أن البدو الرحل إذا ظلوا يتجولون بقطعانهم فإنه لا يمكن تطويرهم كما أن تعليمهم ووعظهم ومحاولة تغييرهم إجتماعيا لا يمكن أن يتحقق إلا بالتوطين . لأن القبائل سريعة التقلب لا يؤمن جانبها ففي لحظة تخرج عن نطاق سيطرته ويهمها الأسلاب والغنائم دون اهتمام بالأهداف المثلى .

كانت خطة عبد العزيز تستهدف في البداية إجتذاب عدد صغير من البدو حول نقاط مياه مختارة بعناية تقع بعيدا عن طرق القوافل ورعايتها بالدعم

---

[1] هجر : تستعمل في خروج البدو من باديته الى المدن ، وهي من الهجران ، كأنهم يهجرون حياة البداوة وينتقلون عنها الى قرى جديدة ، وهجر بلغة حمير والعرب العاربة (القرية) فمنها هجر البحرين وهجر نجران وهجر جيزان (ياقوت ، معجم البلدان) وعندما بنى الملك عبد العزيز آل سعود قرى للقبائل للاستقرار بها أطلق عليها (هجر) .

والامتيازات ، لزيادة الرقعة المزروعة عن طريق أعمال الرى والزراعة حتى يقبل باقى البدو ويستقروا بدورهم لمضاعفة هذه الجزر الخضراء عندما يزيد عدد سكانها وفي النهاية حث البدو على الاستقرار في هذه المناطق المنتجة ، والتى تم الاستيلاء عليها رويدا رويدا من الصحراء القاحلة .

وتكفل عبد العزيز لهم ببناء المساكن وأمدهم بالبذور والأدوات الزراعية وقدم لهم الخدمات الصحية والتعليمية والدينية ، وكان ذلك كفيلا بتغييرهم وإحلال الشعور الوطنى محل الشعور القبلى حيث استقر البدوى في وطن يعيش في ظله ، ودولة توفر له الأمن والرخاء .

وما إن بدأت هذه المشروعات في النمو حتى أصبحت مصدر جذب شديد للقبائل المجاورة ، ولم يكن هناك شك في أن البدو الذين أصبحوا مزارعين سينجبون أطفالا عديدين ، كان كل شيء يدفع الى الاعتقاد أن حجم هذه الهجر (المستعمرات) سينمو بسرعة .

إنشاء حركة الإخوان :

وفي هذه المستوطنات (الهجر) بدأ عبد العزيز ينظم جيشا جديدا من هذه المستوطنات هو (جيش الإخوان) الذى لا ينتمى الى مجتمع القبيلة وإنما ينتمى الى المستوطنات الجديدة التى أقامها ، فقيام حركة الإخوان التى سيعتمد عليها عبد العزيز في حروبه تعتبر كسرا للمجتمع البدوى المبنى على أساس تضامن وحدة القبيلة ، فكان عبد العزيز يرى أن تجميع البدو في وحدات زراعية وسيلة مهمة من وسائل القضاء على النزعة القبلية عندهم .

وكانت مستعمرة الإخوان الأولى التى إقيمت في عام ١٩١٢م وهى (الأرطاوية [١]) أول خطوة في برنامج مرسوم يستهدف القضاء على النظام القبلى في الجزيرة العربية لصالح الوطن ؛ وسرعان ما أصبحت الأرطاوية المدينة المزدهرة التى تضم عشرة آلاف مواطن النموذج الذى يحتذى لمائة مستوطنة خرجت الى نور الحياة في أجزاء مختلفة من نجد أثناء الخمس عشرة سنة التالية[٢].

وبعد تنظيم حركة الإخوان وانتشارها وتطورها لم تعد السلطة الفعلية على القبائل بيد شيوخها بل انتقلت الى الحكومة المركزية التى يرأسها عبد العزيز في الرياض وأصبح الملك عبد العزيز الحاكم الفعلى والإمام الشرعى لجماعات البدو الى جانب الجماعات الحضرية [٣] .

وكفل عبد العزيز ما أصبح يعرف باسم (حركة الإخوان) التى كانت تقتضى ممن ينضمون إليها أن يكونوا إخوانا - بالفعل - ولم تكن العلاقات القبلية أو صلة الدم تعنى شيئا بالنسبة لأعضائها ، والشرع هو القانون الذى يحكمهم ، ويجب أن يهجر أفراد التنظيم الحياة البدوية ويستبدلوا بخيم الصحراء المؤقتة مساكن القرى المستقرة حيث تنموا النخيل ويمكن زراعة الحبوب ورعايتها . وأصبح البدوى لأول مرة صاحب مسكن يرتبط به ويعود إليه ونبذ حياة الترحال والتجوال ، ونمت فيه غريزة الاستيطان .

وكانت الدولة تمنح مساعدتها مجانا لمستوطنات الإخوان لبناء المساجد ، ويزود أفراد الجماعة بالذخيرة والسلاح شريطة أن يتعهدوا بالقتال دفاعا عن

---

(١) كانت الأرطاوية لقبائل مطير فهم أول من أجاب دعوة عبد العزيز لإنشاء الهجر ، وتقع الأرطاوية في شمال (سدير) وشرقى (الزلفى) وكان أميرها فيصل الدويش وكان زعيما لقبائل مطير

(٢) الموسوعة البريطانية : مجلد ١٢ ، ص٣٦ ، ٣٧ .

(٣) د . ساعد العرابى ، الملك عبد العزيز رؤية عالمية ، ص٣٤١-٣٤٢ .

حاكمهم ومبادئهم ، وقد أعطى هذا الترتيب ابن سعود نواة قوة عسكرية ثابتة يمكنه الاعتماد عليها ، وبذلك انتشرت (حركة الإخوان) بسرعة في مناطق الهجر .[1] فكان هذا اصلاح في المجال الاجتماعى والاقتصادى والعسكرى والدينى . واستعان عبد العزيز برجال الدين في هذا المشروع الذى سيضع حداً للبداوة وأشرك والده معه في هذا الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والدينى والعسكرى ، فتحمس والده له ، واجتذب إليه رجال الدين فقد كان لوالده منزلة كبيرة في صفوف العلماء . وأصبح مخطط الأمير هو مخطط العلماء وتحمسوا له لأنهم سينشئون جيشا مسلحا في خدمة الدعوة على غرار الطلائع الاسلامية الأولى في صدر الاسلام .

وبعد أن تكونت المملكة العربية السعودية بأرجائها القائمة الآن كان من رأى الإخوان بزعامة فيصل الدويش أن يتقدموا الى مملكة الأردن الهاشمية ومملكة العراق الهاشمية أيضاً ، فكان على الأولى الملك عبد الله بن الحسين وعلى الثانية أخوه فيصل بن الحسين وكلا الرجلين يمشيان في ركاب الانجليز ، وقد أنشأ الانجليز مملكة شرق الأردن كياناً مصطنعا لم تكن له خلفية تاريخية ولم يسبق أن قامت في هذا المكان دول أو حتى دويلات فأنشأه الانجليز لكى يكون دولة وظيفية لها وظيفة محدودة تظهر من خريطتها التى تحجز الشمال القومى في الشام عن الجزيرة العربية وتحجز الأفكار السلفية من أن تتسرب الى الشمال الشامى ، وكان العراق أيضا له مثل هذه المهمة الأخيرة وهى عدم سريان العقيدة السلفية الى ارض العراق تلك العقيدة التى تحض على الجهاد ضد أعداء الاسلام .

---

[1] المرجع السابق ، ص٣٤٨-٣٤٩ .

وكان من رأى فيصل الدويش قائد حركة الإخوان أن يزحفوا على هذا الشمال بعراقه وشامه مروراً بالأردن لنشر رايات العقيدة السلفية وتحرير أرض المسلمين من الغاصبين الذى وزعوها فيما بينهم غداة الحرب العالمية الأولى وخشى الانجليز من ذلك الخطر الجهادى الذى به وحده تتحرر ديار العرب فضغطوا على الملك عبد العزيز وهددوه واعتبروا ما يقوم به الإخوان على الحدود الأردنية والعراقية عملية سلب ونهب يقوم بها فيصل الدويش ورجاله وذكروا للملك عبد العزيز مهددين أنه لابد من إيقاف هذه الغارات .

ولكن حقيقة هذه الحركة أن الإخوان تمردوا على الملك عبد العزيز عندما رضخ للإنجليز بعد أن حققوا النصر له فالإنجليز كانوا يرغبون في هذا النوع من المجاهدين الذى يعلن الجهاد على أعداء الاسلام وعملائه ومنهم حاكم العراق فيصل بن الحسين ذلك الملك الذى أستوردوه من الحجاز لحكم العراق ، فالانجليز يخشون من زحف هذه القوى على العراق وشرق الأردن .

ولذلك فهم الذين ساعدوا عبد العزيز على ضرب الإخوان وتصفية حركتهم فاختلف عبد العزيز مع فيصل الدويش فولى فيصل منهم غاضبا لكن الانجليز خدعوه فلجأ إليهم فيصل وكانوا يريدون قتله لكنهم كانوا يريدون أن يكون القتل بيد عمرو لا بيدهم أى بيد عبد العزيز .

خاصة وأن موجة الأمال التى آثارها حركتهم في العالم الاسلامى والعربى كانت تقلق الانجليز وتستصرخ السعوديين وغيرهم لمواصلة الجهاد وتحرير المسلمين بعدما سقطت كل الرايات وارتفعت راية السعوديين وحدها بفضل جهاد الإخوان ، بعدما جُرِّبت كل النظريات والشعارات والمعادلات فانتهت بالحماية والانتداب وانفرد السعوديون بالاستقلال ، فكانوا أول دولة عربية كاملة الاستقلال وأصبح في مقدمة مسئولياتها تحرير الأشقاء .

وأصبح هناك خطر على العراق والأردن من الإخوان فبـــدأ فيصـــل الدويش ورجاله يهاجمون الحدود العراقية والأردنية على الرغم من رفض عبـــد العزيز لأنه قد كان قد سوى أموره مع الانجليز في مقابل أن يتركوا له الحجاز .

ولم تكن هذه المسألة مشاكل القبائل على الحدود كما سماها الانجليـز في وثائقهم وإنما كانت خوفاً من دخول الإخوان للعراق والأردن بعد أنتصارهم في الحجاز وكانت بريطانيا ترى ضرب الإخوان تدعيما لسلطة الملك عبد العزيـــز وتأيده ضد هذه الطائفة فقد أفهموه في رسائلهم بأن فيصل الدويـــش زعيـــم الإخوان إستهان بعبد العزيز وتمرد عليه .

وقد قامت السلطات البريطانية في الكويت باعتقال زعماء الإخـــوان في شعبان سنة ١٣٤٨هـــ(يناير ١٩٣٠م) وقام وفد بريطاني برئاسة الكولونيـــل بيسكو رئيس المعتمدين البريطانيين في الخليج بتسليم كل من فيصل الدويـــش وجاسر بن لامى ونايف بن حثلين الى الملك عبد العزيز في معسكره ، وشـــكر الملك عبد العزيز المسئولين البريطانيين على تعاونهم وأقر بأن هذا برهان عملـــي على صداقة الدولة الانجليزية [1] .

ولا شك أن ضرب الإخوان كان خسارة كبيرة للعالم العربي والاسلامى ذلك لأنهم أحيوا الجهاد الاسلامى وكانت سيوفهم هى الوحيدة التى تســـتطيع إقتلاع الاستعمار من منطقة الشرق الأوسط لكن حكام المنطقة ومنـــهم عبـــد العزيز مالوا الى مهادنة الانجليز خوفاً على عروشهم .

ويذهب البعض الى أن عبد العزيز رأى أن طاقة جيله انتهت بتوحيد مـد وحدته وأنه لا يستطيع محاربة بريطانيا في العراق والكويت وعدن والأردن .... الخ ، ربما لأن شعوب هذه البلاد لم تكن ناضجة للتحرير وهكـــذا اختلفـت

---

[1] د . مالك رشوان ، مشاكل القبائل على الحدود العراقية النجدية ، ص١٠٣ .

الدولة مع الثورة وكان خلافا محتوما ، وخيار كل فريق كأنه القدر المكتـوب أو الدراما الإغريقية .. بن سعود أراد فترة بناء بعد حروب دامت ٣٠ عاما ، أراد إقامة دولة نموذج تكون قاعدة لكل النشاط الاسلامى سواء باحتضان الثـائرين أو بدعمهم بالمال والسلاح وربما المتطوعين لكن دون اللجـــوء الى الفتـح أو الاصطدام المباشر مع بريطانيا وفرنسا .[1]

ويقول : " الإخوان إختاروا الثورة وما كان لهم أن يختاروا غيرها بحكم تربيتهم وعقيدتهم وتكوينهم كمؤسسة عسكرية ، إختاروا استمرار الثـــورة ، استمرار تحرير الوطن الاسلامى من حولهم ، وهل يمكن القول بـأن الإخــوان أرادوا استمرار الثورة ، حتى ولو كان الثمن تعريض الدولة السعودية للخطـر ، أم الأحرى القول بأنهم رأو أنه لا معنى ولا إمكانية لاستمرار الســـعودية إذا لم تستمر الثورة فليست القصيم بأعز على الاسلام من بغداد ودمشق والقاهرة ؟! ، وأنه إذا ما انحسرت الثورة في الدولة السعودية جفت الدولة وذوت الثورة في الصحراء كما حدث في تجربة سعود الكبير ، ويمكن القول إنهم كانوا على حـق نظريا [2] .

تأسيس المملكة العربية السعودية :

بعد ضم الحجاز وعسير والأحساء وحائل وغيرها من المنـــاطق الـتى يحكمها الملك عبد العزيز أعلن في سنة ١٩٣٢م توحيد نجد والحجاز والمنـــاطق الخاضعة له وأطلق عليها (المملكة العربية السعودية) ، واشتركت في تأســـيس الجامعة العربية في الفترة من ١٩٤٣-١٩٤٥م ، وانضمت الى هيئـــة الأمــم المتحدة سنة ١٩٥٣م وهى السنة التى توفى فيها الملك عبد العزيز وخلفه علـى

---

[1] محمد جلال كشك ، السعوديون والحل الاسلامى ، ص٦١٧-٦١٨ .

[2] المرجع السابق ، ص٦١٨ .

الحكم أكبر أنجاله وولى عهده سعود بن عبد العزيز ، وظل سعود بن عبد العزيز يحكم حتى سنة ١٩٦٢م وهى السنة التى رقعت فيها ثورة اليمن التى أطاحت بحكم الأئمة في اليمن وتم إعلان الجمهورية ، فحدث إضطراب في المملكة العربية السعودية نتج عنه تنحية الملك سعود وتنصيب ولى عهده الملك فيصل لكى يكون ملكا على البلاد ، وبعد تولى الملك فيصل تبنت المملكة العربية السعودية مسألة إعادة حكم الأئمة في اليمن وبدأت تحارب بالنيابة عنهم الحكام الجدد في اليمن الذين أعلنوا قيام الجمهورية .

وتدخلت مصر للدفاع عن ثورة اليمن من سنة ١٩٦٢م حتى ١٩٦٨م وهى الفترة التى في نهايتها تم عقد معاهدة جدة سنة ١٩٦٨م التى تم الأتفاق فيها بين مصر والمملكة العربية السعودية ، وبمقتضاها تم خروج الجيش المصرى من اليمن شريطة الحفاظ على ثورة اليمن والنظام الجمهورى الجديد وأيضا تكف المملكة العربية السعودية عن دعم المطالين بعرش الإمامة في اليمن .

النفوذ البريطاني في الخليج

اكتسب النفوذ البريطاني قوته في الساحل الجنوبي الشرقي لشبه جزيـرة العرب إبتداء من الكويت الى مسقط بوسيلتين :

أولا : نظام التعهدات المنفردة : التى عقدهما بريطانيا منذ سنة ١٨٢٠م مـع الامارات والمشيخات العربية بالامتناع عن القرصنة وتجارة الرقيق ، وأخــذت هذه التعهدات شكلا قانونيا أدى الى عقد الاتفاقات المانعة في أواخـــر القـــرن التاسع عشر ، وبذلك أصبح لبريطانيا نشاط تجارى كبير في الخليج وخاصة بعد أن حلت الملاحة البخارية محل الملاحة الشراعية العربية .

ثانيا : عقد الاتفاقات المانعة : التى مكنتها من فــرض الغرامـــات علـــى الامارات والمشيخات ، وجمع الأموال عن هذا الطريق في أواخر القـــرن ١٩، الذى وضع المنطقة تحت الحماية ، ومكن بريطانيا فيما بعد من السيطرة علـــى انتاج النفط في المنطقة .

وكانت البحرين أول مشيخة تعقد اتفاقا مانعا مـــع بريطانيـــا ســـنة ١٨٨٠م في عهد الشيخ (عيسى بن على بن خليفة) (١٨٧٠-١٩٢٤م) الذى تولى الحكم بعد تنحية أبيه بمعاونة التدخل العسكرى الانجليزى بحجـــة مخالفـــة والده للتعهدات ، وهو عبارة عن تعهد من طرف واحد أعلن فيه شيخ البحرين : " بأنه لا يتفاوض أو يدخل في اتفاق مع دولة أجنبية بـــدون إذن الحكومـــة البريطانية ، [١] وكذلك لا يسمح بإقامة مستودع في أراضية إلا بمشـــورهما ، ثم أكمل هذا الاتفاق باتفاق ثان سنة ١٨٩٢م تعهد فيه حاكم البحرين : "بعـــدم

---

[١] د . صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج ، ص١٧٨-١٧٩ .

التنازل أورهن أو تأجير جزء من أراضيه إلا بإذن الحكومة البريطانية ، وبعدم اعتماد ممثلين للدول الأجنبية في بلاده " .

وكان هذا هو نظام الحماية دون اعلانه ، ومن أهم مظاهره الاشراف على السياسة الخارجية للإمارة الموضوعة تحت الحماية ، ولكن بريطانيا أطلقت عليه نظام الاتفاقات المانعة ، وبذلك قطعت بريطانيا الطريق على الدول الأخرى من التدخل في إمارات الخليج الضعيفة ، مثل فرنسا وفارس وغيرهما .

وهكذا استطاعت بريطانيا أن تسيطر على الساحل الغربي للخليج كله حيث الكويت وقطر والبحرين وإمارات ساحل عمان التي أطلقت عليها إمارات الساحل المتصالح أو المهادن ، وتم لبريطانيا أن تعقد مع أمراء ومشايخ هذه المنطقة في القرن التاسع عشر معاهدات أو تنتزع منهم إلتزامات من جانب واحد دون مقابل ، بأن يمتنعوا عن التصرف في أراضيهم بأى وجه من الوجوه إلا بموافقة سابقة من بريطانيا الدخيلة القيمة . وكذلك تتولى بريطانيا جميع الشئون الخارجية لإمارات الخليج ، وتتدخل في شئونها جميعا بواسطة المقيم السياسى العام في البحرين ، والمعتمدين في سائر الامارات ، وتتشبث بهذه الأقاليم العربية تشبثا عجيبا .[1]

ولقد عملت بريطانيا على عدم ذوبان تلك الإمارات في الدول المجاورة ، وذكر المقيم البريطاني في الخليج في سنة ١٩٥٩م بأن بريطانيا " لن تضحى الآن أو غدا مطلقا بهذه المشروعات الضخمة الجبارة – ويجب المحافظة بأى ثمن

---

[1] د . سيد نوفل ، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي وجنوب الجزيرة ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، ص٦٠-٦١.

على السلام في هذه المنطقة ، والنفوذ البريطاني يجب أن تبقى له الكلمـــة الأولى والأخيرة [1] " .

أسباب تمسك بريطانيا بهذه المنطقة :

ويرجع السبب في تمسك بريطانيا الى أن الدولة التى تستولى على الخليج وساحل عمان تستطيع أن تحكم جزيرة العرب والعــراق وإيــران وأفريقيــا وتستطيع أن تغلق قناة السويس وأن تقطع خطوط المواصلات الجوية والبحريـة الى الهند وأفريقيا . لأن الخليج هو قلب الشرق الأوسط جغرافيا ، بالإضافــة الى أن المنطقة هى مصدر بترولهم وبترول حلفائهم في أوربا الغربية والولايــات المتحدة الأمريكية .

بالإضافة الى ذلك أنها قلعة التهديد الأجنبى للشرق الأوسط الـــذى لم يتخل الاستعمار بعد عن أعماله العدوانية فيه بل زادت أطماعــه ومحاولاتــه . والذى ساعد بريطانيا على السيطرة أن البلاد العربية في هذه المنطقة ، استحال عليها تكوين دول عربية موحدة بسبب التنازع والتفاخر بالأنساب والحــرص على الثارات ، ونتيجة لذلك تعددت الوحدات السياسية الضعيفة ، وحافظت بريطانيا جاهدة على هذا الوضع بل إنها مضت في تشـــجيع عمليــة تفكــك الوحدات حتى يتمهد لها السبيل الى السيطرة عليها جميعا ، وكـــان لهـــا مـــا أرادت.[2]

تدهور بريطانيا بعد الحرب الثانية والتدخل الأمريكى : بدأ الاتصال الأمريكى بالشرق الأوسط منذ عقد الولايات المتحدة لمعاهدة مودة وتجارة مــع

---

[1] المرجع السابق ، ص٦٢ .

[2] د . حسن سليمان ، الكويت ماضيها وحاضرها ، نشر المكتبة الأهلية بغداد ١٩٦٨م ص١٤٥ .

سلطان مسقط تمنح المرور والاقامة لرعايا الولايات المتحدة في مسقط في عـــام ١٢٤٩هـ(١٨٣٣م) .

وتكفلت بريطانيا بحماية هذه العلاقات ، وكانت الحكومة الأمريكيـــة تميل الى اعتبار المنطقة منطقة بريطانية ، وظهرت المطامع الأمريكية في الخليـــج واضحة منذ عام ١٩٢٤م وأخذ بعض الأمريكيين المستعربين يتنقلون في المملكة العربية السعودية بحثا عن البترول وظهر التنافس الأمريكى البريطانى .

وتدخلت أمريكا بقوة في نشأة إسرائيل وجعلها أداة لتـــهديد العـــرب ومصدرا للإضطراب في الشرق الأوسط فساعدت في الأمم المتحـــدة لإقـــرار مشروع تقسيم فلسطين بين العرب واليهود سنة ١٩٤٧م وأعترفت بإســـرائيل فور إعلان قيامها في ١٥ من مايو سنة ١٩٤٨م وامدتها بالسلاح والغذاء .

وكان هذا التحول الأمريكى في السياسة تجاه الشرق الأوسط خاصـــة والعالم عامة نتيجة لتدهور الاستعمار البريطانى وضعفه ورغبة في ملئ الفـــراغ الغربى [١] والبريطانى .

---

[١] د . سيد نوفل ، المرجع السابق ، ص٨٨-٩٤ .

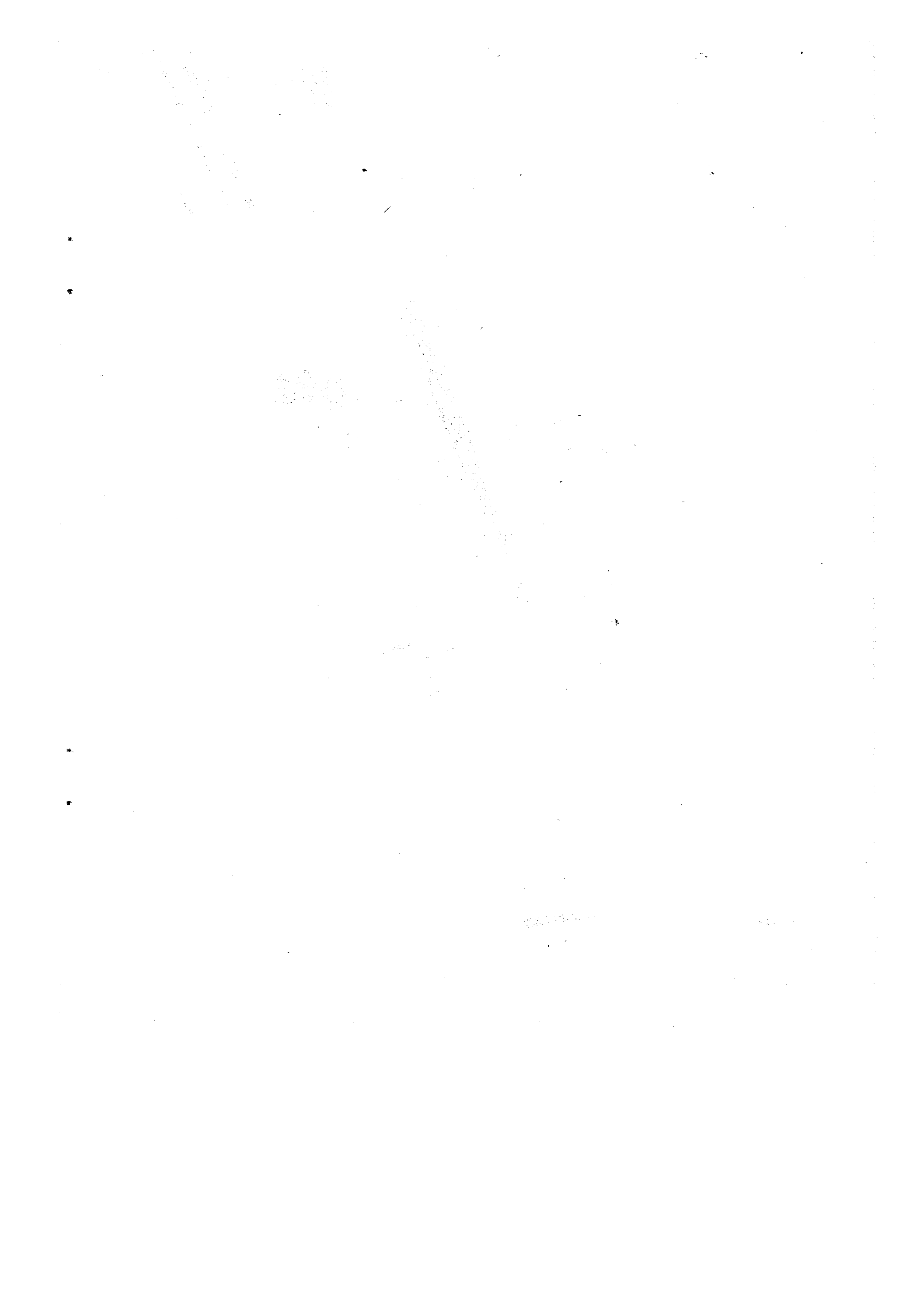
الباب الثانى

دول الهلال الخصيب

العراق - سوريا - لبنان - فلسطين

الفصل الأول

الجمهورية العراقية



الفصل الأول

الجمهورية لعراقية

العراق تحت الحكم العثمانى :

ظل العراق مجال شد وجذب بين العثمانيين والصفويين حتى قام السلطان (سليمان المشرع) على رأس حملة على العراق سنة ٩٤١هـ(١٥٣٤م) وأتم فتحه ودخل بغداد ،و حاول الحرص على عدم الإساءة الى مشاهد الشيعة الامامية بالعراق ، ولذلك زار الكثير من مزاراقم وعلى الأخص في كربلاء والنجف ، وأوقف عليها الكثير من الأوقاف ، كما بنى سد السليمانية على الفرات الأوسط لحماية العتبات المقدسة في كربلاء من مياه الفيضان في الربيع وزار قبر (الإمام على) رضى الله عنه في النجف ، ولكنه في الوقت نفسه لم يغفل عن إرضاء السنة كذلك .

وقبل أن يغادر السلطان سليمان العراق بعث إليه حاكم البصرة العربي بابنه (راشد) يحمل إليه مفاتيح البصرة ، رمزا للخضوع ، وبذلك خضعت البصرة أيضا للنفوذ العثمانى ودخل أمراء كل من القطيف والبحرين في طاعة العثمانيين ، وهكذا خضع العراق من شماله الى جنوبه للحكم العثمانى ، على الرغم من عودة الإيرانيين الى محاولة استرداده المرة بعد المرة ، ولم ينته الصراع بين إيران والدولة العثمانية إلا في عام ١٧٤٧م حين خضع العراق نمائيا للحكم العثمانى .[1]

---

(1) انظر : للمؤلف ، الدولة العثمانية وعلاقتها بالعالم الاسلامى وأوربا ، ص٤٥ .

وكان العثمانيون يرسلون الى العراق واليا يسمى الباشا على رأس الحكومة المحلية ، ويرسلون القاضي رئيس السلطة القضائية والدفتردار رئيس الإدارة المالية ، وكان كل هؤلاء من الأتراك وكل هؤلاء أعضاء بديوان يمثل مجلس شورى الولاية .

وظل العراق يحكم بالولاة القادمين من اسلامبول المعينون من طرف السلطان العثماني حتى سنة ١٧٤٩م حيث تولى الولاية زعيم المماليك الذين رباهم (أحمد باشا) وهو (سليمان) الذى كان نائب الوالى (كتخدا الباشا) وبه قامت دولة المماليك بالعراق عقب وفاة أحمد باشا ، واقتنى سليمان عددا كبيرا من المماليك وألف منهم جيشا مدربا على حمل السلاح الحديث ، وعين كثيرا منهم في المناصب الادارية واستبعد الموظفين العرب والأكراد من المناصب وبذلك ثبت حكم المماليك الذى استمر أكثر من ثمانين عاما .[1]

وكان داود باشا (١٨١٧-١٨٣١م) آخر باشوات المماليك في العراق ، واتجه داود باشا الاتجاه الاستقلالى الذى بدأه سليمان باشا أول حكام المماليك ، وحارب النفوذ البريطاني والتسلط العثماني على العراق ، وانتهز فرصة القضاء على جيش الانكشارية في اسلامبول ، فوضع خطة للقضاء عليهم في بغداد ونجحت هذه الخطة دون إراقة دماء .

فأدرك السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) أن مماليك العراق يتخذون طابعا استقلاليا فاتخذ قرارا بعزل داود باشا سنة ١٨٣١م وأرسل جيشا بقيادة (على رضا) استولى على بغداد وقبض على داود باشا وأرسل الى اسلامبول أما بقية المماليك فدبر (على رضا) مذبحة لهم شبيهة بمذبحة المماليك في مصر على يد محمد على سنة ١٨١١م .

---

[1] د . أحمد شلبي ، مرجع سبق ذكره ، ج٧ ، ص٧٨٧-٧٩٣ .

عهد مدحت باشا :

وحكمت الدولة العثمانية العراق بعد المماليك بمجموعة من الولاة بعد علي رضا ما يقرب من قرن من الزمان أغلبهم لا يستحق الذكر سوى (مدحت باشا) الذى كان يلقب بـ(أبو الدستور) وقد جاء مدحت باشا الى العراق سنة ١٨٦٩م فأقام بها ثلاث سنوات قام فيها بكثير من الاصلاحات فأقام المنشآت والمستشفيات ودور العجزة والأيتام وشيد المدارس ومد خط ترام ببغداد وأصدر أول جريدة عراقية هى (الزوراء) ، وأنشأ نظام البلديات للعناية بالإنارة والمياه والنظافة والحراسة . وأسس المجالس المحلية ، وفرض نظام التجنيد الاجبارى ، وقسم العراق الى ثلاث ولايات هى :

١.ولاية بغداد .

٢.ولاية البصرة .

٣.ولاية الموصل .

واهتم بتوطين القبائل الرحل ووزع الأراضى الزراعية عليهم ، لكن هذه الاصلاحات لم يكتب لها الاستمرار بسبب قصر مدة ولاية مدحت باشا.[١]
ومدحت باشا الذى تولى بعد ولاية العراق سوريا لاحظ خلال ولايته الأضرار الناجمة عن نظام المركزية العثمانى المفرطة وشرح هذه الأضرار في تقاريره ، وطلب من الدولة العثمانية الاقلاع عن هذا النظام الى نوع من اللامركزية .

إلا أن الدولة تمسكت بنظام المركزية ، بل صارت تزداد تشددا فيه سنة بعد سنة ، فقضية المركزية واللامركزية لعبت دورا هاما في سياسة الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى .[٢]

---

[١] المصدر السابق ، ج٧ ، ص٧٩٩-٨٠٠ .

[٢] ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص٩٤ .

ويلاحظ أن (مدحت باشا) أثناء ولايته في العراق اهتم به بعيــدا عــن اسلوب المركزية المقيت ، وهذا هو الذى جعل مصر في عهد محمد على تتقــدم عن سائر الولايات العربية بعد انفصالها عن الدولة العثمانية في الشئون الادارية الداخلية وتركها لنظام المركزية العثماني الذى كان يصر على إدارة الولايــات العثمانية بتسلط من الباب العالى وإدارته المتعفنة في إستنبول والذى كــانت لا تراعى مصلحة الولايات الداخلية .

العراق تحت حكم الإستعمار الانجليزى :

كانت الدولة العثمانية تسيطر على العراق حتى قيام الحــرب العالميــة الأولى سنة ١٩١٤م ، ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالميــة مــع ألمانيــا والنمسا والمجر ضد الحلفاء وهم بريطانيا وفرنسا وروسيا وغيرها من الــدول ، وكانت المشاريع الألمانية قد ظهرت في العراق وأهمها سكة حديد بغداد التى تمتد الى تركيا ، وكانت ألمانيا تود أن توصل سكة حديد بغداد الى الكويت ، وكــان الانجليز لا يريدون قوة عسكرية أخرى في الخليج العربي ، وكانوا ينظــرون الى الألمان على أنهم يريدون مد نفوذهم الى الخليج سبب علاقتــهم الوثيقــة مــع الأتراك .

ومن ثم بدأت بريطانيا تناوئ الألمان في مشاريعهم في العراق ، وتربصوا بها ، وحاول الانجليز أن يكون العراق من نصيبهم بعد الحرب نظــرا لأهميتــه الاستراتيجية ، ولوجود البترول فيه بكميات كثيرة ، ولذلك نصــت اتفاقيــة (سايكس – بيكو) سنة ١٩١٦م المعقودة بين روســيا القيصريــة وبريطانيــا وفرنسا على دخول العراق تحت الانتداب الانجليزى بعد نهاية الحرب العالميــة الأولى .

وأرسل الانجليز جيشا انجليزيا هنديا في سنة ١٩١٧م استولى على ولايات البصرة وبغداد والموصل وتمت هزيمة القوات التركية ، وحكم الانجليز العراق حكما مباشرا .

ونشرت السلطات البريطانية المحتلة في سنة ١٩١٨(١٣٣٧هـ) منشورا وعدت فيه العراقيين بالحرية والاستقلال ، وأعلنوا أنهم ما جاءوا فاتحين ولا مستعمرين بل محررين ومنقذين ، هذا بالإضافة الى منشورات الشريف حسين بن على التى كانت تذاع وتنشر في العراق وكلها تبشر العرب بقرب تحريرهم وإنقاذهم ، وكان كل من العراق وسوريا مجالا لنشاط الشريف حسين وأولاده .

لكن العراقيين وجدوا الانجليز يعينون لكل مدينة من مدنهم حاكما عسكريا باسم الحاكم السياسى ، فأدرك العراقيون أن الانجليز عازمون على البقاء في العراق وحكمه حكما عسكريا .

ومع ذلك ادعت بريطانيا في منشور لها في العراق سنة ١٩١٨م أن سياسة الحكومة البريطانية تسعى دائما الى تنشيط روح الوطنية والاستقلال في جميع البلاد التى يمتد إليها النفوذ البريطانى والنفع الذى يعود على أهالى البلاد من انعاش هذه الروح ، وقالت إن ذلك سيتم تدريجيا ولا يمكن إحرازه دفعة واحدة . فاتضح للعقلاء أن الانجليز لا يريدون الخروج من العراق .

وزاد من سخط الشعب ما أعلنه الحاكم السياسى في المدن والأقاليم مما وزعوه من أسئلة على رؤساء العشائر والعلماء وذوى الرأى من الأسئلة الآتية :

١ .هل تريدون تأليف حكومة عربية مستقلة تحت حماية بريطانيا ، تضم البلاد الواقعة من شمالى الموصل الى خليج فارس .

٢ .هل تريدون أن يرأس الحكومة أمير عربى .

٣.من تختارون لرئاسة هذه الحكومة .

وأضاف الى هذه الأسئلة مادة تقضى على الحكام بأن يسعوا لحمل الشعب على انتخاب المعتمد الانجليزى في الخليج المستر (برسى كوكس) رئيسا للدولة العراقية الجديدة .[1]

فثار العراقيون ثورة شاملة في البلاد ، وأسسوا جمعيات تحمل لواء المقاومة وأحزاب سياسية مثل :

١.جمعية العهد القديمة العراقية .

٢.جمعية حرس الاستقلال .

٣.جمعية الشبيبة .

وزاد نشاط هذه الجمعيات في العمل على استقلال البلاد ، ومناوأة الاستعمار الانجليزى ، وقام العراقيون بحرب عصابات ضد جيش الاحتلال الانجليزى ، واتخذت (جمعية العهد) لها مركزا في (دير الزور) على الحدود مع سوريا بقيادة (رمضان شلاش) لنشر دعوتها الثورية ، فأرسلت النشرات والصحف والتقارير لإذاعتها في المدن العراقية لتوعية الشعب العراقى . وطلبت من العراقيين في الجيش أن يستقلوا ويتوجهوا الى (دير الزور) للاشتراك في حرب العصابات لمقاومة الانجليز لحملهم على اعلان استقلال البلاد .

المؤتمر الوطنى في دمشق سنة ١٩٢٠م:

تجمع زعماء العرب وبعض العسكريين من كل من سوريا وفلسطين والعراق يدفعهم الحماس العربي القومى ، واتفقوا جميعا على الوحدة والاستقلال ، ورفضوا الذهاب الى أوربا على أساس التفاوض على تقسيم بلادهم بين نفوذ فرنسى وآخر بريطانى ، ثم اجتمع المؤتمر الوطنى واتخذ قرارات في غاية الخطورة

---

[1] عمر رضا كحالة ، العالم الاسلامى ، ج٢ ، ص٣٤٤ .

فأعلن استقلال سوريا (بما فيها لبنان وفلسطين) كدولة ملكية دستورية ، ونادوا بالأمير فيصل بن الحسين ملكا عليها .[١]

واجتمع رجال العراق في مؤتمر وطني لهم مشابه للمؤتمر السورى وقرروا استقلال البلاد العراقية المسلوخة من تركيا بحدودها المعروفة من شمالى ولاية الموصل الى خليج فارس استقلالا تاما ، لا شائبة فيه ، وأيدوا استقلال سوريا التام ، وأعلنوا اتحاد العراق بها اتحادا سياسيا واقتصاديا ، ونادوا بالأمير (عبد الله بن الحسين) ملكا دستوريا على العراق ، وبالأمير (زيد بن الحسين) نائبا للملك ، وأعلنوا انتهاء الحكم العسكرى الحاضر ، على أن تقوم مقامه حكومة وطنية مسئولة أمام الشعب .

وأعلن المجتمعون صداقتهم للحلفاء واحترام مصالحهم ، ومصالح جميع الدول الأجنبية ، وعلى الحكومة العراقية التى تتشكل عاجلا تنفيذ قرارنا هذا[٢] . ولم يكن لقرارات هذا المؤتمر أى نتيجة عملية ، لأن الانجليز كانوا يحتلون العراق والفرنسيين كانوا يحتلون سوريا ، وكان في استطاعة الدولتان كسب العرب لو أنهما عملتا على تحقيق رغباتهم السياسية والقومية ، لكن الدولتين أعلنتا في تصلب بطلان قرارات (مؤتمر دمشق) ، ودعيا فيصل للسفر الى أوربا.[٣]

مؤتمر الحلفاء في سان ريمو ١٩٢٠م:

اجتمع الحلفاء في مؤتمر لهم في (سان ريمو) في ٢٥ من ابريل ١٩٢٠م ، وقرروا وضع كل الأقاليم العربية الممتدة من البحر المتوسط حتى حدود إيران

---

(١) د . جلال يحيى ، العالم العربى الحديث ، ج١ ، ٦١٤ .

(٢) عمر رضا حكالة ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٣٤٦ .

(٣) د . جلال يحيى ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٦١٤ .

تحت نظام الانتداب ، وانتداب بريطانيا لحكم العراق ، وأعلنت بريطانيا قرارها بقبول قرار مؤتمر الحلفاء في (سان ريمو) ، بوضع العراق تحت انتدابها لتدريبه على أساليب الحكم الذاتي ، وسوريا ولبنان تحت انتداب فرنسا .[١]

وقسم سوريا الى أقسام من بينها فلسطين ولبنان وترك البقية لكي تحمل اسم سوريا ، وذكروا أن الانتداب الانجليزى على فلسطين سينفذ مع تطبيق تصريح بلفور وزير خارجية بريطانيا سنة ١٩١٧م وهو التصريح الذى يعطى الحق لليهود بالعودة الى فلسطين وإنشاء وطن قومى لهم بها ، وضربوا عرض الحائط حق الشعب العربى في تقرير مصيره كما أعلنها الرئيس نلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في إعلانه المشهور .

مؤتمر القاهرة في فبراير سنة ١٩٢١م :

كانت حرب العصابات قد نالت في العراق من القوات البريطانية ، وكبدت بريطانيا خسائر كثيرة في الأرواح وزادت المصاريف اللازمة لقوات الاحتلال ، ففكرت الحكومة الانجليزية في تطوير سياستها في المنطقة بشكل يقلل من الخسائر ولا يتعارض مع المصالح البريطانية ، فأرسلت السيرونستون تشرشل وزير المستعمرات في ذلك الوقت الى القاهرة ، لعقد مؤتمر في القاهرة لدراسة الحالة في الشرق الأوسط .

واجتمع تشرشل بالوفد العراقى القادم من بغداد ، كما اجتمع بالأمير (فيصل بن الحسين) ، ودارت المحادثات بين فيصل ولورانس وتشرشل ، واتفقوا جميعا على أن تسلم انجلترا إدارة العراق لحكومة عربية ، ويحاولوا الحصول على تعيين (فيصل) ملكا على العراق ، ثم يدخلون في مفاوضات معه لعقد معاهدة تحالف مع انجلترا تحل محل نظام الانتداب ، وتنال الحكومة البريطانية

---

[١] عمر رضا كحالة ، مرجع سبق ذكره ، ج٢ ، ص٣٤٦ .

بعض مزايا اقتصادية ، وتنص على استخدام مستشارين وأخصائيين بريطـــانيين لمساعدة الموظفين العراقيين .

وفي ١١ من يوليو سنة ١٩٢١م قرر مجلس الوزراء العراقـــي باتفـــاق الآراء المناداة بفيصل بن الحسين ملكا على العراق ، وذلك بناء على اســـتفتاء جرى بواسطة لجان ألفتها الوزارة ، وأوفدتها الى المدن العراقية .[1]

وبعد أن انفردت بريطانيا بالسيطرة على الخليج العربي والعراق نـــادت الولايات المتحدة الأمريكية بسياسة الباب المفتوح في الخليج ، وأن يكون لهـــا نصيب في بترول العراق بنسبة حوالى ٧٥,٢٥% من أسهم شـــركة بـــترول العراق ، ومنحت كل من فرنسا وبريطانيـــا وهولنـــدا ٢٣,٧٥% والبـــاقى للوسيط الأرمنى (سركيس) وهذا بموجب اتفاق الامتيـــاز الـــذى صـــدر في ١٩٢٣م وتأكد في عام ١٩٢٩م .

وتم عقد معاهدة بين العراق وبريطانيا سنة ١٩٢٢م تم بموجبها الغـــاء الانتداب على العراق إسميا فقط .

وتكونت في العراق سنة ١٩٢٢م ثلاثة أحزاب هي :

١. الحزب الوطنى العراقى : برئاسة جعفر أبو التمـــن المدافـــع عـــن الملكيـــة والاستقلال والوحدة العراقية .
٢. حزب النهضة العراقية : ويتمسك بالاستقلال وتأكيد الوحدة العراقية .
٣. الحزب الحر العراقى : برئاسة محمود النقيب ، وكان يؤيد عقـــد معـــاهدة تحالف مع الانجليز .[2]

---

[1] المرجع السابق ، ج٢ ، ص٣٤٧ .

[2] د . رأفت الشيخ ، تاريخ العرب المعاصر ، ص٤٢-٤٤ .

هذا بجانب عدة أحزاب أخرى تأسست فيما بعد فقد ألف نورى السعيد (حزب العهد العراقى) سنة ١٩٣٠م ، وعقد بصفته رئيس وزراء العراق معاهدة مع بريطانيا ، سنة ١٩٣٠م خففت من قيود معاهدة ١٩٢٢م . واعترفت باستقلال العراق ، ووعدت بمساعدته على الدخول في عصبة الأمم ، وسمحت بالتجنيد الإجبارى ، وحلت بعض القضايا الاقتصادية والمالية .

وتكونت معارضة لسياسة نورى السعيد الموالية للإنجليز برئاسة (ياسين الهاشمى) الذى كون (حزب الاخاء الوطنى) مع (الحزب الوطنى العراقى) للوقوف في وجه المعاهدة التى أبرمها (نورى السعيد) ، ونتج عن ذلك اندماج الحزبين الإخاء والوطنى في حزب واحد هو : (حزب الإخاء الوطنى) برئاسة (رشيد عالى الكيلانى) سنة ١٩٢٨م .

وتوفى الملك فيصل في سنة ١٩٣٣م فجأة في سويسرا في حادث أودى بحياته ، ويعلم الله أسرار ذلك الحادث في وقت كان يمهد فيه لبدء سياسة جديدة في ميدان الوحدة العربية باتفاق مع بعض القادة السوريين .[١]

وخلف الملك فيصل في حكم العراق ابنه الملك (غازى) الذى استمر في الحكم حتى سنة ١٩٣٩م حيث أعلن أنه مات في حادث تصادم سيارته بعمود كهربائى بالقرب من قصره ، ولم يصدق الشعب العراقى النبأ ، وراحت اشاعات مفادها أن الانجليز ، أو عمالهم هم الذين قتلوا الملك لأنه كان يفضح دسائسهم واضطربت بغداد اضطرابا شديدا لهذه الفاجعة .

وامتدت الاضطرابات الى سائر المدن العراقية ففى الموصل هاجم الشعب القنصلية البريطانية وقتلوا القنصل البريطانى انتقاما لدم غازى .

---

(١) د . جلال يحيى ، مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص٢١ .

فأعلن مجلس الوزراء العراقى الأحكام العرفية في مدينـــة الموصـــل وفي القرى المجاورة لها ، وأعلن مجلس الوزراء القرارات الآتية :

١ .اعلان ولى العهد (فيصل بن غازى) ملكا على العراق وفقا للمادة ٢٠ مـــن القانون الأساسى وكان سنه أربع سنوات .

٢ .تسمية الأمير (عبد الإله) وصيا على الملك الطفل حتى يبلغ سن الرشـــد ، وهو خال الملك الجديد .

٣ .دعوة مجلس النواب المنحل تمهيدا لاجتماع مجلس الأمة للبت في أمر الوصاية [1] . وبلغ الملك فيصل سن الرشد سنة ١٩٥٣م فتولى سلطاته الدستورية وعين خاله وليا للعهد ، وظل فيصل الثانى ملكا حتى قتل سنة ١٩٥٨م على يد قوات الثورة . وبموته انتهت الأسرة المالكة في العراق وقام النظام الجمهورى .

العراق إبان الحرب العالمية الثانية :

وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م وحاول الوطنيـــون في العراق بزعامة (رشيد عالى الكيلانى) زعيم (حزب الإخــــاء الوطـــنى) منـــاوأة بريطانيا ، وتطلعوا لإقامة علاقات مع ألمانيا عدوة بريطانيا مـــن أجـــل تحقيـــق الاستقلال ، وكان (نورى السعيد) يتزعم اتجاها آخر موالياً لبريطانيا ، وكان في هذه الفترة يترأس مجلس الوزراء ، فأعلن الحرب على ألمانيا وطرد رعاياها مـــن العراق فاستاء العراقيون من ذلك فاضطر الى الاستقالة .

وشكل (رشيد عالى الكيلانى) الوزارة التى عرفت بالوزارة الوطنية مـــن سنة ٤٠-١٩٤١م واستاءت بريطانيا من سياسة هذه الوزارة ، لتعاونها مـــع ألمانيا وسياستها القومية ومناصرتها للفلسطينيين ضد اليهود في فلسطين وعلاقتها مع مفتى فلسطين (السيد محمد أمين الحسينى) ، وعلاقاتها مع دول المحور .

---

[1] عمر رضا كحالة ، ج٢ ، ص٣٤٨-٣٤٩ .

وشكلت هذه السياسة التى أعلنها (رشيد الكيلانى) ثـورة وأعلـن استئناف الاتصالات البرقية بين ألمانيا وإيطاليا ورفض قطع العلاقات مع إيطاليا ، وعدم إيقاف الدعاية المؤيدة للألمان والمعادية لبريطانيا في الصحف وأعلن عـن قرب استئناف العلاقات مع ألمانيا ، ومحاولة اتخاذ موقف الحياد في الحرب بـدلا من التحالف مع بريطانيا .

ثورة رشيد عالى الكيلانى :

حركة رشيد عالى الكيلانى [1] زعيم (حزب الاخاء الوطنى) تظـهر في بداية الحرب العالمية الثانية ، وفي أوائل نيسان (أبريل) ١٩٤١ رأى الوصى على العرش أن ضباط الجيش العراقى أصبحوا هم ولاة الأمر الحقيقيين في بغـداد ، وأنهم متضامنون مع السياسى العراقى رشيد عالى الكيلانى ، وأن أفضل وسـيلة لاضعافهم هو تفريقهم في مناطق بعيدة .

وعلى أثر ذلك اجتمع الضباط الأربعة وهم : (صـلاح الصبـاغ) و (كامل شبيب) و (محمود سليمان) و (فهمى سعيد) فقرروا التكاتف التام فيمـا بينهم ، ومناوأة سياسة التفريق التى أراد الوصى أن يطبقها على كبار رجـال الجيش .

وتطورت الأمور بسرعة ففى ٥ من نيسان (أبريل) ١٩٤١م اسـتقال (طه الهاشمى) من الحكومة ، وكلف ضباط الجيش (رشيد الكيـلانى) بتـأليف

---

[1] رشيد عالى الكيلانى ، ولد ونشأ وتعلم في بغداد والتحق بكلية الحقوق العراقيـة ، وشـارك في ثـورة (١٩٢٠م) وعين وزيرا للعدل سنة ١٩٢٤ ، وانتخب نائبا في البرلمان ، وتولى رئاسة الوزارة العراقية أربـع مرات ، وقاد ثورة العراق سنة ١٩٤١م وحارب بريطانيا ، فقاتله الانجليز بجيش الأردن ففر الى ألمانيـا ، ولجأ الى الملك عبد العزيز مستجيرا به فحماه الى وفاة عبد العزيز سنة ١٩٥٣ فاعتقله عبد الكريم قاسـم ثم أطلق سراحه فعاد الى القاهرة ثم تركها الى لبنان حيث توفى بها سنة ١٩٦٥م ونقل جثمانه الى بغداد .
أنظر : الزركلى ، الأعلام . ترجمة رشيد عالى الكيلانى .

الوزارة ، فقبل المهمة وألف الوزارة التى أطلق عليها (حكومة الدفاع الوطنى) وغادر الوصى على العرش العراق الى عمان ، واجتمع مجلس النواب العراقى ، وانتخب الشريف شرف وصياً على العرش بدلا من عبد الإله الهارب .

واستعدت القوات الانجليزية لضرب الثورة مستعينة بقوات (الفيلق العربى) الأردنى الذى كان بقيادة الضابط الانجليزى (جلوب) ، والتى كانت قواته مرابطة في قاعدة "الزرقاء" في (المفرق) في شرقى الأردن ، وكانت منطقة المفرق بالأردن مرتكزاً رئيسيا لقيادة القوات البريطانية في الشرق الأوسط ، وكانت قوات (الفيلق العربى) في طليعة القوات البريطانية التى ضربت ثورة (رشيد عالى الكيلانى) ، وأعادت الفرع العراقى للأسرة الهاشمية الى عرش بغداد بعد طرده منها .[1]

وكادت ثورة الكيلانى تنجح لولا أن الطيران الألمانى الذى وصل الى العراق فشلت خطته في معاونة الثوار وتم إسقاط الطائرات الألمانية عن طريق القوات الانجليزية وكان لقوات (الفيلق العربى) الأردنى دور كبير في هذا المجال حيث كان أقوى جيش عربى من ناحية التسليح والتدريب على الرغم من قلة أعداده .

وزحفت القوات البريطانية على العراق وأعادت العراق الى السيطرة البريطانية ، وعاد عبد الإله ونورى السعيد تحت رماح الانجليز وتسلطوا على حكم العراق ، وسقطت حكومة (رشيد عالى الكيلانى) في صيف علم ١٩٤١م ، وخرج هو ورفاقه من بغداد وبدأ الحكم الجديد الانتقام من الوطنيين .

---

[1] محمد حسنين هيكل ، من مقال له في مجلة (وجهات نظر) القاهرية ، بعنوان : شخصية الملك حسين ، عدد أبريل سنة ١٩٩٩م .

وصار (نورى السعيد) أبرز الشخصيات السياسية التى تولت الــوزارة عدة مرات من ١٩٤١م حتى قيام ثورة ١٩٥٨م ، وكــان أكــثر الزعمــاء العراقيين موالاة للغرب وبريطانيا .[1]

وتألفت وزارة برئاسة (جميل المدفعى) وقبضت السلطات البريطانيــة على كثير من الثوار وأبعدهم الى روديسيا ، وحكمت على الضباط الزعمــاء بالإعدام وهم الصباغ وفهمى سعيد ومحمود سلمان ويونس السبعاوى وكــامل شبيب ، وحكم على رشيد الكيلانى بالاعدام غيابيا لكنه كان فى حماية الملــك عبد العزيز الذى أجاره وحماه .

وتم اشتراك العراق فى (حلف بغداد) وتم اضطهاد الأحــرار بــالعراق وتطور الوضع فى العراق بسبب استياء الشعب العراقى أثناء حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م بسبب تخاذل الجيش العراقى فى فلسطين وانسحابه مما مكن العصابات الصهيونية من احتلال مواقعه .

وكان لحركة " محمد مصدق " فى إيران — التى طالبت بتأميم البــترول الإيرانى سنة ١٩٥١م — صدى فى العراق فــاندلعت المظــاهرات فى العــراق تطالب بالحفاظ على حقوق العراق فى البترول ، وقامت ثورة فى مصــر فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، فقامت على اعقابها انتفاضة عراقيــة فى نوفمــبر ١٩٥٢م ، وكانت هذه المظاهرات مقدمة لثورة العراق فى سنة ١٩٥٨م .

ثورة سنة ١٩٥٨م :

عمل عبد الاله الوصى على العرش ونورى السعيد على تكميم أفـواه العراقيين والقضاء على الانتفاضة الوطنية التى قامت بعد عام ١٩٥٢م وهذا مما دفع العناصر الوطنية الى التنسيق فيما بينها لمواجهة عملاء الإنجليز فى العــراق

---

(1) انظر : للمؤلف ، اليقظة الاسلامية ، ص٩٤-٩٥ .

وتم رفض (حلف بغداد) الذى تم الترتيب له باجتماعات عقدت بين بريطانيا وفرنسا وتركيا وإيران وباكستان والعراق لمقاومة الاتحاد السوفييتى ، وكان نورى السعيد من الضالعين فى انضمام العراق إلى هذا الحلف .

ومما لا شك فيه أن النظام الملكى فى العراق كان صنيعة الإنجليز ولم يكن مُعبرا عن آمال العراق ، وكان يسير فى فلك الإنجليز ، فقد كان لكل وزير عراقى مستشار بريطانى يدير شئون الوزارة .

ولذلك كثرت الثورات فى العهد الملكى واتجه الإنجليز الى قمعها بالتعاون مع جيش الأردن " الفيلق العربى " لكن الأمر لم يستمر وقام الجيش بثورة فى ١٩٥٨م .

قام ضباط الجيش العراقى بثورة فى ١٤ يوليو ١٩٥٨م بزعامة الضابطان (عبد الكريم قاسم) و (عبد السلام عارف) ، وتم القضاء على الملك فيصل الثانى والأمير عبد الاله ونورى السعيد وأعوانهم وتم إلغاء النظام الملكى واعلان النظام الجمهورى [١] .

وتم تعيين مجلس السيادة من كل من : الفريق الركن (نجيب الربيعى) رئيسا والسيد (محمد مهدى كبة) عضوا ، والسيد (خالد النقشبندى) عضوا ، وترأس الوزارة (عبد الكريم قاسم) و(عبد السلام عارف) نائبا له .

إلا أن عبد الكريم قاسم استبد بالأمر وأعفى عبد السلام عارف من منصبه وعينه سفيرا للعراق فى ألمانيا الاتحادية ، وأعفى كثيرا من زملائه من مناصبهم .

وانسحبت الجمهورية العراقية من اتحاد العرشين الهاشميين الذى تم اعلانه قبل الثورة فى ١٩٥٨م مباشرة ، وذكر رجال الثورة أن هدف الهاشميين

---

[١] انظر : للمؤلف ، اليقظة الاسلامية ، ص ٩٤-٩٦ .

تدعيم النظام الملكى الفاسد وتمزيق الصف العربى[1] ثم وقع اتفاق بين حكومة الثورة وحكومة الجمهورية العربية المتحدة فى دمشق على تأكيد الدفاع المشترك بين الدول العربية والتعاون المشترك بين البلدين .

وتم اعلان الدستور المؤقت فى ٢٧ يوليو ١٩٥٨م وإلغاء القانون الأساسى الذى وضع فى العهد الملكى ، ونص الدستور المؤقت على أن الاسلام دين الدولة الرسمى ، والعراق جزء من الأمة العربية ، والشعب مصدر السلطات ، كما نص على حرية الأديان والاعتقاد والتعبير ، والملكية الخاصة مضمونة ، والملكية الزراعية تحدد وتنظم بقانون .

ويتولى رئاسة الجمهورية مجلس السيادة من رئيس وعضوين والقضاة مستقلون ، وتصدر أحكامهم باسم الشعب [2] .

ثورة ١٩٦٣م :

قام الجيش بثورة بزعامة (عبد السلام عارف) بسبب انحراف عبد الكريم قاسم الذى أخذ يبتعد بالعراق عن الخط العربى وأصر عبد السلام عارف على ضرورة الوصول للوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) واتجه قاسم بالبلاد نحو النظام الشيوعى وهيمنة الاتحاد السوفيتى ، وجرت محاكمة سريعة لقاسم وتم اعدامه وأصبح عبد السلام عارف رئيسا للجمهورية ، وأعلنت الثورة أنها تسعى للوحدة العربية .

وعندما توفى عبد السلام عارف في حادث سيارة سنة ١٩٦٥م تولى أخوه (عبد الرحمن عارف) رئاسة الجمهورية ، ولم يكن عبد الرحمن في مستوى المسئولية ، فأهمل الجيش ولم تستطع العراق أن تقوم بشيء في حرب العرب مع

---

[1] عمر رضا [illegible] ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٣٥٧ .

[2] المرجع السابق ج٢ ، ص٣٦٠-٣٦٢ .

اسرائيل سنة ١٩٦٧ ، فقام الجيش بثورة أخرى تخلص فيها من عبد الرحمن عارف في ١٩٦٨.

ثورة ١٩٦٨م :

قام بهذه الثورة (أحمد حسن البكر) و (صدام حسين) في ١٧ يوليو ١٩٦٨م حيث تولى أحمد حسن البكر رياسة الجمهورية وقيادة القوات المسلحة ، وأعلنت هذه الثورة منح الأكراد حقوقهم القومية ، وكذلك غيرهم من الأقليات ، وأممت النفط العراقى سنة ١٩٧٢م ، وعقدت حكومة الثورة اتفاقية تسوية حدود شط العرب مع ايران سنة ١٩٧٥م في الجزائر وتعرف باتفاقية الجزائر .

لكن (صدام حسين) استبد بالأمر وعزل خاله أحمد حسن البكر وبدأ يستعمل العنف مع رجال الجيش والمدنيين ويقوم بتصفيتهم واتجه الى معادات الثورة الاسلامية في إيران منذ عام ١٩٨٠م ، وبدأ في حرب ضروس استمرت حوالى ثمان سنوات أحرقت إمكانيات العراق ، ولم تكسب منها العراق شيئا .

الحرب العراقية الإيرانية :

هناك خلافات على الحدود بين العراق وإيران منذ قامت إيران بضم إقليم " عربستان " إليها في بداية حكم (رضا خان) سنة ١٩٢٥م ، وهى العملية التى قضت بها إيران على إمارة المحمرة المستقلة ، التى كان يحكمها "الشيخ خزعل الكعبى" آخر أمراء بنى كعب ، وتمكنت إيران من ذلك بمعونة بريطانيا ، التى أرادت ألا يكون بترول هذه المنطقة الكثير في يد عربية ، فيكون بترول الخليج العربى كله عربيا ، فدبرت مؤامرة مع (رضا بهلوى) للاستيلاء على هذا الإقليم العربى ، وفي مقابل هذا أعطاها رضا بهلوى ما أرادت من نفوذ داخل إيران ، وكان إقليم عربستان أقرب الى العراق منه الى إيران تاريخا

ولغة وتقاليد سائدة في كلا المنطقتين ، كما أنه مكمل لجبهة العراق المطلة على الخليج العربي ، والتي أصبحت العراق بدونه تطل على الخليج العربي ، بجبهة حوالى ٧ أميال غير صالحة لرسو السفن ، أى أن بريطانيا خنقته بذلك العمل أيضا .

وبعد أن استوعبت إيران الإقليم تماما ، بقيت بعض المشاكل على الحدود العراقية الايرانية معلقة بين البلدين حتى سنة ١٩٧٥م ، وفي تلك السنة وقعت كل من العراق وإيران اتفاقية في الجزائر ، وأدت هذه الاتفاقية الى تسوية أهم مشكلة بالنسبة للعراق ، وهى مشكلة تمرد الأكراد في شمال العراق ، والتي كانت ايران وراءها ، فقد كانت تمد الأكراد بالسلاح وتدعم موقفهم الانفصالى عن عرب العراق ، وقدمت العراق لإيرن بعض التنازلات في شط العرب ، لكن الاتفاق كان يتضمن إعادة تخطيط كامل للحدود ، تحصل العراق من خلاله على مائة كيلومتر مربع من الأرض يستقيم بها خط الحدود العراقية ، وتكونت لجان مشتركة لتحديد المناطق التي ستحصل عليها العراق [١] .

وعندما قامت الثورة الإيرانية ، توقفت أعمال اللجان فجأة ، وأحس العراقيون أنهم نفذوا الجزء الخاص بهم في اتفاقية الجزائر ، ولكن إيران لم تعطهم ما التزمت به ، ومنذ عودة الخميني الى إيران والعلاقات تسوء وتتدهور بين البلدين ، وعلى الرغم من أن العراق بادر بمباركة الثورة الايرانية رسميا ، فأرسل الرئيس (أحمد حسن البكر) برقية الى الخميني يعلن فيها عن سروره للقضاء على حكم الشاه المتعاون مع الصهيونية ، وأعلن الرئيس العراقي عن سياسة بلاده التي رحبت بالثورة الإيرانية ، التي أبدت تعاطفها مع الثورة الفلسطينية ، وبعد

---

[١] انظر : نص اتفاقية الجزائر سنة ١٩٧٥م في نشرة صادرة عن (منشورات العالم العربي) في باريس سنة ١٩٨١، بعنوان (الصراع العربي الفارسي) الملحق الثاني عشر ، ص٢٢٩-٢٤٦ .

أن جرى الاستفتاء على الدستور الاسلامى في إيران ، أرسل الرئيس صدام حسين (الذى خلف الرئيس البكر) برقية تهنئة أخرى بمناسبة تصديق الشعب الإيرانى على هذا الدستور ، ولكن رد الخمينى على برقية صدام حسين ، فقدم الشكر للشعب العراقى في عبارات غامضة ، ثم أنهى البرقية بقوله " والسلام على من أتبع الهدى " [١] ، ومن المعروف تاريخيا أن هذه العبارة كان يختم بها الرسول عليه الصلاة والسلام رسائله الى الكفار والمشركين ، عندما كان يدعوهم الى الاسلام ، وكان معنى ذلك أن (الخمينى) ينظر الى (صدام حسين) باعتباره خارجا عن الإسلام .

وبذلك بدأ التوتر يزداد في العراق بسبب هذه الروح العدائية ، وصاحب هذا بداية عمليات تخريب في العراق بفعل بعض العملاء الشيعة في العراق وما أكثرهم ، فاتخذت العراق تدابير حازمة لحماية الدولة من التمزق ، وخاصة أنها مرتع لكثير من الشيعة الإيرانيين في كربلاء والنجف ، ففى هاتين المدينتين كثير من المدارس والمعاهد الإيرانية ، وتوجد بهما كثرة من المدرسين والطلاب الإيرانيين ، ووراءهم أنصار كثيرون من شيعة العراق ، الذين يبلغ عددهم ما يقرب من نصف العراق ، وقامت العراق بترحيل بعض زعماء الشيعة الذين يعيشون في المناطق الحساسة ، وحملتهم السيارات الى الحدود الإيرانية وألقت بهم ، وشقوا طريقهم الى طهران ، وتصاعد التوتر على الحدود ، وصرح أبو الحسن بنى صدر بقوله " إذا استمرت الاستفزازات العراقية ، فأنا لا أستطيع أن أمنع جيشى من الزحف على بغداد " [٢]

---

[١] محمد حسنين هيكل : مرجع سبق ذكره ، ص٢٦٧ .

[٢] المرجع السابق ، ص٢٦٨ .

وتلقفت أمريكا هذه المشاكل ، وكانت تواقة الى الانتقام من إيران الثورة ، فوجدها فرصة لتنفيذ خطتها المعروفة بالضرب بيد إسلامية ، وتكون هى غير ظاهرة في الصورة ، فلعبت دورا كبيرا في إذكاء الخلاف بين الطرفين ، وخاصة أنها قدرت أن مثل هذا الصدام العراقى الايرانى سيقضى على أى وفاق عربى إيرانى محتمل بعد تعاون منظمة فتح والفلسطينيين مع الثورة الإيرانية ، ويمزق أى إمكانية لالتقاء عربى إيرانى ، فضلا عن تحالف عربى إيرانى ، يجعل الشرق الأوسط كله منطقة منزوعة النفوذ الأجنبى ، ويطرح إمكانية استخدام موحد للنفط في مواجهة الاحتكارات العالمية ، ومواجهة السياسة الأمريكية المنحازة لإسرائيل [١] .

وتصاعدت الاشتباكات على الحدود بين العراق وإيران في شهرى يوليو وأغسطس عام ١٩٨٠م ، وفي بداية شهر سبتمبر بدأت معارك محدودة جوية وبحرية ، وزادت حشود الطرفين على الحدود ، وفي ١٧ من سبتمبر قام صدام حسين بإعلان من جانب واحد بإلغاء اتفاقية الجزائر (١٩٧٥) ، بحجة أن حكام إيران قد أخلوا بالاتفاقية منذ بداية عهدهم [٢] .

وفي ٢٢ من سبتمبر عام ١٩٨٠ اجتاحت القوات العراقية الحدود الإيرانية في هجوم كاسح على إيران ، وتحركت القوات الجوية العراقية وأغارت على عشر قواعد عسكرية وجوية في عمق الأراضى الإيرانية ، وعطلت مدارجها ، وشلت العديد من هذه المواقع ، وكان أهمها مطار كرمنشاه

---

[١] انظر : تحليلا للموقف قبل الحرب ، كتبه الكاتب الصحفى محمد جلال كشك في مجلة الحوادث اللبنانية ، عدد ١١٨٠ ، بتاريخ ١٩٧٩/٦/١٥ ، بعنوان " الخليج يحترق في الشتاء " .

[٢] انظر : نشرة " منشورات العالم العربى " سالفة الذكر ، ص١٢٨ .

العسكرى ، وقاعدة همدان الجوية ، وقاعدة طهران الجوية ، وقاعدة أصفهان ، ومطار الأحواز ، وقاعدة شيراز ، وقاعدة تبريز .

وقامت الطائرات الإيرانية بغارات على البصرة وبغداد ونينوى وواسط في الأراضى العراقية ، ووجهت السلطات الإيرانية تحذيرا الى دول الخليج من أى هجوم برى أو بحرى أو جوى ينطلق من موانيها ضد الأراضى الإيرانية ، ولهذا التحذير الإيرانى مغزاه ، لأن إيران تدرك أن العراق سيحتاج أثناء الحرب الى الارتكاز في بعض الموانى الكويتية ، وخاصة حول جزيرة (بوبيان) الكويتية التى تقع في خليج الكويت ، لأن العراق كما سبق أن أوضحنا ليس لديه موانى في الخليج صالحة لرسو السفن .

وتطورت الحرب ، فاتجهت لتخريب أماكن صناعة البترول في كلا البلدين ، وفي الأيام الاولى تمكنت العراق من التغلغل في داخل الأراضى الإيرانية وعزلت مدينة (المحمرة) ، ودمرت قسما من مصافى (عبدان) البترولية في القسم الجنوبى من الجبهة ، وحقق العراق بذلك أهدافا عسكرية داخل الأراضى الإيرانية ، وهددت إيران بإغلاق مضيق هرمز ، وتفجير منافذه ، فأخذت الحرب أبعادا دولية ، وشعرت الدول الصناعية الكبرى في العالم ، أن اقتصادها أصبح مهددا أمام التهديدات الإيرانية ، وذلك لأن مصانعها تعتمد على البترول الذى يرد إليها من الخليج عن طريق هرمز .

ونتج عن هذه الحرب إيقاف تصدير النفط الإيرانى ، وتأزمت الأوضاع الاقتصادية في ايران ، وكانت العراق تود أن يكون هذا باعثا لإيران على طلب المفاوضات لتسوية الخلافات ، ولكن ذلك لم يحدث ، وتطورت الحرب تطورا مفزعا ، حيث أقدمت كلا البلدين على تدمير كل ما يمكن تدميره في

داخل الأراضي العراقية والإيرانية ، دون تمييز للأهداف المدنية من العسكرية ، واريقت دماء إسلامية بسبب العناد الإيراني .

وتمادى الإيرانيون في رفض الصلح الذى طلبه (صدام حسين) أكثر من مرة ، ولعبت الدول الكبرى دورا خبيثا في مجال إذكاء وإشعال نار الحرب ، لكى تقضى على قوة الدولتين الاسلاميتين ، واعتبر الإيرانيون بعد فترة أن الحرب كانت لازمة لهم لتوحيد الجبهة الداخلية في إيران بعد الثورة ، حيث كان الصراع داخل إيران على أشده ، فجاءت الحرب مع العراق فوحدت كل هؤلاء ضد العدو الخارجى ، وتطهر الجيش الايرانى ، على حد تعبير آيات الله في إيران ، ولكن نسى هؤلاء وهؤلاء أن الدم الاسلامى يراق ، وإذا التقى سيفان في الاسلام فالقاتل والمقتول في النار ، وأن هذه الحرب تعمق الحقد والكراهية بين الشعوب الاسلامية .

وتقدمت إسرائيل على الرغم من جرحها الذى مازال ينزف من إيران الثورة ، تقدمت الى مساندة إيران في الحرب ، لإضعاف العرب والمسلمين عموما ، فأمدت إيران بالمعدات العسكرية ، التى أضحت إيران في حاجة ماسة إليها من أى مكان ، لأن نار الحرب أحرقت كل مخزونها من السلاح ، تلك الحرب التى استمرت حوالى تسع سنوات ، وقامت الطائرات الاسرائيلية بالهجوم على المفاعل النووى العراقى ، الذى تقدم العراق عن طريقه في مجال الأبحاث النووية ، وتم ذلك في سنة ١٩٨١م .

وبدأ الخمينى يوجه رسائله الى الشعب العراقى ، يطالبه فيها بالإطاحة بحكومة صدام حسين ، ودعا الجيش العراقى الى توجيه أسلحته الى صدور قادته ، وإسقاط النظام الحاكم في بغداد ، وبدأت إيران تتلقى أسلحة من كثير من المصادر الروسية والأمريكية والفرنسية وغيرها من المصادر ، والهدف واضح

من هؤلاء جميعا ، ليس لصالح العالم الاسلامى ، وإنما لتدمير البلدين ، وتنفست أمريكا الصعداء ، واعتلاها ارتياح لما أصاب إيران والعراق على السواء ، على الرغم من النفاق الأمريكى المعهود ، والاعلانات التليفزيونية بأنها على الحياد .

وفشلت جهود الوساطة الاسلامية ، التى انبثقت من مؤتمر القمة الاسلامى بمكة المكرمة سنة ١٤٠١هـ(١٩٨١م) ، فقد كون المؤتمر لجنة إسلامية برئاسة الرئيس الغينى (أحمد سيكوتورى) ، لحل النزاع بالطرق السلمية ، وبدأت اللجنة مباشرة مهامها بعد فض المؤتمر مباشرة ، وأصدرت اللجنة بعدما قامت بالمفاوضات مع الطرفين بيانا حول مقترحاتها لتحقيق الحل السلمى الشامل للنزاع في مارس عام ١٩٨١م ، ويقضى باقتراح وقف إطلاق النار بين الطرفين في ١٣ مارس عام ١٩٨١ ، وتقوم لجنة عسكرية إسلامية للإشراف على وقف إطلاق النار ، على أساس إعلان كل من العراق وإيران احترام السيادة الوطنية لكل منهما ، وعدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة ، وعدم تدخل كل منهما في شئون الآخر الداخلية ، وتسوية الخلاف بالطرق السلمية [١] .

ومع ذلك لم تلتزم إيران بوقف إطلاق النار ، بينما التزمت به العراق لفترة ، ثم بدأت ترد على إطلاق النار بالإطلاق مثله ، وكل يوم تزداد الخسائر بين القطرين المسلمين ، ويتحسر العقلاء أسى وأسفا على هذه الحرب المحرمة ، وعلى هذه القدرات التى تهدر في ساحات الحرب ، وكان الأجدر توفيرها لحاجة المسلمين في صراعهم ضد أعدائهم المتربصين .

---

[١] انظر : نص بيان لجنة المساعى الحميدة ، المنشور في جريدة عكاظ السعودية بتاريخ ٣٠ من ربيع الآخر ١٤٠١هـ / ٦ من مارس ١٩٨١م .

وقف الحرب الإيرانية العراقية :

الحرب الإيرانية العراقية فجأة عام ١٩٨٨ ، عندما اقتنع (آيــة الله الخميني) أن استمرارها لم يعد ممكنا ، بسبب استنزافها لمـــوارد بلـــده الماليـــة والبشرية ، وقال (آية الله الخميني) في كلمة قصيرة حزينة لشعبه ، قال فيها "إنه كان أهون عليه أن يتجرع كأسا من السم ولا يقبل بوقف إطلاق النار ولكنـــه الآن يقبله "[١] .

وأدى الانهيار المفاجئ لإيران ، الى مشاعر متناقضة في بغداد ، وبشـكل ما فإن العراق أحس بالفراغ المباشر ، نتيجة لتوقف حرب شغلته واســـتغرقته بالكامل سياسيا وعسكريا واقتصاديا ونفسيا ، وبتوقف المعارك بــــدأت قـــوة العراق تواجه نوعا من البطالة ، قريب الشبه بالفراغ الـــذى دهـــم القـــوات المسلحة الأمريكية بعد سقوط التهديد السوفيتي .

وعقب ذلك حاول (صدام حسين) أن يستثمر انتصاره ، بعلاقـــات طيبة مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن الإعلام الأمريكي لم يعطه الفرصـة ، وبدأ في سنة ١٩٩٠ يركز على خطورة صدام حسين العسكرية ، وقوته التى خرج بها بعد انتصاره على إيران ، واشتركت إسرائيل في الهجوم عليه ، وبدأت تهدد العراق بضربة أخرى وقائية ، إذا أحست أنه اقترب من انتـــاج أســلحة نووية ، ورد صدام حسين على اسرائيل بخطابه المشهور ، الذى قال فيه " أننـــا سنرد على اسرائيل ، إذا استعملت ضدنا أسلحة نووية " ، ثم أقسم بعد ذلـك في خطابه أنه " إذا تعرض العراق لهجوم نووى إسرائيلى ، فإنه سوف يســتعمل أسلحة متطورة ، تحرق بالنار نصف إسرائيل " [٢] .

---

[١] محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج ، ص٢٢٥-٢٢٨ .

[٢] المرجع السابق ، ص٢٤١ .

احتلال الكويت :

وظلت العراق في خلاف مع الكويت ، بسبب حصص البترول واقمت الكويت بأنه السبب في انخفاض أسعار البترول ، لأنه ينتج أكثر من حصتـــه ، ويغرق السوق بالبترول ، وأن ذلك يضر بالعراق ، وتحركت أطماع العـــراق القديمة في الكويت ، وتحرشت القوات العراقيـــة بهـــا ، وشـــاركت السـفيرة الأمريكية في إغرائه باحتلال الكويت ، قائلة بأن أمريكا لا تتدخل في نزاعـــات بين العرب ، وفي الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠ احتل العـــراق الكويـــت ، وادعى أنها جزء من بلاده ، وأطلق عليها المحافظة رقم ١٩ من بـــلاده ، وثـــار العرب في الخليج والعالم العربي ، وأهم من ذلك ثارت أمركيـــا ، ولم تقبـــل أن يكون في يد صدام ثلث بترول الخليج ، يتحكم فيه ويهدد الباقي .

وتم إرسال قوات أمريكية الى الخليج ، بطلب من الكويت والسعودية ، ومعها قوات فرنسية وانجليزية ثم عربية ، مصرية وسورية وخليجية ، وبعـــض الدول الاسلامية ، وظهرت قوة أمركيا في السيطرة على الأمم المتحدة ، بعـــد ضعف الاتحاد السوفيتى ، الذى أصبح يستجدى المعونات من أمريكا لإطعـــام الجوعى في روسيا وغيرها من الدول التى أفقرتها الشيوعية .

بدأ العراق يشعر بأنه محاصر بقوى معادية ، وأغلقت في وجهـــه كـــل السبل ، ففكر في اللجوء الى إيران في أزمته ، رغم ما جرى بين البلديـــن مـــن حرب في عقد الثمانينيات ، قضت على الأخضر واليابس ، فـــأعلن " صـــدام حسين " فجأة استجابته من طرف واحد لكل طلبات إيران ، وبعث الى طـهران برسل على مستوى عال ، بينهم السيد " طارق عزيز " ، وأبـــدى الايرانيـــون استعدادا للتعامل مع الموقف بمرونة ، على الرغم من تحرك أطراف عربي ودولية ضد هذا التقارب ، ومنها سوريا .

والذى دفع العراق الى ذلك هو الحصار البحرى والجوى ، الذى أحاط به بطوق من الفولاذ ، الى حد يجلب شعورا بالاختناق ، وبذلك كسبت إيران من العراق كل ما كانت تود أن تأخذه ، الأمر الذى جعل الناس يقولون : ولماذا كانت تلك الحرب المهلكة طوال ثمان سنوات ؟ .

ووقعت الحرب ولم تستفد العراق من هذا التنازل الضخم شيئا ، بل على العكس ، خسرت حوالى ١٣٥ طائرة لجأت اضطراريا الى الهبوط في إيران ، ولم تعترف إيران منها سوى بحوالى ٢٣ طائرة ، قالت أنها جزء من تعويضات الحرب .

محاولة تقسيم العراق :

وتحطمت قوة العراق العسكرية ، وضربت قوات التحالف كل منشآته ، وأرد الأمريكان في النهاية تقسيم العراق ، الى ثلاث دول : دولة كردية في الشمال ، ودولة شيعية في الجنوب ، وثالثة سنية حول بغداد ، وكانت إيران جاهزة لتشجيع إخوانها الشيعة في جنوب العراق ، وظهرت حكومة مؤقتة شيعية ، مقرها طهران بقيادة السيد " محمد باقر الحكيم " [1] .

وفوجئت السعودية التى تعد هى الأخرى لحكومة مؤقتة للعراق ، أعدتها وحرصت على طابعها السنى ، وكانت المفاجأة قاسية للسعودية التى تخشى من الشيعة ، لأنهم يتمركزون بالدرجة الأولى في شريط يمتد من جنوب العراق الى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ويرى البعض [2] بأنهم قاموا بأدوار بارزة في تاريخ الحركة القومية العربية ، لكن بعض المؤسسات الرسمية للفكر السنى ، لم تستطع في كثير من الأحيان تقدير هذا الدور ، وقد راحت هذه

---

[1] المرجع السابق ، ص٥٧٣-٥٧٤ .

[2] محمد حسنين هيكل ، المرجع السابق ، ص٥٧٤ .

المؤسسات تخلط مرات كثيرة ، مفترضة وجود خلافات أعمق بين المذاهب الاسلامية ، وبدلا من أن تحاول مؤسسات السنة الواثقة من نفسها ، بحكم أغلبيتها الساحقة في العالم العربي ، تقريب الخلافات بين المذاهب ، فإنها – واعية أو غير واعية – راحت تزيد الفجوة ، غير مدركة أنها بذلك تفتح ثغرات لا داعي لها في الجسم العربي [1] .

وفي مارس عام ١٩٩١م ، والسعودية لا تخفي سعادتها بما حدث للعراق ، جاءت يقظتها المفزعة من هذه السعادة بمخاوفها من أن الشيعة على وشك الاستيلاء على السلطة في العراق ، وأن الخطر الشيعي أصبح العدو رقم واحد حتى بعد " صدام حسين " ، وأنه إذا نجح الشيعة في الجنوب واستولوا على بغداد ، أو إذا أقاموا دولة لهم في الجنوب فقط ، فإن المد الشيعي سوف يصل من هناك الى الكويت والى البحرين ، ويندفع الى المنطقة الشرقية للسعودية ، وبالذات منطقة القطيف وعاصمتها " الظهران " ، عاصمة البترول السعودى ، وإذا فالأمر جد خطير .

ولكن الجيش العراقى ، الذى عاد من معركة الكويت خاسرا يلعق جراحه ، إندفع الى الجنوب الشيعي والشمال الكردى ، الذى كانت تعد فيه مؤامرة شبيهه بمؤامرة الجنوب ضد العراق ، وجرت معارك شرسة غير متكافئة ، استطاع بها الجيش العراقى أن يستعيد السيطرة على الشمال والجنوب ، وتخلت الأطراف الخارجية عن معاونة الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال ، خوفا من عواقب الأمور المرتقبة ، والنتائج المزعجة من إقامة دولة شيعية في الجنوب أو كردية في الشمال .

---

[1] المرجع السابق ، ص٥٧٤ .

واكتفت الولايات المتحدة الامريكية وحلفائـــها بتشـــديد الحصـــار الاقتصادى والعسكرى على العراق ، وملاحقته بتدمير إمكانياتـــه العســكرية الباقية ، بعد أن أصبح مجلس الأمن أداة طيعة في يدها ، وعدم وجود قوة موازنة تقف أمام جبروت أمريكا .

المحصلة النهائية :

النهائية ، أن الحروب التى أثارتها العـــراق ، ومـــن ورائـــها أمركيـــا والغرب ، ومدعمة من دول البترول ضد إيران ، قد دعمت من قوة الشـــورة الاسلامية في إيران ، على مدى ثمان سنوات ، وأعطت رجال الثورة القـــوة ، بأن يضربوا معارضيهم في إيران بيد من حديد ، لأنه لا صوت يعلوعلى صوت المعركة مع أعداء الوطن ، حتى أن ابن شاه إيران المخلوع عرض على الخميـــى أن يأتى الى وطنه من المنفى ، لكى يحارب ضد أعداء الوطن .

وهكذا فإن الفرصة أعطيت للثورة الاسلامية ، لكى تتمكن من السلطة وتقود الوطن ، والذى أعطاها هذه الفرصة هم أعداؤها ، وذلك مثل الفرصة التى أعطيت للثورة الفرنسية في أوربا ، عندما تحرش بها أعداؤهـــا في أوربـــا ، وأثاروا حربا أوربية ضدها ، وفانتشرت مبادئ الثورة الفرنسية في أوربا كلها .

ومثل هذا حدث للثورة الاسلامية في إيران ، فإن مبادئها انتشرت بقوة في المنطقة العربية والبلاد الاسلامية ، وكانت مبادؤها تنتشـــر بقـــوة في دول الجوار ، وعلى الأخص أفغانستان وباكستان وطاجيكيستان ، ومـــن ثم فإننـــا سنشهد نضالا قويا ضد الاتحاد السوفيتى في أفغانستان ، ســـتكون لـــه نتـــائج ضخمة ، ليس فس أفغانستان وحدها ، وإنما في الاتحاد السوفيتى نفســـه ، وفي البلاد الاسلامية ، العربية وغير العربية .

من أعان ظالما سلط عليه :

حكمة اسلامية قديمة هى القانون الطبيعى الذى لا يتخلف وسنة من السنن الكونية (من أعان ظالما سلط عليه) فصدام حسين أدى خدمة لأمريكا ودول الغرب والدول البترولية في الخليج بضرب الثورة الاسلامية في إيران من سنة ٨٠-١٩٨٨م لأن الغرب وحكام الخليج كانوا يخشون من هذه الثورة أن تمتد الى جزيرة العرب حيث مخزون البترول العالمى ، فعرض صدام حسين خدماته عليهم وتلقف الغرب هذا العرض وقدم إليه السلاح ودفعت الدول البترولية فاتورة الأسلحة بالآف الملايين راضية لكى يحميها من أفكار الثورة الإيرانية التى هددت الأسر الحاكمة في الخليج وأعلنت بأن عهدهم قد مضى وأنهم عملاء للغرب ويوظفون أموالهم على شهواتهم ويستثمرون الباقى في الغرب وفي البنوك الصهيونية .

ومن هنا كان خوف حكام آبار البترول شديدا من الثورة الإيرانية ، وهذا الخوف هو الذى دفعهم لتمويل تسليح صدام حسين الى أبعد مدى .

وعندما وضعت الحرب أوزارها وخرج منها صدام حسين منهوك القوى ولم تحقق الحرب أهدافها بالقضاء على الثورة الاسلامية بل على العكس قوت الحرب من قبضة رجال الثورة على إيران وانتشرت أفكار الثورة في أفغانستان ووسط آسيا وفي المنطقة العربية ، فبدأ صدام حسين يضغط على إمارات الخليج لكى تعطى له أموالا لإعادة اعمار بلاده ، وكان قد أنفق كل شيء على التسليح وتلكأت دول الخليج في تمويله فبدأ يهاجمها ويعد للإعتداء على الكويت .

وسابقت السعودية الزمن وعقدت مع صدام معاهدة عدم اعتداء متبادل في سنة ١٩٨٩م وتربص بالكويت ورفض عقد معاهدة شبيهة بالمعاهدة

السعودية معها . وبدأت حرب اقتصادية من الغرب للعراق وحملة مقاطعات أمريكية وانجليزية وأوربية ، فطلب عقد مؤتمر قمة عربي في بغداد في ربيع ١٩٩٠م لكن غطرسة صدام ونزعته التسلطية لم تجد شيئا عندما طلب الدعم الاقتصادى له حيث طلب أموالا كثيرة من العرب وعلى الأخص الكويت ، فبدأ يتحرش بالكويت وتم احتلالها ، وعبثا حاولت مصر وسوريا والسعودية حل الأزمة ولكن الكارثة وقعت .وكان هذا في الواقع فخا نصب لصدام حسين لاصطياده ، فتحركت أمريكا والغرب واستصدرت عدة قرارات من الأمم المتحدة ضده ، وطلبت منه الخروج من الكويت وحددت الأمم المتحدة لذلك أجلا هو ١٥ من يناير ١٩٩١م كآخر موعد لكى يخرج من الكويت سليما ، فإن تأخر فإن على الحلفاء إخراجه بالقوة ، ولم يعبأ صدام بهذه القرارات ولا بأى وساطة عربية أو دولية.

وبذلك اكتملت فصول المؤامرة ووقع في الفخ الذى نصبه له الأمريكان روجدتها الولايات المتحدة فرصة ولم تكد تمضى ٤٨ساعة على الموعد المحدد (١٥يناير) حتى بدأت (عاصفة الصحراء[1]) ضد العراق لا من أجل إخراجه من الكويت فحسب ، ولكن من أجل ضرب قوة العراق العسكرية في ١٩٩١/١/١٧م وأخذ العراق ضربة قصمت ظهره لو وزعت على أهل الأرض لآلمتهم فما بالك بالعراق ، فإن صدام من وجهة نظر الغرب قد أدى غرضهم ويجب القضاء على قوته كما قضى الغرب على قوة محمد على من قبل سنة ١٨٤٠م بعد أن أدى غرضهم بضرب اليقظة الاسلامية في الجزيرة العربية وتحطيم ما تبقى من قدرة الدولة العثمانية .

---

[1] عاصفة الصحراء : هو الاسم الذى أطلقه الحلفاء على الحرب التى قادوها ضد العراق لإخراجه من الكويت .

وهكذا تصدق الحكمة القائلة : " من أعان ظالماً سُلّط عليه " وقد مضى على الحرب اليوم (١٩٩٩م) حوالى تسع سنوات ومازال العـــــراق يضـــرب بسلاح الجو الأمريكي والإنجليزى من القواعد المقامة علـــى أراضـــى عربيـــة وتركية.

الفصل الثانى

ســــوريــا

الفصل الثانى

سوريا

نقصد بسوريا الاقليم التاريخى الكبير الذى يمتد من حدود تركيا في الشمال الى الحدود المصرية في الجنوب ومن الشرق من الحدود العراقية الى شواطئ البحر المتوسط . فهى تشمل كل من الجمهورية السورية والجمهورية اللبنانية وفلسطين وشرق الأردن .

وكانت سوريا الكبرى هذه في العصر العثمانى تعانى من وطأة الحكم العثمانى ، وكانت عبارة عن ولايات يحكمها الولاة الأتراك رأسا ، واللغة الرسمية فيها هى اللغة التركية ، فلا شخصية سياسية لها حينذاك ولا إستقلال ، ولا شبه استقلال كما هو الحال في مصر . ولذلك اتسمت حركة النهضة فيها جميعا بسمة العروبة الشاملة لا بالصفة الوطنية المحلية كما حدث في مصر.[1]

ولذلك نشأت حركة المقاومة المناهضة للسياسة التركية مؤكدة الطابع العربى الصميم وتألفت الجمعيات السرية والعلنية التى تنادى بحقوق العرب واستقلالهم الذاتى والتخلص من الحكم العثمانى ، واتجهت الحركة أولا الى إحياء التراث العربى في مواجهة التتريك .

وكانت فكرة (القومية العربية) هى التى جمعت بين المسيحيين والمسلمين ضد الدولة العثمانية ، وجمعت كلمتهم حول العروبة التى تستمد قوتها من اللغة

---

[1] محمد رفعت ، التوجيه السياسى للفكرة العربية ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٥ ، ص٥٨ .

والتاريخ ، وتعليم الأدب العربي واللغة العربية ووجدت هذه الفكرة موئلا لها في المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، فانتشر تعليم الأدب العربي بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين لأن المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم ، بل ظلوا يرسلون أولادهم الى المدارس الحكومية – إذا أرادوا تعليمهم – ولغة التعليم في المدارس الحكومية كانت اللغة التركية .[١]

ولكن ظل المسلمون يعتبرون الدولة دولتهم ويستسلمون لحكمها ، لكونها دولة الخلافة الاسلامية ، وظل المسيحيون يشعرون بأنها غريبة عنهم ، لأنها تعتبرهم رعايا ، ويتوجهون نحو الدول الأوربية . لأنها تحميهم في كثير من المناسبات حتى أنها تقدم لهم بعض المساعدات .

فكان على فكرة (القومية العربية) أن تتغلب على هذين الاتجاهين في وقت واحد : كان عليها أن تحول أنظار المسلمين عن الدولة العثمانية وأنظار المسيحيين عن الدول الأوربية ، لكى تجمع كلمتهم حول العروبة التى تستمد قوتها من اللغة والتاريخ .[٢]

ونادى الأحرار في سوريا بإنشاء خلافة اسلامية عربية مقرها مكة المكرمة ، وكان هذا هو رأى المسلمين وعلى رأسهم (عبد الرحمن الكواكبى) في كتابه " أم القرى " .

ونادى المسيحيون بإنشاء دولة عربية عصرية موحدة مكونة من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ، وهذا طرحه (نجيب عازورى) في كتابه " يقظة الأمة

---

[١] ساطع الحصرى ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص٩٥-٩٦ .

[٢] المرجع السابق ، ص٩٥

العربية في آسيا " [١] . وكانت هذه هى التيارات الفكرية المطروحة في سوريا قبل الحرب العالمية الأولى .

النفوذ الفرنسى في سوريا :

كانت فرنسا أسبق الدول للعمل في سوريا التاريخية والاهتمام بها ، فقد أنشأت فيها عددا كبيرا من المؤسسات الثقافية وأسست أوثق الصلات مع كنائسها ، ونشطت التجارة معها ، وأنشأت مؤسسات اقتصادية فيها ، فإن الشركات التى أنشأت مرفأ بيروت ، وسكة حديد دمشق - بيروت ، وسكة حديد دمشق ، كانت كلها فرنسية ، وكانت فرنسا قد اكتسبت بذلك نفوذا ماديا ومعنويا في سوريا ، وجعلت توسيع هذا النفوذ وتقويته من أهم أهداف سياستها .[٢]

ووصل الأمر الى أن فرنسا كانت تعتبر سوريا منطقة نفوذ خاصة بها ، وكانت تستعد استعدادا حثيثا لاستكمال وسائل الاستيلاء عليها . عندما تجد الظروف ملائمة لذلك .

ومنحت الحكومة العثمانية لفرنسا امتيازا بإدارة وتشغيل المشاريع الفرنسية في سوريا وإعفائها من الضرائب وذلك في اتفاقية عقدت معها سنة ١٩١٣م وسنة ١٩١٤م ، وعندما قامت الحرب كان معروفا لدى الجميع أن سوريا منطقة نفوذ لفرنسا .

كما عقدت الدولة العثمانية مع بريطانيا اتفاقيات كان من شأنها أن تجعل كلا من العراق وإمارات الخليج العربي وفلسطين مناطق نفوذ إنجليزى قبل الحرب العالمية الأولى . وكانت الدول الأوربية قد اتفقت فيما بينها على تعيين

---

[١] المرجع السابق ، ص١٢٥-١٢٦ .

[٢] الحصرى ، المرجع السابق ، ص١٩٤ .

وتحديد مناطق نفوذ كل منها وقررت أن لا تنافس بعضها بعضا في تلك المناطق ، والحكومة العثمانية منحت الامتيازات في كل منطقة الى الدولة التى اعتبرت صاحبة الحق والنفوذ فيها بموجب الاتفاقيات المعقودة بين تلك الدول .

وعلى ذلك فإن القسمة التى ظهرت بعد ذلك إبان الحرب العالمية الأولى مثل اتفاقية سايكس — بيكو ، كانت معروفة سلفا كما يقول (ساطع الحصرى) ، وأحداث الحرب واتفاقياتها أقرت بطبيعة الحال ما كان مقررا لكل من فرنسا وبريطانيا غير أنها أبطلت ما كان مقررا لألمانيا وقسمتها بين فرنسا وبريطانيا .

ولذلك ، يمكن القول : إن أسس اقتسام البلاد العربية في آسيا كانت قد تقررت قبل الحرب العالمية الأولى ، تحت رعاية الحكومة العثمانية نفسها .[١] وكانت سوريا من الأقطار التى انفصلت عن الدولة العثمانية بعد الحرب الأولى ، وحاول (فيصل بن الشريف حسين بن على) أن يستقل فتوجه إليها في سنة ١٩١٨م وخرج أعيانها وعلماؤها لاستقباله ، وأذاع بلاغا رسميا لإنشاء حكومته الجديدة في ٥ من إكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٨م بإنشاء حكومة دستورية عربية مستقلة إستقلالا مطلقا باسم (مولانا السلطان حسين (والده) شاملة جميع البلاد السورية .

وعهد برئاسة الحكومة الى (رضا باشا الركابى) ، وأنها مؤسسة على قاعدة العدالة والمساواة بين المسلم والمسيحى والموسوى . وتابع بقوة معه زحفه على سوريا الشمالية حمص وحماة وحلب .

---

[١] الحصرى ، المرجع السابق ، ص٢٢٧ .

ثم سافر الى فرنسا ومثل الحكومة العربية في مؤتمر الصلح في ١٨ من يناير ١٩١٩م ، ولم يظفر بشئ وعاد الى سوريا وكانت إدارة فلسطين تحت حكم الانجليز وسوريا تحت إدارة حكومة فيصل ولبنان تحت النفوذ الفرنسي .

ثم أعلن المؤتمر السورى العام في ١٦ من جمادى الثانية ١٣٣٨هـ ٨ من مارس (آذار) ١٩٢٠م الاستقلال ونادى بفيصل بن الحسن ملكا دستوريا على سورية ولم تعترف بذلك بريطانيا وفرنسا .

الانذار الفرنسى :

في ١١ يوليو ١٩٢٠م وجهت فرنسا إنذارا الى الحكومة السورية تطلب فيه : قبول الانتداب الفرنسي بدون قيد أو شرط ، وتسريح الجيش السورى ، والتعامل بورق النقد السورى ، واحتلال محطات السكك الحديدة .

وبدأت القوات الفرنسية تدخل بعض المناطق ، وأرسل القائد الفرنسي (غورو) الى فيصل يطلب منه قبول الانتدا الفرنسي وتأديب المجرمين . فأعلنت الوزارة الأحكام العرفية في ١٣ يوليو ١٩٢٠م وقررت قبول الانذار الفرنسي لعدم قدرتها على المقاومة بالرغم من معارضة المؤتمر السورى ، وأرسل فيصل بذلك الى القائد الفرنسي في ١٨ يوليو ١٩٢٠ . لكن القائد الفرنسي احتج بتأخير جواب إنذاره وزحف الى دمشق لاحتلالها ، وإقامة الانتداب على سوريا بالقوة .[١]

معركة ميسلون :

عسكرت القوات الفرنسية عند (خان ميسلون) وفي ٢٤ يوليو (تموز) ١٩٢٠م بدأت في الفجر معركة ميسلون ، وقبل الظهر انهارت مقاومة جيش

---

[١] عمر رضا حكالة ، العالم الاسلامى ، ج٢ ، ١٤٧-٢٥٢ .

فيصل ، ومما يؤسف له أن القوات الفرنسية كانت مكونة من الجزائريين والسنغاليين والمراكشيين والأفارقة المسلمين .

وهذه القوات المسلمة كانت عليها قيادة فرنسية تعززها الدبابات والسيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة والطائرات ، وحاول الشريف حسين الدفاع عن ابنه في آخر لحظة فأتصل بقناصل الدول في جدة ، ولكن جهوده لم تسفر عن حل للأزمة . وأطبقت القوات الفرنسية على دمشق وغادرها فيصل ، وكانت فرنسا قد أرسلت إليه خطابا تطلب منه مغادرة البلاد مع أسرته وحاشيته فلم يجد مفرا من الاذعان ، وسافر الى لندن عن طريق بورسعيد في مصر واستقل سفينة متجهة الى أوربا .[1]

وخلا الميدان لفرنسا في سوريا ولبنان وحاولت فرنسا في عهد الانتداب تجزئة سوريا ولبنان وتعميق الطائفية . فقسموها الى المناطق التالية :

١.دولة لبنان الكبير .

٢.دولة حلب .

٣.دولة العلويين .

٤.دولة دمشق .

٥.دولة جبل الدروز .

٦.لواء الاسكندرونة .

ثم عدلوا مشروع التجزئة بإنشاء إتحاد بين دمشق وحلب والعلويين .

المقاومة :

بعد فرض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان اشتعلت نيران الثورة في كثير من البقاع السورية فقامت ثورة في حوران ولكن أخمدها الفرنسيون

---

[1] انظر للمؤلف ، اليقظة الاسلامية ، ص٨٢-٨٣ .

ونشطت العصابات التى كانت تعمل في شمالى ســـوريا لمحاربـــة الفرنســـيين في انطاكية وحارم والعمق وأدلب والمعرة وجسر الشغور بقيادة إبراهيم هنانو .

حركة ابراهيم هنانو :

بعد فرض الانتداب الفرنسى على سوريا ، ومعارضة الوطنيـــين لـــه ، تزعم (ابراهيم هنانو) حركة حرب العصابات ضد القوات الفرنسية في منطقـــة حلب . وبعد استيلاء الفرنسيين على دمشق ، انتقل الى اقليم بيلان بالقرب من الحدود التركية ، والتف حوله جمع من الفدائيين الســـوريين والمتطوعـــين مـــن الضباط الاتراك وظفر بعدة انتصارات في المعارك التي خاضـــها ضـــد قـــوات الحملات الفرنسية ، وقدر عددها بنحو ٣٠ ألـــف مقـــاتل الى أن اضطرتـــه للأنسحاب الى شرق الاردن .

قبضت سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين على ابراهيم هنـــانو في أغسطس (آب) سنة ١٩٢١م تنفيذا لطلب تقدم به اليها القنصـــل الفرنســـى استند فيه الى اتفاق بين المندوبين الساميين في البلدين ، يقضى بتبادل المجرمـــين ، تسلمت السلطات الفرنسية هنانو في بيروت ، ونقلته الى حلـــب . وشـــكلت مجلسا عسكريا من ثلاثه من كبار الضباط الفرنسيين لمحاكمته ، بدأت المحاكمـــة في ١٥ مارس (آذار) واستغرقت ثلاثة شهور من عام ١٩٢٢م .

نسب الادعاء للزعيم السورى تهمة تشكيل عصابة من المجرمين ، قامت بقطع الطرق والاعتداء على الجيوش الفرنساوية ، في أقضية (حارم) (أدلـــب) و(جسر الشعور) و(جبل الزاوية) خلال الفترة من خريف ١٩١٩م وصيـــف ١٩٢١م ، عندما غادر سورية ، إلى شرق الاردن واستضافه أميرها عبد الله بن الحسين .

دافع عن هنانو المحامى " فتح الله صقال " . وركز في دفاعه علـــى أن المتهم ليس رئيسا لعصابة من قطاع الطرق كما ادعت سلطات الاتهام ، ولكنه قائد جيش واستدل على ذلك بأن " الجنرال غورو " المفوض الفرنسى العـام ، سبق له أن عقد هدنة مع قوات (هنانو) تبادل خلالها الطرفان الأسرى ، وهـو اعتراف رسمى بأن (هنانو) قائد جيش كان يحارب قوات الغزو باسم الشـعب السورى .

طلب رئيس المحكمة من (ابراهيم هنانو) أن يعين اسم واحد من أفـراد الشعب السورى يشهد أمام المحكمة بأنه فوضه نيابة عنه في محاربة فرنسا ، وقبل أن يجيب المتهم ، قال أحد الحاضرين : أنا يا سيدى الرئيس والألوف معى كلفنا (ابراهيم هنانو) مقاتلة فرنسا التى دخلت بلادنا بدون وجه حق ومن حقنـا أن نقاوم الاحتلال الأجنبى بقوتنا المسلحة ... دوت قاعة المحكمة بالتصفيق تأييدا للشاب الذى تبين أن اسمه (سعد الله الجـابرى) . غضـب رئيـس المجلـس العسكرى وأمر باعتقال كل الذين صفقوا .

وفي ٧ يونيو (حزيران) ١٩٢٢م قضى المجلس العـرفى العسـكرى في حلب ببراءة الزعيم السورى (ابراهيم هنانو) من التهم التى وجـهت إليـه ، باعتباره رئيسا لعصابة من الأشقياء قامت بالهجوم علـى جيـش الانتـداب الفرنسي. أثار الحكم ببراءة (هنانو) حماس آلاف الجماهير المحتشـدة في قاعـة المحكمة وخارجها ، خاصة وأن المحكمة اعتبرت أن ما قام به ، قد تم بدافع حبه لوطنه ورغبته في حريته واستقلاله .

ثم قاد حركة المقاومة أيضا (عبد الرحمن الشـاهبندر) وأسـس حزبـا سياسيا فى سنة ١٩٢٤م له فروع فى حلب وحمص وحماة واتصل بـالأحرار فى جبل الدروز ، فبدأ (سلطان الأطرش) يطوف القرى الدرزية لجمـع الجمـوع

واضرام الحماسة في الصدور فساروا تحت لوائه وأحرقوا دار البعثة الفرنسية في (صلخد) وكبد الدروز القوات الفرنسية خسائر كثيرة في الأرواح والعتاد سنة ١٩٢٥م .وفي حماه قاد (فوزى القاوقجى) المقاومة في سنة ١٩٢٥م وهاجم مخافر الشرطة وقوات الجيش الفرنسى واشتعلت نيران الثورة في دمشق . وظلت سوريا تغلى بالثورات حتى سنة ١٩٤٦م حيث جلت القوات الفرنسية عنها فأصبح هذا اليوم عيدا لاستقلال سوريا .

غير أن الأحوال السياسية لم تستقر في سوريا بسبب كثرة الانقلابات ، وذلك مثل انقلاب حسنى الزعيم سنة ١٩٤٩م وفي نفس العام قامت ثورة أخرى بقيادة أديب الشيشكلى ، ثم ثار الجيش عليه في أوائل سنة ١٩٥٤م ، وانتخب شكرى القوتلى رئيسا للجمهورية سنة ١٩٥٥م .

الجمهورية العربية المتحدة :

وفي عهده تمت الوحدة بين مصر وسوريا تحت إسم الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨م تحت رئاسة جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر .[١] بعد استفتاء على رئاسة الأقليمين المصرى والسورى وعلى الوحدة . وتم اعلان الدستور المؤقت لدولة الوحدة .

وفي نفس العام رغبت اليمن الانضمام الى دولة الوحدة تحت اسم اتحاد الدول العربية المتحدة على أن تحتفظ كل دولة بشخصيتها الدولية وبنظام الحكم الخاص بها ولها سياسة خارجية موحدة ، ويتولى التمثيل السياسى والقنصلى للاتحاد في الخارج هيئة واحدة . ويكون للاتحاد قوات مسلحة واحدة. وأعلنت كل من الأردن والعراق في سنة ١٩٥٨م اعلان الاتحاد بينهما وسمى " الاتحاد الهاشمى " ردا على اتحاد مصر وسوريا في ١٩٥٨م .

---

[١] المرجع السابق ، ج٢ ، ص٢٦٦-٢٦٩ .

الفصل الثالث

الجمهورية اللبنانية

الفصل الثالث

الجمهورية اللبنانية

كان (فيصل بن الحسين) يسعى لحكم سوريا الكبرى بما فيـــها لبنـــان وأرسل الى لبنان حاكما من طرفه يحكم باسمه ، ورفضه الفرنســـيون وعينــوا حاكما فرنسيا على لبنان . وسافر البطريرك الماروني الى بـــاريس في ١٩١٩م يطلب من فرنسا أن تظل الحامية والمدافعة عن كيان لبنان المستقل . هـــذا في الوقت الذى رغب فيه المسلمون السنة والشيعة والدروز في الوحدة مع سوريا . ولما فشلت ثورة فيصل واحتل الفرنسيون سوريا وأعلـــن القـــائد الفرنســـي (غورو) الاستقلال للبنان في ١٩٢٠م ، وبدأ لبنان يجتاز فترة الانتقـــال مـــن الانتداب الى الاستقلال .

وإبان الحرب العالمية الثانية أعلنت فرنسا الحرة على لســـان ديجـــول استقلال لبنان وألغت الانتداب وانتخب بشاره الخورى رئيســـا للجمهوريـــة وعهد الى (رياض الصلح) برئاسة الوزراء ، فرفض رياض الصلح زيارة المندوب السامى الفرنسى في بيروت على ما جرت به العادة ورأى في هذه الزيارة ما لا يليق ببلد مستقل واعتبر المندوب الفرنسى سفيرا كغيره من السفراء في لبنان .

وكانت اللغة الفرنسية تحتل دواوين الحكومة اللبنانيـــة فتجـــرى بهـــا المعاملات على اختلافها ، بينما كانت اللغة العربية مهملة ، فبـــادر (ريـــاض الصلح) فور تسلمه الحكم الى اصدار مذكرة الى جميع الدوائـــر يبلغـــها فيـــها بوجوب استعمال اللغة العربية في كل المعاملات التى تجرى في دواوين الحكومـــة

، وبذلك أوجد الصيغة الوطنية التى توحد النزاعات وتجمع التيارات المختلفة في تيار واحد .[١] فمنح النواب حكومته الثقة بالاجماع .

واحتج المندوب السامى الفرنسى على جعل اللغة العربية هى لغة البلاد وإحلالها محل الفرنسية وأن هذا يخالف صك الانتداب ويخالف نصوص الدستور اللبنانى .

فأصدرت الحكومة بيانا بشأن تعديل الدستور اللبنانى واجتمع مجلس الوزراء وأقر تعديل الدستور ، فاعتقل الفرنسيون (بشارة الخورى) رئيس الجمهورية و(رياض الصلح) رئيس الوزراء في ١٩٤٣م فثار الشعب اللبنانى ، فأصدرت السلطات الاستعمارية الفرنسية قرارا بتعطيل الحياة النيابية وتعليق الدستور ، وتعيين (أميل إده) رئيسا للدولة فلم يفلح في تأليف وزارة أو حكومة من المديرين .

وأيدت بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا لبنان في موقفه ضد الفرنسيين ، واعتبرت أمركيا أن ما فعلته فرنسا ضد اعلان حق تقرير المصير الذى نادت به أمريكا شيئ لا مبرر له .

وتم جلاء القوات الفرنسية عن لبنان في ٣١ من ديسمبر ١٩٤٦م وبذلك صارت جمهورية لبنان دولة مستقلة لها السيادة الكاملة على أراضيها وانضمت الى الجامعة العربية والأمم المتحدة وأصبح لبنان دولة معترف بها من كافة الهيئات والمنظمات الدولية .[٢]

وبعد انتهاء فترة (بشارة الخورى) خلفه (كميل شمعون) الذى ارتبط بسياسة الغرب ، واعترف بمبدأ إيزنهاور ، فـزادت المعارضة لحكمه سنة

---

[١] كحالة ، ج١ ، ص٣٠٩ .

[٢] عبد الرحيم عبد الرحمن ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص٣٠٩ .

١٩٥٨م وكادت تطيح به لولا طلبه التدخل الأجنبى وفكر شمعون في الاستعانة بقوات الاتحاد الهاشمى فأصدرت الحكومة العراقية أوامرها لفرقتين بالتوجـــه الى شمال الأردن ، وعندما تحركت القوات في طريقـــها ســيطرت علــى بغـداد وأسقطت نظام الحكم الملكى في ١٤ من يوليو ١٩٥٨م ، فأنزلت أمريكا قواها العسكرية الى لبنان في ٥ من يوليو ١٩٥٨م بناء على طلب (كميل شمعـــون) بحجة المحافظة على أرواح الأمريكيين ولضرورة الحفاظ على اســـتقلال لبنـــان وسيادته . وكان نزولها من أجل المحافظة على النظم الموالية للغرب بما في ذلـــك الأردن والعراق الملكى وخوفا من سقوط هذه النظم في يد القوميين العـــرب ، وردع السوفييت .

وهذه هى الحجة التى تحتج بها الامبريالية دائما في تدخلـــها في شـــئون غيرها ، وأرواح الأمريكيين لم تتعرض لأى خطر إطلاقا . فاحتج مجلس النـــواب اللبنانى لدى الأمم المتحدة والأمين العام لها وذكر أن أزمة لبنان داخلية لا يحلـها إلا مجلس النواب اللبنانى وأن تدخل القوات الأمريكية خرق لســـيادة لبنـــان واستقلاله ويهدد السلام والأمن في منطقة الشرق الأوســـط ، كمـــا اعتـــبر الولايات المتحدة مسئولة عن النتائج السيئة التى تترتب على هذا التدخل .

وهب المجلس النيابى فانتخب فؤاد شهاب القائد العام للجيش اللبنـــانى رئيسا للجمهورية اللبنانية في ٣١ تموز (يوليو) ١٩٥٨م .[١]

وكانت بريطانيا قد أنزلت قواتا لها محمولة جوا في الأردن بقصد حصـــو آثار الثورة العراقية ، وظلت القوات الأمريكية في لبنان ثلاثة أشهر ، وبعـــد أن توقف القتال هدأت الأحوال في المنطقة خرجت عائدة الى بلادها ، ولكنـــها لم تستطع أن توقف التيار القومى العربى فقد ظلت الوحدة بين مصـــر وســـوريا

---

[١] المرجع السابق ، ج٢ ، ٣١٤ .

وقامت ثورة في العراق أخرجته من حلف بغداد ، وفضل لبنان أن يتخذ موقف الحياد .

ولم تلبث أن نشبت حرب أهلية ضارية في لبنان سنة ١٩٧٥م بين المسلمين والموارنة لأن المسلمين في لبنان كانوا غير راضين عن حصر رئاسة الجمهورية في الموارنة على أساس أن المسلمين أكثرية ، وهناك بعض المسلمين ممن يرون أنه لا مانع من بقاء رئاسة الجمهورية في الموارنة ولكن مع تحويل الحكم الى نظام وزارى فتكون السلطة في يد رئيس الوزراء ، ويصبح منصب رئيس الجمهورية صوريا . وزاد الثورة اشتعالا وجود الفلسطينيين في لبنان وكان اللبنانيون قد اختلفوا حول التواجد الفلسطيني سياسيا وعسكريا في لبنان وحول العمل الفدائى عبر الحدود اللبنانية ، فقد بدأت المقاومة الفلسطينية تنظم نفسها وتلعب دورا سياسيا بعد أن نزحت من الأردن عقب أحداث أيلول الأسود التى تم طرد المقاومة من الأردن بعدها ١٩٧٠م الى لبنان وكان موقف المسلمين في لبنان تجاه المقاومة يختلف عن موقف المسيحيين نظرا لأن الفلسطينيين وقفوا مع المسلمين في لبنان ضد المسيحيين .

وتحول اللاجئون الفلسطينيون في لبنان الى قوة عسكرية مسلحة ومستقلة عن الدولة اللبنانية وبدأت تشرف على المخيمات الموجودة في لبنان التى كانت شبيهة بجزر سياسية خارجة عن السيادة اللبنانية ، وزاد من خطورة الموقف أن الأحزاب في لبنان بدأت تكون ميلشيات مسلحة تابعة لها ، وهذا مما زاد من اشتعال الحرب الأهلية في لبنان التى اشتركت فيها جميع الأطراف اللبنانية والفلسطينية .

غزو اسرائيل للبنان :

هذا مما دفع اسرائيل لغزو لبنان سنة ١٩٨٢م حيث زحفت على جنوب لبنان واحتلته حتى وصلت الى العاصمة وحاصرتها وكان هدفها ضرب المقاومة الفلسطينية ، وعلى إثر ذلك خرج ياسر عرفات من لبنان ومعه كثير من القواد الفلسطينيين ، ثم بعد ذلك انسحبت القوات الأسرائيلية من لبنان .

ولم تنته الحرب الأهلية في لبنان إلا بعد عقد مصالحة بين الأطراف اللبنانية في السعودية حيث اجتمعوا في مؤتمر للمصالحة في جدة سنة ١٩٨٦م ، وكانت القوات السورية قد دخلت بأمر من الجامعة العربية الى لبنان وتمكنت من فرض الأمن والهدوء في لبنان ومازالت هذه القوات موجودة في لبنان حتى يومنا هذا (١٩٩٩م) [1] .

---

(١) د . محمود صالح منسي ، الشرق العربي المعاصر ، القاهرة سنة ١٩٨٥م ص٢٩٥–٣٠١ .

الباب الثالث

العالم العربى إبان الحربين
الأولى والثانية

الفصل الأول

الوطن العربى إبان الحرب العالمية الأولى

كان الوطن العربى ميداناً من ميادين الصراع إبان الحرب العالميـة الأولى التى دارت رحاها بين :

دول الوفاق : بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية .

ودول الوسط : النمسا والمجر وألمانيا وتركيا .

وكانت الدولة العثمانية تملك العراق وساحل الخليج العربى ولها سـيادة على الحجاز ومصر وسواحل البحر الأحمر واليمن ، وبلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين ، والأردن) .

وكانت الدولة العثمانية تستطيع بهيمنتها على الحرمين الشريفين إعـلان الجهاد الإسلامى في موسم الحج ويكون له تأثير في العالم الإسلامى ، وبذلـــك حاول الألمان تقوية تحالفهم مع الدولة العثمانية وأصبح لهم نفوذ في تركيا عـــن طريق التواجد في الجيش التركى وفي الإدارات التركية المختلفة [1] .

ولما كان ملايين المسلمين يقعون تحت سيطرة بريطانيا وفرنسا وروسيا ، فكانت دول الوفاق تخشى من اعلان الجهاد الإسلامى فى شتى بقاع المعمـــورة ضدهم وخاصة أن إمبراطور ألمانيا اقترح حربا دينية مقدسة لتحطيـــم النفـــوذ البريطانى والفرنسى في الشرق ، وكان يعول على الشعوب الإسلامية ويقـــول

---

[1] د . رأفت الشيخ ، تاريخ العرب المعاصر ، ص٣٢ .

"إذا نجحنا في حشدها ضد الانجليز والروس فإننا نستطيع أن نرغم هاتين الدولتين على طلب الصلح "[1] .

وأصدر بيانا الى المسلمين الذين يحاربون في صفوف دول الوفاق بأنهم يعتبرون في نظر الألمان أعداء وأنهم إذا وقعوا أسرى في يد الألمان فسيرسلون الى تركيا ليكونوا تحت تصرف الخليفة .

وقد نجحت جهود ألمانيا بإثارة السلطان العثماني فأصدر بوصفه خليفة المسلمين بيانا في ١٩١٤/١١/٢٣م أعلن فيه الجهاد الإسلامي ، وكان هذا البيان يحمل توقيعات شيخ الإسلام وغيره من الشخصيات الإسلامية في الدولة وكان البيان يتكون من ثلاثين صفحة بعنوان : " بلاغ عام لجميع أهل الإسلام نشرته جمعية المدافعة الملية دار الخلافة العلية ١٣٣٣هـ " .

وكان مما جاء فيه : " الواجب بذل الوسع في إنقاذ أي شعب من شعوب المسلمين فكيف إذا تألب الكفار الظالمون بعدوانهم على مركز الخلافة ، وناصبوا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة ... لا ريب أنه يفترض في هذه الحالة فرض عين على كافة اهل الإيمان في كل مكان أن يبادروا الى نصرته والذب عن بيضة الإسلام بما يستطيعون من حول وقوة ، فعلى كل مسلم أن يتهيأ للقيام بهذا الغرض ينبغي اليوم للعالم الإسلامي بجملته أن يجمع إرادته الكلية في نقطة واحدة ، ويعطل كل عمل له مؤقتا دون العمل لنصرة دين الله والجهاد في سبيل الله ، وقد توجبت اليوم على كل قوم من الأقوام الإسلامية وظيفة مقدسة جدا ألا وهى الجهاد .

---

[1] د . محمود منسى ، تاريخ الشرق العربي الحديث ، ص٣٢٧ .

" ألا فاعلموا أن الجهاد صار فرض عين على كل كافة المسلمين وأنـــه قد جاء الزمان الذى ينبغى استعمال كل وسيلة لتخليص الوطن الإسلامى من سلطة الكافرين الظاملين " [١] .

وقد ظهر أثر الدعوة الى الجهاد في أنحاء شتى من العالم الإسلامى كـالهند ، وحاولت حكومة الهند تهدئة الأوضاع وبذلت جهداً من أجل تهدئة مشاعرهم حيث كانوا ساخطين على بريطانيا لتعاونها مع الشريف حسين فقـــد اعتـــبروه خائنا لأنه تحالف مع الانجليز ضد الدولة العثمانية .

وظهر أثر دعوة الجهاد في ليبيا والسودان حيـــث أثـــار السنوســـيون المشاكل لبريطانيا على حدود مصر الغربية كما اتصلوا (بعلى دينار) ســـلطان دارفور الذى ثار هو الآخر ضد بريطانيا متأثرا بالدعوة الى الجهاد إلا أن الانجليز سرعان ما قضوا على هذه الثورة في مايو سنة ١٩١٦م ولقى علي دينار نفسه حتفه في نوفمبر سنة ١٩١٦م .

وكان الشيخ محمد مصطفى المراغى يعمل في هذه الفترة قاضياً لقضـــاة السودان وكان على صلة قوية بالإنجليز ، فاتصل الانجليز بالمراغى وطلبوا منـــه إصدار فتوى ضد فتوى الخليفة العثمانى ، التى كانت تنص على عدم جواز قتال المسلم لأخيه المسلم كما فعل الشريف حسين بن على شريف مكـــة في حربـــه للأتراك في الحجاز والشام ، فأفتى الشيخ المراغى بفتوى لصالح بريطانيا تجـــيز محاربة المسلم لأخيه المسلم ، وكانت هذه الفتوى من عالم أزهرى كبـــير مـــن أسباب استقرار الوضع في السودان إبان الحرب العالمية الأولى[٢] .

---

[١] المرجع السابق ، ص٣٣٠ - ٣٣١ .

[٢] مذكرات الشيخ الأحمدى الظواهرى ، بعنوان السياسة والأزهر ، بقلم إبنه الدكتور فخر الدين الأحمدى الظواهرى ، ص٥٧ .

ونظراً لهذه الثورات فإن دول الوفاق احتاطوا لأمرهم ولم يجندوا كثيراً من مسلمى مستعمراقم في القوات التى كانت تحارب الدولة العثمانية .

وحاولت بريطانيا أن تحارب الجهاد الدينى بسلاح القومية وإثارة النعرة القومية العربية لدرجة أن أمير مكة الشريف حسين وعدته بأن يكون ملكاً على العرب فثار على الدولة العثمانية وأخذ يحارب قواقما في منطقة الحرمين الشريفين وثارت سوريا أيضا وأصبحت دمشق هى القلب النابض للحركة العربية .

وكانت جماعة الاتحاد والترقى التى هيمنت على الحكم في هذه الأونة تنادى بفكرة الطورانية التى تصادمت مع فكرة الجامعة الإسلامية لأن الاتحاديين كانوا يعتبرون الدين معوقاً لتقدمهم ولذلك رفضوا فكرة العثمانية والجامعة الإسلامية [١] .

وحاولت بريطانيا إقامة معاهدات مع العرب ، فأقامت معاهدة مع الشريف الأدريسي في عسير في إبريل سنة ١٩١٥م (١٥ من جمادى الثانى سنة ١٣٣٣هـ) تعهد الأدريسي فيها بمهاجمة الترك ومحاولة إخراجهم من مراكزهم في اليمن .

وعقدت بريطانيا معاهدة مع عبد العزيز بن سعود في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥م أمير نجد والأحساء ، وقد نصت هذه المعاهدة على أعتراف بريطانيا باستقلال إبن سعود في نجد والاحساء والقطيف وملحقاقما وألا يتدخل في شئون الكويت والبحرين وقطر وساحل عمان وهى المناطق التى أعلنت بريطانيا عليها الحماية في بداية الحرب نظراً لاكتشاف البترول في أراضيها وأهميته ومحاولة احتكار هذه المادة الإستراتيجية . وكان من أثر ذلك أن عبد العزيز لم يستجب للدعوة الى الجهاد ضد الاستعمار وامتنع في هذه الآونة عن مهاجمة الشريف

---

[١] د . محمود منسى ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٣٦ – ٣٣٨ .

حسين ، ووعد الحلفاء ألا يتدخل في شئون الكويت والبحرين وقطر والساحل العماني وهى المناطق التى أعلنت بريطانيا عليها الحماية في بداية الحرب .

مراسلات الحسين مكماهون :

كان الشريف حسين يمثل في ذلك الوقت أكبر الأسر العربية مكانة فهو أمير مكة والمهيمن على الحرمين الشريفين ، وكان لديه أربعة أبناء هم (على) و (عبد الله) و (فيصل) و (زيد) وكان فيصل أكثرهم طموحا ، فقد كان يرنو ببصره الى حكم الشام الذى انفرط عقده فأصبح عدة دول هي : سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ، وكان (فيصل) دائم الاتصال بالأستانه يتردد عليها ، وكان (عبد الله) دائم الاتصال بالقاهرة يتردد عليها للاتصال بالانجليز الذين كانوا يلمحون له بمناصرة والده إذا ما فكر الأتراك في خلعه ، أما (على) فكانت طموحاته أن يكون ملكاً على الحجاز [1] وكان أكبر أبناء الملك حسين ، وكان (زيد) أصغرهم .

واتصل الشريف حسين بالأنجليز عن طريق (مكماهون) نائب ملك بريطانيا في مصر إبان الحرب العالمية الأولى ، بدأت بذلك قصة ما عرف في التاريخ " بمراسلات الحسين مكماهون " والتى بدأت برسالة الشريف الأولى في ١٤ من يوليو ١٩١٥م فيه يطلب من انجلترا الاعتراف باستقلال البلاد العربية في الشام وجزيرة العرب ، وفي مقابل ذلك أبدى الشريف استعداده للتحالف عسكرياً مع بريطانيا لمدة سنة قابلة للتجديد ، وتعترف حكومة الشريف بأفضلية بريطانيا في المشاريع العربية في الدولة الجديدة وحدد الشريف ٣٠ يوماً بعدها يكون حراً في العمل كما يشاء .

---

[1] صالح مسعود أبو يصير ، جهاد شعب فلسطين في نصف قرن ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م ص٣٤-٣٥ .

فرد مكماهون ردا دبلوماسيا مبهما ليس فيه تحديد وتعمد أن يكون الرد بعد فوات المدة التى حددها الشريف ، فجاء الرد في ٣٠ من أغسطس ١٩١٥م .

وتوالت مراسلات حسين مكماهون في هذا الإطار من المراوغة الانجليزية ، في الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تقوم بمؤامرة سرية لتقسيم البلاد العربية محل آمال الشريف حسين ، وفي الوقت الذى كان فيه اليهود يعدون المسرح لموافقة الانجليز على وعد لهم بجعل فلسطين وطنا قوميا لهم ومساعدتهم من أجل تحقيق هذا الهدف ، وعلى الرغم من ذلك فإن الحسين انتهى به الأمر الى تحالف مع الانجليز ضد الأتراك ودخل في حرب ضد الدولة العثمانية .

ولم يأت لفلسطين ذكر في أية مذكرة من المذكرات ولم يكن الشريف على دراية بما يدبر له من جانب اليهود .

ثورة الشريف حسين :

وأعلن الشريف الثورة على الأتراك عقب هذه المراسلات ، وبدأ ذلك بأول رصاصة أطلقت في مكة في صباح اليوم الثانى من يونيو ١٩١٦م ضد القوات التركية المعسكرة في قلعة إجياد أمام الحرم مخدوعا بوعود الانجليز .

وتقرر إنشاء جيش عربى نظامى يضم الضباط العرب وقد وصل عدد منهم الى (ينبع) و (الوجه) وأشرف على تنظيم الجيش العربى الضابط (عزيز على المصرى) الذى عمل مع الحركة العربية من أجل تأسيس دولة عربية موحدة ، ولكن سرعان ما انسحب هذا الضابط الكفء لأن الانجليز لم يلبوا طلبه عندما أصر على تزويد الجيش بمدفعية حديثة ، وخاصة التى غنمها الانجليز من الاتراك . وقال عزيز المصرى : " يلوح لى بأن الانجليز يريدون القضاء على العرب والأتراك معا في وقت واحد " .

ولما بلغت هذه الأقوال الى الانجليز طلبوا من الحسين تنحية عزيز المصرى في الحال من منصبه في رياسة أركان حرب الجيش العربى ، فأعفاه الشريف من منصبه بطريقة مهذبة وأعطاه أجازة مفتوحة عاد بعدها الى مصر .

واستطاع الشريف أن يقطع الاتصال بين قوات تركيا في اليمن وقواتها في الشام ، واتهم الشريف الأتراك بالخروج على الإسلام فعطل بذلك دعوة الجهاد التى أعلنها السلطان العثمانى .

وبينما كان الشريف حسين وأعوانه يمعنون القتل في الأتراك في كل مكان بالحجاز وخاصة في مكة والطائف إذا بوكالات الأنباء تطير خبر قيام ثورة شيوعية في روسيا ضد القيصر وتعلن على العالم الاتفاقيات السرية التى عقدت بين الحلفاء الثلاثة بريطانيا وفرنسا وروسيا لتقسيم البلاد العربية التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، وهى الاتفاقية المعروفة باتفاقية (سايكس – بيكو) [١] ١٩١٦م والتى تعطى العراق وفلسطين وشرق الأردن لبريطانيا ولبنان وسوريا لفرنسا ، والبسفور والدردنيل وما حولهما لروسيا .

والواقع أن هذه الاتفاقية صورة مرعبة للخيانة والخداع والمكر الانجليزى ، وتحوى شروطاً تتعارض مع ما كان قد اتفق عليه الانجليز مع الشريف حسين ، ولكن كان هذا جزاء وفاقا لمن تعاون مع الأعداء ضد إخوانه ، ومن أعان ظالماً سلط عليه ، تلك سنة من السنن الكونية التى لا تتخلف ، وهى أيضاً صورة بشعة للنفاق الانجليزى للوصول الى ما تبيته السياسة الانجليزية من تقسيم للعالم العربى .

---

[١] سايكس : هو مارك سايكس عضو البرلمان البريطانى والمندوب السامى لشئون الشرق الأدنى ، وبيكو : هو جورج بيكو قنصل فرنسا السابق في بيروت ومعتمدها السامى . وهما اللذان قاما على التحضير لهذه الاتفاقية سراً مع روسيا .

وعندما وصلت هذه الاتفاقيةالى مسامع تركيا أسرعت تواجه الشريف حسين بخطئه الفاحش عندما تعاون مع أعداء الأمة الإسلامية على أمل استقلال هو كالسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، فأرسلت تركيا رسالة الى فيصل ابن حسين على وجه السرعة بتاريخ ١٩١٧/١١/٢٦م تذكر فيها بأن الواجب الدينى يدعو فيصل وأباه الى العودة الى حظيرة الإسلام ودولة الخلافة ، وطلب جمال باشا (الذى كان يومئذ بالشام) من فيصل الحضور الى دمشق آمنا لعقد اتفاق ينص على اعطاء الولايات العربية الاستقلال من الدولة العثمانية بعد الحرب وعندما أرسل فيصل الرسالة الى والده تأثر جدا ولكنه لم يخلع اتفاقه مع الانجليز لأن الانجليز أوهموه مرة أخرى بأن هذه خدعة تركية وأن هذه ليست اتفاقية وإنما هى مسودة لاتفاقية لم تتم فوجدت في خزائن القيصر بعد مقتله وقيام الثورة الشيوعية .

وعد بلفور :

كان اليهود قد ضاعفوا نشاطهم مع الحلفاء إبان الحرب الأولى الى أن حصلوا في نوفمبر ١٩١٧ على وعد من بريطانيا بإنشاء الوطن القومى لليهود في فلسطين ، وهو إعلان على لسان وزير خارجية بريطانيا يومئذ اللورد " أرثر جيمس بالفور " .

وقد صدر هذا الوعد في شكل خطاب الى اللورد روتشلد زعيم اليهود في بريطانيا وفيما يلى نصه :

" إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى في فلسطين ، وسنبذل جهدنا لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى يعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التى

تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى تتمتع به الطائفة اليهودية في البلدان الأخرى " .

ويحتوى هذا التصريح على تضارب صارخ ، فكان من المستحيل من الناحية العملية " إنشاء وطن قومى لليهود في فلسطين " ولا يحدث مساس "بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين " .

كما اشتمل هذا التصريح على مغالطات واضحة تلك المغالطات التى وصفت العرب في فلسطين (مسلمين ومسيحين) بكلمة (طوائف) في حين كان العرب يشكلون ٩١% من مجموع عدد السكان ، وأطلق التصريح كلمة شعب على اليهود الذين لم يتجاوز عددهم في فلسطين نسبة ٩% فليس لهم مقومات الشعب في فلسطين ، فكان العرب ستمائة ألف واليهود خمسون ألفا .

كما أن التصريح من ناحية أخرى هو وعد (من لا يملك لمن لا يستحق) فلا الانجليز يملكون فلسطين حتى يعطوها لليهود ، واليهود لا يستحقون أن يملكوا بلدا لشعب مقيم على أرضه [١] .

هذا في الوقت الذى دخلت فيه الجيوش الانجليزية القدس في أواخر ١٩١٧ بقيادة (اللورد أللبنى) مترجلا يحاول أن يتشبه بما فعله عمر بن الخطاب وعندما وصل الى كنيسة القيامة المسيحية قال : " اليوم انتهت الحروب الصليبية " .

وهكذا كشف هذا القائد الانجليزى بعبارته هذه عما يضمره هو وقومه ضد العالم الاسلامى ولسنا بحاجة أن نقول إن جميع مراسلات حسين مكماهون وغيرها من الاتفاقيات للعرب كانت مسرحية انتهت وأسدل الانجليز بذلك

---

[١] قال جمال عبد الناصر عن وعد بالفور ،"أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق" .

الستار على مرحلة من النفاق والغدر الاستعمارى الـــذى لا يمكـــن للعـــرب والمسلمين أن ينسوه مهما تقادم الزمن ، ولا يمكن لهم في يوم من الأيام الاعتماد على الغرب في الحصول على حقوقهم ، وأن هذه الحقوق يجـــب أن يعتمـــدوا دائما على قوتهم الذاتية في المحافظة عليها .

وهكذا صح حدس وإحساس الضابط عزيز على المصرى الذى قال بأن الانجليز " يريدون القضاء على العرب والأتراك معا في وقت واحد " .

وهذا ما حدث فقد خرجت تركيا من الحـــرب مهزومـــة وضـــاعت أراضيها العربية التى وزعها الحلفاء على بعضهم في اتفاقيـــة ســـايكس بيكـــو السابقة.

وبعد انتهاء الحرب إجتمع المنتصرون في (مؤتمر للصلـــح في بـــاريس) الذى عقد في يناير ١٩١٩م وأملى الحلفاء شروطهم ، ووافق المؤتمـــر علـــى تصريح بلفور وعندما قرر الحلفاء إنشاء عصبة الأمم المتحدة في سويسرا أقـــر مجلس عصبة الأمم في ١٩٢٢/٧/٢٤م هذا الوعد وضمنه مشروع الدســـتور المقترح لفلسطين .

وعلى الرغم من أن الشريف حسين أوفد إبنه فيصل الى مؤتمر الصلـــح في باريس ليتحدث باسم العرب ويؤكد إستقلالهم إلا أنه واجه مؤامرة دوليـــة لتقسيم البلاد التى ينوى إستقلالها ففرنسا تريد وضع ســـوريا ولبنـــان تحـــت الانتداب الفرنسى وإنجلترا تريد تأكيد إنتدابها على الأردن والعراق وفلسـطين واليهود مصممون على تنفيذ تصريح بالفور بإنشاء الوطن القومى لليـــهود في فلسطين .

وسعت وزارة الخارجية البريطانية الى أخذ إقرار صريح مـــن فيصـــل بالموافقة على تصريح بالفور وأشارت عليه بأن يجتمع مع وايزمان رئيس المنظمـة

الصهيونية لهذا الغرض وأوضحت الحكومة البريطانية لفيصل بأن تحقيق مطالب العرب متوقفة أولا وقبل كل شئ باتفاقه مع الصهيونيين .

وأذعن فيصل لضغط الانجليز واليهود قبل المؤتمر واستمع لنصح مستشاريه الانجليز وعلى رأسهم لورانس وفي لندن أدلى (بتصريح) الى وكالة رويتر فأذاعته يوم ١٢ من ديسمبر ١٩١٨م ، أبدى أمله في تحقيق آمال كل من العرب واليهود ، للقضاء على التحاسد بينهما في فلسطين الذى أوجدته الفتن التركية ، وذكر بأن الصهيونيين اليهود هم حملة حضارة أوربا الى الشرق.

ولم يكتف الاستعمار والصهيونية بهذا التصريح غير الواعى من فيصل وإنما طلبوا منه أن يصدر الاعتراف العربي بحقوق اليهود في فلسطين في اتفاقية يوقع عليها فيصل نيابة عن العرب ، ووايزمان نيابة عن " المنظمة الصهيونية " .

وفعلا تم إبرام (اتفاقية فيصل ، وايزمان) في الثالث من يناير سنة ١٩١٩م جاء فيها أن فيصل ووايزمان يدركان القرابة الجنسية بين العرب واليهود ولذلك اتفقا على تبادل التمثيل الدبلوماسى ، وتحديد الحدود بين الدولة العربية وفلسطين بعد مؤتمر السلام وأخطر ما في الاتفاقية هى (المادة الثالثة) ونصها :

" عند إنشاء دستور وإدارة فلسطين تتخذ جميع الاجراءات التى من شأنها تقديم أو في الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية (بلفور) المؤرخ في اليوم الثانى من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ " .

ونص في الاتفاقية على تشجيع الهجرة اليهود به الى فلسطين [١] .

وعلى الرغم من اتفاق (اليهود) معه على دعم جهوده للحصول على الاستقلال لسوريا ولبنان والعراق ولكن اليهود ساعدوا جهود فرنسا للحصول

---

[١] حسن صبرى الخولى ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٩٩ - ٣٠٦ .

على الانتداب في سوريا ولبنان تقربا لفرنسا وإسهاما في عرقلة الوحدة العربية وإضعاف الكيان العربي .

أما (بريطانيا) فقد تخلت عن تأييد فيصل في عرش سوريا بعد أن لمست إصرار (فرنسا) على الظفر بسوريا ولبنان ، وهكذا فشل فيصل في الحصول على بغيته من الاستعمار والصهيونية ، وبقيت قصة اتفاقه مع اليهود صفحة غير مشرفة له ولأسرته ، وظل اليهود يحتجون بهذه الاتفاقية فيما بعد في المحافل العالمية لاثبات حقهم في فلسطين بموافقة مندوب عن العرب هو فيصل .

وعلى الرغم من أن فيصل سجل في نهاية اتفاقه مع وايزمان تحفظا نص فيه على أنه إذا لم تف انجلترا بتعهداتها للعرب بالاستقلال فإن هذه الاتفاقية تعتبر ملغاة وكأنها لم تكن ، ولكنه نسى أن هذا التحفظ كان يخص بريطانيا ولا مكان له في اتفاقية أبرمها مع اليهود .

فيصل يحارب فرنسا :

كانت هذه التطورات التى صدمت العرب جعلتهم يتجهون الى الحرب ضد فرنسا ، فعاد فيصل بن الحسين الى دمشق في مايو ١٩١٩ وتم تشكيل ما عرف (بالمؤتمر السورى العام) ، وكانت الجيوش الفرنسية تحتل الساحل السورى والجيش البريطانى يحتل فلسطين ، أما القرات العربية فكانت بالمنطقة الداخلية من سوريا وقاعدتها دمشق .

ودعا العرب في الشام والعراق لدعوة المؤتمر السورى للانعقاد في دمشق في ٨ مارس ١٩٢٠ واتخذ المؤتمر عدة قرارات تقضى باستقلال سوريا وتنصيب فيصل بن الحسين ملكا عليها في مشق ، واستقلال العراق ، ورفض اتفاقية (سايكس – بيكو) ووعد بلفور ، ورفض الانتداب البريطانى والفرنسى.

وردت الدولتان على ذلك بفرض الانتداب الفرنسى على كـــل مـــن سوريا ولبنان ، والانتداب الانجليزى على العراق وفلسطين في مؤتمـــر (ســـان ريمو) في ٢٥ أبريل ١٩٢٠م [١] .

وأبلغت بريطانيا فيصل بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع الاعـــتراف بحق (مؤتمر دمشق) في تقرير مستقبل بلاد انتزعتها قوات الحلفاء مـــن أيـــدى الترك ومصيرها معروض أمام (مؤتمر الصلح) ولا يمكـــن أن تقـــره إلا دول الحلفاء مجتمعه وأن بريطانيا وفرنسا مضطرتان الى القول بأنهما تعتبر أن هـــذه الاجراءات باطلة وكألم تكن [٢] .

وكان من نتيجة هذا أن تخلت بريطانيا عن فيصل وتركته يلاقى مصيـــره أمام فرنسا ، وقامت فرنسا بالإيعاذ الى عملائها في لبنان برفض قرارات المؤتمـــر السورى ورفض إدخال لبنان ضمن مملكة فيصل .

وقامت المظاهرات في سوريا وعم الاضطراب كل أنحاء المدن الســـورية احتجاجا على الانتداب ومطالبا باستقلال البلاد ، وأصدرت الوزارة الســـورية قرارا بجعل الخدمة العسكرية اجبارية على كل السوريين وتم اعـــداد الشـــعب للدفاع عن البلاد في حالة نشوب حرب ضد فرنسا ، وبدأت هجمات الفدائيين السوريين ضد المراكز الفرنسية في سوريا ولبنان .

الهجوم الفرنسى على سوريا :

حاول الانجليز والفرنسيون دعوة فيصل الى باريس لتسوية سياسية معـــه ولكن الأحرار السوريون رفضوا ذلك ، وتطورت الأوضاع ووجه الفرنســـيون

---

[١] د . محمود منسى ، تاريخ الشرق العربى الحديث ، ص٦١٩ .

[٢] المرجع السابق ، ص٦٣٨ .

إنذارا الى فيصل يطلبون فيه قبول الانتداب وإلغاء التجنيد الاجبارى ومعاقبة الفدائيين الذين اعتدوا على المراكز الفرنسية .

وزادت موجة الغضب في سوريا ، وطالب فيصل قناصل الدول في سوريا بتكوين لجنة للتحكيم الدولى من ممثلى حكومات الحلفاء للفصل بينه وبين فرنسا ، ولكن لم يستجب إليه أحد ومال فيصل لقبول الانذار الفرنسى لأن رفضه يؤدى الى الحرب التى ستنتهى بهزيمة قواته غير المسلحة وغير المنظمة ونصحه الانجليز بذلك ، وفعلا أرسل فيصل الى قائد القوات الفرنسية الجنرال (جورو) رسالة يخبره فيها بقبول الانذار الفرنسى وشروط فرنسا .

وعندما شاعت أخبار قبول فيصل الانذار الفرنسى في دمشق قامت ثورة في دمشق تنادى بسقوط فيصل والحكومة وتتهمهما بالخيانة وهاجم الثوار قلعة دمشق للحصول على السلاح فواجهتهم قوات فيصل بنيران الرشاشات وقتلت منهم حوالى ٢٠٠ من الثوار .

معركة ميسلون :

وتقدمت القوات الفرنسية من لبنان الى دمشق لاحتلالها وإقامة الانتداب على سوريا بالقوة ، وعسكرت القوات الفرنسية عند (خان ميسلون) وفي ٢٤ يوليو (تموز) ١٩٢٠ بدأت في الفجر معركة ميسلون ، وقبل الظهر انهارت مقاومة جيش فيصل ، ومما يؤسف له أن القوات الفرنسية كانت مكونة من الجزائريين والسنغاليين والمراكشيين والأفارقة المسلمين .

وهذه القوات المسلمة كانت عليها قيادة فرنسية تعززها الدبابات والسيارات المصفحة والمدفعية الثقيلة والطائرات ، وحاول الشريف حسين الدفاع عن ابنه في آخر لحظة عندما أرسل إليه فيصل يطلب المدد ، واتصل الحسين بقناصل الدول في جدة ولكن جهوده لم تسفر عن حل للأزمة .

ولكن القوات الفرنسية أطبقت على دمشق وغادر فيصل دمشق ، وكانت فرنسا قد أرسلت إليه خطابا تطلب منه مغادرة البلاد مع أسرته وحاشيته فلم يجد مفرا من الاذعان ، وسافر الى لندن عن طريق بورسعيد في مصر واستقل سفينة متجهة الى أوربا .

وفي لندن تم تتويج فيصل ملكا على العراق في أحد الكنائس [١] لكي يستعيد الانجليز مركزهم في العالم العربي ولكي يزيلوا الاتهام الذى يوجهه إليهم العرب بأنهم خانوا العهد مع فيصل وأهل البلاد ، وكانت الثورة شبت في العراق أيضا ويريد الانجليز تهدئة الأوضاع بها . وخاصة أن فيصل على علاقة بكثير من العراقيين الذين عملوا معه في الشام ، ورغبة من بريطانيا في إزالة تهمة التخلى عنه في مواجهته لفرنسا ، وخاصة أنهم أدركوا أنه سيصبح أكثر طاعة لبريطانيا بعد الدرس الذى تلقاه في دمشق .

وأوعزت بريطانيا الى بعض الشخصيات العراقية بأن تكتب الى فيصل تدعوه الى المجئ الى العراق على أن يرتب له عند حضوره استقبال حماسي يليق به على الرغم من وجود بعض المعارضين لتولى فيصل ملكا على العراق مثل (طالب النقيب) أمير ربيعة و(عبد الرحمن الكيلانى) نقيب أشراف بغداد .

وخلا الميدان لفرنسا في سوريا ولبنان وحاولت فرنسا في عهد الانتداب تجزئة سوريا ولبنان وتعميق الطائفية .

مقاومة فرنسا في سوريا :

بعد فرض الانتداب الفرنسى على سورية ، ومعارضة الوطنيين له ، تزعم (إبراهيم هنانو) حركة حرب العصابات ضد القوات الفرنسية في منطقة حلب . وبعد استيلاء الفرنسيين على دمشق ، انتقل الى اقليم بيلان بالقرب من

---

[١] كنيسة وستمنستر .

الحدود التركية ، والتف حوله جمع من الفدائيين السوريين والمتطوعين من الضباط الأتراك وظفر بعدة انتصارات في المعارك التى خاضها ضد قوات الحملات الفرنسية ، وقدر عددها بنحو ٣٠ ألف مقاتل الى أن اضطرته للانسحاب الى شرق الأردن .

قبضت سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين على (إبراهيم هنانو) في أغسطس (آب) سنة ١٩٢١م تنفيذا لطلب تقدم به إليها القنصل الفرنسى استند فيه الى اتفاق بين المندوبين الساميين في البلدين ، يقضى بتبادل المجرمين ، تسلمت السلطات الفرنسية هنانو في بيروت ، ونقلته الى حلب . وشكلت مجلسا عسكريا من ثلاثة من كبار الضباط الفرنسيين لمحاكمته ، بدأت المحاكمة في ١٥ مارس (آذار) واستغرقت ثلاثة شهور من عام ١٩٢٢م .

نسب الادعاء للزعيم السورى تهمة تشكيل عصابة من المجرمين ، قامت بقطع الطرق والاعتداء على الجيوش الفرنساوية ، في أقضية (حارم) و(أدلب) و(جسر الشغور) و(جبل الزاوية) خلال الفترة من خريف ١٩١٩ وصيف ١٩٢١ ، عندما غادر سورية ، الى شرق الأردن ، واستضافة اميرها عبد الله بن الحسين.

دافع عن (هنانو) المحامى " فتح الله صقال " . وركز في دفاعه على ان المتهم ليس رئيسا لعصابة من قطاع الطرق كما ادعت سلطات الاتهام ، ولكنه قائد جيش واستدل على ذلك بأن " الجنرال غورو " المفوض الفرنسى العام ، سبق له أن عقد هدنة مع قوات (هنانو) تبادل خلالها الطرفان الأسرى ، وهو اعتراف رسمى بأن (هنانو) قائد جيش كان يحارب قوات الغزو باسم الشعب السورى .

طلب رئيس المحكمة من (ابراهيم هنانو) أن يعين اسم واحد من افــراد الشعب السورى يشهد امام المحكمة بأنه فوضه نيابة عنه في محاربة فرنسا ، وقبل أن يجيب المتهم ، قال أحد الحاضرين : أنا يا سيدى الرئيس والألوف معى كلفنا (ابراهيم هنانو) مقاتلة فرنسا التى دخلت بلادنا بدون وجه حق ومن حقنــا أن نقاوم الاحتلال الاجنبى بقوتنا المسلحة ... دوت قاعة المحكمة بالتصفيق تــأييدا للشاب الذى تبين أن اسمه (سعد الله الجابرى) . غضب رئيس المجلس العسكرى وأمر باعتقال كل الذين صفقوا .

وفي ٧ حزيران (يونيو) ١٩٢٢ قضى المجلس العــرفى العســكرى في حلب ببراءة الزعيم السورى (إبراهيم هنانو) من التهم التى وجــهت إليــه ، بإعتباره رئيسا لعصابة من الأشقياء قامت بالهجوم علـــى جيــش الانتــداب الفرنسى.

أثار الحكم ببراءة (هنانو) حماس آلاف الجماهــير المحتشــدة في قاعــة المحكمة وخارجها ، خاصة ,ان المحكمة اعتبرت أن ما قام به ، قد تم بدافع حبــه لوطنه ورغبته في حريته واستقلاله .

شرق الأردن :

كانت منطقة شرق الأردن [1] قبل عام ١٩٢٠م تابعة للدولة العثمانيــة وانتقلت إدارتها من عام ١٩١٨ الى حكومة فيصل العربية بدمشق ، وكــانت جزءا (من بلاد الشام يطلق عليه بادية الشام ، والجزء الجنوبى من شــرق الاردن كان تابعا للحجاز ، والجزء الشرقى منها كان تابعا للعراق فــهو جــزء مــن صحراء العراق .

---

[1] يقصد بمنطقة شرق الأردن الأراضى الواقعة شرق نهر الأردن ، والتى كون الأنجليز منها المملكة الأردنية الهاشمية وهى أراضى كانت تابعة للدولة العثمانية .

وكانت دول الوفاق قد استولت على تلك المناطق لقطع الطريق أمـــام الجيش التركى المتجه الى مصر ، فدخل " لورانسى " مدينة العقبة ١٩١٧م وفي العام التالى نقل الامير فيصل بن الحسين الذى كان يقود جيش الثورة العربية الى العقبة وتمكن مع أعوانه من احتلال قسم كبير من الأرض الأردنية وذلك بعـــد معارك عديدة منها قيامه بتخريب خط حديد الحجاز واحتل الانجلـيز الأردن في ٩ ديسمبر ١٩١٩م [١] .

وقد ظلت منطقة شرق الأردن تحت الادارة العربية لفيصل حتى وصلها عبد الله بن الحسين في نوفمبر ١٩٢٠ ، أما فيصل فقد نقله الانجليز الى العـراق وعين ملكا على العراق سنة ١٩٢٠ بعد قيام ثورة فيه في تلك السنة .

باستقرار الأمير عبد الله في شرق الأردن تشكلت حكومـــة في عمـــان برئاسة عبد الله بن الحسين في " ابريل عام ١٩٢١م بمساعدة بريطانيا التى عينت له مجموعة من المستشارين الانجليز لمساعدته في إدارة الدولة الجديدة .

وأعلنت بريطانيا على لسان مندوبها السامى في فلسطين السير "هربرت صمويل " ١٩٢٣م أنها ستعترف بحكومة الأمير عبد الله .

ونظراً لضعف الموارد في هذه المنطقة فقد وعدت بريطانيـــا أن تقـــدم معونة سنوية مقدارها (١٨٠) ألف جنيه استرليني سنويا للأمـــير عبـــد الله ، وكانت هذه المعونة وسيلة من وسائل الضغـــط علـــى الأردن لا تمكنـــه مـــن استقلالية قراراته ، وفرضت بريطانيا الانتداب على هذه الدولة الناشئة .

انتداب بريطانيا لحكم فلسطين :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارهـــا وضعـــت الحكومـــة البريطانية بالاتفاق مع الصهيونية العالمية (التى مثلها آنذاك وايزمان وهوبـــرت

---

[١] د . رأفت الشيخ ، مرجع سبق ذكره ، ص٦٥ .

صمويل وكوهين) الصيغة النهائية لصك الانتداب على فلسطين والذى نـص فيه على وضع البلاد في حالة سياسية واقتصادية تساعد على إنشـاء الوطـن القومى اليهودى تنفيذا لوعد بلفور .

وفي ٢٢ يونيو ١٩٢٢ أصدرت الحكومة البريطانية مذكـرة أسمتـها (بالكتاب الأبيض) اشتمل على الدستور المقترح لفلسطين وعلى السياسة العامة التى تعتزم حكومة الانتداب اتباعها وكان هذا الدستور والسياسة العامة مبنيـان على أساس وعد بلفور .

وارتضى اليهود والانجليز منذ مدة ما اقترحه صمويل الصـهيونى أنـه يجب على بريطانيا أن تحشد في فلسطين في وقت معين جميع اليهود المشـتتين في أنحاء العالم ، وفي ظل الحكم البريطانى يمكن منح تسهيلات لمنظمـات اليـهود لشراء الأراضى وإقامة المستعمرات والمنشآت الدينية والتعليمية والاسـهام في النشاط الاقتصادى على أن تعطى الافضلية للهجرة اليهودية المنظمة ، وبذلـك يزداد عدد السكان اليهود حتى يصبحوا أغلبية ، وعندئذ يمكن أن يعلن اليـهود قيام دولتهم .

وقد أقرت عصبة الأمم المتحدة بتاريخ ١٦ سـبتمبر ١٩٢٢ وضـع فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وأقرت (صك الانتداب) الـذى اقترحـه الحكومة البريطانية والذى حددت فيه مهمة الدولة المنتدبة فقد نص في :

مادته الأولى : على أن يكون للدولة المنتدبة السلطة التامة في التشريع والادارة باستثناء ما يكون قد قيد منها في نصوص الصك .

ونص في المادة الثانية : أن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضـع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشـاء الوطـن القومـى اليهودى بحسب ما جاء في ديباجة هذا الصك .

وجاء في المادة الرابعة : الاعتراف بوكالة يهودية كهيئة عمومية لاسداء المشورة الى إدارة فلسطين والتعاون معها في الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التى تؤثر في إنشاء الوطن اليهودى ومصالح السكان اليهود في فلسطين ، ولتساعد وتشترك فيه ترقية البلاد .

وتنفيذا للمادة الرابعة سالفة الذكر من صك الانتداب اعترفت الحكومة البريطانية بالجمعية الصهيونية في فلسطين كوكالة ملائمة واشتركت الوكالة مع الادارة البريطانية في فلسطين على إدارة جميع الشئون المتصلة بتنفيذ وعد بلفور وصك الانتداب وقد تمكنت الوكالة اليهودية بمساعدة الادارة الانجليزية في فلسطين من تحقيق الأهداف الصهيونية الرامية الى تحقيق إقامة الدولة اليهودية .

وهكذا فقد سارت بريطانيا شوطا بعيدا في تنفيذ مخططها الاستعمارى الرهيب الذى كانت تعده للعالم العربى ، فأصدرت وعد بلفور وأخذت موافقة العالم الصليبى عليه وفازت بالانتداب على فلسطين وهو نوع من الاستعمار المقنع بمقولة الاشراف على شئون الدول المستعمرة حتى تتمكن من إدارة أمورها بنفسها ، وتمكنت بذلك من أن تقيم لليهود وطنا وسط العرب لتشغلهم به وتهددهم ، وهى بذلك تفصل بين العالم العربى مشرقة ومغربة ، ولعلها بذلك قد نفذت توصيات المستعمرين في تقرير كامبل بانرمان سنة ١٩٠٧م [1] .

---

[1] هو التقرير الذى أوصى بزرع إسرائيل في قلب العالم العربى لتفصل المشرق العربى عن المغرب العربى لتعوق الوحدة العربية وتكون شوكة في قلب العالم العربى ، وكامبل بانرمان هو رئيس وزراء بريطانيا في سنة ١٩٠٧ .

تعيين صهيونى بريطانى مندوبا لبريطانيا في فلسطين :

من الأمور الخطيرة التى نجحت الصهيونية فيها هو ضغطها على بريطانيا لتعيين أول مندوب سامى لبريطانيا على فلسطين من اليهود لكى يرعى تنفيذ وعد بلفور ويساعد الهجرة اليهودية الى فلسطين وذلك الرجل الذى اختارته الصهيونية لهذه المهمة هو السير (هوبرت صمويل) من اقطاب الحركة الصهيونية العالمية وعضوا في المنظمة الصهيونية البريطانية ووزيرا في وزارة الحرب في بريطانيا ، وكان هو همزة الوصل بين اليهود وبين الحكومة البريطانية ، واستطاع أن ينقل الى الوزارة البريطانية مطالب الصهيونيين ، ويشرح وجهات نظرهم ، ويدافع عنها ، وهو الذى أسهم في إصدار تصريح بلفور وغيره من المشروعات الصهيونية منذ قيام الحرب العالمية الأولى .

وهذا الرجل بماضيه المعروف يمثل الصهيونية العالمية أكثر من تمثيله للحكومة البريطانية ، وبعبارة أخرى كان صهيونيا أكثر منه انجليزيا وبتعيينه في هذا المنصب أصبح مضمونا لليهود أن يتوسعوا في فلسطين ويتمكنوا فيها على حساب العرب في ظل إنتداب مزيف للانجليز .

وقام صمويل (بتهديد أجهزة الحكم في فلسطين) وبدأ ينشىء جهازا يرضى اليهود وينفذ أغراضهم وفتح أبواب المناصب لليهود برغم قلة عددهم حتى أصبحت أربعة أضعاف العرب وسلم إدارة الهجرة لمدير يهودى ، وكذلك إدارة التجارة ، ولم تبق دائرة إلا ويرأسها يهودى أو يساعد مديرها البريطانى يهودى آخر ، وبذلك أصبحت الدولة اليهودية في الأرض المقدسة موجودة فعلا ، إذ ان السلطة العليا تنتهى دائما الى هذا المندوب السامى الذى كانت مهمته هى التمكين لليهود وإعداد المسرح لخلق دولة يهودية في فلسطين .

وإذا كان صمويل قد وضع اللبنات الأولى لليهود فإن بريطانيا واصلت طوال انتدابها ما بدأه صمويل .

تحويل ثروات فلسطين الى يد اليهود :

كانت أغلبية الأرض الزراعية في يد عرب فلسطين فبدأ صمويل يبحث عن أسلوب يهودى لافقار العرب وإبعادهم عن الأرض ، فشجع الفلاحين على الاقتراض من المرابين ، ولما تم جمع المحصول أصدر صمويل أمرا بمنع تصدير المحصولات فكسدت أثمانها ، وعجز الفلاحون الصغار عن سداد الديون ، فأقيمت حجوزات عديدة بيعت فيها أراضيهم سدادا لتلك الديون على الطريقة اليهودية العالمية .

ومن ناحية أخرى أخذ صمويل ينمي ثروة اليهود ويمكنهم اقتصاديا من فلسطين ، وأعطاه دستور فلسطين الذى وضعه الانجليز واليهود الحق في أن يهب أو يؤجر اية أرض من الأراضى بصفة مؤقته وبالشروط أو المدد التى يراها ملائمة ولعل هذا يتفق وما تنص عليه المادة الثانية من صك الانتداب ، التى تنص على أن بريطانيا تتعهد بأن يجعل فلسطين في وضع سياسى واقتصادى واجتماعى صالح لانشاء وطن قومى لليهود .

وقام صمويل بإقطاع اليهود ٢٠٠ ألف دونم في مرج ابن عامر وأجلى ٩٠٠ أسرة عربية عن أملاكها التاريخية الموروثة وأجلاهم بقوة الجيش والبوليس ، كما أقطعهم أراضى في مناطق (الكبارة) و(عتليت) و(تلال قيسارية) وهى حوالى ١٧٥ ألف دونم من أراضى سكنها العرب وفلحوها من آلالف السنين واغتصب كثيرا من الأراضى العربية بشتى الوسائل والحيل .

أما المشروعات المهمة في فلسطين فقد عمل على تسليمها لليهود بتسهيلات كبيرة ، وكان من أهمها إمتياز الكهرباء سنة ١٩٢١ ، وأعطى

صاحب المشروع حق نزع ملكية الأراضى من الفلسطينيين لإقامة المنشآت عليها ، في مقابل تعويض غير عادل وهكذا فتح المندوب السامى باب نزع الملكية على مصراعية لصالح اليهود لتغيير أوضاع الملكية لصالحهم في المستقبل.

واستمر صمويل ومن جاء بعده من الحكام يتخذون كل يوم إجراءا جديدا لصالح اليهود حتى أصبحت فلسطين مهيأة لوضع سياسى جديد عندما اختل فيها ميزان القوى لصالح اليهود تحت حماية بريطانيا ومساعدة الدول الاستعمارية الغربية . وتحت سطوة قانون نزع الملكية الذى انفرد بتنفيذه المندوب السامى أخذ اليهود يستولون بقوة بريطانيا على الأراضى قطعة قطعة ، وكان هذا القانون يخول للمندوب السامى البريطانى اغتصاب الأراضى التى يرفض أهلها ثمنها والتخلى عنها وتسليمها الى أصحاب المشروعات .

وفي إبريل عام ١٩٢١ اصدر المندوب السامى أمرا بتسليم أراضى (الغور) للصهيونيين ، وكان هذا الغور مسجلا باسم السلطان عبد الحميد أثناء العهد العثمانى يفلحه العرب ويعمرونه ، وكل من يستصلح أرضا منه يملكها ويستقر بها ، فلما بدأت فترة الانتداب على فلسطين أعلن المندوب الصهيونى أن الحكومة قد أقطعت أرض الغور للجمعيات الصهيونية لزراعتها والانتفاع بها ، وتسبب هذا الاجراء في طرد آلاف الفلاحين العرب الذين توارثوا زراعة أرض الغور منذ مئات السنين وقامت المظاهرات العربية في كل مكان من فلسطين تعلن سخطها واستنكارها [1] وانتشرت الاضطرابات فوصلت (الناصرة) و(حيفا) و(طبرية) و(الخليل) و(نابلس) وأصدر المندوب السامى أمره ، فألقى القبض على مئات من الشبان العرب .

---

[1] جريدة الأهرام ، عدد ١٥ من ابريل ١٩٢١م من خطاب مفتوح نشرته الجريدة من شاب عربى الى تشرشل .

أما في العراق : فكانت الدولة العثمانية تسيطر عليه وكان الانجليز لا يريدون قوة عسكرية أخرى في الخليج العربي ماعدا القوة البريطانية ، وكانت المشاريع الألمانية قد ظهرت في العراق وأهمها سكة حديد بغداد التى تمتد الى تركيا .

ومن ثم بدأت بريطانيا تناوئ الألمان في مشاريعهم في العراق وحاول الانجليز أن يكون العراق من نصيبهم بعد الحرب نظرا لأهميته الاستراتيجية ولوجود البترول فيه بكميات كثيرة ولذلك نصت اتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦م مع روسيا وفرنسا على دخول العراق تحت الانتداب الانجليزى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

وفعلا وقع العراق في يد القوات البريطانية عام ١٩١٧م وقد حكم الانجليز العراق حكما مباشرا متناسين وعودهم بتحرير العراق . كما سبق أن ذكرنا ذلك عند حديثنا عن العراق .

الفصل الثانى

مشاريع الوحدة العربية بين الحربين

الفصل الثانى

مشاريع الوحدة العربية بين الحربين

حاول العرب إبان الحرب العالمية الأولى أن يظفروا بالوحدة بعيدا عـــن تركيا ، وحاربوا تركيا من أجل هذا الهدف ولكنهم فشلوا لأن قيادهم المتمثلـة في الشريف حسين لم تكن واعية ، فقد كان هو وأبناؤه يثقـــون في بريطانيـــا ، وبريطانيا عدو للمسلمين جميعا من عرب وأتراك وغيرهم ، ولقد صدق حدس الضابط عزيز على المصرى عندما قال :

" الانجليز يريدون القضاء على العرب والأتراك معا في وقت واحد " .

ولم يخف الانجليز عداءهم عندما دخل القائد الانجليزى " الجنرال اللنـبى " بيت المقدس وقال قولته الشهيرة . " الآن انتهت الحروب الصليبية وكذلك عندما دخل الفرنسيون دمشق بعد انتصارهم على السوريين بقيادة فيصل ابـــن الحسين قال أحد الضباط عندما ذهب الى قبر صلاح الدين بدمشق وقال أمامــه : " الآن عدنا يا صلاح الدين " .

فكأن الغرب المسيحى لم ينس تعصبه الصليبى على الرغم من أن العرب وقفوا بجانب الانجليز والفرنسيين إبان الحرب العالمية الأولى وتحالفوا معهم ضـــد إخوانهم الأتراك ، وجرد العرب قوميتهم من الروح الاسلامية وثـــاروا باســـم العروبة فقط فلم يفلحوا وفشلوا .

وإبان الحرب حذرهم الروس من الانجليز والفرنسيين عندمـــا قـــامت الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧م وقدموا لهم الاتفاق الســـرى بتوزيـــع أملاك العرب التى كانت في حوزة الدولة العثمانيـــة ففـــى ٢٤ مـــن نوفمـــبر

١٩١٧م وجهت الحكومة السوفيتية الجديدة نداءها الرسمي الأول الى كل المسلمين العاملين جاء فيه [١] .

" لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين وإن الأرض تغلي تحت أقدام المعتدين الاستعماريين ، يا مسلمي روسيا يا من خربت مساجدكم وهدمت بيوت عبادتكم نعلن أن عقائدكم الدينية وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح إبتداء من اليوم مصونة لن تمتد إليها يد آثمة ، أقيموا حياتكم القومية في جو الحرية دون أن يعوقها عائق فلكم الحق في ذلك " .

وفي بيان آخر لاحق لهذا التاريخ قال لينين : موجها بيانه الى مسلمي العالم " يا مسلمي الشرق يا مسلمي إيران وتركيا وبلاد العرب والهند ... يا من مارس المغتصبون الاستعماريون القادمون من أوربا التجارة قروناً بأرواحكم وأموالكم وحرياتكم وأوطانكم ، يا من قسم دياركم هؤلاء النهاب الذين أشعلوا الحرب العالمية ونعلن لكم :

– أن معاهدات القيصر المخلوع السرية التي تنص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مزقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضي دولة أجنبية .

– إن معاهدة تقسيم إيران قد مزقت وأزيلت من الوجود ، فبعد أن تنتهي العمليات الحربية ستسحب القوات الروسية مباشرة من إيران ، وستكفل الحرية للشعب الايراني ليقرر مصيره السياسي عن طريق استفتاء شعبي حر .

---

[١] باول شمتز ، الاسلام قوة الغد العالمية ، ترجمة محمد شامة ، ص٢٤١ . وانظر أيضا : محمد علي البار ، المسلمون في الاتحاد السوفيتي . الذي يذكر أن هذا النداء كان في ٢٢ من نوفمبر ١٩١٧م .

– إن معاهدة تقسيم تركيا واغتصاب أرمينية قد مزقت وحجبت من الوجود وبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستكفل الحرية أيضا لشعب أرمينية ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر" [١] .

وواضح من النداء الشيوعى الى العالم الاسلامى أن الروس أرادوا به عقد تحالف بينهم وبين المسلمين والعرب لمقاومة الاستعمار الرأسمالى . وكان رد الفعل طيبا حيث تجاوبت أصداء البيان الروسى في العالم الاسلامى والعربى وأحدث رجع الصوت دويا في أرجاء المنطقة فتزايدت الأصوات في تركيا وفارس وغيرهما التى هللت للبيان السوفيتى ووصفه البعض بأنه وثيقة الحرية الكبرى – لو تحقق ما جاء فيه .

وهكذا بدا أن المبادئ الأساسية لعمل مشترك بين روسيا وبين العالم الاسلامى الذى يئن تحت وطأة المغتصبين الأجانب ويشربون كأس عبودية الاستعمار الغربى قد وضحت وأن الظروف أصبحت ملائمة لتوحيد الجهود ضد الاستعمار .

واستمر الروس في جذبهم للعالم العربى والاسلامى فكونت موسكو (لجنة اسلامية) أى مجلس أعلى للشئون الاسلامية في يناير ١٩١٨م ودعت هذه اللجنة الى عقد مؤتمر اسلامى في ديسمبر ١٩١٨ وتكونت في هذا المؤتمر "رابطة تحرير الشرق" [٢] .

وفي غضون ذلك راقب الغرب بحقد ما حققته الثورة الروسية من انتصارات عقب بيانها الى العالم العربى و الاسلامى ، وتجاوبت أصداء ثورتهم في

---

[١] المرجع السابق ، ص٢٤٢ .

[٢] باول سمتز ، الاسلام قوة الغد العالمية ، ص٢٤٢–٢٤٤ .

العالم العربي و الاسلامي للتخلص من الاستعمار الغربي ففكـــر الأمريكـــان في وضع خطة لسحب البساط من تحت أقدام الروس .

اعلان حق تقرير المصير :

فأعلن الرئيس الأمريكي ولسون (في أكتوبر ١٩١٨م) مبادئه الأربعـــة عشر التى تتعلق بحق تقرير المصير لكل الشعوب قاطبة دون تفرقة . فأعلن نهايـة عهد التوسع وبداية عهد يمكن لكل أمه أن تحصل فيه على آمالهـــا وأمانيـها القومية على أسس من العدل والمساواة بين الأجناس ، وقرر نهاية استعباد الدول القوية للشعوب الضعيفة [١] .

وقد أخلف ويلسون وعوده وعهوده للشعوب العربية و الاســـلامية ، وكما هى عادة الغرب حتى يومنا هذا فقد طبق تقرير المصير فى أوربـــا علـــى المسيحيين فقط بالنسبة للدول التى كانت تخضع للدولة العثمانية فى شرق أوربـا ، ولم يطبق فى العالم الاسلامي والعربي وطبق بدلا منه مبدأ توزيع أسلاب الحرب ، وأعطى الاوربيون والأمريكان للعرب وغيرهم وعودا كاذبة .

واستمرت روسيا في خطتها في مغازلة العالم العربي و الاسلامي فدعـــت الحكومة الشيوعية الى عقد مؤتمر عالمي لشعوب الشرق في (بـــاكو) عاصمـــة أذربيجان ، ووجهت الدعوة الى أكثر من ٢٥٠٠ عضو في كل بلاد العـــالم العربي و الاسلامى ، ولبى الدعوة أكثر من ١٨٠٠ عضو على الرغـــم مـــن محاربة الدول الاستعمارية ومنع المدعويين والقبض عليهم في الهند ووضع قنـــابل في سفينة الوفد الفارسي الى المؤتمر ، ورفض إعطائهم تأشيرات خـــروج ، لأن الاستعمار يده من حديد في بلدان العالم العربي و الاسلامي .

---

[١] د . جلال يحيى ، العالم العربي ، الجزء الثانى ، ص٥٣٥-٥٣٦ . وانظر أيضا : عبد الرحمن الرافعـــى ، ثورة ١٩١٩ الجزء الاول ص٥٧-٥٩ .

وفشل المؤتمر لمحاولة الشيوعيين المقارنة بين الاسلام والشيوعية تلك المقارنة التى رفضتها الوفود العربية و الاسلامية في المؤتمر رفضاً باتاً ، واتضح لدى السوفيت أن ما يبحث عنه الوطنيون الشرقيون لدى روسيا هو السلاح والمساعدات العسكرية والموقف الدبلوماسى ضد القوى الغربية ، وأظهرت موسكو استعدادا لتقديم هذا كله لأن نضال الشعوب الاسلامية ثورى في رأيها ويمكن أن يمزق أوصال الاستعمار الغربى الذى هو العدو الرئيسى لموسكو [1] .

كان هذا هو النشاط السياسى للدول الكبرى في أواخر الحرب العالمية الأولى . وبدأت بريطانيا تحاول تفتيت العالم الاسلامى وهى بصدد إهالة التراب على الخلافة الاسلامية في تركيا بعد قضائها على الدولة العثمانية .

فكرة الجامعة العربية :

وبدأت فكرة إنشاء جامعة عربية تجمع الشعوب العربية بعيدا عن الدول الاسلامية الأخرى بتوجيه بريطانى عقب الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩٢١م ، وتحت زعامة مصر .

وتحت يدنا وثيقة تؤكد ذلك لم تنشر من قبل [2] وهى عبارة عن مذكرة مقدمة الى وزارة الخارجية البريطانية تقترح اقامة جامعة عربية وتقدمت بريطانيا بهذه المذكرة الى وزارة الخارجية المصرية غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ إلا بعد الحرب العالمية الثانية ودون الدخول في تفاصيل ينبغى التنويه بادئ ذى بدء بما يلى :

أولا : أننا بصدد وثيقة تاريخية هامة يكشف عنها النقاب لأول مرة .

---

(١) باول سمتز ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٤٦-٢٤٧ .

(٢) انظر : محافظ عابدين ، محفظة رقم ٥٠ وزارة الخارجية ، الديوان العام ، تقارير وبرقيات رقم (١).

ثانيا : تتحدث الوثيقة بصراحة واضحة عن مبادرة إنجليزية لإقامة جامعة عربية بزعامة مصر وتحت رقابة بريطانية منذ عام ١٩٢١م ، أى أن فكرة الجامعة العربية وليدة الحرب العالمية الأولى لا الثانية كما هو المعتقد من قبل ولذلك فإن الوثيقة تقلب الحقائق المسجلة في التاريخ راسا على عقب .

وتتكون الوثيقة من ديباجه تشرح الوضع في شعوب الشرق العربى بعد الحرب الأولى ، وانتشار مبادئ الحق والعدل فيها والرغبة في اعلان أمانيها القومية غير أن العجز يقعدها عن أن تحكم نفسها بنفسها .

وتتحدث الوثيقة عن أن الأفكار في الغرب مشغولة بإحداث تعديل أساسى في قواعد السياسة الاستعمارية وعلى الأقل في البلاد العربية تكون بالرقابة عليها بدلا من حكمها مباشرة وتشرح الوثيقة أصول المشروع ومبرراته وفوائده ، ومنها عدم الشك في نوايا بريطانيا ، وإظهار الآمال الوطنية بدلا من الشعور الدينة الذى كان حتى الآن مسيطرا على القلوب ، وتتدخل بريطانيا تدخلا تدريجيا في المهام الاقتصادية والادارية .

وتذكر الوثيقة ملخص المشروع فتقول : نستطيع أن نلخص المشروع فيما يلى : جامعة سياسية جنسية للشعوب العربية أساسها محالفة تعقدها هذه الشعوب مع مصر لمالها من مكانة سامية بين العرب . وتتنبأ الوثيقة بخلع الشريف حسين من الحجاز ووضع حاكم مدنى آخر مكانه ، ولا نستبعد أن يكون الحاكم أميرا مصريا لما لمصر من هيبة في الحجاز ، وفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية في الحجاز .

وأخيرا إذا وافق المشروع السابق قبولا أمكن وضع برنامج تفصيلي يستعان معه بالمعلومات التفصيلية التى لدى الحكومة البريطانية عن تلك الشعوب وجاراتها كالعجم وآسيا الصغرى [١] .

ولكن مشروع الجامعة العربية لم ينفذ إلا بعد الحرب العالمية الأولى ، ويبدو أن مصر لم تستجب في هذه الفترة الواقعة بين الحربين لهذا المشروع ، وذلك نظرا لحركة المعارضة الاسلامية القوية التى قادها الأزهر على إثر الغاء مصطفى كمال للخلافة في تركيا سنة ١٩٢٤ .

إلغاء الخلافة في تركيا وصداه في مصر :

لم تكد تنته الحرب العالمية الأولى حتى صفيت الدولة العثمانية وبقى أن يقضى على نظام الخلافة الاسلامية ، واصطنع الغرب الاستعمارى بعد الحرب مصطفى كمال من بين حطام الدولة فقام بدور رئيس في إلغاء الخلافة في سنة ١٣٤٢هـ(١٩٢٤م) وأعلن الجمهورية التركية وأعلن النظام العلمانى للدولة.

وكان لنبأ إلغاء الخلافة وقع أليم في جميع الأوطان الاسلامية وخاصة في مصر إذ أنها مقر الأزهر الشريف والمعاهد الدينية الاسلامية والحفيظة على التراث والعلوم الاسلامية وتساءل الناس في مصر إذا كانت الخلافة قد انتهت من تركيا فلماذا لا تعود الى البلاد العربية ، وخاصة أن الخلافة كانت عربية في أصلها وظلت كذلك قرونا عديدة قبل أن تنتقل الى الأتراك عندما ضعف العرب ، لهذا فكر كثير من الناس ولا سيما علماء المسلمين فى إعادة الخلافة الى حياة المسلمين وتجديدها وبدء عهد جديد فى حياتها [٢] ولقد أثارت تلك المحنة

---

[١] المصدر السابق نفس الوثيقة .

[٢] د. محمد ضياء الدين الريس ، الاسلام والخلافة فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص٦٣.

لوعة الشعر والأدب فنظم أمير الشعراء شوقى مرثيته الشهيرة التى تعتبر بحق من أبلغ ما قيل يومئذ تأثيرا فى النفس ، يقول فى مطلعها :

ضجت عليك مآذن ومنابر   وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينـــة   تبكى عليك بدمع سحاح
الشام تسأل والعراق وفارس   أمحا من الأرض الخلافة ماح

الأزهر يتزعم حركة عودة الخلافة :

تزعم علماء الأزهر الدعوة لإعادة الخلافة الى حياة المسـلمين وبـدأ نشاطا قويا فى أوساط مصر السياسية والدينية يهدف الى بحث مسألة الخلافــة واتخاذ قرار بشأنها ، وفى تلك الأثناء انتهى الرأى فى مصر الى ضـرورة عقـد مؤتمر اسلامى دولى يحضره ممثلون عن الدول الاسلامية ويكون مقره القــاهرة تحت رعاية واشراف الأزهر ، ويتناول هذا المؤتمر مسألة الخلافة بالبحث لكـى يصل الى قرار بشأنها يكون محل اتفاق المسلمين لأن الخلافــة لا تخـص مصـر وحدها بل تهم العالم الاسلامى كله ، وفضلت مصر أن تتبع الطرق القانونيــة فى هذا الأمر الخطير .

وفى يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٢٤م عقد علماء الأزهر اجتماعا تحــت رئاسة الاستاذ الأكبر شيخ الأزهر وتداولوا فى الأمر ثم أصدروا بيانا جاء فيه مـا يلى :

" كثر تحدث الناس فى أمر الخلافة بعد خروج عبد المجيد الثــانى مــن الاستانة ، واهتم المسلمون بالبحث فيما يجب عليهم عمله قياما بمـا يفرضـه عليهم دينهم الحنيف " ثم بينوا الضرورة القصوى التى تستلزم وجود خليفــة وإمام للمسلمين كافة وانتهوا أخيرا الى القرار التالى :

" لهذه الأسباب نرى أنه لابد من عقد مؤتمر دينى اسلامى يدعى إليه ممثلو جميع الأمم الاسلامية للبحث فيمن يجب أن تسند اليه الخلافة الاسلامية ويكون المؤتمر بمدينة القاهرة تحت رئاسة شيخ الاسلام بالديار المصرية (وهو شيخ الأزهر في مصر) وأن يكون عقد المؤتمر في شهر شعبان سنة ١٣٤٣هـ (مارس ١٩٢٥) [١] .

وفي تلك الأثناء فوجئ الناس بالشريف حسين بن على ملك الحجاز يومئذ يعلن نفسه خليفة على المسلمين دون تشاور معهم أو بيعة منهم ورفض كثير من المسلمين الاعتراف له بالخلافة .

وفيما هو جدير بالذكر أن الملك عبد العزيز بن سعود بدأ الزحف على الحجاز سنة ١٩٢٥م وأخرج على بن الحسين من جدة في ديسمبر سنة ١٩٢٥ وأعلن عبد العزيز ضم الحجاز الى مملكته في يناير ١٩٢٦م ثم أعلن نفسه ملكا على نجد والحجاز سنة ١٩٢٧ .

ونشطت الجهود استعدادا لعقد هذا المؤتمر في داخل مصر وخارجها وبدأ ملك مصر يومئذ وهو الملك فؤاد حفيد محمد على يعد نفسه لتولى هذا المنصب منافسا بذلك الشريف حسين بن على .

قضية الاسلام وأصول الحكم :

ووسط هذه الظروف السياسية الصعبة التى تتعلق بمصير الخلافة الاسلامية صدر كتاب في مصر بعنوان " الاسلام وأصول الحكم " في أبريل سنة ١٩٢٥م يبحث في الخلافة والحكومة في الاسلام مؤلفه قاضى شرعى في مصر وعالم من علماء الأزهر هو الشيخ " على عبد الرازق " حاول فيه مؤلفه أن

---

[١] أنظر : قرار الهيئة العلمية الدينية الاسلامية الكبرى بالديار المصرية في شأن الخلافة ، سنة ١٣٤٢هـ محفظة رقم٢ من محافظ الخلافة ، دار الوثائق بالقاهرة .

يثبت أن الخلافة ليست من الاسلام وذلك لأن الاسلام دين والدين ضد الدنيـــا ، فلا علاقة للاسلام بشئون الدنيا ومنها الخلافة ، وأن الاسلام لا صلـــة لـــه بالحكم ولا بالمجتمع ولا بالدنيا وأنه يجب اذن إنهاء الخلافة من حياة المســـلمين ، وأن الخلافة الاسلامية التى قامت في التاريخ لم تكن اذن اسلامية بل ملكا دنيويا وأن أبا بكر كان أول ملك في الاسلام ، وأن الاسلام ليس فيه (جـــهاد) ، وأن جهاد النبى لم يكن من صميم الرسالة ولا جزءا منها لأن الجهاد – كما يزعم – مؤلف هذا الكتاب انما يكون في سبيل الملك وتوسيع السلطان .

الى غير ذلك من الآراء الشاذة التى تخالف ما يعتقد به المسلمون ومـــا اجتمع عليه علماؤهم والتى أحدثت دويا في أوساط المســـلمين ولا يمكـــن أن تكون إلا آراء لمستشرق استعمارى صهيونى عدو للاسلام والمسلمين ولا يريـد لهم القوة .

والذى لا مراء فيه هو أن آراء الشيخ على عبد الرازق التى طرحـــها في كتابه كانت (تطابق تماما أهداف الانجليز) والسياســـة الاســـتعمارية في العـــالم الاسلامى ، فالانجليز كانوا يريدون هدم الخلافة والقضاء على كل فكرة مـــن أجل التجمع من جديد حول الوحدة الاسلامية وهذا هو الغرض الاساسى مـــن الكتاب كله [1] .

وأعداء الاسلام يعمدون دائما الى تشويه تاريخ الاســـلام والطعـــن في شخصياته وهذا هو الذى قرره وأكده الشيخ عبد الرازق بعبارات حماسية عنيفة في كتابه ، والمستعمرون عامة يعملون على إبعاد الاسلام عن السياسة وفصلـــه عن الدولة وتجريدة من القوة وواجب الجهاد والحرب وحق الدفاع عن نفســـه ،

---

[1] انظر : د . ضياء الريس : الاسلام والخلافة في العصر الحديث ، نقد كتاب الاسلام وأصول الحكم ، القاهرة ، ١٩٧٦م ص١٨٣ .

ليسهل على المستعمر الاعتداء على المسلمين واستعبادهم واحتلال بلادهم واغتصاب أراضيهم وثرواتهم ، فلا يكون للمسلمين جهاد ولا دفاع ضدهم ولا تدخل في السياسة لأن هذه الأمور كلها من شئون الدنيا .

وهذه الآراء التي هي في مجملها آراء المستشرقين انبرى للدفاع عنها الحزب الموالى للانجليز في مصر والذى ينتمى اليه الشيخ على عبد الرازق وأسرته وهو (حزب الأحرار الدستوريين) الذى انبثق من (حزب الأمة) ربيب الاستعمار الانجليزى في مصر ، واذا كان حزب الأمة المنحل قد نشأ بإيحاء ورعاية " اللورد كرومر " المندوب السامى في مصر ، فإن حزب الأحرار الدستوريين نشأ كذلك بتأييد الانجليز ورعاية " اللورد ألنبى " ممثل الاستعمار البريطانى في مصر والشرق ، وكان هذا الحزب الأخير الذى ينتمى اليه الشيخ على عبد الرازق وأسرته يقوم على أساس مبدأ التعاون مع الانجليز وصداقتهم ومسايرة سياستهم ومعادات الملك ومعارضة سياسته ولا شك أن هذا الكتاب وضع بالتعاون مع المخابرات البريطانية .

وقامت ثورة في " الصحافة المصرية " بين مؤيد ومعارض ، فالصحف التى كانت تعيش في ظل الاحتلال البريطانى أيدت الفكرة وأسبغت على الشيخ ألقابا كثيرة لا يستحقها من بينها : " العلامة الكبير " و " الأستاذ المحقق" و " المصلح المجدد " بينما رمته الصحف الوطنية بالطيش في الرأى والألحاد في العقيدة وتعرض لهجوم شديد من كثير من المفكرين الوطنيين ورماه كثير منهم بالخيانة .

وكان من نتيجة نشر هذا الكتاب أن قامت بعض (المظاهرات) في مصر من الأزهر تعلن الاحتجاج ورفعت عرائض وقع عليها عدد كبير من العلماء الى شيخ الأزهر وبعض الجهات الرسمية طالبوا فيها أن ينهض الأزهر

بواجبه في الدفاع عن الاسلام والرد على هذه الدعوات الالحادية الهدامة التى تعد خروجا على أحكام الدين وتحريفا لحقيقة الاسلام وطعنا في تاريخه .

وكانت النتيجة أن صدر (قرار من الأزهر) بتقديم مؤلف الكتاب الشيخ " على عبد الرازق " الى محكمة تأديبية أمام هيئة كبار العلماء .

وكان لهذه المحاكمة دويا لأن التهمة فيها تتعلق بمسألة دينية وسياسية في نفس الوقت ، وصدر الحكم فيها باخراج الشيخ على عبد الرازق من زمرة العلماء ومهما يكن من أمر هذا الحكم فإن الكتاب قد ساهم في نسف فكرة عودة نظام الخلافة لجمع شمل المسلمين .

أما عن المؤتمر الذى دعا اليه الأزهر لبحث مسألة الخلافة فقد انعقد في القاهرة في مايو ١٩٢٦م وذلك بعد أن تأخر عاما عن الموعد الذى حدد لأنعقاده في مارس ١٩٢٥م وظهر في أول جلساته أنه مختلف الاتجاهات وبدا أنه من المتعذر الوصول الى اتفاق ، عند ذلك رأى القائمون عليه أن أسلم طريقة لحفظ كلمة المسلمين من التفرق وابقاء على الخلافة وحماية لها هو أن يسعوا لفض هذا المؤتمر قبل أن يتخذ قرارات معينة من شأنها أن تزيد النفرة بين المسلمين .

ويلاحظ أن علماء الأزهر اكتشفوا في مؤتمر القاهرة مدى اتساع الهوة بين الشعوب الاسلامية وازدياد الفرقة التى عمل الاستعمار على تعميقها وأن هناك حواجز تحتاج الى وقت طويل تصلح فيه النفوس التى أفسدها الاستعمار ، واحتاج المسلمون نحو نصف قرن بعد ذلك لكى يجتمعوا بزعامة قادتهم ورؤسائهم في اجتماع القمة بالمغرب سنة ١٩٦٩م عقب حريق المسجد الأقصى بفلسطين ، وكان هذا الاجتماع على الرغم من سلبياته الا أنه كان أشبه بالمعجزة .

ولعل سبب فشل مؤتمر القاهرة يرجع الى عوامل خارجية وداخلية .

أما العوامل الخارجية : فكانت تتلخص في خطورة المسألة الموضوعة على بساط البحث وعدم امكان الاتفاق بين زعماء المسلمين على من يولونه خليفة وفي أى قطر تكون الخلافة فكان هناك تنافس شخصى وسياسى بين الملوك والرؤساء أزكاه الانجليز ، وعدم وجود من يصلح لهذا المنصب الجليل وكان لدسائس الاستعمار ومساعى بريطانيا بالذات كبير الأثر في ايجاد التفرقة وعرقلة الجهود الرامية الى اقامة الخلافة من جديد ، كما كان لاعلان الشريف حسين بن على نفسه خليفة على المسلمين وعدم اشتراكه في المؤتمر من العوامل المؤثرة والمؤدية الى فشل المؤتمر ، كما أبرق أحد زعماء المسلمين الهنود الخاضعين للانجليز الى المؤتمر بأنه لا يزال على مبايعته لعبد المجيد الثانى العثمانى المعزول ، وأنه لا يزال يعده خليفة المسلمين كما بعث كثير من المسلمين يسألونه ويشككون في مقاصد المؤتمر ويقولون : هل المراد من المؤتمر حفظ الخلافة قياما بالواجبات الدينية أم أن المقصود فقط هو نقل الخلافة من شاطئ البسفور الى شاطئ النيل .

وأما العوامل الداخلية : الخاصة بمصر فهى أن الملك فؤاد الذى يبدو أنه أعد نفسه لهذا المنصب كان لا يظهر أنه الرجل الذى تتوفر فيه شروط الخلافة اذ أن لها شروطا عالية ، من حيث العلم والتقوى فضلا عن أنه ليس من أصل عرى وتربى في أوربا وكان مفتونا بها ، وأكثر من ذلك أنه لم يكن محبوبا من شعبه في الداخل ، فلم يتجاوب مع أمانى الشعب الوطنية في الحرية وكان يريد أن يقمع إرادته وينفرد بالحكم ، وكان يناصب زعيم الشعب المصرى (سعد زغلول) العداء وتآمر عليه لاخراجه من الحكم فلم يكن أحد من الشعب المصرى يرحب أن يرتفع هذا الملك الى مقام الخلافة السامى لكى يزداد نفوذه

في البلاد ويزداد استبداده اللهم الا إذا تحققت شروط معينة لتقييد سلطته من أجل منع هذه المخاطر ، كما رأى علماء الأزهر الذين تحمسوا لفكرة الخلافة وضرورة عودتها للهيمنة على حياة المسلمين من جديد [١] .

وكانت هذه الظروف الخارجية والداخلية السالفة أقوى من تحمس علماء الأزهر لفكرة عودة الخلافة ففشل المؤتمر وفشلت جهودهم لإعادة وحدة المسلمين وقتل الموضوع في مهده ، وانفض المجتمعون وعاد كل الى وطنه وبقى العالم الاسلامى حتى وقتنا هذا بدون خليفة ، ويبدو من واقع المسلمين الحالى أنه ليست هناك أية محاولات لعودة الخلافة من جديد وذلك بفعل ألاعيب الاستعمار وتفريقه للمسلمين .

وبعد أن انطفأت الفكرة اعادة الخلافة العالم الاسلامى تمكن الاستعمار من ترويج فكرة القوميات لتمزيق العالم الاسلامى الى عصبيات جنسية متعادية ومتنافسة ومتحارة أحيانا ، وتفريق كلمتهم كما هو واقع المسلمين اليوم ، ونفذت فكرة الجامعة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ، برعاية من الانجليز وقيادة مصرية .

الموقف العربى اثناء الحرب الثانية :

كانت المعارضة لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية قد زادت بسبب ما فعلته بريطانيا بالعرب في الحرب العالمية الأولى في أعقاب تصريح بلفور وتمكين اليهود من فلسطين ومحاربة الآمال العربية في الوحدة على أساس اسلامى وقامت بتعميق مفهوم الوطنية بعيدا عن التجمع الاسلامى وأفشلت مشاريع إعادة الخلافة ، وعلى الأخص طموح مصر بإعادة الخلافة الاسلامية إليها .

---

[١] د . ضياء الريس : مرجع سبق ذكره ، ص٨٧١ – ٩٧١ .

وهذا ما جعل القوى الوطنية في مصر تتمنى هزيمة بريطانيا وفرنسا في الحرب أمام ألمانيا ، وأحست بريطانيا أنها في حاجة الى أن تقبض بيد من حديد على الأوضاع في مصر وخاصة عندما زحفت قوات الألمان بسرعة الى العلمين في غربي مصر بقيادة (روميل) سنة ١٩٤٢ ، وخرجت المظاهرات في شوارع القاهرة منادية " الى الأمام يا روميل " وكان الشعور العام في مصر ضد بقاء قوات الاحتلال ، عند ذلك زاد انزعاج الحكومة البريطانية ففكرت في فرض إرادتها .

حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ :

رأت بريطانيا أن تضمن الاستقرار في مصر إبان الحرب ، لذا قررت أن يتولى حزب الوفد الحكم ، فقد كان النحاس متفاهما مع الانجليز بدليل أنه رفض تأليف حكومة قومية من الأحزاب كلها ، ولو قبل النحاس هذا لما تدخل الانجليز في مصر وأرسل السفير البريطاني إنذاره المشهور في ٤ فبراير ١٩٤٢م يقول فيه " إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج "[1] وجاءت الدبابات البريطانية الى قصر عابدين لتأييد الانذار البريطاني ، وقبل الملك الإنذار تحت التهديد بالخلع ، وقامت وزارة مصطفى النحاس طوال مدة الحرب .

وقد أثبت حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ أن استقلال مصر خرافة ما دام هناك احتلال وجيش بريطاني ، ويقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي عن هذا الحادث :

---

[1] د . مصطفى صفوت ، مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ص١٥٦ .

" إن مصطفى النحاس باشا هو المسئول الثانى عن حادث ٤ فبراير ، وليس عمله من الاستقامة الوطنية في شيئ " وكان المسئول الأول عن هذا الحادث هو الملك فاروق بطبيعة الحال .

وعلى كل فإن هذا الحادث كان بداية هزة اجتماعية في مصر وبعده فكر ضباط الجيش المصرى في تشكيل جهاز سرى للضباط الأحرار الذى خطط لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فيما بعد .

أما في العراق : فقد تعاونت حكومة نورى السعيد مع الانجليز وقطعت علاقاتها مع ألمانيا فاستاء الشعب العراقى فاستقالت حكومة نورى السعيد ، وجاءت وزارة رشيد الكيلانى في مارس ١٩٤٠ ، ورفضت هذه الوزارة اعلان الحرب على إيطاليا ، وحاولت بريطانيا عن طريق الأمير عبد الاله الوصى على عرش العراق الضغط لإزاحة وزارة الكيلانى من الحكم ، وتحركت قوة بقيادة أربعة من العقداء لمؤازرة الكيلانى ، وتألفت حكومة الدفاع الوطنى برئاسة الكيلانى ، وانتخب البرلمان وصيا على العرش بدلا من الأمير عبد الإله وهو الشريف شرف [1] .

وتحركت بريطانيا لضرب ثورة الكيلانى ، فقامت القوات البريطانية بضرب القوات العراقية من الجوفى قاعدة الحبانية فاتصلت العراق بألمانيا لإعادة العلاقات معها ، ولم تتمكن ألمانيا من مساعدة العراق بالأسلحة والذخائر لأن حكومة (فيشى) في سوريا ولبنان رفضت نزول ومرور الطائرات الألمانية فيها أو عبرها صوب العراق ، وقام البريطانيون بهجومهم من جنوب العراق ومن شرق الأردن بقوات الفيلق العربي الخاضعة للأمير عبد الله بن الحسين ، في وقت تمكنت فيه من السيطرة على موارد البترول في العراق .

---

[1] د . جلال يحيى ، العالم العربي ، ج٣ ، ص٤٦-٤٧ .

وكانت بريطانيا تخشى نزول الألمان في سوريا خوفا من زحفهم على العراق للاستيلاء على البترول في شمال العراق وإيران ، وكانت ألمانيا تواصل الدعاية ضد بريطانيا في المنطقة العربية بأن بريطانيا سلمت فلسطين لليهود ، وتحرج موقف بريطانيا في العالم العربي في صيف عام ١٩٤١ م .

وفي مايو ١٩٤١ أصدر مفتى فلسطين أمين الحسيني منشورا يدعو فيه العرب والمسلمين الى الجهاد ضد الانجليز كما حدث في العراق .

وتحرج موقف بريطانيا ، فاضطرت الى بذل مجهودات للسيطرة على الموقف ، وخاصة في تلك المنطقة التى تمر فيها قناة السويس والتى تشتمل على موارد البترول في الخليج والعراق وإيران ، ولا يمكن لبريطانيا مواصلة الحرب بدونها .

ولذلك بدأت بريطانيا تؤيد فكرة التقارب بين الدول العربية من أجل الوحدة لسلامة قواتها المحاربة في المنطقة من ناحية والقضاء على المعارضة لها من ناحية أخرى ويضمن لبريطانيا الاتصال بالعرب سلميا والسيطرة عليهم عن طريق هذه الوحدة ، ومن أجل أن تمحو بعض مساوئها السابقة التى قامت بها في العالم العربي .

تصريح إيدن ٢٩/٥/١٩٤١م :

أدلى (إيدن) وزير خارجية بريطانيا بتصريح في ٢٩/٥/١٩٤١م مضمونه أن بريطانيا تعطف على أمانى العرب في الاستقلال وتساعد أى جهود عربية للوحدة بشرط أن تلقى موافقة عامة [1] .

ويلاحظ أن هذا التصريح أعاد الى الساحة مشروع الجامعة العربية التى سبق أن طرحته بريطانيا على مصر في أعقاب الحرب العالمية الأولى ولم تجرؤ

---

[1] المرجع السابق ، ج٣ ، ص٤٨-٥٣ .

مصر على المضى فيه لأنها كانت مشغولة بموضوع اعادة الخلافة الاسلامية . وهو المشروع الذى سبق أن تحدثنا عنه .

ويلاحظ أيضا أن التصريح لم يتعرض لفلسطين مع أهميتها في الوقت الذى أسلمت فيه بريطانيا فلسطين لليهود . وأرادت بريطانيا من هذا التصريح إنقاذ موقفها مع العرب وخلق جو جديد من الثقة مع العرب ، وأرادت بريطانيا بذلك التصريح أن تسبق ألمانيا وتقطع عليها خط الرجعة لإغواء العرب ، وخاصة أ ن (رشيد عالى الكيلانى) و (أمين الحسين) مفتى فلسطين التجأ كل منهما الى (برلين) وأوعزت بريطانيا الى الجنرال (ديجول) رئيس حكومة فرنسا الحره أن يعلن إستقلال سوريا ولبنان ونشر هذا الاعلان في ٨ يونيو ١٩٤١ ، وذلك للقضاء على نفوذ حكومة فيشى في بلاد الشام .

وكان على العرب الاسراع باختيار قيادة للقيام بعملية الوحدة ، وكانت المتناقضات كثيرة والأطماع داخل العالم العربى بين الرؤساء والملوك ، فهناك الهاشميون : في شرق الأردن والعراق ، والسعوديون في الجزيرة العربية بقيادة الملك عبد العزيز الذى لا يرتاح للهاشميين وهم لا يرتاحون إليه كذلك ، وهناك أحرار سوريا الجمهوريون وهناك مصر مركز الثقل العربى وشقيقة العرب الكبرى والتى كانت مشغولة بهجمات ألمانيا وإيطاليا في صحرائها الغربية ، ولم تكن لمصر أطماع في زعامة العالم العربى ، ولكن ظروف نموها الطبيعية في الميادين الاقتصادية والثقافية هى التى تؤهلها للقيام بدور الشقيقة الكبرى لبلدان العالم العربى ، وتقوم بالتوفيق بين وجهات النظر العربية المختلفة في مشاورات الوحدة [١] .

---

[١] المرجع السابق ، ج٣ ، ص٦٢-٦٣ .

وكانت في مقدمة مشاريع الوحدة التى تقدم بها العرب الى بريطانيا مشروعان هاشميان تقدم بهما الحكام الهاشميون في كل من بغداد وعمان ، فالأول : مشروع الهلال الخصيب والذى تقدم به (نورى السعيد) رئيس وزراء العراق .

الثاني : مشروع سوريا الكبرى ، وتقدم به الأمير عبد الله بن الشريف حسين أمير شرق الأردن .

أما المشروع الأول وهو الهلال الخصيب :

وهو مشروع عراقى وضعه (نورى السعيد) رئيس الوزراء العراقى في اكتوبر ١٩٤٣م يطلب فيه توحيد سوريا ولبنان وشرق الأردن والعراق في دولة واحدة وعودة فلسطين الى سوريا التاريخية ونشر هذا المشروع في كتاب أزرق عراقى سنة ١٩٤٣م وقدمه لبريطانيا ، وذكر أن المشروع سيؤدى الى منافع متبادلة بين بريطانيا والعرب ، وذكر بريطانيا بوعودها للعرب بالاستقلال منذ الحرب الأولى ، وخوفها من خطورة تفتيت العرب في دويلات صغيرة ، وأن فكرة الوحدة بين هذه الأقاليم ستسمح لهم بتقديم الخدمات الدفاعية للحلفاء . وحاول نورى السعيد إبعاد مصر والسعودية عن مشروعه في المرحلة الأولى منه ، وبعد نجاح الوحدة بين العراق وسوريا التاريخية يمكن انضمام دول أخرى له واقترح نورى السعيد منح اليهود في فلسطين نظام حكم شبه ذاتى ، ويكون لهم الحق في ادارة أقاليمهم في المدن والريف ويمكن منح لبنان نظاما خاصا إذا اقتضى الأمر .

وأرسل نورى السعيد نسخا من هذا المشروع الى زعماء العرب ثم نشر في (كتاب أزرق) عراقى صدر في بغداد سنة ١٩٤٣م . ولكن بريطانيا نظرت الى المشروع بعدم استحسان ولذلك رفضت المشروع على لسان " إيدن " وزير

خارجيتها . ورفضته مصر والسعودية وسوريا أما فرنسا فقد خوفت لبنان من هذه الوحدة وحاولت ضرب الزعامات العربية ببعضها [١] .

والمشروع الثاني :

هو مشروع سوريا الكبرى فقد انتهز أمير شرقي الأردن عبد الله بن الحسين ، عملية رفض مشروع الهلال الخصيب وتقدم بمشروع آخر سنة ١٩٤٣م مماثل لمشروع بغداد وإن كان يهدف الى سوريا كخطوة أولى يصل منها الى كل الهلال الخصيب .

وتقدم الأمير عبد الله بمذكرة الى الحكومة البريطانية استند فيها بمطالبة الأحرار في سوريا والأردن بوحدة سوريا والأردن ولبنان وفلسطين في دولة واحدة يتولاها الأمير عبد الله ، ونص على منح كل من فلسطين ولبنان إدارة خاصة لحفظ حقوق الأقلية اليهودية وإلغاء وعد بلفور ، كما اشتمل على ضرورة تكوين اتحاد عربي تعاهدي أو فيدرالي يتشكل من كل من سوريا والعراق في المستقبل ويترك الباب مفتوحا لدخول أي دولة عربية أخرى ترغب في الانضمام الى المشروع فيما بعد [٢] .

ولقد نشر هذا المشروع بعد ذلك في (كتاب أبيض) أردني في عمان ، وأخيرا فشل هذا المشروع الهاشمي كسابقه بسبب موقف فرنسا منه ومعارضة مصر والسعودية للمشاريع الهاشمية ورفض السوريون الجمهوريون حكما ملكيا عليهم كالأمير عبد الله بن الحسين الذي يحتاج الى بريطانيا في تدعيم ميزانية بلاده ، ويضع قوات فيلقه العربي في خدمة الانجليز .

---

[١] د . جلال يحيى ، العالم العربي الحديث ، ج٣ ، ص٦٥-٨٠ .

[٢] المرجع السابق ، ج٣ ، ص٨٠-٨٥ .

وكان فشل المشاريع الوحدوية الهاشمية مقدمة لمشروع الجامعة العربيــة التى قادته مصر بقيادة (مصطفى النحاس) رئيس وزراء مصــر ، الــذى دعــا الحكومات العربية للتشاور حول إنشاء الجامعة العربية بالاســكندرية وجعــل المشاورات خاصة بالدول المستقلة وبذلك استبعد فلسطين وعــرب المغــرب للوصول الى قرارات سليمة يمكن تنفيذها دون تدخل الــدول الكــبرى ذات المصالح والنفوذ فى هذه الأقاليم .

الموقف العربى بعد الحرب الثانية :

أما عن موقف العرب بعد الحرب الثانية ، فكانوا قد حاولوا تكويــن الجامعة العربية فى نهاية الحرب وتنادى ملوك العرب ورؤساؤهم الى عقد مؤتمــر قمة عربى يعقد فى (إنشاص) بمصر لبحث القضية الفلسطينية فى ٢٨ من مــايو ١٩٤٦م .

وقد حضر هذا المؤتمر وفود من مصر والأردن والســعودية واليمــن والعراق وقد أصدر المؤتمر بيانا أكد فيه أن قضية فلسطين قضية عربية عامــة ، وأنه يتحتم على الدول العربية وشعوبها صيانة عروبتــها ، ورفضــوا الهجــرة اليهودية الى فلسطين ، وقرروا تأليف هيئة تمثل الفلسطينيين وترفــع صوتهــم عاليا.

وبعد ذلك بشهر عقدت الجامعة العربية مؤتمرا فى (بلودان) بســوريا ، وقرر هذا المؤتمر تخصيص مليون جنيه لهيئة فلسطين العربية سنويا لانقاذ أراضــى فلسطين ، ولكن هذا المبلغ لم يكن يفى بشئ أمام الامكانيات اليهودية المدعومــة من أوربا وأمريكا ويهود العالم .

وصفوة القول أن الموقف العربى كان يتمســك بــالنواحى القانونيــة والاجتماعات السياسية لاثبات حق العرب فى فلسطين بينما اليــهود يــهيئون

المسرح فى فلسطين من الناحية العملية للاستيلاء عليها بالقوة عن طريق العصابات الصهيونية فى فلسطين .

أعمال العنف الصهيونية للاستيلاء على فلسطين :

استخدم اليهود العنف عن طريق عصابات الحركة الصهيونية للاستيلاء على فلسطين ، فأنشأوا فى العشرينيات كثيرا من العصابات أهمها :

الهاجاناه : التى ما لبث أن اشتد ساعدها تبعا لازدياد الهجرة اليهودية ، فقد وصفتها حكومة الانتداب في بيان لها سنة ١٩٤٦ بأنها منظمة عسكرية غير مشروعة وحسنة التسليح يقدر عددها بحوالى ٦٠ ألف جندى بالاضافة الى عصابتين منشقتان عنها هما :

١- عصابة آرجون زفاى ليؤمي : أى المنظمة العسكرية القومية ، ويقدر عدد أفرادها بحوالى ٥٠٠٠ جندى بزعامة (مناحم بيجن) .

٢- عصابة اشتيرن : أى المناضلون ، وعدد أفرادها في تلك الفترة حوالى ٣٠٠ من الارهابيين المتعصبين .

وأثناء الحرب العالمية الثانية ، تقدمت الوكالة اليهودية تطلب الى الحكومة البريطانية لتشكيل (فيلق يهودى) كوحدة مستقلة ملحقة بالجيش البريطانى ، وبالرغم من معارضة بعض القادة العسكرين الانجليز وعلى رأسهم (الجنرال ويفل) قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط ، فقد وافقت الحكومة البريطانية على طلب الوكالة اليهودية وسمحت بإنشاء الفيلق اليهودى ، وفرق الكوماندوز اليهودية التى يطلق عليها (البالماخ) .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عادت هذه التشكيلات العسكرية الى فلسطين بكامل أسلحتها وانضمت الى قوات الهاجاناه ، وهكذا أصبح لدى الوكالة اليهودية في فلسطين قوات عسكرية راقية التدريب والتسليح تكون

منها الجيش الاسرائيلى فيما بعد ، وقد أخذت هذه القوات بأعمال إرهابية محكمة التخطيط ضد الأهالى العرب والسلطات المنتدبة ، تحت ستار حركة المقاومة اليهودية .

ولقد قال (مناحم بيجن) زعيم عصابة أرجون ورئيس وزراء اسرائيل فيما بعد : أنه من الضرورى إرهاب العرب بالقتل والافناء لكى يتركوا فلسطين لليهود .

ولقد سمحت بريطانيا لليهود بهذا النشاط العسكرى والارهابى بينما كانت تتعقب العرب في كل مكان وتشدد الرقابة عليهم الأمر الذى جعلهم ضعفاء من ناحية الاعداد العسكرى وسمحت لليهود بإدخال السلاح الى فلسطين من كل مكان ، حتى إذا جاءت ساعة الاحتكاك العسكرى كان اليهود أكثر تنظيما وأكثر سلاحا من العرب .

تقسيم فلسطين :

بعد أن هيأت بريطانيا الوضع في فلسطين لاقامة وطن قومى لليهود بها وتمكن اليهود من ثروة البلاد ، أعلنت عرض مشكلة فلسطين على الجمعية العامة للأمم المتحدة وذلك في مطلع أبريل ١٩٤٧م .

وفي نفس الوقت طلبت الدول العربية من الأمم المتحدة إنهاء الانتداب على فلسطين واعلان إستقلالها .

وقد شكلت الأمم المتحدة لجنة دولية لتقصى الحقائق حول المشكلة الفلسطينية ، وقد رفضت الهيئات العربية في فلسطين مقابلة هذه اللجنة لاعتقادهم أن هذا التحقيق يسير في غير صالح (القضية الفلسطينية) . وقد أوصت أغلبية اللجنة بضرورة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود وقيام دولتين مستقلتين وتدويل منطقة القدس وقد تبنت الولايات المتحدة الأمريكية هذه

التوصية وعملت على اقناع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة والتى تسير في فلكها بتأييد هذه التوصيات .

وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ قررت الجمعية العامة الموافقة على مشروع تقسيم فلسطين بأكثرية الثلثين ، وخصص هذا القرار ٥٧٪ من مجموع فلسطين للدولة اليهودية و ٤٣٪ للدولة العربية . واختارت لجنة للاشراف على تنفيذ القرار . وكان العدل يقتضى أن تقرر الجمعية العامة إجراء استفتاء في فلسطين بما يتمشى مع (حق تقرير المصير) الذى هو من مبادئ الامم المتحدة ، ولكن الجمعية العامة أشاحت بوجهها عن هذا تحت ضغط أمريكا لأن الاستفتاء سيكون من صالح العرب .

وبذلك فإن الأمم المتحدة انتهكت ميثاقها عندما رفضت أن تعترف للعرب بحق تقرير المصير مع أنهم كانوا يشكلون ثلثى عدد سكان فلسطين .

وحتى من وجهة النظر القانونية البحتة هناك عدة أسئلة تتبادر الى الأذهان وهى :

– صدر قرار التقسيم من الجمعية العامة ولم يصدر من مجلس الأمن فهو يعتبر بهذه الصفة توصية وليس قرارا واجب التنفيذ .

– لم يكن الفلسطينيون وحدهم هم الذين رفضوا ذلك التقسيم فقد رفضته عصابة أرجون (وزعيمها مناحم بيجن) قائلة إنه عمل غير مشروع ، ولن يعترف به أبدا ودعت اليهود الى طرد العرب بل الى الاستيلاء على أرض فلسطين كلها .

واستطاعت العصابات الصهيونية الاستيلاء على (طبرية) و (حيفا) و (يافا) و (صفد) واتسعت الأرض التى منحتها الأمم المتحدة لاسرائيل وكانت

تبلغ ٥٧% من اراضى فلسطين فصارت ٨٠% منها . بالقوة والعنف على يد عصابات الهاجاناه وأرجون وشترن [١] .

صدى القرار في الأوساط الدولية :

أعلنت الدول العربية الأعضاء في الأمم المتحدة أن قرار الجمعية العامة يجافى حق عرب فلسطين في تقرير مصيرهم ، واستقلال بلادهم ويتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة ومبادئها ، ولذلك فهى تعلن رفضها لهذا القرار ، وتعلن أنه لا يمكن تنفيذه بالوسائل السلمية ، وأن فرضه بالقوة يهدد السلم والأمن في المنطقة .

وفي نفس الوقت أعلن مندوب (بريطانيا) أن بلاده قررت التخلى عن الانتداب وأنها حددت يوم ١٥ مايو ١٩٤٨م ميعادا للانسحاب من فلسطين عدا منطقة حيفا التى ستنسحب منها في أغسطس ١٩٤٨ لأسباب تتعلق بسلامة وأمن قواتها .

وفي نفس الوقت تعهد مندوب بريطانيا بأن تظل بلاده مسئوله عن الأمن في البلاد الى أن يتم أنسحاب قواتها النهائى من فلسطين .

أما (اليهود) فقد استقبلوا التقسيم بالفرحة والابتهاج ، وقاموا باتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيقة في الداخل والخارج وما أن حل فبراير ١٩٤٨ حتى كانت الهيئات اليهودية قد تسلمت من الدولة المنتدبة معظم المناطق المخصصة لليهود وبهذه الوسيلة أصبح ميناء (تل أبيب) تحت سيطرتها المباشرة فاستغلته في نقل المهاجرين والأسلحة والمتطوعين الى داخل فلسطين .

في الوقت الذى ظلت فيه السلطات البريطانية تمارس سلطاتها الكاملة في المناطق المخصصة للدولة العربية وتحول دون تمكن العرب من الدفاع عن

---

[١] روجيه جارودى ، مرجه سبق ذكره ، ص٦١-٦٢ .

أنفسهم ضد العصابات الارهابية اليهودية ، وتعرقل نشاطهم العسكرى وتفرض حصارا عليهم .

الوضع في فلسطين بعد صدور قرار التقسيم :

بعد قرار التقسيم انفجرت الاضطرابات في البلاد ودعى العرب الى اضراب عام استمر ثلاثة أيام كدليل على الاحتجاج وفي خلال بضعة أسابيع من الاضطراب بلغ القتلى من الجانبين حوالى ١٧٠٠ شخصا فارتاعت الامم المتحدة لما أدى إليه قرارها الجائر .

وأرادت الأمم المتحدة العدول عن التقسيم ولكن اليهود قاموا بأعمال عنف مضادة لاحباط المحاولات التى يقوم بها مجلس الأمن لابطال مفعول قرار التقسيم ، فقامت العصابات الصهيونية بهجمات مركزة على السكان العرب الذين كانوا يتمسكون بقراهم .

غير أن الحادث الذى أسرع في إشاعة الذعر وهروب السكان العرب من ديارهم هو : (مذبحة دير ياسين) التى حدثت في ٩ من أبريل ١٩٤٨م التى ذهب ضحيتها ٦٥٠ قتيلا من النساء والرجال .

وقد قاد هذا الهجوم الغادر على القرية الآمنة (مناحم بيجن) رئيس وزراء اسرائيل الأسبق وزعيم عصابة أرجون يومئذ ، وهو الذى قال لولا النصر في (دير ياسين) لما كانت هناك دولة (اسرائيل) فبعد هذا الحادث ، قامت العصابات اليهودية بعدد من الهجمات على الأراضى والقرى المخصصة للعرب وعلى الأراضى والقرى العربية في المنطقة المخصصة لليهود وطردوا كثيرا من العرب الذين وصل عددهم حتى منتصف مايو ١٩٤٨ الى نحو ٤٠٠ ألف عربى عرفوا فيما بعد (باللاجئين الفلسطينين) وفرقوا في البلاد العربية ، وانتقل جزء

منهم الى الضفة الغربية لنهر الاردن وهى من الجزء الذى خصص للعرب من فلسطين ، وانتقل البعض منهم الى قطاع غزة .

تدخل الدول العربية :

بعد هذا الغدر الذى حدث للشعب الفلسطينى على يد بريطانيا وهى الدولة المنتدبة وعلى يد اليهود وعصاباتهم التى حماها الانجليز فى البلاد . اضطرت الدول العربية الى التدخل فعقدت اللجنة السياسية للجامعة العربية اجتماعا في دمشق بتاريخ ١٢ أبريل ١٩٤٨ ، وتلبية لنداء الرأى العام العربي بحماية شعب فلسطين من غدر العصابات الصهيونية ومؤامرة الدول الاستعمارية واستشعارا بمسئوليتها بوصفها منظمة إقليمية بالمعنى الوارد في أحكام الفصل الثامن من ميثاق الأمم المتحدة . فوجهت الدول العربية الى الأمم المتحدة نداء بوضع حل سلمي وعادل للقضية الفلسطينية وفق مبادئ وميثاق الأمم المتحدة.

ولكن اليهود أعلنوا قيام دولتهم اسرائيل في الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ ، وسرعان ما اعترف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (ترومان) بالدولة الوليدة فور إبلاغه بقيامها ، ثم تتابعت اعترافات الدول الأخرى بهم وكان من أسبقها أيضا دولة الاتحاد السوفيتى .

فواجهت الدول العربية هذا الوضع بالتدخل عسكريا بجيوشها ، فزحفت جيوش مصر وسوريا والسعودية ولبنان والأردن والعراق واليمن على فلسطين ، وهى في صورة متباينة من الرأى والقوة لتحارب جماعات يهودية ، منظمة مسنودة ببريطانيا وأمريكياً ، وأعلنت الحكومات العربية الحصار البحرى على فلسطين ، واستقبلت الشعوب العربية نبأ الزحف بحماس بالغ ، وكانت هذه القوات نحو عشرين الف ينقصها التماسك وإن كان قد تولى قيادها من الناحية الشكلية (الملك عبد الله) ملك شرق الأردن . وكان رئيس اركانه

الجنرال (جلوب) البريطاني ، وبذلك كانت الأوامر العسكرية التي تصدر باسم القائد العام الملك عبد الله إنما يصنعها وينفذها القائد البريطاني في الجيش العربي . بل إن الحوادث برهنت على أن (جلوب) القائد البريطاني للجيش العربي خان الدول العربية وكان سلوكه يساعد على إنتصار اليهود . فقد سحب قواته من (اللد) و(الرملة) التي تضمنها قرار التقسيم ضمن الدولة العربية وتخلى عنهما لليهود وقد ذكر القائد العربي عبد الله التل [١] في كتابه (كارثة فلسطين) أسماء كثير من ضباط الانجليز كانوا في مراتب قيادة الالوية والكتائب ، ومن عجب أن تدخل الجيوش العربية معركة مصيرية وجيش القيادة يقوده بريطانيون سعوا للتهويد وعملوا لتقسيم فلسطين .

ولنا أن نتصور النتيجة سلفا لهذه الحرب إنها كانت الهزيمة المؤلمة للعرب الذين كانت قيادتهم في يد عدوهم الإنجليزي الذى خلق هذه المشكلة .

وذلك لأن بريطانيا أنقذت اليهود بفرض الهدنة بعدما كانت الجيوش العربية تضرب اليهود ضربات فعالة في كثير من الاماكن وخاصة منطقة القدس . فتقدمت بريطانيا الى مجلس الأمن تطلب وقف القتال ، ووافق مجلس الأمن وأرسل المجلس مندوبا عنه الكونت (برنادوت) وسيطا من قبل هيئة الأمم مهمته التوفيق بين العرب واليهود . وقد قامت العصابات الصهيونية بقتل هذا الوسيط الدولي في ١٧ من سبتمبر ١٩٤٨م .

ومضت اسرائي في خلق كيان دولي لها فتقدمت بطلب الى الامم المتحدة تطلب أن تكون عضوا في الهيئة الدولية ، وعلى الرغم من اعتراض كثير من الدول الحرة على ذلك إلا أن الدول الاستعمارية ساعدتها وقبلت عضوا في مايو ١٩٤٩م .

---

[١] عبد الله التل ، كارثة فلسطين ، ص٨١-٨٣ .

وأخيرا اضطرت الدول العربية المواجهة لإسرائيل الى الدخول في مفاوضات بعقد هدنة دائمة في جزيرة (رودس) وبدأت هذه المفاوضات في ١٠ يناير ١٩٤٩م وانتهت بعقد اتفاقيات الهدنة بين الدول العربية واسرائيل في ٢٠ من يوليو ١٩٤٩م ووقعت كل من مصر وسوريا والأردن ولبنان على هذه الهدنة .

وظلت القوات المصرية مسيطرة على (قطاع غزة) والقوات الأردنية مسيطرة على ضفة الأردن الغربية والقدس العربية . حتى حرب ١٩٦٧م التى انتصرت فيها اسرائيل وضمت هذه المناطق إليها بالإضافة الى سيناء والجولان وبعض أراضى شرق الأردن .

وفي الفترة من ١٩٦٧م الى ١٩٧٣م استندت إسرائيل الى الولايات المتحدة التى تمدها بالسلاح وبالغذاء وتقف معها في المحافل الدولية ، ومن ثم ضربت إسرائيل بقرارات الأمم المتحدة عرض الحائط ، ولم تقبل عودة اللاجئين الى ديارهم أو الانسحاب من الأراضى العربية .

وقد نجحت مصر وسوريا في خوض حرب رمضان ١٣٩٣هـ اكتوبر ١٩٧٣م ضد اسرائيل ، وعبرت القوات المصرية قناة السويس الى سيناء وتمركزت فيها ، واخترقت القوات السورية خط وقف النار وحققت بعض المكاسب ، وادارت مصر وسوريا جولة من المفاوضات مع أمريكا عن طريق وزير خارجيتها (كيسنجر اليهودى) وتم فيها فك الاشتباك الأول في مصر وسوريا للفصل بين القوات المتحاربة .

ولكن تمكن هنرى كيسنجر من زرع العداوة بين مصر وسوريا الأمر الذى جعل الاشقاء الذين دخلوا الحرب مع بعضهم يدا واحدة يتفرقون في معركة ما بعد الحرب وهى معركة المفاوضات ، وتمكن الأمريكان من الضغط

على الزعامة المصرية لجعلها تمشى في طريق بعيد عن الاجماع العربي وعقدت مع اسرائيل اتفاقية (كامب ديفيد) في ١٩٧٩م وتم إجلاء اسرائيل عن سيناء أمـــا فيما يتعلق بالضفة الغربية والقدس وغزة والجولان فإن اسرائيل مازالت تمـــاطل بشأن الالتزام بالجلاء عنها .

ودفع السادات حياته ثمنا لهذه الاتفاقية حيث إغتاله ضابط مصرى هـــو خالد الاسلامبولى سنة ١٩٨١م .

وفي عام ١٩٩٠م حدثت كارثة احتلال العراق للكويت وتسببت هذه الحادثة في حرب الخليج الثانية التى مكنت الدول الغربية من إعادة احتلال دول الخليج لحماية النفط وتم فرض الحصار على العراق وتحريك الأقليات به لتمزيق دولته وانفردت الولايات المتحدة بالزعامة في العالم وتحكمت في الأمم المتحـــدة خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٩٢م .

الباب الرابع

المغرب العربى

٧٩ ، ٨٠ ، ساقط من الترقيم
من اصل الكتاب

المغـــرب العـــربى

المغرب العربى مصطلح جغرافى يشمل الأقاليم الإفريقية المطلـــة علـــى البحر المتوسط من حدود مصر الى المحيط الأطلسىَ ، وقد قســـمه العـــرب الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : هو المغرب الأقصى ويمتد من المحيط الأطلسى الى تلمســـان ، وعرف لدى الكتاب الأوربين باسم عاصمته القديمة (مراكش)Morocco موركو.

القسم الثانى : المغرب الأوسط ، وهو من تلمسان الى جبل نفوسه بين ليبيـــا وتونس ويضم بلاد الجزائر الحالية وبلاد تونس الحالية التى كـــانت تعـــرف في العصور الوسطى (إفريقية) وهو الاسم الذى أطلقه الرومان على بلاد تونـــس الحالية (Africa) .

القسم الثالث : المغرب الأدنى : وهو من جبال نفوسه[1] المحيطه بطرابلـس الى حدود مصر ويشمل البلاد الليبية بولاياقا الثلاث (برقه وطرابلس وفزان) .

وقد بدأت سمات الأنقسام بين أجزاء المغرب العربى الثلاث تظـــهر في القرن الثالث عشر حينما أضمحلت "دولة الموحدين " وحلت محلها بـــالتدريج دول ثلاث :

١. دولة الحفصيين في تونس.

---

[1] جبل نفويسه يحيط بمنطقة مدينة طرابلس الساحلية كالهلال ويفصل بينها وبين صحـــراء (فـــزان) في الجنوب ، د . سعد وغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ج١ ، ص٦٦-٦٨ ، نشر منشأة المعلوف ، الاسكندرية ، ١٩٧٩م .

٢. دولة بنى عبد الواد : في المغرب الأوسط (الجزائر) .

٣. دولة بنى مرين : في المغرب الأقصى .

وعلى الرغم من أن كلا من (دولة الحفصيين) و (بنى مرين) حاولت أن تبسط نفوذها على المغرب بأسره وتؤسس دولة كبيرة على نمط دولة الموحدين إلا أنها لم تستطع أن تفعل ذلك وبلغ التفكك السياسى في شمال أفريقيا أقصاه في أوائل القرن السادس عشر مما سهل على الغزاة الأسبان الاستيلاء على كثير من موانئ المغرب الأمر الذى دفع المغاربة للأتصال بالدولة العثمانية لإنقاذهم من الغزو الأوربي وقد جاء العثمانيون الى المغرب العربي ورحب بهم السكان ولم يعتبروا وجودهم احتلالا أجنبيا لبلادهم .

وقد كان من أبرز الأسماء التى لمعت في تاريخ المغرب في تلك الفترة هما الأخوين (بابا عروج) و (خير الدين بارباروسا) اللذين دافعوا عن المغرب دفاعا مستميتا أمام المد المسيحى ، ولما وجد خير الدين برباروسا صعوبة مقاومة الأسبان وجد من الأفضل أن يدخل في خدمة السلطان العثمانى ويعمل بإسمه ومن ثم طلب حماية السلطان سليم وقد منحه السلطان سليم لقب (بلك بكوات أفريقية) وأرسل إليه عددا من الجنود الانكشارية ثم سمح له بتجنيد الأهالى في الدولة العثمانية نفسها لمساعداته في عملياته الحربية في غرب البحر المتوسط.

وقد تمكن (خير الدين) من أن يستولى على المنطقة الساحلية من الجزائر واستولى على القلعة التى بناها الأسبانيون على جزيرة مواجهة للساحل الجزائرى و وصل هذه الجزيرة بالبر سنة ١٥٢٩م ، وأصبحت نواة لمدينة الجزائر الحالية ، وقد عمل خير الدين على تزويد اسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة وأصبح اسطوله مرهوب الجانب في الحوض الغربى للبحر

المتوسط ومنح السلطان العثمانى لقب (قبودان باشا) واعطاه القيادة العامة للاساطيل العثمانية .

وقام خير الدين بعملية توحيد أقطار شمال أفريقية فاحتل تونس وطرد منها مولاى الحسن حليف الأسبان ، وأصبح خير الدين بذلك أكثر من مجرد أمير للبحر فقد أصبح رئيسا للدولة وإن كانت متحدة مع الإمبراطورية العثمانية وأصبح الحارس الأمامى للامبراطورية العثمانية في غرب البحر المتوسط وكانت تسنده جميع قوات هذه الأمبراطورية في صراعه مع المغرب ، وهكذا بدأ ظهور الأتراك العثمانيين في شمال افريقيا .

أما مراكش فقد نجحت في صد كلا الضغطين الأسبانى والعثمانى وكانت هى الدولة العربية الوحيدة في المغرب العربى التى لم تخضع للحكم العثمانى واستطاعت دولة (الأشراف السعديين) في مراكش الأحتفاظ بإستقلالها واعتزازها بنزعتها الأقليمية واتخذت من حدودها الطبيعية حاضرا يفصلها عن جيرانها وخاصة في الشرق وأصبح المغرب الاقصى هو القطر الوحيد الذى لم يتحد مع بقية الأقاليم العربية والاسلامية رغم استمرار الصلات والروابط وتشابه المصالح بين الشعوب .

الواقع أن الاشراف السعديين في مراكش قاموا بدورهم في الجهاد الدينى ضد الأسبان والبرتغال غير أنهم لم يقتنعوا بالأنضمام الى الدولة العثمانية والأنضواء تحت لوائها لأنهم اعتبروا أنفسهم أحق من العثمانيين بزعامة العالم الاسلامى والخلافة الاسلامية لأنهم أهل البيت الشريف ، وإذا كانت الظروف تفرض على أحد القوانين الخضوع للقوة الأخرى فليس هناك من المسلمين من يجادل في أحقية الأشراف في السيادة وحاولت قيادة الأشراف في مراكش بأن تعتز (بأن الله قد رفع بعضنا فوق بعض درجات) في الوقت الذى اعتز فيه رجال

الجزائر من اتباع خير الدين بارباروسيا (بألا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) ، ومن ثم وقع صدام مؤسف بين الأشراف السعديين في مراكش وبين الجزائريين وحاولت كل دولة منهما النيل من الأخرى وكان الموقف يقتضى وحدتهما أمام الزحف الأوربي على العالم الاسلامي .

وصفوة القول أن الدولة العثمانية قد تمكنت من السيطرة على غالبية العالم العربي في سرعة غير عادية وكانت هذه السرعة نتيجة عدة عوامل في مقدمتها الضعف الداخلي والخطر الخارجي ثم التجاوب الديني أو الوشيحية الدينية التي لولاها لكان مصير الغزو العثماني منذ البداية كمصير غيره من الغزوات الوثنية والمسيحية السابقة كالمغول والصليبيين وبسبب هذه الوشيجة الدينية و خطورة المد الأوربي كان التجاوب وكانت السرعة .

وإن فترة الحكم العثماني للبلاد العربية لم تكن في نظرنا فترة استعمار أجنبي لأن الأستعمار بمعنى استغلال البلاد المستعمرة لمصلحة قوة أجنبية ، وكانت فترة الحكم العثماني للبلاد العربية بعيدة عن هذا المفهوم لأن الحكم العثماني كان من دولة إسلامية اشتد عودها إبان النهضة الأوربية فأمتد نفوذها الى البلاد العربية حماية لها من الأطماع الأوربية ووضعت في كل بلد منها قوة أطلقت عليها الحامية العثمانية ، وهو الإسم الذى اراده العثمانيون إشارة الى حمايتهم العالم العربي من الأطماع الأوربية التي بدأت تتطلع الى الزحف على العالم العربي ، ولم تكن الدولة العثمانية تستفيد من البلاد العربية فائدة كبيرة فقد قال أحد مؤرخي النظم العثمانية المصرية وهو (حسين أفندى الروزنامجى) عندما سأله علماء الحملة الفرنسية عن مدى انتفاع السلطان بملك مصر (أن هذه المملكة جميعها ملكه إنه لا ينظر الى الانتفاع منها بل رتب لمصر على قدر

جبايتها وقرر أن ما فاض من الجباية يبقى لينفق منه في عمارتها ، وما ينعم بـــه على الناس) .

وعلى الرغم من ذلك يذهب البعض (د . جمال حمـــدان) في كتـــاب "الاستعمار والتحرير في العالم العربي" الى أن فترة الحكم العثمانى هـــى فـــترة استعمار دينى آخر ورث الاستعمار الدينى المسيحى : ويقول : " فمن الســاحل الشمالى مرة أخرى من الأناضول جاءت موجة الاستعمار التركى وهو نـــوع محير من الأستعمار لأنه كأستعمار دينى إنما إتخذ من وحدة الدين غطاء يخفى بــه حقيقته كاستعمار سياسى لا شك فيه " [1] .

ويرى هذا الرأى كثير من المؤرخين بالمشرق العربي ، الذين يـــرون إن الوجود التركى في أقطار الشمال الأفريقى اتخذ في أوائل أمره لونا من ألـــوان الجهاد الاسلامى لكنه ما لبث أن بسط نفوذه على هذه الأقطـــار في تعصـــب عنصرى للتركية آل الى احتلال واستعمار .

ويتطرف البعض منهم فيقول بأن (الفتح العثمانى لمصر كان اشنع ضربة اصابت المدنية الاسلامية منذ قضى التتار على الدولة العباســية ، في منتصـــف القرن السابع الهجرى ، وقوضوا صرح المدنية الاسلامية في المشـــرق وكـــانت مصر مستودع هذا التراث الباذخ ولا سيما بعد أن سقطت قواعد الأندلـــس المسلمة في يد أسبانيا النصرانية . فجاء الفتح العثمانى بويلاتـــه ليطفـــئ هـــذا السراج المنير مدى ثلاثة قرون " [2] .

---

[1] د . جمال حمدان ، الاستعمار والتحرر في العالم العربي .

[2] محمد عبد الله عنان ، من محاضرة له عن ابن إياس في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٧٧ بعنوان : ابن اياس والفتح العثمانى لمصر ، ضمن مجموعة بحوث عن ابن اياس ص١٣٧-١٤٨ .

وفي المغرب العربي يجمع المؤرخون على انكار وصف الحكم العثماني للبلاد العربية بالاحتلال أو الاستعمار ، وما كانت في تقديرهم الا جمعا لشمل هذه الأقطار في مواجهة أعداء الأمة الإسلامية فيقول بعضهم : (الذين كانوا في بلدنا هم أخواننا الأتراك المسلمون ، وجودهم بيننا كان باستدعائنا واستنجادنا وعن محض ارادتنا ، واختيارنا وما استجابوا لنا ليحكمونا بل للتعاون على مقاومة الاستعمار وصد العدوان وتطهير ارض الإسلام .. ومن المغالطة والتحامل أن يتجنى متجن فينعته بالاحتلال والاستعمار ، وأعداء الاسلام المتربصون بنا الدوائر هم الذين دسوا هذه العبارات السامة والمنفرة ، ليهزوا روح التضامن الاسلامى الذى كان ولا يزال شجى في حلوقهم والسد المنيع الذى انحسرت عنده مؤامراتهم الصليبية الاستعمارية) .

الفصل الأول

ليبيا

تشتمل ليبيا كما ذكرنا على ثلاث ولايات واسعة المساحة : طرابلس وبرقة وفزان ، لكن بها في الجنوب جزء كبير من الصحراء الكبرى . ومعظم البلاد كانت أرض مراع عامرة بالناس المتصلين بسكان الصحراء الغربية في مصر ، ونظرا لسمرة أهل البلاد سماهم الاغريق بالليبيين .

ونظرا لطول السواحل الليبية وكثرة مدنها الساحلية وموانيها فقد كانت ميداناً واسعاً من ميادين الصراع بين المسلمين والمسيحيين على سيادة البحر المتوسط وتعرضت لكثير من الغارات الأوربية المسيحية منذ الفتح الاسلامي حتى العصر الحفصي الذى انتهى بها سنة ٩٨١م وعندما قامت الدولة العثمانية نشب صراع بينها وبين الأسبان الذين قويت شوكتهم بعد سقوط غرناطة في الاندلس .

وتمكنت أسبانيا من الاستيلاء على بعض سواحل المغرب ومنها طرابلس سنة ١٥١٥م وظلت طرابلس تحت الحكم الأسبانى المباشر حوالى ٢٠ عاماً ، ثم سلم الأسبان طرابلس الى فرسان القديس يوحنا ، وهم قراصنة رودس الذين تمركزوا في جزيرة رودس بعد طردهم من بلاد الشام مع فلول الصليبيين سنة ١٢٩١م .

ولما استولى السلطان (سليمان المشرع) على جزيرة رودس في أواخر عام ١٥٢٢م انتقلوا الى جزيرة مالطة وتعاونوا مع البابوية في روما ، وعانت

منهم الموانى العربية في البحر المتوسط وعهد إليهم الامبراطور الأسبانى شــــارل الخامس بحكم طرابلس عام ١٥٣٥م .

وقام أهالى طرابلس بمقاومة الاحتلال الصليبى سواء على عهد أســـبانيا أو على عهد قراصنة رودس لكن إمكانياتهم الحربية كانت ضعيفة فاســـتنجدوا بالدولة العثمانية إبان حكم السلطان سليمان المشرع وأرسلوا وفداً الى السلطان سليمان يطلبون منه التدخل عسكرياً لتحرير بلادهم من الحكم الصليـــبى وفي مقابل ذلك يعلنون ولاءهم للعثمانيين ودخول بلادهم تحت السيادة العثمانية .

واستجاب السلطان (سليمان) لطلبهم وأرسل (مراد أغا) مـــع قـــوة صغيرة الى مدينة طرابلس فنـــزلت عند ساحل (تاجوراء) وعززهـــا الدولـــة العثمانية بقوات أخرى حتى دخلت مدينة طرابلس ســـنة ١٥٥١م ، وصـــدر فرمان من السلطان بتعيين (مراد أغا) واليا على طرابلس الـــذى اســـتطاع أن يقضى هو وخلفاؤه من بعده على فلول فرسان القديس يوحنا من الســـواحل الليبية بعد أن حكموا فترة بلغت ٢٦ سنة .

عهد الأسرة القرمانية :

وأرسلت الدولة العثمانية بعض فرق الانكشارية الذيـــن اســـتقروا في سواحل ليبيا ، وتزوجوا بالنساء العربيات وامتلكوا الأراضى ، وكانت حصيلـــة هذه الزيجات المختلطة نشأة طوائف جديدة في ليبيا عرفت باسم (القولوغليـــة) وظهر من هذا الجنس الجديد قائد يسمى (أحمد القرمانلى) [١] ، فأعلن نفســـه حاكما على طرابلس سنة ١٧١١م ، وصدر من السلطان (أحمد الثالث) فرمـــان

---

[١] نسبة الى مدينة قرمان بالأناضول ، وقد ارتحل جد أحمد ويدعى مصطفى الى طرابلس وكان بحاراً صغيراً وامتلك بعض المزارع والنخيل واندمج ابناؤه وحفدته مع اهالى البلاد وصاهرهم .

بتعينه واليا على طرابلس على أن يكون حكمه فيها وراثياً في أسـرته ومنحـه لقب الباشوية ومده بالعتاد والرجال .[1]

وقد استمر حكم أسرة القرمـانلى ١٢٤سـنة مـن ١٧١١حـتى ١٨٣٥هـ ، وفي عهد هذه الأسرة نشأت حركة جهاد إسلامى بحـرى ضـد الغزوات الأوربية في البحر المتوسط ، صمد لها الليبيـون ، بزعامـة الأسـرة القرمانلية ، وتعتبر أسرة القرمانلى صاحبة فضل كبير في بناء الدولـة الليبيـة الحديثة بحدودها الحالية ، واستطاع أحمد القرمانلى إنشاء أسطول قـوى ودار صناعة جديدة ، وأخذ الأسطول الليبي مكانته في البحر المتوسط ، وأخذ نصيبه من التجارة ، وأسهم في أعمال الجهاد البحرى ضـد الأسـاطيل الأوربيـة ، وكانت البلاد الأوروبية والأمريكية تسعى الى كسب وده وعقد المعاهدات معه ، فأصبح له دخل كبير من المال استعان به في بناء الدولة .

وعادت هذه المكاسب على أهل ليبيا فأحبوا الأسرة القرمانلية وسمحـوا لأبناءهم بالأنضمام لجيشها ، وتوفى أحمد القرمانلى سنة ١٧٤٥م بعد حكم دام ٣٤سنة .

وخلفه أبنه محمد باشا القرمانلى الذى حكـم ليبيـا في الفـترة مـن (١٧٤٥-١٧٥٤م) و سار في الطريق الذى سلكه والده ، وخلفه ابنه علـى باشا القرمانلى الذى حكم في الفترة من (١٧٥٤-١٧٩٣م) وقد تدهـورت أحوال ليبيا على أيامه وبدأت الثورات عليه لأنه اسـتدان مـن الأوروبيـين وهجمت فرنسا وانجلترا على طرابلس وضربتها بالقنابل فتم عزل على باشـا وعادت ليبيا الى الدولة العثمانية سنة ١٨٣٥م واستمر الحكم العثمانى حتى سنة ١٩١١م وهى فترة كانت سيئة نظراً لما اتصف به الحكم التركى من سـوء في

---

[1] د . عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية ، ج٢ ، ص٩٢٧-٩٣١ .

جميع الولايات التى يحكمها ومن فساد وسرقات ونهب ، وهذا هو الـــذى أدى الى الغزو الايطالى لها سنة ١٩١١م .[١]

الغزو الايطالى لليبيا :

طمحت إيطاليا في الاستيلاء على ليبيا لأنها قريبة منـــها في مواجهـة الشواطئ الايطالية وحصلت على موافقة انجلترا وفرنسا على غزوها ، ولم تكـن تتوقع مقاومة من الدولة العثمانية ، وأرسلت إنذاراً الى ليبيـــا في ١٧ســبتمبر ١٩١١م زعمت فيه أن رعاياها وغيرهم من الأوربيين يعانون من سوء الحكـم وإنعدام الأمن في ليبيا ، وهذه هى الحجة التى يحتج بها الأوربيون دائما عندمـا يريدون احتلال قطر من الأقطار ، وبعدها بدأ الغزو العسكرى في ٢٩ســبتمبر ١٩١١م بقوة بلغت ٢٤ألف من المشاة وحوالى ستة آلاف مـــن الفرســان ، مزودين بأعتى الأسلحة ، واكتسحت هذه القوات القوة العثمانية ، التى كـانت لا تزيد على خمسة آلاف .

لكن الشعب الليبي لم يستسلم لهؤلاء المستعمرين وأبدى مقاومة شرسـة في مواجهة الايطاليين ، على الرغم من أن تركيا سلمت بـالأحتلال الايطـالى لليبيا في معاهدة (أوشى) في أكتوبر سنة ١٩١٢م واستمر الشـعب الليـبي في المقاومة وآزره الشعب المصرى [٢] .

والإيطاليون أقل من الفرنسيين حضارة وأقل منهم خـبرة في مسـائل الاستعمار وسياسة الشعوب ، ومن ثم لم يتقيدوا في سياستهم الطرابلسية بعـرف ولا بخلق ولا بتقليد ، وضعوا يدهم على الأرض كلها بالغصب والقهر وأخـذوا ينقلون أسرات إيطالية ويقيمونها في الأراضى المغصوبة ، ويقدمون لهذه الأســر

---

[١] د . حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الاسلام ، ص٤٣٤ .

[٢] المرجع السابق ، ص٤٣٤-٤٣٥ .

قروضاً تمكنهم من استغلال هذه الأراضى . ولما كان الإيطاليون شعباً معظمه من الصناع والزراع الفقراء فقد رحبوا بالفرصة وهاجروا آلافاً حتى كاد البلد يتحول الى بلد إيطالى لو لم تتداركه رحمة اللع بالحرب الأخيرة التى كسرت ظهر الإيطاليين وحالت بينهم وبين الإجهاز على شعب أعزل مسكين .

وإليك حقيقتان تجملان السياسة الإيطالية في هذا القطر وهما تغنيان عن كل تعليق :

أصدرت الحكومة الإيطالية قانونين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣٣ حرمت فيها على الأهالى امتلاك الأراضى الزراعية ، ولم تُبح لهم إلا امتلاك النخيل وأشجار الزيتون وحق استعمال أراضى المراعى .

واستقدمت المهاجرين بالآلاف حتى بلغ عددهم ٧٠٠٠ في سنة ١٩٣٥م ووزعت عليهم أراضى الأهلين .

في هذا كفاية ، وليقل الإيطاليون بعد ذلك إنهم أنشأوا المدن والطرقات والموانئ والمدارس والشركات ، ليقولوا ما يشاءون ، فهذه كلها لا تعنينا لأن شيئاً منها لم ينشأ لمصلحة أهل البلاد ، ولم يكن الغاصب ينوى إلا شيئاً واحداً وهو استئصال الليبيين . ولقد استئصل منهم بحد السيف بقدر ما سمحت به الظروف .[1]

السنوسية في ليبيا :

السنوسية صاحبها ومؤسسها السيد (محمد بن على السنوسى) الأدريسى (١٧٨٧-١٨٥٩م) ١٢٠٢-١٢٧٦هـ ، وهو من سلالة ملوك الأدارسة الذين أسسوا الدولة الإدريسية بالمغرب وكانت حركته تقوم على

---

[1] د . حسين مؤنس ، من مقال له حول المغرب العربي منشور في كتاب "العالم العربي مقالات وبحوث" ، نشر جامعة الدول العربية الإدارة الثقافية ، القاهرة سنة ١٩٤٩م ، ص٦٧-٦٨ .

الدعوة الإسلامية المرتبطة بالعمل والإنتاج وأنشأ الزوايا في الصحراء الليبيـــة في واحة (الجغبوب) وغيرها ودعا الى الجهاد في سبيل الله ضد أعـــداء الإســلام وحرم زيارة الأولياء والتدخين . وجال في الصحراء الى الجنوب من الجزائر يعظ الناس ثم زار تونس وطرابلس وبرقة ومصر والحجاز ومكة ، ثم رحل الى برقـــة (١٢٥٥هـــ) وأقام في الجبل الأخضر فبنى " الزاوية البيضاء " وكثر تلاميــذه وانتشرت طريقته ، وانتقل الى واحة (جغبوب) الى أن توفى بها سنة ١٢٧٦هـــ (١٨٥٩م) [١] .

وتولى الدعوة بعده أبناؤه وأحفاده وأنشـــئت الزوايـــا السنوســـية في طرابلس وبرقة ودارفور بالسودان والنيجر . وكان عدد الزوايا التى أنشـئت في حياته ٢٢ زاوية ، وفي حياة ابنه السيد محمد المهدى حتى عـــام ١٨٨٤م نحـــو ١٠٠ زاوية في ليبيا ومصر والمغرب ومالى وتشاد وأواسط أفريقيا .

وكانت العلاقة طيبة جدا بين الخليفة العثمانى والسنوســـية واعـــترفت الدولة العثمانية عن طريق ولاتها بالزعامة السنوســـية ومنـــح البـــاب العـــالى السنوسيين فرمانات سلطانية أعفتهم من الأموال الأميرية ونال السيد محمد ابـــن على السنوسى الكبير من السلطان العثمانى سنة ١٨٥٥م فرمانا جعله بمثابـــة الأمير المستقل [٢] وبهذا تختلف الحركة السنوسية عن الحركة الوهابية بأنهـــا لم تتصادم مع الدولة العثمانية .

غير أن الدولة العثمانية نظرت إليه بعين الريبة والخوف بعـــد ذلـــك ، واضحت تخشى أمره فنقل مقره الى واحة (جغبوب) في جنوب الصحراء الليبية ، ونتج عن هذا التوغل في الجنوب أن أصبح له نفوذ في قلب إفريقيا في الـــدول

---

[١] الأعلام ، ج٦ ، ص٢٩٩ .

[٢] لوثرب ، حاضر العالم الاسلامى ، ج١ ، م١ ، ص٢٩٨ .

الزنجية عن طريق رسله ومبعوثيه ، ولما وافتـــه منيتـــه في عـــام ١٢٧٦هـــ (١٨٥٩م) كانت الطريقة السنوسية التى أنشأها قد انتشرت في معظم الشـــمال الأفريقى وتوغلت في قلب أفريقيا .

وخلفه في تزعم الدعوة ابنه (محمد المهدى) الذى واصل تدعيم حركـــة والده وتوفى سنة ١٩٠٢م (١٣٢٠هـــ) وخلفه ابن أخيه (أحمـــد الشـــريف) فزادت السنوسية إنتشارا في عهده ، وعندما قامت إيطاليا بإحتلال ليبيا في عـــام ١٩١١م تزعمت الحركة السنوسية النضال ضد الاستعمار الإيطالى .

والواقع أن (الطريقة السنوسية) قد دربت أتباعها على حيـــاة العمـــل المنتج بأكثر مما دربتهم على حياة التأمل الصوفى ، فكان على رأس كل زاويـــة من الزوايا السنوسية (مقدم) وفوق المقدم (وكيل) وظيفته كوظيفة الحاكم المدنى وكلا من المقدم والوكيل ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعا والقبيلة كافة ، فالأمر الذى يصدره أحدهما مقرونا بإسم السيد السنوسى إنما هو أمر واجـــب الطاعة على الجميع حتى قال بعض المؤرخين في هذا :

" وفي الواقع إن وراء الحكومات الغربية الاستعمارية في شمال أفريقيا من إنجليزية وفرنسية وإيطالية (حكومة سنوسية) شديدة المراس قوية الشكيمة وهـــى عزيزة الجانب بحيث لا تجرؤ إحدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة علـــى مس جانبها في أمر من الأمور ، أو إحراجها في شأن من الشئون ولذلك اتبعـــوا سياسة الحذر واللين إزاءها على الدوام " [(١)] .

والواقع أن الزاوية السنوسية كانت مركزا للحياة الدينية والاجتماعيـــة والإقتصادية في المجتمع السنوسى فيقول المؤرخ شكيب أرسلان عنها :

---

(١) لوثروب – حاضر العالم الاسلامى ، جزء أول ، المجلد الأول ص٢٩٨ .

" الزاوية فيها (مقدم) هو القيم عليها وهو الذى يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات بينها ويبلغ الأوامر الصادرة من السيد السنوسى ، ويليه (وكيل الدخل والخرج) ، وإليه النظر في زراعة الأراضى وجميع الأمور الإقتصادية ، ومن عادهم أن على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتبرع ، بحراثة يوم ، وحصاد يوم ، ودراسة يوم ، في أرض الزاوية ، ويعلم أطفال القبيلة القراءة والكتابة ، ويعقد في القبيلة عقود النكاح ويصلى على الجنائز .. الخ والزوايا السنوسية هى الملاجئ الوحيدة في الصحراء للمسافرين والواردين ، والشاردين ولا يوجد هناك مساكن مبنية بالحجر غيرها . وإن لكل قبيلة زاوية هى مرجعها في الدين والدنيا ، وإذا تعددت فروع القبيلة كالعبيدات مثلا (فلكل فخذ منها زاوية) . وإن الغريب أو السائل أو الفقير المعتر ينزل بزاوية من هذه الزوايا فيقيم ما يشاء ويتضيف ما يشاء ولا يسأله أحد عن شئ ، وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجل البقاع وأخصب الأرضين ..

وأينما حل السنوسية عمروا وأثمروا ووجدت الأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وقل إن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع الفواكه والثمار وأصناف البقول والخضرة يزيد قيمتها مصادفة الإنسان لها في تلك البقاع القاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات [١] .

والسنوسيون جادون فى إعداد أنفسهم بكل ما يستطيعون من الوسائل الكفيلة بإصلاح المجتمع دينيا وتهذيب نفوسهم وتربية خلقهم ، وخطتهم بعد إكمال هذه التربية التى أخذوا أنفسهم بها وجاهدوا في سبيلها إنما هى افتتاح

---

[١] شكيب أرسلان ، من حواش وزيادات في كتاب حاضر العالم الاسلامى ، مرجع سابق ، الجزء الأول ، المجلد الأول ٢٩٧-٢٩٨حاشية رقم (٤) .

جميع البلاد الأفريقية ثم سائر الأقطار الاسلامية بعد ذلك وجعل العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه مملكة واحدة على رأسها خليفة واحد .

على أن السنوسى موقن حق الإيقان ، أن تحرر المسلمين التحرر السياسى من ربقة السيطرة الغربية النصرانية ، يجب أن يسبقه إنتشار التجدد الروحانى ، والدعوة الاخلاقية في المسلمين ، فلهذا هو لا يفتأ يجاهد نحو إدراك هذه الغاية ، بتهذيب أخلاق رعيته ، وترقيتها ، وتنقية نفوسها ، بالتربية الصحيحة ، وتنشئتها على الفضائل الاسلامية العليا ، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل يَجِدُّ أيضا في النواحى الاقتصادية من أجل تحسين أسباب معيشته وتوفير وسائل الكسب فكثرت بذلك فلاحة الواحات الخصبة ونمت الزراعة وحفرت الآبار الحديثة وبنيت المنازل على طرق القوافل وشرع في تنشيط التجارة .

ولا غرابة في هذا السلوك فقد كان الاسلام على الدوام عو دين الهداية والأخلاق والعمل الدؤوب المنتج .

ويلاحظ أن الحركة السنوسية قد خلخلت النظام القبلى وجعلت للقبائل كلها دعوة مشتركة ومثلها في ذلك (مثل الحركة الوهابية في الجزيرة العربية) فأضعفت بذلك الروح القبلية وأحلت محلها روح الجماعة والدعوة السنوسية العالمية النظرة .

والدول الاستعمارية في شمال أفريقيا (انجلترا وفرنسا وايطاليا) كانت تخشى سلطان السنوسيين لأن لهم حكومة شديدة المراس قوية الشكيمة ، وكانت من عزة الجانب بحيث لا تجسر إحدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها في أمر من الأمور ، أو إحراجها في شأن من الشئون وكانوا يتبعون نحوها سياسة تتسم بالحذر واللين على الدوام .

الحيطة والحذر لدى السنوسيين :

على الرغم مما حققته السنوسية ، من انتشار وكثرة الاتباع ، وخاصة في شمال افريقيا ، وفي جوف الصحراء الكبرى ، الذين كانوا أسيادها بحق ، ولا يجرؤ أحد على اجتيازها إلا بإذنهم ، على الرغم من ذلك إلا أنهم كانوا على جانب كبير من الحيطة والحذر ، وعدم الاندفاع في مجابهة القوى الكبرى ، كما فعل غيرهم مثل المهدى في السودان .

فما ركبت الحركة يوما مركبا خشنا ، أو سلكت مسلكا وعرا فيه شئ من الخطر على كيانها السياسى ، وفي جميع الثورات التى هبت في أقطار شمال افريقيا العديدة كان السنوسيون المقيمون بنواحى البلاد يشتركون في القتال ، ويشدون أزر الثائرين ، كما حدث في الحرب الايطالية في طرابلس الغرب ، وفي الحرب العالمية (الأولى) ، ولكن الطريقة السنوسية نفسها كانت تتجنب الحرب جهدها إجتنابا رسميا على أتم قدر [١] .

موقف الغرب من الدعوة السنوسية :

يذكر الدكتور محمد فؤاد شكرى بعض الكتب التى ظهرت في فرنسا تحذر من خطر السنوسية والاسلام ومنها كتاب ضخم بعنوان :

(الاستيلاء على الدنيا) يحذر صاحبه قارئيه من الحركة الاسلامية ، ويذكر خصوصا تاريخ السيد محمد بن على السنوسى مؤسس السنوسية ، ثم يصف السنوسية بأنها حركة نهضة وبعث ، غرضها إخراج الأجانب المستعمرين من أفريقيا ، وهى حركة قد تأصلت جذورها قبل السنوسية فلا يلبث العرب في أفريقيا الشمالية أن يتحدوا مع أهل مصر ، ثم مع سوريا بعد اجتياز قناة

---

[١] المرجع السابق ، ص٢٩٧-٢٩٨ .

السويس ، ويدخل الجميع تركيا ، فتنضم هذه اليهم ، ولا يوقف الزحف الاسلامى في أوربا شئ حتى يصل الزاحفون الى باريس ويحاصرونها ، وعندئذ لا يستطيع الفرنسيون صد هذا السيل المتدفق عليهم وانقاذ عاصمتهم . وتتكون إمبراطورية إسلامية كبيرة تقضى على حكومات الغرب [1] .

ولما بدأ الفرنسيون في بسط سيطرتهم الاستعمارية على السودان الغربي اصطدموا بالسنوسيين ونشب بينهم الصراع الذى استمر طيلة حياة المهدى ولما مات الأمام (محمد بن على السنوسى) كان ابنه السيد محمد إدريس قاصرا فقد كان من مواليد ١٣ من مارس عام ١٨٩٠م ثم تخلى عن الزعامة للسيد (محمد إدريس) حينما أصبح راشدا فقاد(محمد إدريس) النضال ضد الطليان الذين مالوا الى التساهل الظاهرى معه فأعترفوا بإمامته غير أنهم لم يلبثوا أن نقضوا عهدهم معه سنة ١٩٣٣م فعاد النضال ثانية وتعرض أهل البلاد والسنوسيون لضربات شديدة منهم وأبلى هؤلاء بلاء عظيما في الجهاد ، وقد اضطر الامام محمد أدريس الى اللجوء الى مصر وادارة النضال منها وكان يشتد حينا ويخف حينا آخر .

نضال عمر المختار :

تولى السيد (عمر المختار) قيادة الحركة الوطنية ضد الايطاليين بعد انسحاب محمد إدريس السنوسى الى مصر ، والسيد(عمر المختار) من شرقى الجبل الأخضر وكان قد أظهر من النجابة في العلم والشهامة في الحرب ما جعله الشخصية الرئيسية في الحركة الوطنية واليقظة الإسلامية في شمال أفريقيا ضد الاستعمار الإيطالى ، ولقد لجأ الإيطاليون الى أقصى الأساليب في الحرب الليبية وتمكنوا من القضاء على المقاومة وألغو الزوايا وأغلقوا المدارس ، وجعلوا اللغة

---

[1] محمد فؤاد شكرى ، ميلاد دولة ليبيا الحديثة ، الجزء الأول المجلد الثانى ص٤٢٥ .

الإيطالية هى اللغة الرسمية في البلاد وقرروا تدريسها في المدارس ولم يبقـــوا في ليبيا إلا ٥٦ مدرسة إبتدائية ٤٤ مدرسة إيطالية ، وجلـب الإيطـاليون ألاف الايطاليين من جنوب إيطاليا وصقلية للإستيطان في ليبيا ، لأن (موسوليني) قـرر أن تكون ليبيا امتدادا للوطن الإيطالى ، وأدخل على المدن الليبية إصلاحـات ، جعلتها أشبه بالمدن الايطالية ، وذاعت اللغة الايطالية على كل لسان في ليبيـا ، واستشهد السيد (عمر المختار) بعد وقوعه في الأسر وقد حوكم المختار محاكمـة صورية حكم عليه في نهايتها بالأعدام ، وتم تنفيذ الحكم فيه شـنقا في السـاعة التاسعة من صباح الأربعاء الموافق الرابع من جمادى الأولى سـنة ١٣٥٠هـ (١٦سبتمبر ١٩٣١م) في مدينة (سلوق) في إقليم بنغازى [1] .

ليبيا إبان الحرب الثانية :

نشبت الحرب العالمية الثانية التى دخلها الطليـان الى جـانب الألمـان واتصل الإمام (محمد إدريس) بالانجليز واتفق معهم على التضامن في الحرب ضد الإيطاليين ، مقابل إعترافهم باستقلال ليبيا بزعامته بعد الحرب ، ولقـد أبلـى المجاهدون الليبيون ، والسنوسيون في طليعتهم في الحرب بلاء عظيما ، وأنفصـل آلاف من المجندين الليبين الذين كانوا في جيوش الإيطاليين ، انفصلـوا عنـهم وانحازوا الى المجاهدين ، فكان هذا وذاك من أسباب انهيار المقاومـة الايطاليـة والالمانية في جبهة شمال أفريقيا .

وحينما وضعت الحرب أوزارها ، هب الامـام السنوسـى ورجالـه للمطالبة بإنجاز الوعد ، وإعلان الاسـتقلال ، ونـاصرهم الـدول العربيـة والاسلامية ، في نطاق هيئة الأمم المتحدة ، حتى تحقق مطلبهم في الاستقلال سنة ١٩٥٠م ورغم ألاعيب الانجليز الذين حاولوا نقض وعودهم وإبقاء ليبيا تحـت

---

[1] د . حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الاسلام ، ص٤٣٦ .

استعمارهم تقرر إعلان ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة في آخر عـام ١٩٥١م ، وفي نفس السنة تم إعلان السيد (محمد إدريس) ملكا على ليبيا ، الـتى سميـت (المملكة الليبية المتحدة) ، لأنها تألفت من ثلاث مناطق (برقـة) و (طرابلـس الغرب) و (فزان) ، وذلك وفق دستور وضعته جمعية تأسيسية ، أى أنها مملكـة دستورية منذ أول سنة ١٩٥٢م[١].

وبعد اتمام عملية نقل السلطات ، وصدور الأمر الملكى البريطانى بإنهـاء سلطة ملك بريطانيا في إقليمى طرابلس وبرقة ، والإعلان الصادر في فزان بإلغاء جميع السلطات ، التى كانت للجمهورية الفرنسية في ذلك الإقليم ، أعلن الملـك إدريس الأول بصفة رسمية في قصر (المنار) بطرابلس ، أن ليبيا أصبحت دولـة مستقلة ذات سيادة وأنه سيحكم البلاد بطريقة دستورية ، وأصبحت ليبيا دولة من أعضاء هيئة الأمم المتحدة ، وتقدمت بعضويتها الى مجلس الجامعة العربية[٢].

واستمر كفاح الملك محمد ادريس السنوسى ، من أجل بناء دولة ليبيـا الحديثة ، ونشطت الشركات الغربية في البحث عن البترول في ليبيا ، وخاصـة الشركات الامريكية والبريطانية ، وتم استخراج البترول في الستينات من القرن العشرين بكميات كبيرة ، وساعدت هذه الثروة في تنمية البلاد اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، واستـعانت ليبيا في سبيل ذلك باستقدام كثير من الخبرات العلمية من مصر وغيرها من الدول العربية في مجال التعليم والصحة والزراعـة ، وفي مجال الصناعات البترولية استعانت بالخبراء الأجانب ، من الأمريكيين والانجلـيز وغيرهم .

---

[١] محمد عزت دروزه ، نشأة الحركة العربية الحديثة ، ص٧٧-٧٨ .

[٢] عمر رضا كحالة ، العالم الاسلامى ، الطبعة الثالثة ، دمشق ١٩٨٤م ، ج٢ ص١٠٥ .

قيام الجمهورية :

وكان مما يعكر صفو هذا الاستقلال ، وجود قواعد عسكرية إنجليزية ، وأمريكية ، وفرنسية ، في بعض أنحاء هذه المملكة الساحلية والداخلية ، استمرارا لما كان عليه الأمر قبل الاستقلال ، ولقد أمكن إزالة الوجود الفرنسى مبكرا ، أما الوجود الأمريكى ، والانجليزى ، فإنه استمر بسبب رضوخ وسكوت الملك ، وحكوماته المتعاقبة ، ولذلك نشأت حركة وطنية في الجيش وعملت تنظيما سريا لأحرار الضباط على غرار التنظيم السرى لأحرار ضباط ثورة ٢٣ يوليو في مصر ١٩٥٢م ونجحت الحركة في القيام بأنقلاب في سبتمبر ١٩٦٩م ولم تلبث هذه الحركة أن طلبت من الأمريكين في طرابلس ، والانجليز في طبرق الجلاء عن البلاد وتم الجلاء بعد مفاوضات سنة ١٩٧٠م .

وتم طرد بقايا الإيطاليين من ليبيا ، وطرد اليهود الذين كانوا يحتكرون كثيرا من أنواع التجارة في ليبيا ، وتكونت لجان شعبية في كل الإدارات الحكومية تكون مسئولة عن الإدارة .

أما الملك محمد إدريس السنوسي ، فقد عاش لاجئاً في مصر ، حتى توفى سنة ١٩٨٣ عن عمر يناهز ٩٣عاما ، وتم نقل جثمانه الى المدينة المنورة ، ودفن بمقبرة في البقيع ، تجاه مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، تنفيذا لوصيته (١) .

لكن ليبيا دخلت في مشاكل مع الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا ، بسبب مناصرتها لحركات التحرر في العالم العربى ، وعلى الأخص حركة تحرير الشعب الفلسطينى ، واقمتها هذه الدول بالقيام بأعمال إرهابية ، وذلك مثل حادث تحطم الطائرة الأمريكية فوق (لوكاربي)

---

(١) الأهرام في ٢٧/٥/١٩٨٣م .

فكان هذا سبباً من أسباب إقامة حظر على الطيران العالمي والليبي باستعمال الأجواء الليبية مما اضر بالاقتصاد الليبي وظل هذا الحظر قرابة سبع سنوات ، ولم يرفع إلا بعد أن سلمت ليبيا المشتبه فيهما سنة ١٩٩٩م ، وهما اثنين من المواطنين الليبيين الذين حامت حولهما الشبهات ، وهما من أفراد السلك الدبلوماسي الليبي ، على أن يتم التحقيق معهما ومحاكمتهما أمام قضاء محايد في هولندا ، وما زالت هذه القضية معلقة حتى يتم الحكم فيها في أواخر عام ١٩٩٩م .

ومازالت الدول الغربية تتربص بليبيا الدوائر ، ولكن العالم العربي والجامعة العربية يقف مع ليبيا في هذه القضية ، ولكن الأمم المتحدة تكيل بمكيالين في ظل المعايير المزدوجة ، فبينما لم تحاسب إسرائيل على إسقاط طائرة مدنية فوق سيناء وراح ضحية الحادث جميع ركاب الطائرة ولم يسلم منهم أحد ، وأيضا قامت القوات الامريكية في الخليج أثناء حرب الخليج بسبب مشكلة احتلال العراق للكويت سنة ١٩٩٠م بضرب طائرة إيرانية مدنية بالصواريخ الأمريكية وراح ضحية الحادث جميع ركاب الطائرة ، ولم تحاسب أمريكا ولا إسرائيل على هذا الإرهاب الدولى الى وقتنا هذا ، على الرغم من شكوى كل ليبيا وإيران للأمم المتحدة .

الفصل الثانى

تـــونـــس

تقع تونس في الطرف الشرقى لبلاد المغرب الثلاث (تونس ، الجزائـــر ، المغرب) وتشترك تونس مع شقيقاهما في شمال أفريقيا في تاريخها الطويل فقد أنشأ فيها الفنيقيون مستعمراقم الكبيرة وأشهرها (قرطاجة) التى نافست رومــــا في السيطرة على البحر المتوسط وغزا ملكها الكبير (هانيبال) الأراضى الرومانيـــة نفسها وحكمها البيزنطيون بعد ذلك وظل الـــبربر أهـــل البـــلاد الأصليـــون يعتصمون بالداخل أيام حكم بيزنظة وعندما فتحها المسلمون اسسوا بها قواعـــد إسلامية مزدهرة مثل (القيروان) و (تونس) وغيرها من المدن .

وأقبل البربر على اعتناق الإسلام والكلام بالعربية واختلطوا بـــالعرب الذين تتابع قدومهم على البلاد جنودا وعمالا وكتابا وجماعات نازحة للإستقرار والمعيشة الدائمة في بلاد المغرب وجاور بعضهم بعضا وتصاهروا وتشـــاركوا في الزراعة والتجارة وكان لهجرة (بنى هلال) و (بنى سليم) من القبائل العربيـــة الى المغربين الأدنى والأوسط آثار إجتماعية وثقافية بالغة المدى على تلك الأرجـــاء فقد دخلت عناصر جديدة بدوية في هيكل المجتمع المغربى ، وكان لهذه العنـــاصر خصائصها العقلية والخلقية ولا شك أنهم بمخالطتهم للقبائل البربرية قد أثـــروا فيهم وتأثروا بهم في المدن والقرى وكان تأثيرهم اللغوى واضحا جدا في نشـــر اللغة العربية بين القبائل البربرية وكان احتكاكهم الدائم بهذه القبائل عاملا فعالا في تعريبها تعريبا تاما واستمر الأستعراب يعمل عمله طيلة القرون اللاحقة حـــتى لم تنق البربرية أداة تخاطب إلا بين قبائل بوبرية منعزلة في الداخل .

وعندما خرج المسلمون من الأندلس كانت سواحل المغرب كلها حتى الاسكندرية موئلا للمسلمين المهاجرين وهذا مما زاد من تعريب منطقة شمال أفريقيا وعلى الأخص بلاد المغرب [١] تونس والجزائر ومراكش وليبيا

استعمار المغرب :

وبعد انتشار العرب الهلالية في المغرب وسيطرتها على نواحى واسعة من بلاده ضعفت الى درجة الزوال عصبيات البربر وتقوقعت في الداخل تجاه الصحراء مثل (زناتة) ، (صنهاجة) ووهنت قوى القبائل الضخمة التى أنشأت الدول المجيدة وبعد سقوط الأندلس تطلعت دول النصرانية القوية أسبانيا والبرتغال الى بلاد المغرب فبدأت تغير على سواحله وتنشأ فيها مركز الاستعمار والتجارة ووهنت دول : المرينيين والحفصيين عن مواجهة تلك الأخطار لكن بقيت الروح الاسلامية التى حلت محل العصبية القبلية ، وقامت الطرق الصوفية مقام العصبيات القبلية وتولت أمر الكفاح ضد الغزاه من النصارى وإخراجهم من البلاد وإنشاء الدول المغربية الكبرى تونس والجزائر والمغرب .

ولقد دخلت (تونس) في دوامة الحكام الفاسديين الذين أضعفوا حيوية البلاد في شتى الميادين ، وكانت السياسة التونسية في منتصف القرن ١٩ الميلادى تعانى إنعزالا يكاد يكون تاما عن التيارات العالمية حتى أن الحكومة التونسية لم تبد حراكا إزاء ما دبر لها في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) وهو المؤتمر الذى قرر فيه الاستعماريون إطلاق يدى فرنسا لتفعل ما تشاء بتونس .

وكان الاقتصاد التونسي في حالة من الأنهيار والضعف جعلت البلاد عاجزة حتى عن تدبير ميزانية الدولة الأمر الذى اضطر المسئولين التونسيين الى

---

[١] محمد السيد غلاب وآخرون ، البلدان الاسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر ، ص٤٢٦،٤٣٣.

الاقتراض من عدة دول أجنبية لا لتأسيس مشاريع اقتصادية تعود على البلاد بالخير والرفاهية وإنما لتسديد المصاريف الاعتيادية للدولة ، ونتج عن ذلك تكاثر ديون الدولة وتضخمها دخول تونس تحت عجز دولى مالى إذ أنشأ سنة ١٨٧٠م لجنة مالية دولية للأشراف على الميزانية التونسية ومراقبتها ، كما حدث في مصر .

أما من الناحية العسكرية فإن الجيش الذى كان يدافع عن تونس كان جيشا ضعيفا ليس على مستوى الجيوش الأوربية وهذا هو الذى دفع فرنسا الى الهجوم على تونس فيما بعد وفرض الحماية عليها ومما هو جدير بالذكر أن التدخل الاجنبى في الشئون التونسية ابتدأ منذ ظهور الامتيازات القنصلية الاجنبية في داخل البلاد الاسلامية ومن بينها مصر وساعد على ذلك ضعف الدولة العثمانية ، والامتيازات الأجنبية جعلت الأجانب لا يقعون تحت طائلة القضاء الوطنى .

وكانت الحجة القوية التى استند إليها الفرنسيون لاحتلال تونس أنه هاجر عدد كبير من أهل الجزائر الى تونس عقب احتلال الفرنسيين للجزائر ، وبقيت بعض العشائر المهاجرة مقيمة عند الحدود تمنى نفسها بأمل العودة الى الجزائر ، وكانت قوات الاحتلال الفرنسى تخشى من وجودهم على الحدود فطالبت باى تونس (محمد الصادق) بتسليم بعض زعمائهم .

زعمت أن حوالى ٣٠٠ من أفراد قبائل الكرميين قاموا باجتياز الحدود الجزائرية وقتلوا اربعة وسرقوا بعض المواشى ، وهذه القبائل تسكن الركن الشمالي الغربى من تونس وهى منطقة جبلية مغطاة بالغابات وادعت قوات الاحتلال الفرنسية أن الباى عاجز عن السيطرة على هذه القبائل ، وأن فرنسا إذ قررت التدخل في تونس إنما تفعل ذلك مضطرة لحماية مستعمراتها الجزائرية.

ومع أن الباى أراد أن يثبت للفرنسيين أنه قادر على أداء مهمة تـأديب قبائل الكرميين وحده فأرسل إليهم أخاه (على بك) على رأس قوة وأتى ببعـض الرهائن منهم دليلا على خضوعهم لسلطته لكن هذا لم يحول الفرنسـيين عـن خطتهم التى أعدوها لاحتلال تونس .

وقام القائد الفرنسى بإبلاغ الباى بالتدخل وطلب منه أن يعتبر القـوات الفرنسية قوات صديقة ، وطلب منه أن تتعاون التونسية مع الفرنسية قـوات صديقة ، وطلب منه أن تتعاون القوات التونسية مع الفرنسية في أداء مهمتها .

واجتازت القوات الفرنسية الحدود التونسية قادمة من الجزائـر مـن الشمال متجهة الى قبائل الكرميين ، وعبثا حاول باى تونس الاستنجاد بالدولـة العثمانية وبعض الدول فلم يفلح ، ونزلت القوات الفرنسية بميناء (بنـزرت) في الأول من مايو ١٨٨١م واتضحت أهداف الحملة البعيدة وأنها تقصد مدينـة تونس لإملاء شروطها على الباى . وفي ١١ من مايو وصلت هذه القوات أمـام قصر الباى المعروف بقصر البارود على بعد ٢٠كم من تونس وهنـاك لحـق القنصل (روستان) بالقائد (بريار) ، ولم يكن القنصل قد غادر البلاد بإعتبـار أن تلك الأعمال ليست حربا رسمية وكان الجنرال (بريار) يحمل معه نص معـاهدة الاحتلال ، فقدمها الى الباى لتوقيعها بعد أن أعطى مهلة ٥ ساعات فقط ، فلـم يكن أمامه سوى الرضوخ فقد هدده الفرنسيون بخلعه من العرش وتنصيب أخيه (الطيب) سلطانا على تونس وكان الطيب قد اتفق معهم على توقيع المعـاهدة في حالة رفض أخيه محمد الصادق لها تحت هذا الضغط وقع محمد الصادق معـاهدة الحماية في ١٢ من مايو ١٨٨١[1] .

---

[1] صلاح العقاد ، المغرب العربى ، ص٢٠٣-٢٠٤ .

ولم تحدث مقاومة تذكر سوى من قبائل الكرميـــين وبعــض القبــائل الأخرى وهى غير مؤثرة .

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال تونس بدون مقاومة تقريبا اعتقــدوا أن أمرهم قد استقر ولكن سرعان ما خاب تقديرهم حين أندلعت في البلاد ثــورة عارمة وشجع التونسيين على القيام بهذه الثورة عاملان : الأول: قيام ثــورة في الجزائر في جنوب وهران في صيف عام ١٨٨١م ثانيا: احساس التونسيين بــأن القوات العثمانية المرابطة في طرابلس الغرب سوف تؤيدهــم أو علــى الأقــل ستأويهم إذا فشلوا في حركتهم وبذلك أندلعت الثورة في القسم الجنوبى مــن تونس وكان مركزها مدينة (القيروان) المشهورة في شمال أفريقيا كلها بمكانتــها الإسلامية والتاريخية العظيمة ، فهى أول مدينة إسلامية بناها (عقبة بن نــافع) عندما فتح المسلمون البلاد وهذا يدل على أهمية البــاعث الديــنى في حركــة المقاومة ومن القيروان أمتدت الثورة الى الساحل الجنوبى فأحتل الثــوار مينــاء (سفاقص) وطردوا منه نائب الباى الذى أصبح في نظرهم خائنا بقبول التوقيــع على معاهدة الحماية ونادوا بأحد رؤساء القبائل وهو (على بن خليفــة) أمــيرا عليهم وفي شهر يونيو ١٨٨١م أصبحوا يسيطرون على الساحل الجنوبى كلــه الذى يمتد من سفاقص حتى حدود طرابلس بما في ذلك جزيرة (جربة) وخليــج (قابس) وأحرجت هذه الثورة موقف الفرنسيين .

لكن سرعان ما حشدت فرنسا قواتها وركزت جميع جهودها للأستيلاء على القيروان عاصمة الثوار وزحفت عليها من كل جانب وعندما رأى الثــوار أن الفرنسيين يحيطون بهم تفرقوا في الواحات الجنوبيــة ورحــل بعضــهم الى طرابلس وعندما وصلت قوات الفرنسيين الى المدينة وجدتها خالية من المحــاربين وسلمها الأهالى في ٢٧ اكتوبر ١٨٨١م .

وقعت تونس تحت الحماية الفرنسية حيث تم توقيع معاهدة بين (محمد الصادق) باى تونس وبين الجنرال (بريار) الفرنسى وتشتمل المعاهدة المذكورة على عشرة بنود جعلت فيها تونس تحت حماية فرنسا التى يكون لوكيلها المقيم بالولاية القيام بجميع الأعمال الخارجية وتتعهد فرنسا بحماية تونس ويكون لها أكبر نفوذ فى تونس وهيمنة على اقتصاد تونس وجعلت هذه المعاهدة تونس فى قبضة فرنسا .

وفتحت هذه المعاهدة أبواب البلاد على مصاريعها أمام شركات الاستغلال الفرنسية التى كانت تمتلك المساحات الواسعة من المزارع التونسية كما فتحت أبواب البلاد للمستوطنين الاوربيين من فرنسيين وغيرهم ، وكان يعيش منهم فى تونس غداة إستقلال تونس (عام ١٩٥٦م) نحو ثلاثة آلاف أسره معظمهم إيطاليون يمتلكون ١،٦٢٤،٠٠٠هكتارا بينما كان الفلاحون التونسيون البالغ عددهم نحو ٤٨٠،٠٠٠فلاح لا يمتلكون أكثر من ٣،٠٠٠،٠٠٠ هكتارا وبينما كان متوسط ملكية المزارع الأوروبى ٢٥٠ هكتارا ، لم يتجاوز متوسط ملكية الفلاح التونسى ٦ هكتارات .

وانتهى النفوذ الفرنسى الى خلع ملك تونس الشرعى (الملك محمد المنصف) سنة ١٩٤٣م وتم اعتقاله وأرسل منفيا الى فرنسا .

وبعد جهاد مرير وصراع دامٍ طويل مع الاستعمار الفرنسى والذى كان يقود هذا الجهاد (حزب تونس الفتاة) الذى أنشأه (عبد العزيز الثعالبى) سنة ١٩١١م تم إنشاء (حزب الدستور) سنة ١٩١٩م وكان البيت المالك التونسى وهو من بقايا الحفصيين يقف فى صف المستعمر ولهذا عمل الوطنيون على خلع آخر ملوكهم كما ذكرنا من قبل وهو الملك (محمد المنصف) .

وفي سنة ١٩٣٤م أنشأ المجاهد التونسي الكبير (الحبيب بورقيبة) "حزب الدستور الجديد" وتولى أمانته العامة وهو الذى قاد الحركة الوطنية التونسية قيادة موفقة من ذلك الحين حتى اعترفت فرنسا سنة ١٩٥٥م بالاستقلال الداخلى لتونس على أثر مفاوضات دارت بين وفدى تونس وفرنسا وأعقبتها مفاوضات أخرى بباريس سنة ١٩٥٦م تم الاتفاق فيها على إلغاء معاهدة الحماية التى عقدت سنة ١٨٨١م وأصبحت تونس بمقتضى المعاهدة الجديدة دولة مستقلة ذات سيادة عليها أن تباشر مسئوليتها في ميادين الشئون الخارجية والأمن والدفاع وكذلك تأليف جيش وطنى تونسي وتم بذلك توقيع إتفاق في سنة ١٩٦٥م يؤكد إستقلال تونس وتصرفها في شئونها الداخلية والخارجية وهذا الاتفاق سمى (ببراءة الاستقلال) وتم انتخاب (الحبيب بورقيبه) رئيسا للحكومة التونسية المستقلة .

وفي ٢٥ أكتوبر ١٩٥٧م اجتمع نواب الأمة في المجلس القومي التأسيسي وناقشوا نظام الدولة ثم أعلنوا أن تونس دولة جمهورية واسندوا رئاستها الى أول رئيس لها وهو (الحبيب بورقيبه) .

وتم في هذا الإجتماع إلغاء النظام الملكى إلغاء تاما وفيما يلى نص قرار المجلس القومى التأسيسى .

"نحن نواب الأمة أعضاء المجلس التأسيسى بمقتضى ما لنا من نفوذ كامل مستمد من الشعب وتدعيما لأركان استقلال الدولة وسيادة الشعب .

وسيرا في طريق النظام الديموقراطى الذى هو وجهة المجلس في تسطير الدستور نتخذ باسم الشعب القرار التالى النافذ المفعول حالا :

١. نلغى النظام الملكى إلغاء تاما .

٢. نعلن أن تونس دولة جمهورية .



٣. نكلف رئيس الحكومة السيد (الحبيب بورقيبه) بمهام رئاسة الدولة على حالها الحاضر ، ريثما يدخل الدستور في حيز التطبيق ، ونطلق عليه لقب رئيس الجمهورية التونسية .

٤. نكلف الحكومة بتنفيذ هذا القرار ، واتخاذ التدابير اللازمة لصيانة النظام الجمهوري ، كما نكلف كلا من رئيس المجلس والأمين العام لمكتب المجلس والحكومة بإبلاغ هذا القرار الخاص والعام .

اصدرناه في قصر المجلس بباردو في ٢٦ذى الحجة ١٣٧٦هـ ٢٥أكتوبر ١٩٥٧ "[1] .

---

[1] عمر رضا كحالة ، العالم الاسلامى ، ج٢ ، ص١٠٢ .

الفصل الثالث

الجزائر

سبق لنا أن تحدثنا عن نضال الجزائريين بعد سقوط الأندلس وتضامنهم مع الأتراك في هذا الكفاح وظهور المجاهد (عروج) المجاهد البحرى التركى ثم أخوه (خير الدين) الذى وصلت القوة البحرية الإسلامية في أيامه الى أوجها بحيث أصبحت هى سيدة البحر المتوسط وتضاءلت أمامها جميع أساطيل الأمم الغربية وكان مركز خير الدين هو مدينة الجزائر وكان يعمل بإسم السلطان العثمانى فأصبحت الجزائر داخله تحت الحكم العثمانى وقد تولى بعد خير الدين ولاة من قبل الدولة العثمانية وكانوا يتولون الجهاد في البحر ورد غارات الدول المسيحية عن سواحل المغرب وظلت هذه الولاية مركز قوة بحرية عظيمة مدة ثلاثة قرون لكن أدركها في النهاية الضعف كما أصاب الدولة العثمانية الضعف وكانت الدولة العثمانية تعتمد في حروبها على أسطول الجزائر وتجعله رداء لها في كل حروبها وصارت قوة هذا الأسطول مثار غضب شديد للعالم بسبب أعماله الجهادية في البحر المتوسط والتى أطلق عليها الغرب القرصنة وكانت كثير من الدول الأوربية تدفع لحكومة الجزائر جزية سنوية تشترى بها حرية سير سفنها مثل : السويد ، هولندا ، الدانمارك ونابولى .

وفي سنة ١٨٢٧م حدثت مشادة بين والى الجزائر (حسين داى) (وقنصل) فرنسا أعتدى فيها الداى على القنصل وضربه بالمروحة فكانت هذه الحادثة سببا مباشرا من أسباب فتح فرنسا للجزائر وتحرشت فرنسا بالجزائر في عام ١٨٣٠م ثم احتلال الجزائر العاصمة وزحفوا منها على بقية المدن البحرية

وكان الفرنسيون في البداية يخافون التورط في حروب داخل الجزائر لكنهم في سنة ١٨٣٤م عينوا حاكما للجزائر وبدأو يزحفون على وهران ومستغانم وعنابة وبجاية وفي سنة ١٨٣٦م زحفوا على قسطنطينة .

لكن المقاومة في الجبهة الغربية من الجزائر كانت قوية لأن الأهالى اختاروا لهم أميرا قويا هو (عبد القادر بن محيى الدين الحسنى) المعروف (بعبد القادر الجزائرى) وكان هذا القائد نشأ مع والده محى الدين أولا في الكفاح والجهاد ضد الفرنسيين وظهرت في أثناء هذا الكفاح بسالة عبد القادر وإقدامه ورباطة جأشه وأصالة رأية مما جمع حوله الرجال ولما أراد أهالى تلك البلاد مبايعة والده محى الدين اميرا عليهم أشار عليهم بولده عبد القادر فبويع بالإمارة وتمركز عبد القادر في المعسكر بالجبهة الغربية من الجزائر رتب جنوده وباشر القتال دانت له كل ولاية وهران تقريبا مما جعل القوات الفرنسية مضطره الى أن تعقد معه معاهدة في سنة ١٨٣٤م تعترف فيها فرنسا بسيطرته على ولاية وهران وكان له الحق بموجب هذه المعاهدة أن يعين قناصل له لدى الفرنسيين في الجزائر وأن يستورد الأسلحة مم أى جبهة أراد وعظم شأن عبد القادر بعد ذلك .

ولكن الشئ الخطير أنه كان مضطرا أن يقاتل بعض المنافسين له من أهل الجزائر الذيم لا تثقل عليهم سلطة الغريب كما تثقل عليهم سلطة أخيهم فثار على الأمير قبيلتى (الدوائر) و(الزمالة) وأنضمتا الى فرنسا فطلب تسليم رؤسائهم إليه فأبى الفرنسيون فتقدم عبد القادر لقتال الفرنسيين وانتصر عليهم سنة ١٨٣٥م فجردت فرنسا جيشا كبيرا استولى على عاصمته (المعسكر) وكانت بقية من الأتراك لا تزال في قلعة (تلمسان) فناوشوه من الوراء فانهزم ثانية واضطر أن يعقد صلحا مع الفرنسيين في سنة ١٨٣٧م اعترفت فرنسا له

في المعاهدة بجميع ولاية وهران وقسم كبير من ولاية الجزائر لكنه لم يسلم من مناوشة بعض الجزائريين له مثل (محمد التيجاني) الذى أبي الاعتراف بإماراته فهزمه واستولى على حصنه في قصر (عين ماضى) وهو الحصن المنيع الذى لم يتمكن الأتراك طول مدة حكمهم في الجزائر أن يدخلوه .

وأصبحت لعبد القادر قوة لا تقل عن قوة أى دولة في المنطقة حيث رتب جيشا منظما على غرار جيوش الدول وقسمه الى مشاه وفرسان ومدفعية وأستقدم لتدريبه ضباطا من الاتراك والتونسيين ومن الفرنسيين الفاريين من الجيش الفرنسى ووضع لهذا الجيش نظاما يتعلق بمأكله وملبسه ورواتبه ومدة التعليم وشرط الترقى ونيل الأوسمة وغير ذلك من النظم وأصبحت لديه مخازن للحبوب والأقوات ومعامل السلاح .

لكن وقعت بينه وبين الفرنسيين الحروب الطاحنة مرة في سنة ١٨٣٩م وهى الحرب التى استمرت حتى سنة ١٨٤٣م دون انقطاع لكن عدم تكافؤ القوتين آل في النهاية الى سقوط أكثر حصونه واستيلاء العدو على أكثر مدنه مثل : (تاغدمت) ، و (المعسكر) و (تازه) و (وادى الشليف) مما اضطره الى الزحف غربا تجاه المغرب ولما خزله أكثر أنصاره فر الى المغرب مما حمل سلطان المغرب على أن يحارب معه الجيش الفرنسى سنة ١٨٤٤م لكن الجيش المغربى لم يكن يملك من أسلحة القتال ما يملكه الفرنسيون فانتصر الجيش الفرنسى على الجيش المغربى وحاصرت السفن الفرنسية ميناء (طنجة) وضربته المدافع وغيره من الموانى المغربية فأصبحت سلطنة المغرب محاصرة من البر والبحر وأجبرت السلطان (مولاى عبد الرحمن) على عقد الصلح في ١٠ من ديسمبر سنة ١٨٤٤م بالشروط التى تريدها وكان أول هذه الشروط منع عبد القادر من تجاوز حدود الجزائر وكانت هذه المعاهدة بداية النهاية لعبد القادر ونضاله

وجهاده ذلك لأن جهاده بعد هذه المعاهدة بداية النهاية لعبد القــادر ونضالــه
وجهاده ذلك لأن جهاده بعد هذه المعاهدة سوف يتعارض مع مصالح ســلطان المغرب فظل عبد القادر نحو سنتين متربصا منتظرا فرصة من العدو ليســتغلها للهجوم على الفرنسيين في الجزائر فقامت ثورة في الجزائر سنة ١٨٤٦م فأعطته الفرصة في الزحف على بلاد الجزائر ثانية وخاصة على بلاد البربر المسماه عنـد الفرنسسن (كابيلى) ومعناها بلاد القبائل لأن قوته كانت قد تناقصت في وقـت ثبتت فيه أقدام الفرنسيين ورسخت في الجزائر فلم يستمر في غارته وأســرع في العودة الى الحدود المغربية فطالبت فرنسا السلطان المغربى (مولاى عبد الرحمن) بتسليمه ومازالت تلح عليه في ذلك فجرد قوة للهجوم على عبد القادر فأصبح بين نارين القوات المغربية من جهة والقوات الفرنسية من ناحية أخرى ولما اشتد به الموقف فضل أن يسلم نفسه الى الفرنسيين في ٢٣مارس ســنة ١٨٤٧م وتم الاتفاق بينه وبين الفرنسيين على أن يخرج عائلته ذاهبا الى الاسكندرية أو بـلاد الشام لكنه ظل اسيرا في فرنسا حتى سنة ١٨٥٢م فأرسله الفرنسيون بعدها الى تركيا فأقام بمدينة (بروسه) وفي سنة ١٨٥٥م أستأذن في الذهــاب الى الشــام وكان ذلك بمعرفة الحكومة الفرنسية فأذنت له الدولة العثمانية بذلك فأستقر في دمشق الى أن توفى بها سنة ١٨٨٣م[1] .

وبعد القضاء على ثورة الأمير (عبد القادر الجزائرى) تمكن الأســتعمار الإستيطاني الفرنسى بالجزائر وتدفق عليها الأوربيون من كل مكان كالأســبان والايطاليين والمالطيين وقدرت مساحة الأرض الزراعية الــتى كــان يمتلكــها الأوربيون هناك بعد الحرب العالمية الثانية بربع الأراضى المنــزرعة وكان هؤلاء المستوطنون قد استولوا على تلك الأراضى بالقوة وطردوا منــها الفلاحيــين

---

[1] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى ، ج٢ ، ص١٦٦-١٧٢ .

الجزائريين [١] وتكون في الجزائر حزب (البيان) في أواخر العشـرينات يقـوده (فرحات عباس) الذى طالب بالمساواة في الجزائر بين الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين الذين كانوا يعتبرون البلاد جزءا من فرنسا وتألف أيضـا (حـزب الشعب الجزائرى) وطال نضال هذا الحزب حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

جبهة التحرير الجزائرية :

وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م في مصر أعلنت مساعدتها لكفـاح الجزائريين المسلح ضد الفرنسيين لإجلائهم عن أرض الوطن الجزائرى ولذلـك بدأت حركة التحرير الجزائرى للثورة المجيدة وتكونت جبهة التحرير الجزائريـة سنة ١٩٥٤م وبدأت الكفاح المسـلح ١٩٥٦م وعقـدوا مؤتمـرا في (وادى الصومام) أنشأوا فيه قيادة عليا موحدة للثورة الجزائرية وبفضل جبهة التحريـر الجزائرية [٢] استمرت حرب التحرير أكثر من سبع سنوات من سـنة ١٩٥٤م الى سنة ١٩٦٢م عندما أرغم الشعب الجزائرى فرنسا على الأعتراف بإستقلاله والإنسحاب من أراضيه وقامت بعد ذلك الجمهورية الجزائرية المسـتقلة الـتى ضربت للعالم كله أروع مثال للجهاد الوطنى فقد سقط في تلك الحرب أكثر من مليون شهيد جزائرى .

وبعد الاستقلال خاض الشعب الجزائرى معركة التعريب علـى يـد الرئيس هوارى بومدين الذى تعلم في الأزهر ، فاستقدم جيوشا من المدرسين من خريجى الأزهر وأنشأ معاهد لهم في جميع أنحاء الجزائر .

ففى عام ١٩٦٩م أصدر (بومدين) قراره بأن يتم التعريب في المـدارس والوظائف معاً دون إبطاء حيث كانت دواوين الحكومـة كلـها بالفرنسـية

---

[١] د . محمد سيد غلاب وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٣٤ .

[٢] د . حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الاسلام ، ص٤٣٢-٤٣٣ .

والموظفون لا يستعملون العربية في أعمالهم ، وكانت البـــلاد في طريقـــها الى الفرنسية ، فطلب من وزارة الأوقاف والشئون الدينية فتح معاهد دينية علـــى غرار معاهد الأزهر ، واستقدم مدرسين من الأزهر للعمل في هذه المعاهد الـــتى ستقوم في المستقبل بعملية التعريب فانتشرت هذه المعاهد في جميع أنحاء الجزائر .

فكان المدرسون من الأزهر يدرسون في الفترة الصباحيـــة في المعـــاهد والمدارس ، وفي المساء يتولون التدريس للموظفين ، وجَعل الترقى في الوظـــائف بحصول الموظف على شهادة بإتمام تعلم اللغة العربية .

وفي ميدان التعليم العالى تم إنشاء جامعة إسلامية على غـــرار جامعـــة الأزهر في مدينة الجزائر وهى جامعة الأمير (عبد القـــادر الجزائـــرى) المجـــاهد المعروف واستقدم لها أساتذة من الأزهر برئاسة المغفور له الشيخ (محمد الغـزالى) للحفاظ على علوم اللغة العربية والفكر الاسلامى بالجزائر وبدأت تخرج أجيالهـا من الأساتذة يقومون بمهمة التعريب في الجزائر .

وتم إنشاء (جمعية للتعريب) في كل جامعة جزائرية حتى أصبح التعريـــب (١٠٠٪) بجامعة الجزائر و (٩٠٪) بجامعـــة وهـــران و (٧٠٪) بجامعـــة قسنطينة .

وأسفرت معركة التعريب الآن (١٩٩٩م) عن أن جميع أساتذة التعليـــم بالمرحلة الابتدائية والثانوية معربون ، ويدرسون باللغة العربية ، وحتى الأســـاتذة المفرنسون قد تعربوا [١] وهذا النجاح يعد صفعة قوية للمناهضين مـــن أعـــداء العربية الذين يدعون عجز اللغة العربية عن القيام بمهام التعليم الحديث .

---

[١] د . اسماعيل رونيه ، ود . مراد دربال من الجزائر من حديث لهما الى جريدة الشعب القاهرية عدد ٢٨ مارس ١٩٩٧ بمناسبة حضورهما المؤتمر الثالث لجمعية تعريب العلوم المصرية بجامعة عين شمس بالقاهرة .

وهكذا تم إنقاذ الجزائر من الفرنسة بهذه الخطة الثورية التى قادها الرئيس الجزائرى (هوارى بومدين) الذى تربى في الأزهر ، وعاد الى الشارع الجزائرى لسانه العربى من جديد وأخيرا وافق المجلس الوطنى بالجزائر على قانون تعميم اللغة العربية الذى يقضى بتعريب الادارة الكامل بحلول ٥ من يوليو ١٩٩٨م ، وتعريب التخصصات الجامعية العالية قبل ٥ من يوليو عام ٢٠٠٠ وهذا تطبيقا لدستور ١٩٩٦م الذى نص في مادته الثالثة على أن اللغة العربية هى اللغة الرسمية ويحذر إجراء أى تعديل في المستقبل يمس وضع اللغة العربية كلغة رسمية للبلاء إضافة الى أن الاسلام باعتباره الدين الرسمى للدولة أيضا.[١]

لكن بعد وفاة بومدين دخلت الجزائر دوامة سيطرة العسكريين على البلاد ، وهيمنوا على الشاذلى بن جديد الذى تولى بعده ثم خلعوه لاتجاهه الاسلامى . وحدثت إنتخابات في الجزائر فازت فيها جبهة الإنقاذ الجزائرية بالأغلبية بزعامة (عباس مدنى) فألغى الجيش نتيجة الانتخابات وزج بزعماء جبهة الانقاذ في السجون وكذلك أنصارهم من أصحاب الاتجاه الاسلامى .

فبدأت الحرب الأهلية تشتعل في الجزائر وراح ضحيتها حوالى مائة ألف شهيد على يد كل من المعارضة والجيش وظل الأمر هكذا حتى تم إعلان انتخابات لرئاسة الجمهورية وتنازل الرئيس (زروال ١٩٩٩م) قبل انتهاء مدته وانسحب من الانتخابات كل المرشحين احتجاجا على انحياز الحكومة لبوتفليقة الذى كان وزيراً للخارجية أيام رئاسة (بومدين) .

---

(١) جريدة الشعب القاهرية ، عدد ١٩٩٦/١٢/٢٧ .

وبذلك فاز بوتفليقة بالأغلبية المطلوبة ، وأعلن بعد وصوله الى الحكـــم سياسة الوفاق المدنى والمصالحة بين الحكومة والحركات الاسلامية لوقف حمـــام الدم الذى لم يتوقف حتى الآن أواخر عام ١٩٩٩م .

الفصل الرابع

المـــغـــرب

دولة المغرب أو المملكة المغربية الحديثة هي ما كان يطلق عليه المغـــرب الأقصى في الماضى كما كان يسميها العرب ، وهى لا يفصلها عن أوربا ســـوى مضيق جبل طارق ، وقد لعب سكان المغرب دورا كبيرا في تاريخ الاســـــلام ، وقام على أكتافهم عبء فتح الأندلس ، ومنذ إنشاء دولة العلويين في المغـــرب الأقصى على يد (أدريس بن عبد الله بن الحسن) أخو محمد النفس الذكيـــــة في سنة ١٧٢هـــ وهى تقوم بدور كبير في مجال نشر الاسلام بين الـــبربر في ظـــل الأسرة العلوية التى وقفت دائما الى جانب الشعب المغربى .

وأهم شئ نحب أن نشير إليه أن دولة الأدارسة أســـــهمت في خدمـــة الإسلام في هذه الناحية النائية ، فينسب إليهم أنهم ثبتوا البربر على الإســـلام ، وبذلك مهدوا لظهور البربر كقوة فيما بعد أيام المرابطين والموحدين ودخل بقيـة البربر على عهدهم حظيرة الإسلام ، كما كان حكم الأدارسة مقدمة للـــــدور الكبير الذى لعبه البربر في مجال نشر الاسلام في غرب أفريقيا وينسب إليـــــهم الفضل في القيام بحركة نشر الاسلام في حوض السنغال التى استمرت بعد ذلـك في عهد المرابطين والموحدين حتى شملت أفريقيا الغربية كلها [١] .

---

[١] د . مصطفى محمد رمضان ، محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ألقيت على طلبة الدراسات العليا التاريخية بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، ص٩١،٢٣٦ .



وكان لجامع القرويين الذى تأسس في عهدهم في فارس بعدوة القرويين سنة ٢٤٥هـ دور كبير في الحركة العلمية بالمغرب وأخذت (فـاس) بفضله طابع المركز العلمى بالمغرب حتى يومنا هذا والذى تميز بأختيار المذهب المالكى وأختيار العقيدة الأشعرية وأختيار رواية ورش ورواية ابن سعاده . وأصبحت فاس الآن (١٩٩٩م) هى عاصمة المغرب الثقافية .

وقد ظل هذا الجزء من المغرب مأوى للأشراف وتكونت دولتهم الحديثة سنة ١٩٥٦م عد كفاح طويل ضد الأستعمار وترجع أسرتهم الى القرن الحادى عشر وهم من الأشراف الحسنيين وحكموا بأسم الأشراف (الفولالية) نسبة الى واحة (فيلالت) التى نشأوا بها [١] .

وشهدت بلاد المغرب منذ الفتح الاسلامى إقامة حواضر إسلامية عظيمة مثل (فاس) و (مراكش) و (الرباط) ويذكر الكتاب والمؤرخون أن ذوى الأصل العربى يبلغون في المغرب حوالى ٦٧٪ من سكان المغرب والباقون ترجع أصولهم الى البربر وهم سكان الجبال والبدو وزراع الواحات ولكن العربية هى اللسان السائد في الأسواق والمساجد والإدارة [٢] .

وكان استقلال بلاد المغرب عن الأستعمار الأوربى من المسائل المعقدة نظرا لأن المغرب نزل به الاستعمار الفرنسى منذ سنة ١٩١٢م وكان به الاستعمار الأسبانى في (منطقة الريف) وهى المنطقة الشمالية الغربية من المغرب حول (سبته) و (مليله) و (طنجه) و (تطوان) وغيرها ، فكان الأمر يقتضى كفاحا ضد الأسبان والفرنسيين معا وكانت أسبانيا وفرنسا تصران على البقاء في هذا البلد الاسلامى وتتضامنان في هذا المجال .

---

[١] المرجع السابق ، ص٢٣٦-٢٣٧ .

[٢] د . محمد السيد غلاب وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٤٢ .

أما المناطق الشرقية من المغرب والتى تجاور الجزائر فكانت تقع في قبضة فرنسا ، وكانت بريطانيا تعارض احتلال فرنسا للمغرب لكن تم بينهما اتفاق ودى منذ سنة ١٩٠٤م .

والاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤م ينص على أن تطلق بريطانيا يد فرنسا في المغرب وفي المقابل تطلق فرنسا يد بريطانيا في مصر بشوط حياد طنجة وحرية التجارة في مراكش (المغرب) وتخصيص منطقة من المغرب لأسبانيا ومنذ هذا الاتفاق وفرنسا تعد نفسها للوثوب على المغرب غير أنها فضلت أن تتغلغل بنفوذها في المغرب سلميا شيئا فشيئا حتى أصبحت تسيطر على الجيش المغربى الرسمى فقد أصبح (مانجان) رئيس البعثة العسكرية الفرنسية قائدا للجيش المغربى الرسمى .

وفي سنة ١٩١٠م وأوائل سنة ١٩١١م تم تسريح عدد كبير من جنود السلطان بحجة عدم صلاحيتهم لنظام الجندية الحديث ، ولكن بقصد توفير النفقات أيضا لدفع مرتبات البعثة الفرنسية فأنطلق هؤلاء الجنود بين القبائل يذيعون بأن السلطان قد باع بلاده للفرنسيين وسنحت الفرصة لفرنسا لتسديد ضربتها النهائية لأحتلال البلاد فبدأت الأمدادات الفرنسية تصل الى مدينة "الدار البيضاء" المغربية منذ فبراير سنة ١٩١١م لأكمال السيطرة على مراكش فأحتلوا (فاس) و(الرباط) وغيرها من المدن وتم اعلان الحماية الفرنسية على المغرب في ٣٠ مارس ١٩١٢م أما أسبانيا فكانت مسيطرة من قبل على الأقليم الخاص بها وهو منطقة الريف المغربية [١] .

---

[١] صلاح العقاد ، المغرب العربي ، ص٢٦٦ .

المقاومة المغربية :

ومنذ اللحظة الأولى من إعلان الحماية على المغرب بدأ الشعب المغربي نضاله على الرغم من قوة فرنسا العسكرية التى تمركزت في البلاد ، وقد هيأت طبيعة البلاد من جهة وأوضاع السكان من جهة أخرى فرص النجاح أمام عناصر المقاومة ففى المغرب تنتشر الجبال وعرة المسالك والتى أعتاد أهلها من البربر الاحتفاظ بإستقلالهم الداخلى أمام جميع الحكومات المركزية ومن ثم لم يتم إخضاع المغرب إلا بعد أكثر من ٢٠ عاماً وتلعب شخصية الأمير (عبد الكريم الخطابى) الدور الرئيسى في المقاومة .

ولم يستطع السلطان (مولاى عبد الحفيظ) سلطان المغرب أن يكون سلطان الحماية فتنازل عن السلطنة للسلطان (يوسف) وتم نقل العاصمة من فاس الى " الرباط " على الساحل المغربى لبلاد المغرب لتكون بعيدا عن العنصر الوطنية وظل التعاون قائما بين خليفته السلطان يوسف وبين سلطان الاحتلال الفرنسى .

ونتيجة لهذه السياسة هو الانقسام في موقف المغرب من الاحتلال بين السلطات الرسمية الموالية التى ترتكز على الأقليم الساحلى وبين غالبية السكان في الداخل وهم يتألفون عادة من قبائل عربية وبربرية .

وفي بداية الحماية تركزت المقاومة في منطقتين في جبال الأطلس الوسيط وفي الجنوب حيث حمل (هبة الله ابن ماء العينين) دعوة أبيه في الجهاد وألتف حوله أهل السوس بما في ذلك كثير من القواد الذين كانوا في السابق يمثلون حكومة فاس وفي أغسطس ١٩١٢م تمكن هبة الله من دخول مدينة مراكش عاصمة الجنوب حيث اعترف له الأعيان برئاستهم لكن قوات الاحتلال

الفرنسية أرسلت حمله إليه فاضطر الى الأنسحاب من مراكش توجه الى موريتانيا حيث قواعده الأصليه .

ولكن الملاحظة العامة على المقاومة في مناطق المغرب الفرنسية أن المقاومة كانت قبلية ولا يوجد تنسيق بين حركات المقاومة المختلفة وهذا العامل من أهم عوامل ضعف المقاومة هذا باختلاف منطقة الريف التى تزعم المقاومة فيها الأمير (محمد بن عبد الكريم الخطابى) من سنة ١٩٢١م والى سنة ١٩٢٦م فهى رغم تركزها في منطقة الريف المراكشى ، إلا أنها بلغت بأهدافها ومثلها مستوى حركة قومية عامة ، ولا نبالغ إذا قلنا أنها تجاوزت ذلك الى مستوى فكرة الدفاع عن شمال أفريقيا خاصة ، والعالم الاسلامى عامة ، ضد التوسع الأوروبى .

الثورة العربية في منطقة الريف المغربى :

منطقة الريف المغربية هى حوالى سُبْع السلطنة المغربية ، فإذا كان تعداد المغرب في مطلع هذا القرن حوالى ٧ ملايين ، فكانت منطقة الريف حوالى المليون ، ومنطقة الريف قليلة الثروة حتى قيل أنه "لا ريف في الريف" ، وإذا كان الريف هو الخصب والمياه والخضرة ، فإن ريف المغرب عبارة عن سفوح جبال لا تجرى فيها الأنهار ، مثلما الحال في سفوح جبال الأطلس ، التى تجرى بها المجارى المائية وأعظم مدنها هى (سبته) و (مليلة) ومنها (تطوان) (العرائش) وهى مدن ليست على مستوى مدن المغرب الأخرى مثل (فاس) ، (الرباط) ، (الدار البيضاء) ، (مراكش) والريفيون شعب من الزراع والرعاه ، وهم يعيشون في قرى تبنى منازلها بأغصان الأشجار والطين ، وبلاد الريف وعرة المسالك كثيرة الأودية والمرتفعات الشاهقة ، وهى قطعة من الأرض يلغ طولها نحو ٣٠٠ميل وعرضها نحو ٧٠ ميلا ، الى الشرق من طنجة ، ولم يكن في

داخلها في هذه الأثناء طرق معبده وكان بها قبائل مختلفة النـزعات ، عندمـا ظهر (محمد بن عبد الكريم الخطابي) متزعما للجهاد فيها ضد الأسبان و تمكـن من توحيد نزعاتها وجمع شتاتها وضم أطرافها فأصبحت كتلة واحدة تأتمر بـأمره ، وتحارب الأسبان الى جانبه ، فأستطاع الخطابي أن يزيل مـن بـين القبـائل الضغائن والخصومات .

و (محمد بن عد الكريم الخطابي) أمير الريف هو من (بـني وريـاغل) وورياغل هذه اسم قبيلة من القبائل الريفية العاتيـة ، وأصـل هـؤلاء مـن الأندلسيين الذين هاجروا بعد سقوط الأندلس ، ومحمد بن عبد الكريم تلقـى دراسته الأولى (بجامعة القرويين) بفاس ، وهى الجامعة الاسـلامية العريقـة في المغرب ثم اتصل بالمدن التى تسيطر عليها أسبانيا في شمال المغرب ، وأطلع علـى بعض النواحى الثقافية الأوربية ، وعهدت إليه الادارة الأسبانية بترجمة إحـدى الصحف الأسبانية الى العربية ، و كان أبوه (عبد الكريم) زعيما لقبيلة وريـاغل وتوفى أبوه في سنة ١٩٢٠م ، واصطدم محمد بالأدارة الأسبانية في (مليلـه) ، حتى إنتهى به الأمر الى السجن ، ولكنه استطاع الفرار من السجن ، وخـرج مصمما على الانتقام وتولى زعامة قبيلة (ورياغل) ، بعد وفاة أبيه ، ولم يمـض زمن طويل على زعامته للقبيلة حتى اكتسب نفوذا واسعا بين أهـل البـلاد ، وذلك لتوفيقه في المعارك الأولى التى أشتبك فيها مع الأسبان ، وترجع أولى تلك المعارك الى شهر مايو ١٩٢١م حين انتصر الأمير على القوات الأسبانية عنـد منطقة (إيران) إحدى المراكز الأستراتيجية الجديدة التى أهتم الأسبان بأنشـائها داخل بلاد الريف ، وشجع هذا الانتصار الخطابي على مهاجمة المراكز الأسـبانية الأخرى ، خاض عدة معارك وعلى رأسها (معركة الأنوال) ، التى تعـد مـن الوقائع الحاسمة في تاريخ شمال أفريقيا ، حيث أباد الأمير الخطابي الحملة الأسبانية

بأسرها ، بما فيها القائد (سليفتر) ، ومنذ ذلك الوقت ذاعت شـــهرة الأمـــير وسلمت له قبائل الريف الأخرى بالزعامة ، وهبت معه قبائل الريف لمحـــاصرة المراكز الأسبانية المبعثرة في أنحاء المنطقة ، وفي مدى ٥ أيام كانت الريف قـــد طهرت تقريبا منها ، ووصلت طلائعهم الى ضواحي (مليلة) ، وأسر المجـــاهدون عددا كبيرا من الأسبان ، مما اضطر حكومة (مدريد) الى دفع مبـــالغ ضخمـــة كفدية لهم ، أصبح وجود الأسبان قاصرا على مدينة تطوان والمـــوانى وبعـــض الحصون في منطقة الجباله .

ويعزو الأسبان وقوع هذه الكارثة الى أمرين :

أولا : طبيعة البلاد الصعبة .

ثانيا : الفساد الذى كان منتشرا في صفوف الجيش الأسبانى وإدارته .

ومع صحة هذا التعليل الى حد كبير فإن الكتاب الأسبان يتجـــاهلون عاملا ثالثا ، ربما كان أهم شيئ في توجيه تلك الحوادث وهو أن زعيم المقاومـــة الجديد محمد بن على الكريم الخطابي ، كان يختلف عن سابقيه من المجاهدين ، في أنه اتجه الى تأسيس إدارته المنظمة ، والأستفادة من أحدث وسائل الحـــرب ، في مقاتلة العدو وحاول أن يعطى لدولته صفة وطنية عامة حتى أشـــتهرت عنـــد الكتاب المغاربة بإسم جمهورية الريف [1] .

وكان من نتيجة هذه المعركة أن عدل الأسبان عن خطـــة الاحتـــلال الشامل للريف المغربى .

---

[1] صلاح العقاد ، المغرب العربي ، ص٢٨٣-٢٨٤ .

جمهورية الريف المغربي :

وقد وجد الأمير الخطابي بعد إجلاء الأسبان عن الريف ، منطقة متصلة حاول أن يؤسس فيها دولة منظمة حتى وصفها علال الفاسي بأنها (جمهورية رئاسية) ، ولما قويت شوكة الأمير وانتشر نبأ قيامه في البلاد ، فقابله الشعب بما يستحقه من العناية والاهتمام ، رأى أن أحسن وسيلة لنجاح القضية ، هو ايجاد أساس متين لبنائها ، وذلك بجعلها حركة قومية عامة ، يشترك فيها الشعب في ادارة دفة الحركة والحكم ، فدعا القبائل والاهلين الى عقد اجتماع عام في معسكره ، فلبى السواد الاعظم دعوته عن طيب خاطر ، وتقاطروا على معسكره زرافات ووحدانا ، وهناك وقف الأمير خطيبا بينهم .

فاستهل خطابه بنبذه تاريخية عن علاقات اسبانيا بالعرب في الاندلس والمغرب . وأبان لهم الاعمال الهمجية التى يقوم بها المستعمرون في البلاد الشرقية وغايتهم من بسط نفوذهم على البلاد ، ثم تدرج الى ذكر الاسباب التى حملته على القيام في وجه الظالمين ، وبسط بايضاح المثل الأعلى الذى يصبو اليه ، وطلب اليهم الاتحاد والتضامن وشد أزره في قيامه للوصول الى الفوز والفلاح . ثم اقترح أن يتذاكروا في الامر ويبينوا له آراءهم وأفكارهم بكل جلاء ووضوح ، فاتفق الجميع على الجهاد والدفاع الى آخر نقطة من دمائهم ، ورأوا أن أضمن طريق للفلاح هو تشكيل مجلس عام يكون المرجع الأعلى ، بحيث يضع برنامجاً للسير عليه ، يؤلف حكومة وطنية تدير شؤون البلاد ، وتضع الانظمة والقوانين .

الجمعية الوطنية :

تشكلت الجمعية الوطنية أو المجلس العام على الطريقة المتبعة في المغرب الاقصى من جماعات القبائل والاهلين . وهم الأعيان والمشايخ والولاة ، فكانت

هذه الجمعية هى الممثلة لارادة الامة ، وهى التى تولت تنظيم الجهاد الوطنى وادارة شؤون البلاد .

عقدت الجمعية الوطنية الريفية اجتماعها الاول في بدء سنة ١٣٤٠ فكان قرارها الاول إعلان استقلال البلاد وتشكيل حكومة دستورية جمهورية ، يرأسها الامير محمد بن عبد الكريم زعيم الثورة فتم ذلك في يوم ١٥ المحرم ١٣٤٠ (١٩ سبتمبر ١٩٣١م) .

ثم وضعت دستورا للبلاد مبدؤه سلطة الشعب ، وجعل السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في يد الجمعية الوطنية أى أنه لم يفصل بين السلطتين طبقا للقواعد الدستورية الاوربية ، وجعل رئيس الجمهورية رئيسا للجمعية الوطنية ، ويحتم على كل شيخ وزعيم وقائد [١] من أعضاء المجلس تنفيذ المقررات التى تقرها الجمعية ، وهؤلاء مسؤولون عنها تجاه الرئيس بصفته رئيس الحكومة ، والرئيس مسؤول عنها ازاء الجمعية ، وقد اختارت الجمعية هذه القاعدة في دستورها وفاقا لتقاليد البلاد وعاداتها .

أما الوزارة فقد نص الدستور على تشكيل أربعة مناصب منها فحسب وهى مستشار رئيس الجمهورية - وهو يقوم مقام رئيس الوزارة - ووزير الخارجية ، ووزير المالية ، ووزير التجارة وبقية الاعمال كالداخلية والحربية فقد جعلها الدستور من خصائص رئيس الجمهورية .[٢]

---

[١] الحاكم أو الوالى في بلاد مراكش يسمى (قائدا) .

[٢] أنظر : رشدى الصالح ملحس ، سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها ، ص٣٠-٣٢ .

الميثاق القومي :

ثم شرعت الجمعية الوطنية في وضع ميثاق قومي يكون المثل الاعلى للشعب في جهاده ونضاله فأقرت بعد جلسات متتالية الميثاق القومي الآتي :

١. عدم الاعتراف بكل معاهدة لها مساس بحقوق البلاد المغربية وبخاصة معاهدة ١٩١٢.

٢. جلاء الاسبان عن المنطقة الريفية التي لم تكن في حوزتهم قبل ابرام المعاهدة الاسبانية الفرنسوية سنة ١٩١٢ ، فلا يبقى لأسبانيا سوى (سبته) و(مليلة) وما يجاورهما من الاراضي .

٣. الاعتراف بالاستقلال التام للدولة الريفية الجمهورية .

٤. تشكيل حكومة جمهورية دستورية .

٥. أن تدفع أسبانيا تعويضا للريفيين عن الخسارة التي لحقت بهم من جراء الاحتلال في السنوات الاثني عشرة الماضية ، وفدية للأسرى الذين وقعوا في يدهم .

٦. انشاء علائق ودية بين كافة الدول بدون ما تمييز وعقد محالفات تجارية معها.

العلَم الريفي :

واختارت الجمعية علماً لدولتها الجمهورية الريفية أرضه حمراء وفي وسطه نجمة خضراء سداسية ضمن هلال في رقعة بيضاء ، وهذه الالوان الثلاثة رمز تاريخي لأعلام عربية قديمة ، فاللون الاحمر كان شعاراً للحجاز ، قبل الاسلام ، ومازال راية الاسرة الشريفية فيها ، التي منها سلاطين المغرب اليوم ، وفي كتاب تاريخ الدول العربية أن الحميريين اتخذوا هذا الشعار وان أمرء (القيس بن حجر) لما بلغ القسطنطينية كان يحمل اللواء الاحمر .

واللون الأخضر هو شعار أهل البيت النبوى الكريم والفاطميين ، أما اللون الأبيض فهو شعار الامويين في الشام والاندلس .

عاصمة الجمهورية الريفية :

نص الدستور الريفى على جعل (أجدر) ويطلق عليها البعض (أغدير) عاصمة للجمهورية الريفية ومعسكراً لجيشها ، وهذه البلدة رغماً عن كونها عاصمة لا يزيد طولها عن ميلين ، وعرضها عن ميل بادئ ذى بدء ، قد اتسعت حتى صارت بلدة كبيرة ، وهى تقع في بقعة جبلية تشرف على وادى (الحصماص) ، وقد تستطيع المدافع الاسبانية في (الحسيمة) أن تنالها بقذائفها .

في هذه البلدة يقيم الريف في منزل لا يمتاز عن منازل البلد بشئ اللهم الا بكثرة الداخلين اليه ، والخارجين منه من الرسل وأصحاب المصالح ، ومن هذا المنزل تصدر الأوامر بحشد الجيوش وتنظيم الاعمال .

أما غرفة استقبال الأمير التى خرجت منها شعلة أضاءت أرض الوطن وألهبت قلوب بنيه والتى هى محط انظار الامة وهيكل تاريخها ، وهى غرفة عمله أيضاً - فانها لا تزيد مساحتها عن عشرين قدما مربعاً ولا يزيد ارتفاع جدرانها عن ستة أقدام ، وقد نشرت على جدرانها خريطتان اسبانيتان لبلاد الريف . أما أرض الغرفة فمفروشة ببساط وفيها كراسى ومنضدة من الخشب عليها رسائل وتحارير وجرائد ومجلات عربية وافرنجية ، ويجلس مولاى ابن عبد الكريم خلف هذه المنضدة ولا يشاركه في أعماله سوى أخيه الأمير محمد الصغير بن عبد الكريم [1] .

---

(١) ان العادة في بلاد الريف أن الولد الأول والثانى يسمى كل منهما محمداً ويميز الأول بالكبير والثانى بالصغير ، فيقال محمد الكبير ومحمد الصغير ، فبطل الريف هو الاول ولذا يسمى محمد الكبير ، وشقيقه هذا هو الثانى فيسمى بالصغير والامير محمد الصغير هو شاب لم يتجاوز الثلاثين عليه سيماء=

لكن هذا الوضع أثار مسألة سياسية هامة كانت وما تزال تؤثر في حيلة المغرب وهو موقف الخطابي من البيت المالك فبعض الكتاب [1] ينسب للخطابي الإعتراف بمبدأ السيادة السلطانية ويستدل على ذلك بأنه لم يعلن نفسه سلطانا ولكن السلاطيين من الأسرة العلوية لا يثقون بذلك ويعتقدون أنه ضد العرش فاستمر سوء التفاهم بينهم وبين الخطابي .

أما عبد الكريم نفسه فينفي أن يكون قد تطلع الى عرش المغرب بدليل أنه منع أنصاره من الخطبة بأسمه في صلاة الجمعة وأنه كان مستعدا لقبول الأسرة الملكية الحاكمة على أن يبايع الوطنيون بعد تحرير البلاد السلطان الذى يحقق أهدافهم [2] وأعلن الخطابي بأنه لا يعترف بالحماية الفرنسية وطالب الأسبان بالجلاء عن مناطق المغرب ما عدا (سبته) و (مليلة) وأعلن لجميع الدول أنه ينوى الإستفادة من الفنيين الأوربيين في بناء دولته واستغلال ثروتها وشجع الخطابي فعلا بعض شركات التعدين على العمل في الريف وأيدته بعض الأوساط الرأسمالية في أوربا وسبب ذلك أرتباط مصالحها بمشروعات الريف .

وقد ألف مجلسا من رؤساء القبائل وجعل الوزراء مسئولين أمامهم واتبع وسائل الشورى وكان هذا هو السبب في وصف دولته بأنها نظام جمهورى.

=النبل والمهابة وأمارات الذكاء والحزم وهو عالم فاضل تلقى علومه في اسبانيا ودخل المدرسة الحربية الملكية في مدريد فبرع في الهندسة العسكرية ووضع الخطط الحربية وحذق في فن الطبوغرافيا (أى المساحة) وعلم المعادن وزار كثيراً من بلدان أوربا . وقد تولى أخيرا قيادة الجيش في المنطقة الغربية (أى جباله) . أنظر : رشدى الصالح ملحس ، سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها ، ص٣٢ – ٣٤ .

[1] علال الفاسى ، في كتابيه الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، و المغرب العربي .

[2] صلاح العقاد ، المغرب العربي ، ص٢٨٤ .

ولقد أثرت هذه الحوادث على أوضاع أسبانيا الداخلية ذاتها فهى التى مهدت لوقوع الأنقلاب العسكرى في أسبانيا سنة ١٩٢٣م وأعلن القائمون بالأنقلاب بعد إستيلائهم على السلطة بأن هدفهم هو القضاء على الفساد الداخلى ومحو العار الذى أصاب أسبانيا في المغرب .

ولم يقف الخطابى عند هذا الحد وإنما قام في صيف سنة ١٩٢٤م بهجوم عام على الأسبان وكانت (تطوان) أول أهداف هذا الهجوم وقد نجحت قواته في الوصول الى ضواحى المدينة وسقطت قنابل مدفعيتها في شوارعها ولكنها عجزت عن أجتياح أسوارها وكان من نتيجة هذه المعركة أن قرر الأسبان إخلاء ما تبقى من إقليم الجبالة الذى كان واقعا تحت سيطرقم وكانت مهمة الأنسحاب صعبة لأنهم فقدوا فيها عددا كبيرا من الجنود وهكذا ثبت عجز الأسبان الكامل عن النيل من دولة الريف الناشئة .

موقف فرنسا :

ولكن فرنسا نظرت الى قيام دولة مغربية مستقلة بعين ملؤها الريبة والخوف ولم تكن مطمئنة منذ البداية الى حركة الأمير الخطاى وظلت تتوقع أن يتمكن الأسبان من القضاء عليه يوما ما لكن الأمير الخطابى حرص على تجنب الاصطدام بالفرنسيين وإن كان يعلن أنه غير راض عن الحماية الفرنسية على مراكش ولما يئس الفرنسيون من محاولات الأسبان القضاء على الخطابى رأوا من الضرورى أن يتدخلوا ضد دولة الريف وبدأ الفرنسيون يقيمون مراكز عسكرية في وادى ورغة في إبريل ١٩٢٤م وهو يقع في منطقة النفوذ الفرنسى واستنجد كثير من سكان هذا الوادى بحكومة الريف المستقلة وكانت بلاد الريف تعتمد الى حد كبير في تموينها على ما ينتجه وادى ورغة الخصيب من القمح .

لكن الخطابي تجنب الأصطدام بفرنسا إدراكا منه بعجزه عن مواجهة دولتين كبيرتين في وقت واحد وإن كان أخذ الاحتياطات الحربية اللازمة للدفاع عن بلاده .

لكن الفرنسيين أخذوا يمدون خصومه بالمال والأسلحة حتى يشجعون على إثارة الاضطرابات في دولة الريف وأدى هذا الى مهاجمة هؤلاء الخصوم بإحدى الزوايا الدرقاوية قرب الحدود .

وجد الفرنسيون الفرصة سانحة للتدخل بحجة حماية أنصارهم ولما أخذ القتال يتسع فوجئ الفرنسيون بحسن تنظيم عدوهم الجديد الذى يختلف تماما عما صادفوه من حركات المقاومة في شمال أفريقيا واضطروا الى إلتزام موقف الدفاع مدى ٤ أشهر وحاصرت قوات الخطابي مركز قيادتهم في عين عائشة وتحمل الفرنسيون خسائر فادحة في هذه الأصطدامات الأولى .

وصمدت دولة الريف الصغيرة سنة كاملة من مايو ١٩٢٥م الى مايو ١٩٢٦م أمام دولتين أوروبيتين كبيرتين وهذه تعتبر حالة نادرة في تاريخ الحروب الاستعمارية لا في شمال أفريقيا وحدها بل في قارتى أفريقيا وآسيا عموما وذلك يرجع الى قدرة رجال الريف وكفاءة زعيمهم الخطابي في ميدان الإدارة والحرب وقد استعمل مجاهد و الريف خطوط الخنادق المحصنة على نمط تلك الخطوط التى أقامتها فرنسا في بلادها أثناء الحرب العالمية الأولى .

وتحول الفرنسيون من الموقف الدفاعى الى الهجوم في سبتمبر ١٩٢٥م وطلبوا من سلطان المغرب (مولاى يوسف) إعلان أمير الريف أحد العصاة الخارجين عن السلطة الشرعية فأنصاع لطلبهم وهذه نقطة سوداء في تاريخ هذا الرجل .

وبدأت فرنسا تنسق مع أسبانيا من أجل محاصرة دولة الخطابى الناشئة ولهذا الغرض عقد مؤتمر خاص في مدريد سنة ١٩٢٥م من أجل تنسيق العمليات الحربية بين القيادتين الفرنسية الأسبانية ومكافحة تجارة الأسلحة بين دولة الريف وأوربا ومما يدل على تكاتف الدول الأوربية كلها ضد أى أقليم عربى وأسلامى يريد أن يرفع رأسه ضد الاستعمار الأوربى أن الأسطول البريطانى أشترك في أعمال المراقبة في مياه (طنجة) الأقليمية لئلا تدخل أسلحة الى قوات محمد عبد الكريم الخطابى وحصاره حصارا شديدا .

وبدأ مجرى القتال يتحول بسرعة لصالح الغزاة وفي ٥ سبتمبر ١٩٢٥م نجح الأسبان بمعاونة البحرية الفرنسية في إنزال جنودهم الى مكان قرب خليج الحسيمات الذى يمتد في قلب بلاد الريف ولم يكن أمام الريفيين سوى عرقلة تقدم الأسبان على البر ولكن الأسبان نجحوا بعد صعوبات جمة في الاستيلاء على (أغدير) عاصمة الأمير الخطابى في شتاء سنة ١٩٢٦م أى في الوقت الذى تستحيل فيه العمليات الحربية في بلاد الريف وطلب الأمير الخطابى عقد هدنة لإنهاء النزاع عن طريق المفاوضات ولكن الأسبان وجدوا أنفسهم على وشك تحقيق رغبتهم في الانتقام ففرضت الدولتان أسبانيا وفرنسا عليه شروطا قاسية كانت كفيلة بصرف الأمير الخطابى عن قبولها ومن هذه الشروط :

١- الاعتراف بإستقلال الريف الإدارى في حدود المعاهدات الدولية ومعنى هذا قبول مبدأ الحماية .

٢- الاعتراف بسيادة السلطان المغربى المتعاون مع الاستعمار الفرنسى .

٣- مغادرة الأمير الخطابى البلاد .

٤- تجريد قبائل الريف من السلاح .

لكن الأمير الخطابي فاجأهم بقبول هذه الشروط كأساس للدخـــول في المفاوضات وضرب ذلك مثلا رائعا من أمثلة إنكار الذات وذلك على أمـــل أن يحقق لأهل الريف قدرا من الاستقلال الذاتي وعلى الرغم من أنه تم عقد مؤتمـــر في (وجده) في ١٨ أبريل سنة ١٩٢٦م للتفاوض بشأن إنهـــاء الـــنزاع إلا أن الأسبان والفرنسيين أخذوا يقدمون مطالب متعسفة أثناء المفاوضات مما أدى الى فشل المحادثات وتوقفت بعد أسبوعين .

وأستأنفت الدولتان القتال وزحفت على حصن (ترجست) الذى إتخذه الأمير مقرا له بعد سقوط (أغدير) وتم الاستيلاء عليه في ٢٣ مـــايو ١٩٢٦م وبعدها سلم الأمير نفسه للفرنسيين لأنه وجد أن قبائل الريف قد أنهكت بسبب طول الصراع وأنها غير مستعدة في المضى في حرب العصابات والـــذى جعلـــه يسلم نفسه للفرنسيين دون الأسبان هو أنه كان الأسبان يطـــالبون بمحاكمتـــه كعاصى يستحق الاعدام أما الفرنسيون فقد اعتبروه أسير حرب وأكتفوا بنفيـــه الى مستعمرة جزيرة (ريونيون) في المحيط الهندى الذى ظـــل بهـــا حـــتى ســـنة ١٩٤٧م وبعدها تقرر السماح له بالإقامة في فرنسا وعندما وصلت البـــاخرة التى تنقله من منفاه الى فرنسا عندما وصلت الى بورسعيد ألتجأ الى الســـلطات المصرية التى رحبت بإقامته في القاهرة وواصل كفاحه بالكلمة من القاهرة حيث شارك في لجنة المغرب العربي وتوفى بالقاهرة سنة ١٩٦٣م .

جهود المغرب من أجل الاستقلال :

بعد أن فشلت عمليات الجهاد المسلح التى قام بها عبد الكريم الخطـــابي في المغرب بدأ المغاربة في العمل في ميدان الكفاح السياسى وكان مـــن الذيـــن قادوا العمل في هذا الميدان (أحمد بلا فريج) الذى ألف جماعة أنصار الحق وهـــى

الجماعة التى أراد (أحمد بلا فريج) بتكوينها زيادة الوعى السياسى بين الأهــــالى وكان موطنها الرباط عاصمة المغرب الجديدة .

ثم ظهرت حركة نشطة أخرى في (فاس) العاصمة الدينية والتقليديـــــة للمغرب وكان يقودها (علال الفاسى) وقد عملت هذه الحركة علـــى نشـــر الدعوة السلفية أولا ثم تحولت من دعوة دينيـــة تحـــارب الجمـــود وتطـــالب بالإصلاح الى حركة سياسية تحررية تحارب الإستعمار ثم أنشأ المغاربة من رجـــل المجموعتين (كتلة العمل المغربى) وهى تكتل إسلامى نظرت إليه فرنسا على أنـــه اكبر خطر يتهددها في المنطقة لأن التكتل معناه الإتحاد وهى لا تريد للمغاربة أن يتحدوا فعملت على فصل العرب عن البربر ولذلك أصدرت مشروع (الظـــهير البربرى) الذى كان يقضى بتعليم اللغات البربرية في مناطق البربر علاوة علـــى تطبيق العرف والتقاليد البربرية التى كانت سائدة قبل الاسلام ، في الوقت الذى تحاول فيه تطبيق القانون المدنى في المناطق العربية .

ولما كان (الظهير البربرى) قد مس معتقدات الأهالى قامت المظـــاهرات ضد الفرنسيين واعتقلت القوات الفرنسية القادة وتراجعت فرنسا وأعلنـــت أن تطبيق (الظهير البربرى) هو أمر أختيارى ويعود الى رجـــال الـــبربر أنفســـهم وحاولت الحركة الوطنية في المغرب إجتذاب السلطان (محمد الخامس) الـــذى تولى العرش في سن مبكرة عند وفاة والده سنة ١٩٢٧م وكان هو الإبن الثالث (لمولاى يوسف) وكان وصوله الى العرش وهو الأصغر عن طريق الفرنســـيين لكى يخضع تماما لهم لكن الملك اثبت أنه زعيم شعبى وقائد وطنى وإمام إسلامى.

ولذلك ركزت الحركة الوطنية على نقد الادارة الفرنســـية المباشـــرة وطالبوا بتنفيذ روح الحماية التى تشمل على قصر النشاط الفرنسى في البـــلاد على إعطاء التوجيه والإرشاد وترك الباقى لأبناء البلاد وطالبوا بإنشاء مجـــالس

بلدية ومجالس للطوائف على أن يكون ذلـــك خطـــوة للوصـــول الى الحكـــم النيابى[١].

وفي سنة ١٩٤٤م نشأ حزب الاستقلال وطالب بالأستقلال التام وأيده الملك (محمد الخامس) الذى تولى قيادة الحركة الوطنية بنفسه مع زعماء البـــلاد ولذلك قامت فرنسا بنفيه الى جزيرة (كورسيكا) ثم الى جزيرة (مدغشـــقر) في حين كان (علال الفاسى) وزملاؤه قد خرجوا الى أوربا والبلاد العربية يناضلون ، وأشتد الكفاح المسلح داخل البلاد مما اضطر الفرنسيين الى اطلاق صـــراح محمد الخامس ودعوته الى فرنسا للتفاوض على الاستقلال وعاد الملك الى عرشه سنة ١٩٥٥م وفي سنة ١٩٥٦م عقد مع فرنسا معاهدة استقلال المغـــرب ثم ذهب الى أسبانيا حيث تم الاتفاق على تحرير المنطقة الشمالية[٢] .

---

(١) د . جلال يحيى ، العالم العربى الحديث ، الجزء الثانى ، ص٧٠٥-٧١٣ .

(٢) د . حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الاسلام ، ص٤٣٣ .

موريتانيا

تقع موريتانيا في الجهة الشمالية الغربية من أفريقيا في جنوب المغرب والجنوب الغربي من الجزائر ، وتقع في شمال السنغال ، وتضم سكانا من العناصر المغربية العربية في الشمال ويطلق عليهم البيضان ، وعناصر زنجية في الجزء الجنوبي ويطلق عليهم السودان الذى يقع شمال السنغال ، لكن يجمع بين هذين العنصرين الاسلام والعروبة فدين الغالبية العظمى منها هو الاسلام ، ولغتها الرسمية هى اللغة العربية .

وموريتانيا كان يطلق عليها (بلاد شنقيط) وكلمة شنقيط كانت تطلق في الاصل على قرية من قرى ولاية (أدرار) في موريتانيا الحالية ، ومعنى شنقيط بالبربرية عيون الخيل ، يقال إنها بنيت في القرن الثانى الهجرى ، ولم يلبث اسمها أن أطلق على القطر كله ، وصار أهله يعرفون بالشناقطة ، ومازالت مدينة شنقيط هى العاصمة الروحية للبلاد ، أما العاصمة السياسية فهى مدينة (نواكشوط ، على ساحل الأطلسى .[1]

وترجع تسميتها بموريتانيا الى أيام الحكم الرومانى ثم البيزنطى لأفريقية الشمالية ، وقد كانت بلاد موريتانيا القديمة وطناً للأفريقيين السود حتى العصر المسيحى ، إذ كانت القبائل الأفريقية تزحف من الجنوب الى الشمال وكان هؤلاء من الزراع المستقلين ، ولم يتعدوا حدود إقليم الحشائش أو جنوبى موريتانيا الحالية ، وهو ما يعرف بإقليم الساحل أى ساحل الصحراء الكبرى

---

[1] أحمد مختار العبادى ، في التاريخ العباسى والاندلسى ، ص٤٧٨ .

الجنوبى ، ومع حلول الجفاف في البلاد اتجه هؤلاء للهجرة نحو الجنوب الى وادى السنغال .

ويذكر الأصطخرى في كتابه (المسالك والممالك) أن أرض موريتانيا كانت تسمى أرض زويلة ، فيقول :

" زويلة بلد في وجه أرض السودان ... وأرض المغرب ما كان منها في شرقى بحر الروم بقرب الساحل فتعلوهم سمرة ، وكلما تباعدوا فيما يلى الجنوب والمشرق إزدادوا سواداً ، حتى ينتهوا الى بلاد السودان ، فيكون الناس بها أشد الأمم سواداً ... وكلما إزدادوا وتباعدوا الى ما يلى المغرب والشمال إزدادوا بياضاً ... " [1] .

وهذه البلاد هى التى إندفع منها المرابطون ، وتحمسوا للاسلام واندفعوا شمالا الى المغرب والأندلس وجنوبا الى السنغال ، وقد لعبت بلاد شنقيط دوراً كبيراً في نشر الاسلام في نطاق الحشائش بافريقية ، ومنها اتجه دعاة الاسلام صوب الجنوب والشرق ، وكانت موريتانيا جزءا من امبراطورية غانا الافريقية حتى القرن الرابع الهجرى (١٠م) وعندما استولى المرابطون على (أودغشت) عاصمة البربر الصحراويين صاروا وجها لوجه ضد إمبراطورية (غانا) . واستطاع الاسلام أن يثبت جذوره وأقدامه في تلك الامبراطورية الافريقية وأخذ ينتشر جنوبا وشرقا ، وكان للشناقطة في ذلك جهد مذكور [2] .

ويعيش ٩٠% من سكان موريتانيا على الرعى والزراعة ، وهى تنحصر في زراعة ما يقتات به ، فيكون الاقتصاد العيشى هو السائد في البلاد ، ويقصد به الاقتصاد الذى يقوم على سد حاجة السكان المحليين من ذرة وبقول

---

[1] الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال ، القاهرة سنة ١٩٦١م ، ص٣٦-٣٧.

[2] محمد السيد غلاب وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ٤٤٧-٤٥٢ .

وبطاطا وفول سودانى ، كما يجمع الصمغ من أشجار السند ، أما الواحات فتزرع القمح والشعير ، وينتج نخيلها التمر .

ولموريتانيا نشاط في الصيد يمثل ٣٣٪ من دخلها ويوجد فيها من المعادن خام الحديد بكثرة ، ويمثل ٩٥٪ من صادرات البلاد ، وكذلك يوجد خام النحاس ، وغيرها من المعادن بدرجات أقل .

وعاصمة البلاد (نواكشوط) وهى في الوقت نفسه ميناء موريتانيا ، وعدد سكانها حوالى ٢ مليون ، ٨٠٪ عرب مغاربة ٢٠٪ سودان ، ولغتهم العربية وهى اللغة الرسمية . وهم ١٠٠٪ مسلمون [1] .

وكانت موريتانيا تحت الاحتلال الفرنسى ودخلت في المجموعة الفرنسية (الفرنكفونية) واستقلت سنة ١٩٦٠م ، وقاد حركة الاستقلال (المختار ولد داده) الذى أصبح رئيسا للجمهورية الموريتانية الاسلامية بعد الاستقلال ، وكانت المغرب تطالب بموريتانيا كجزء من أراضى المغرب الكبير . وفي ١٩٧٣م انضمت موريتانيا الى جامعة الدول العربية .

ورئيس الجمهورية الحالى (١٩٩٩-٢٠٠٠م) هو معاوية ولد سيدى أحمد الطايع تولى الحكم اثر انقلاب عسكرى عام ١٩٨٤م أطاح فيه بالعقيد (خونا ولد هيد الله) وشارك ولد الطايع حركته الانقلابية ضابط فرنسى اعتنق الاسلام وتسمى باسم (جبريل ولد عبد الله) .

واستطاع ولد الطايع أن يحظى بدعم الحكومات الفرنسية المتعاقبة لاحترامه الاتفاقيات المعقودة مع فرنسا في كل المجالات لكن بلاده ساءت أحوالها الاقتصادية بسبب علاقته السابقة مع العراق وتأييده للعراق خلال

---

[1] كتاب المعلومات السنوى العام ١٩٩١م ، ص٣٨٦ .

حرب الخليج الثانية ، فبلاده كانت محورا للتجارب الصاروخية العراقية البعيدة المدى ، فضلا عن المساعدات العسكرية التى جاءته من بغداد .

ويقود المعارضة ضد ولد الطايع الآن (١٩٩٩م) أحمد ولد داده شقيق (المختار ولد داده المقيم في فرنسا) وخاصة بعد إعلان الطايع إقامة علاقات سياسية مع اسرائيل ، على مستوى السفراء .

لكن لما كانت موريتانيا تقع في منطقة النفوذ الفرنسى المباشر فإنها لا تسمح لأطراف دولية أخرى وبخاصة إسرائيل ومعها الولايات المتحدة بأن تلعب دوراً مهماً في موريتانيا ، فقد سبق أن أطاح إنقلاب عسكرى مدعوم من فرنسا برئيس موريتانيا السابق ، وجاءت بحكم ولد الطايع ، لكن ولد الطايع يدرك أن واشنطن وتل أبيب ستوفر له الحماية وتزوده بالوسائل اللازمة لذلك ، وهذه مغامرة غير محمودة العواقب في إطار مغربى هو مجال لنفوذ فرنسا .

لكن المعارضة الموريتانية بدأت تعلو ضد ولد الطايع في باريس ، ولم تتأخر فرنسا في دعم هذه المعارضة في الداخل والخارج ، وخاصة أن وسائل الاعلام الفرنسية بدأت تشن حملة ضد الرئيس الموريتانى .

الباب الخامس

مصر والسودان والصومال وجيبوتى

الفصل الأول

مصـــــر

مصر

تتمتع مصر بموقع استراتيجى هام ؛ حيث تتحكم في سرة العالم القديم ، في موقع وسط بين آسيا وأفريقيا وأوربا ، وتصل البحار الشرقية بالبحار الغربية عن طريق البحر الأحمر وقناة السويس ، ومن ثم كانت عامل اتصال بين الشرق والغرب منذ العصور القديمة والوسطى ، وكانت على مر الزمن منطقة جذب للقوى العظمى ، فإليها إتجه اليونان لبناء أمبراطوريتهم بزعامة الاسكندر الأكبر ، واتجه اليها الفرس عند قوتهم ، كما زحف عليها الرومان لتدعيم مركزهم في مواجهة الفرس ، وعندما ظهر الاسلام في الجزيرة العربية فتحها المسلمون ، وفي مطلع العصور الحديثة اتجه اليها العثمانيون وسيطروا عليها لأهمية موقعها ، وفي العصر الحديث اتجه إليها نابليون بونابرت ، ليكون منها امبراطورية تحكم العالم .

وهذا الموقع المتميز جعل مصر وسطاً في كل شئ ، فهى أمة وسط بكل معنى الكلمة ، ولعل في هذه الموهبة الطبيعية سر حيويتها على مر العصور سواء كانت مستقلة أو تابعة لقوى كبرى .

ومنذ أن فتحها الاسلام ، وهى تواصل بشدة ونشاط ، في مجال استيعاب الفكر الاسلامى ، والثقافة الاسلامية العربية ، وتم تعريبها جنسياً ولغوياً ، في عصور الراشدين ، والأمويين ، والعباسيين ، حتى إذا سقطت بغداد في يد المغول ، سنة ٦٥٦هـ ، وتم القضاء على الخلافة العباسية ، كانت مصر مهيأة لأن تقود العالم الاسلامى بعروبتها وثقافتها .

وعندما أصبحت مصر مركزاً للخلافة الفاطمية ، في الفترة من (٣٥٨-٥٦٧هـ) ، وأراد الفاطميون في فترة حكمهم ، أن يجعلوا منها دولة شيعية ، أبت طبيعتها الوسط ، في الفكر والاعتقاد ، وتسامحها إلا أن تكون على مذهب أهل السنة والجماعة ، حتى في أيام الفاطميين أنفسهم التى استمرت نحو قرنين من الزمان .

وبعد الفاطميين برز دور الأزهر في الحياة المصرية بحلقاته التى تدرس فيها جميع المذاهب السنية بحرية مطلقة دون تعصب .

ولقد كان هذا التوسط والتسامح ، من العوامل التى جعلت من مصر قبلة ثقافية للعالم العربى والاسلامى ، وأضحى الأزهر جامعة المسلمين والعرب جميعاً ، وتأهلت مصر في نهاية العصر الأيوبى ، لكى تقود العالم الاسلامى والعربى عندما استوعبت التراث الاسلامى باللغة العربية ، وأضحت مركزاً للدراسات الاسلامية والعربية العليا لا يضاهيه مركز آخر في البلاد العربية .

وكما تأهلت مصر حضارياً وثقافياً ، لقيادة العالم العربى والاسلامى بعد سقوط بغداد ، تأهلت أيضا عسكريا وسياسيا للدفاع عن العالم العربى والاسلامى ضد الزحف المغولى ، فتمكنت القوات المصرية ، في عصر المماليك من هزيمة المغول في (عين جالوت) سنة ٦٥٨هـ ، ونجت مصر وشمال أفريقيا من شرهم ، وحمت مصر الحرمين الشريفين من عبثهم .

وتمكنت مصر في هذه الفترة من إجلاء الصليبيين من بلاد الشام سنة ٦٩١هـ ، وبدأت مصر تشهد عصراً ذهبياً في مجال الفكر والثقافة والحضارة في فترة عصر المماليك .

مصر في العصر العثماني :

وعندما ضعفت دولة المماليك وتطرق إليها الفساد ، تقدمت دولة العثمانيين لكي ترث دور الزعامة على العالم العربي والاسلامي سنة ٩٢٣هـ ، في الوقت الذى كان المصريون يدافعون فيها عن العالم العربي والاسلامي أمام الزحف البرتغالي في البحار الشرقية ، واسدل الستار على فترة من أهم فترات التاريخ العربي والاسلامي ، كانت مليئة بالجهاد والنضال ، تمكن المصريون فيها بزعامة المماليك من النصر على الصليبيين والمغول لكنهم أخفقوا في رد عادية البرتغاليين والعثمانيين .

ونقلت الدولة العثمانية الخلافة الاسلامية من مصر إليها وقامت بضم الحرمين الشريفين الى حوزتها ، ومع أنها نقلت مظاهر الزعامة إليها إلا أنها لم تستطع أن تحافظ على الجوهر وهو الاستمرار بمسيرة الحضارة الاسلامية ، لأنها لم تستوعب التراث الاسلامي و اللغة العربية ، ولأنها لم تكن مؤهلة حضارياً ولا لغوياً لذلك ، وبنت مجدها على الانتصارات العسكرية ، وقاومت التعريب ، وتمسكت بلغتها التركية وبعنصرها التركي ، وجعلته الحاكم على من عداه من العناصر ، ففشلت في حمل راية الثقافة الاسلامية والحضارة الاسلامية ، ومن ثم تخلفت الحضارة الاسلامية على غيرها وبدأت أوربا تسبق الشرق العربي والاسلامي في هذا المجال .

وتحولت مصر في العصر العثماني (٩٢٣هـ-١٢٢٠هـ) الى ولاية تابعة للدولة العثمانية ووقفت مسيرة التقدم الحضارى بها ، لأن القاهرة غدت عاصمة لإقليم تابع للدولة العثمانية ، وتحولت عنها الأضواء ، وتأخرت فيها الحركة العلمية التى كان يرعاها سلاطين المماليك والأمراء ، وبرز دور الأزهر في الحفاظ على الثقافة الاسلامية باللغة العربية في وجه محاولات التتريك

العثمانية ، واستطاع خلال هذه المحنة الشاملة أن يصمد وأن يستبقى شيئاً من مكانته وهيبته القديمة ، فأسدى بذلك الى اللغة العربية وعلومها أجل الخدمات إبان العصر العثمانى ، وبرز دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى .[1]

أما من الناحية السياسية فإن مصر خضعت خضوعاً تاماً للحكم العثمانى ، واهتم العثمانيون بإضعاف مصر وكسر شوكتها ، وأصبحت في عهدهم نهباً مباحاً لسلطات متعددة ومتداخلة ، كالوالى العثمانى الذى كان يتم تغييره باستمرار ، وعلى فترات لا تسمح بالاستقرار في الحكم ، ولا في تنظيم الادارة ، خوفاً من استقلاله بمصر ، وجنود الفرق العسكرية العثمانية المعسكره بمصر لمراقبتها ، أو حمايتها كما إدعى العثمانيون ، ثم بكوات المماليك ، وهم بقايا المؤسسة العسكرية السابقة الذين استسلموا وعملوا في ظل الحكم العثمانى حكاماً للأقاليم الداخلية في مصر .

دور العلماء في العصر العثمانى :

وبرز دور علماء الأزهر في الدفاع عن حقوق الشعب المصرى كما برز دورهم في الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان العصر العثمانى ، ولم يكن يحد من سلطان هؤلاء الحكام سوى العلماء الذين كان لهم نفوذ روحى كبير على الحكام والشعب ، ولم تكن هناك رابطة تربط بين الحكام وبين الشعب فهم غرباء عنه جنساً ولغة ومشاعرا ، أما العلماء فهم مصريون مثله ، فاتجه الشعب إليهم يبثهم شكواه ، ويطلب منهم الوقوف بجانبه ضد أطماع حاكميه ، وكان العلماء يسعون بهذه الشكوى الى الحكام ويقدمون لهم النصيحة ، وكان الحكام

---

(1) د . عبد العزيز الشناوى ، دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى ، من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١٩٦٩م ، القاهرة ١٩٧١م ، ص٣ .

يستمعون غالباً لهذا النصح ويستجيبون لوساطة العلماء ، ومن ثم عقد للعلماء نوع من الزعامة الاختيارية التى ارتضاها الحكام والمحكومون على السواء .

وتقدمت حركة العلماء بالكفاح في مجالين :

أولاً : حملوا لواء المعارضة في الديوان العثمانى ، فقد كانوا أعضاء فيه بحكم مركزهم المرموق .

ثانياً : قادوا الحركات الثورية الشعبية ونظموا كفاح الشعب ضد ظلم الحكام من العثمانيين والمماليك .

واعترضوا على كثير من الاجراءات ، التى كان يقوم بها الحكام العثمانيون في مصر ، والتى تتصادم مع مصالح الشعب المصرى ، واعتبروها مخالفة للشرع ، ووضعوا قاعدة بأنه لا يسلم للحاكم في فعل ما يخالف الشرع ولا لنائبه أيضاً ، وكثيراً ما اعترضوا على بعض الفرمانات العثمانية التى كانت تمس مصالح الشعب ، وأوامر السلطات لم تكن ترهب علماء الأزهر ولم تمنعهم من الاحتجاج والاعتراض ، وذلك مثل ما حدث في اعتراضهم على فرمان سلطانى سنة ١٧٣٥م .

ومن ناحية أخرى قادوا الحركات الشعبية مثل الحركة التى تزعمها شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوى وعلماء الأزهر سنة ١٧٩٥م ، عندما قام المماليك بظلم الفلاحين في قرية تتبع مركز بلبيس ، فشكا أهلها لشيخ الأزهر ولعلماء الأزهر ، فثارت ثائرة العلماء بزعامة شيخ الأزهر ، وعطلوا الدراسة بالأزهر ، وخرج طلاب الأزهر الى الطرقات ، وتجمع الناس في ساحة الأزهر ، وتقدمهم العلماء وزحفوا على منزل ابراهيم بك شيخ البلد ، وضغطوا على المماليك حتى تراجعوا عن ظلمهم لأهالى قرية شرقية بلبيس ووضعوا حداً للمظالم التى يتعرض لها الشعب .

وتطورت حركتهم الى ثورة طالبوا فيها المماليك بضغط المصروفات والحد من الاسراف ، وتأمين الأفراد على أموالهم ، وأرواحهم ، وانتهت حركتهم بإصدار وثيقة متضمنة شروط العلماء ، وإعلان توبة الأمراء ، عن الظلم وإلتزامهم بالعدل ، ووقع على هذه الوثيقة القاضى والأمراء بحضور والى مصر .

وتعتبر هذه الوثيقة أول وثيقة للحقوق في مصر ، حتى الآن قرروا فيها منع الفردة على البلاد والرعايا والفقراء ، وإزالة المظالم ورفع الضرائب الجائرة . ويلاحظ أنهم أجبروا الأمراء على التفاوض معهم ، ونزل الامراء على إرادة العلماء ، ووافقوا على إلغاء جميع التشريعات الضرائبية الجائرة ، وعزلوا الحكام الظالمين من المناطق التى تضررت بوجودهم ، وامتدت مطالبهم لتشمل تقرير ميزانية الدعم للحرمين الشريفين ، ودعم ميزانية الأزهر .

ونخلص من هذا العرض الى القول : بأن قيادة الجماهير في نهاية القرن الثامن عشر أصبحت بيد نخبة من العلماء ، قاموا بدور كبير في خدمة المجتمع المصرى ، وجعلهم هذا الدور جهازاً من أجهزة الحكم القائم ، مهمة هذا الجهاز الوقوف في صف الجماهير كلما هددهم خطر الحكام .

ولقد اعترف الميثاق الوطنى (الذى أصدره رجال الثورة بزعامة جمال عبد الناصر) للعلماء بهذا الدور الوطنى في تاريخ الحركة الوطنية حين قال : "لم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية في ذلك الوقت كما يقول بعض المؤرخين ، فإن الحملة الفرنسية حين جاءت الى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه الى الحياة في مصر كلها " [١] .

---

[١] الميثاق الوطنى ، الباب الثالث ، جذور النضال المصرى .

مصر إبان الحملة الفرنسية ونضوج الوعى الوطنى :

هبطت الحملة الفرنسية أرض مصر في صيف ١٧٩٨م بقيادة بونـلبرت فحطمت قوة المماليك العسكرية وهربت بقية المماليك وتركوا القاهرة عــزلاء دون قوات تدافع عنها ، وانتهج بونابرت سياسة إسلامية لخداع الرأى العـــام وذر الرماد في عيون المصريين المسلمين ، وتخدير العاطفة الدينية ، للاســـتيلاء على قلوب المصريين ، بعد الاستيلاء على بلادهم ، فأغرق البلاد بســيل مـــن منشوراته التى ادعى فيها أن الفرنسيين مسلمون مخلصون ، وأهم يحترمون النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، كما يحترمون القرآن العظيم ، بيد أن العلمـــاء لم تخدعهم حيل بونابرت ، فانتهج كبار علماء الأزهر سياسة حذرة قوامها المداراة للمحتل الماكر حتى يهيئوا لأنفسهم فرصة مناسبة للانقضاض عليه ، فقبلت هيئة كبار العلماء عضوية الديوان الفرنسى وتزعم الشيوخ الصغار المعارضة ونظمـوا الكفاح وانضم شباب المجاورين الى صفوف المقاومة ، وانتقل الأزهريون مـــن نصر الى نصر .

رفض الشيوخ الكبار بالديوان الفرنسى التبعية الفرنسية عندما رفضـــوا أن يزينوا صدورهم بالشارة الفرنسية التى ترمز الى هذه التبعية ، كما رفضـــوا الأفكار الفرنسية التى بشر بها الفرنسيون في جلسات الديوان والتى تتعارض مع تعاليم الدين الاسلامى ، وبذلك تصدوا لأولى حملات الغزو الأجنبى في البلاد .

وانتقل العلماء الى مرحلة الرفض للوجود الفرنسى فقادوا ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر سنة ١٧٩٨م) التى تعد أول ثورة ضد الاستعمار الأجنـــبى في تاريخ مصر الحديث ، وتغلبت قوة السلاح الفرنسى في هـــذه الثـــورة علـــى شجاعة الثوار ، ودخل الفرنسيون الأزهر بخيولهم بعد إخماد الثورة ، وأهـــدروا كرامة الأمة ومقدساتها ، وقدمت مصر إبان هذه الثورة عددا مـــن زعمائـــها

استشهدوا في ساحة الشرف فكتبوا بدمائهم صفحة مشرفة في تاريخ الكفـــاح المصرى ، وآلمت بونابرت المقاومة المصرية بزعامة العلماء وتحطمت آمالـــه في الشرق ، فاتخذ طريقه سربا عائدا الى بلاده في ٢٣ من أغسطس ١٧٩٩م .

ومضت الحركة الوطنية لم تثقلها الجراح ، بل على العكس أنضجتـــها المعارك وصقلتها المقاومة ، فقامت بثورة القاهرة الثانية في مـــارس ١٨٠٠م ، وحاول كليبر خليفة بونابرت إرهاب الزعامة الشعبية وتعقبها وأرهقها بكـــثرة الضرائب والغرامات ، غير أن هذه السياسة التى انتهجها كليبر لم ترهب الحركة الوطنية ، وقابلوا الإرهاب بالإرهاب .

فأعدت مجموعة ثورية من طلبة الأزهر برواق الشوام لاغتيال كليـــبر ، ونجحوا في تنفيذ هدفهم ، واستطاعوا بذلك أن يوجهوا الى المســـتعمر ضربـــة رائعة في هدفها ، وإحكامها ، والتى تميزت بضخامة ، الهدف مع ضآلة الخســـائر ، وكان المنفذ لذلك هو البطل سليمان الحلبى .

وكان من أهم النتائج المستفادة من دروس الحملة هو نضوج الوعـــي الوطنى في الدفاع عن البلاد وازدياد قوة الحركة الوطنية ، كما بـــرزت أهميـــة العامل الدينى في الدفاع عن البلاد وفي تعبئة الشعب للمقاومة وإعلان الجـــهاد الدينى ، وبذلك نرى أنه لم يحدث قط في تاريخ الأمة العربية والاسلامية منـــذ عصر الفتوح حتى حرب رمضان ١٩٧٣م(١٣٩٣هـ) أن انخذلت أمتنـــا في معركة كانت العقيدة لواءها ، والإيمان ذخيرتها ، وإرادة الجهاد سلاحها ، وهذا هو التفسير الصحيح لتاريخنا .

مصر عقب جلاء الحملة الفرنسية :

عاد العثمانيون الى حكم مصر بعد خروج الحملـــة الفرنســـية ســـنة ١٨٠١م وعقب جلاء الفرنسيين رزحت مصر تحت وطأة عهد من الفوضـــى

السياسية امتد من سنة ١٨٠١م الى سنة ١٨٠٥م ، وفي غضون ذلك بلغ التذمر الشعبي مداه بسبب خيبة الأمل التى منى بها الشعب المصرى ، فقد كان ينتظر العدل والانصاف ، من العثمانيين المسلمين ، بعد جلاء الفرنسيين أعداء الدين ، فأعلن العلماء رفضهم للظلم أيا كان مصدره ، سواء كان مصدره الفرنسيون أعداء الدين أم كان مصدره العثمانيون حماة الدين كما يدعون .

ثورة الشعب في سنة ١٨٠٥م :

وتزعم العلماء ثورة في سنة ١٨٠٥م على الوالى الظالم خورشيد وعبأ العلماء الشعب ، وحاصروا خورشيد بالقلعة في صفر سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) ، وقدم العلماء مطالب الشعب الى خورشيد وكان في مقدمتها :

١ – إخلاء القاهرة من الجنود .

٢ – منع الإرهاب العسكرى ، وعدم السماح لأى جندى بدخول القاهرة حاملا سلاحه معه .

٣ – عدم فرض ضريبة على الأهالى بدون موافقة زعماء الشعب .

فرفض خورشيد المطالب الشعبية ، فتطورت حركة العلماء وتقدمت الى الامام خطوة أكثر جرأة ، حيث نادوا بخلع خورشيد من الولاية .

تعيين محمد على واليا باختيار العلماء :

وكان محمد على وقتئذ قائدا للفرقة الألبانية ، وكان يتمتع ذكاء فطرى إستغل هذا المناخ المشحون بعوامل السخط والغضب من الأتراك لصالحه ، فتمكن من إقناع الزعماء بأنه يعطف على قضايا الشعب ، وقبل المطالب الشعبية التى رفضها خورشيد ، فاعتبره العلماء المنقذ الوحيد لحالة الفوضى التى تردت فيها مصر ، فنادى به العلماء واليا على البلاد لأنه قبل المطالب الشعبية ، وقبل أن يستشيرهم في أمور الدولة .

ولم يفكر العلماء في تعيين مصرى واليا على مصر ، لأن السلطان لم يكن ليقر مثل هذا التعيين ، ولم تكن حركتهم موجهة الى السلطان ، وإنما الى الوالى الظالم ، كما أنهم كانوا يعتبرون السلطان خليفة المسلمين ، وكان العلماء متشبعين بفكرة الوطن الاسلامى الكبير أكثر من تشبعهم بفكرة الوطن القومى ، وكان مفهوم الوطنية ملحقا بمفهوم الدين ، وكانت العاطفة القومية ممتزجة متشابكة مع العاطفة الدينية بحيث كان يصعب الفصل بينها [1] .

وكان تحالف محمد على مع الزعامة الشعبية تحالفا مصلحيا مؤقتا ، الى أن يتدعم حكمه ولم يظهر من جانبه في العامين الأولين من حكمه ما يجعل العلماء يشعرون أنه لا يريد مشورتهم .

وعندما تمكن محمد على من الحكم في مصر قام بتصفية الزعامة الشعبية في سنة ١٨٠٩م ، وأهمل مشورة العلماء وبدأ في تقليم أظافرهم فألغى أمتيازاتهم من الأراضى المعفاة من الضرائب وعزل عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفاه الى دمياط .

ومن ناحية أخرى ، أخذ محمد على يعمل في القضاء على نفوذ الأسر المصرية القديمة ، ذات السيطرة العريضة على الجماهير في مصر ، والتى كان لها دور واضح في مقاومة الحملة الفرنسية ، وإبان عصر الاضطراب السياسى ، وخلق أشخاصا آخرين من الأتراك والشركس والألبانيين ، يدينون له بالولاء والطاعة ، فيكون هو بحق ولى نعمتهم ، كما أحب أن يلقبه المصريون ، وقام بمذبحة القلعة سنة ١٨١١م ، التى قضى فيها على زعماء المماليك ، وقضى على

---

[1] د . عبد العزيز الشناوى ، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، الكتاب رقم ٦٧من سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٧م ، ص٤٢-٤٣ .

نفوذ زعماء الأحياء والحارات بالقاهرة وشيوخ الطوائف ومشايخ الطرق وأحل محل هذه التجمعات قوة دولته .

وبذلك حرم نظام الحكم الجديد الأفراد من الحماية ، التى كانوا يستشعرون بها في ظل تجمعاتهم وطوائفهم ، وسلب المصريين شيئا ثمينا جدا ، هو القدرة على التجمع ، في ظل هذه المؤسسات والطوائف ، لمقاومة مظالم الحاكمين ، وبذلك أضحى المصريون أمام النظام الجديد آحادا ، يواجهون الدولة وجها لوجه ، بعد أن كانوا لا يتصلون بالحكم إلا عن طريق مؤسساتهم وطوائفهم .

وصفوة القول أن الحركة الوطنية التى نشأت في نهاية العصر العثمانى ، ونمت إبان الحملة الفرنسية ومطلع القرن التاسع عشر ، لم يكتب لها أن تصل الى غايتها ولو أتيح لها أن تتطور تدريجيا ، لغيرت مجرى الأحداث في مصر ، غير أن محمد على تمكن من إحتوائها ، وجنى ثمارها ، وحكم مصر حكما فرديا ورثه لأبناءه من بعده ، فترة دامت نحو ١٥٠ عاما .

مصر تنقل النظام النيابى الأوروبى :

أرسل محمد على البعثات العلمية الى أوربا لنقل العلوم الحديثة ، وعندما عاد هؤلاء أنشأ على يدهم كثيرا من المدارس العسكرية والمدنية ، وحقق لمصر استقلالا ذاتيا وإن ظلت التبعية للدولة العثمانية ، وسيطرت الروح العسكرية على الدولة ودفعت محمد على الى التوسع فحارب في خارج مصر ضد الحركة الوهابية وحرب الشام واليونان والأناضول ، مما جر على مصر التحالف الدولى سنة ١٨٤٠م الذى قضى على قوة محمد على العسكرية ، وظلت البلاد في التخلف حتى عصر حفيده (اسماعيل) (١٨٦٣-١٨٧٩م) ، وبدأ التدخل

الأجنبي في شئون مصر يزداد يوما بعد يوم ، بعد إنشاء قناة السويس وافتتاحها في سنة ١٨٦٩م لخدمة المصالح الاستعمارية .

وعندما تولى اسماعيل باشا ولاية مصر سنة ١٨٦٣م أنشأ مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦م بمعاونة رجال البعثات المصرية الذين عادوا متأثرين بنظم الحكم الغربية ، وساعده على ذلك نمو الوعى السياسى في مصر في بداية السبعينيات بسبب سياسة الحكومة المالية وتدخل الأجانب في شئون البلاد ، فنشأت نهضة عامة في أفكار الخاصة ، قوامها التطلع الى إصلاح الحال ، وإنقاذ البلاد من الكوارث بعد أن زادت مطامع الدول الكبرى فيها وخاصة انجلترا وفرنسا .

وكان لمجئ جمال الدين الأفغاني الى مصر سنة ١٨٧١م أكبر الأثر في تنمية الوعى السياسى ونهضة الأفكار ، وكان من طابعه الأنغماس في السياسة ، فأخذ يلقى على تلاميذه من مجاورى الأزهر وغيرهم دروسا في الحرية الوطنية أمثال الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، ومحمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى ، وابراهيم المويلحى ، وابراهيم اللقانى ، وعلى مظهر ، وسليم النقاش ، وأديب إسحاق وغيرهم .

وحارب الأفغاني الاستبداد السياسى في البلاد الاسلامية والعربية وهاجم الاستعمار المتحالف مع الحكام المستبدين ، وأخذ الأفغاني يحض الشعب على أن ينشد الحرية ويخلع العبودية ، وبين للناس حقوقهم وواجباتهم ، وأخذ يحض المثقفين على الكتابة في الصحف وشجعهم على إنشاء الجرائد ، فنشأت نهضة كبيرة في مصر مما كان له أكبر الأثر في نمو الوعى السياسى وتطور الأفكار في مجلس شورى النواب وفي مصر بصفة عامة .

التدخل الأجنبى في مصر : بعد تولى اسماعيل حكم البلاد أسـرف في عقد القروض من الأجانب التى أربكت ميزانية مصر ، وتوقفت الحكومة عـن دفع أقساط الديون ، فتحرك الأجانب بشدة بدعوى الخوف علـى أموالهـم وفرضوا وصاية على مصر بموجبها فرضت رقابة ثنائيـة علـى ماليـة مصـر للأشراف على موارد البلاد ، وتولى الرقابة مراقبان أحدهما انجليزى والآخـر فرنسى .

ثورة ضباط الجيش : أخذت الأمور في البلاد تنتقل من سيئ الى أسـوء مما زاد الحركة الوطنية حماساً ، وتولى نوبار باشا الأرمنى رئاسة الوزارة في سـنة ١٨٧٨م ، وسعى لتوطيد دعائم الانجليز بمصر ، وزاد استياء الشـعب مـن وزارته وغضب عليها مجلس شورى النواب ، ونادى الشعب بإسقاطها ، وقـام ضباط الجيش بالثورة عليها في أول فبراير ١٨٧٩م لأنها أمرت بتسريح ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش لتوفير المال ، فكان هذا العمل سبباً في ثورة الضبـاط ، وأشترك معهم أعضاء مجلس شورى النواب وتسببت هذه المظاهرة في إسـقاط وزارة نوبار اشا ، وربما تفرخت الثورة العرابية كلها من تلك الثورة .

خلع الخديو اسماعيل :

ناصر الخديوى اسماعيل حركة الضباط وناصر الحركة الوطنية الناشـئة في مجلس شورى النواب فأغضب الأجانب وعلى الأخص انجلـترا وفرنسـا ، ونظروا إليه على أنه لم يعد الورقة الرابحة لهم في البلاد وتآمروا عليه لدى البـلب العالى وطلبوا من السلطان العثمانى خلعه من العرش وتنصيب ابنه توفيق واليـاً على مصر في ٢٦ يونية ١٨٧٩م .

وكان توفيق مستسلماً للأجانب ولا سيما انجلترا وفرنسا وخاصة أنـه أتى الى الحكم بإرادقما ، فساير الأجانب في القضاء على النهضة الوطنية في ظل

مجلس شورى النواب كما كان يرغب في جمع السلطة في يده ، والعودة الى نظام الحكم المطلق ، ومن ثم كان أول عمل لجأ إليه توفيق أنه عطل مجلس شورى النواب في يوليو سنة ١٨٧٩م وظلت الحياة النيابية معطلة نحو عامين فزادت حركة الجيش فيما يعرف بالثورة العرابية .

الثورة العرابية :

بعد أن عطل توفيق مجلس شورى النواب ، حاول أن يشل الحركة الوطنية ، فقام بنفى السيد جمال الدين الأفغانى من مصر الى الهند ، وحاول تشويه سمعته ، ونشر بلاغا رسميا نسب إليه السعى في الأرض بالفساد ، وأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعين على فساد الدين والدنيا [١].

ولم يكن نفى الأفغانى من مصر ليقضى على الحركة الوطنية بها ، فقد بدأت الحركة تقوى في الجيش المصرى ، وظهرت الثورة العرابية على يد (أحمد عرابى) وصحبه في أوائل سنة ١٨٨١م ، وكانت الحركة في بدايتها ترمى الى انصاف الضباط المصريين وإعطائهم حقوقهم المشروعة في المناصب العسكرية مثل غيرهم من الترك والشراكسة في الجيش ، ثم تطورت حركتهم الى حركة عامة ، اشتركت فيها جميع الطبقات المصرية ، للتخلص من حكم توفيق الأستبدادى ، وتقرير مبادئ العدل والحرية ، والمطالبة بالدستور .

واتحدت الطبقة المثقفة مع الضباط وأنشأوا جمعية وطنية عرفت (بالحزب الوطنى) في نوفمبر سنة ١٨٧٩م ، وكان من أعضائها أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمود سامى البارودى ، وجعلوا مركز الحزب مدينة حلوان ، وطلبوا بإقالة وزير الحربية (عثمان باشا رفقى) وتعيين (محمود سامى

---

[١] نص هذا البلاغ منشور في جريدة الوقائع المصرية ، عدد ٣١ أغسطس ١٨٧٩م ، وفي الأهرام عدد ٣١ أغسطس ١٨٧٩م .

البارودى) ، وحشدوا قوات الجيش المرابطة بالقاهرة في ميدان عابدين في ٩ من سبتمبر ١٨٨١م وقدموا مطالب الأمة للخديو وكانت تتلخص في : إســـقاط وزارة رياض باشا ، وتأليف مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش فأزعن الخديــو لمطالب الجيش فأستقال رياض باشا ، وتولى الوزارة شريف باشا ، وهى الـوزارة المعروفة بوزارة الأمة ، فأعاد مجلس النواب في ديسمبر ١٨٨١م ، وعرض على المجلس دستور سنة ١٨٧٩م ليقره ، ولذلك يكون قد أعطى للمجلس ســلطته الدستورية والتشريعية .

ضرب التجربة الديمقراطية :

غير أن الحقد الأوربي تحرك من جديد ، فلم تكن انجلترا وفرنسا تنظران بعين الرضا الى قيام النظام الدستورى في مصر ، فأرسلتا مذكرة مشـــتركة في ٧من يناير ١٨٨٢م الى الحكومة المصرية تعترضان فيها على تخويـــل مجلـــس النواب حق تقرير الميزانية بحجة أن تقريرها يضر بحقوق الدائنين أو ينال منــها ، وهى حجة واهية ظاهرة البطلان ، لأن الدستور تضمن أن المجلــس ســيراعى العهود والاتفاقيات المالية المعقودة مع الأجانب ، ورأى شريف باشا إزاء ذلــك تأجيل البت في المادة المتعلقة بإقرار الميزانية ، ريثما ينجلى الموقف بعد مفاوضــة الدولتين في مطلبهما ، غير أن العرابيين تشبثوا برأيهم في وجوب إقرار الميزانيــة واستقال شريف باشا .

عهد توفيق في فبراير ١٨٨٢م الى محمود سامى البارودى تأليف الوزارة وتولى عرابى وزارة الحربية ، وهى الوزارة المعروفة بوزارة الثورة ، وبها بــدأت المرحلة الثانية للثورة العرابية ، وفي هذه الفترة بدأت السياسة الانجليزية توقــع بين العرابيين والخديو ، وتعمق الخلاف بينهما لكى تفتح ثغرة لتدخلها في البــلاد وتقف أمام تيار الثورة فيها ، وتحد من الوعى السياسى والوطنى الــذى تطــور

بين العرابيين والخديو ، وتعمق الخلاف بينهما لكى تفتح ثغرة لتدخلها في البلاد وتقف أمام تيار الثورة فيها ، وتحد من الوعى السياسى والوطنى الذى تطور تطورا سريعا وخطيرا ، ووافق موقف الدولتين ميول توفيق الذى لم يكن راضيا عن مطالب العرابيين التى كانت تهدد سلطته ، وتتحدى قوته ، وتنتقص من حقوقه ، فانعدمت الثقة بينه وبين العرابيين ، وظنوا به الظنون وتربصوا به ، وعزم رجال الثورة على عزل الخديو ، فأعلنت الدولتان (انجلترا وفرنسا) أنهما لا تعترفان بغير سلطة الخديو ، وقررت الدولتان إرسال أساطيلهما الى المياه المصرية ، وقدمت الدولتان مذكرة مشتركة تطالب فيها باستقالة وزارة البارودى وخروج عرابى من القطر المصرى ، فرفضت الوزارة هذه المطالب لأنها تتعلق بمسائل داخلية ، واجتمع العرابيون وأقسموا على أن يكونوا يدا واحدة في الدفاع عن البلاد ، وتولى الشيخ محمد عبده وضع صيغة اليمين وتحليف كبار الضباط .

الاحتلال الانجليزى :

وتطورت الأمور عندما قبل توفيق مطالب الدولتين ، واستقالت وزارة البارودى احتجاجا على مطالب الدولتين وقبول الخديو لها ، وأقدم الانجليز على ضرب الاسكندرية بحجة تحصين العرابيين لها ، كأنه ليس من حق مصر تحصين ثغورها ، ثم دخلت القوات الانجليزية قناة السويس باسم الخديو ، وانحاز الخديو إليهم بالاسكندرية " وتقابلت القوات الانجليزية مع قوات الثورة العرابية في معركة التل الكبير ودافع رجال الثورة دفاعا مشهودا ، ولكن قوات الانجليز كانت متفوقة " ، فكان الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢م وتم نفى عرابى وزملاءه الى جزيرة سيلان جنوب الهند ، والذى دام حتى جاءت ثورة يوليو المجيدة سنة ١٩٥٢م .



ولقد كانت الثورة العرابية مصرية صميمة ، آمن رجالها بالله وبالوطن وضرورة حصول مصر على حقوقها ، وكانت ثورة على الظلم والاستبداد ، كما كانت ثورة ضد الاستعمار وأعوانه ، وكانت تريد الحد من التدخل الأجنبي وتحاول بناء مصر ، ولكنها لم تجد تأييدا من حاكم البلاد ، وعلى الرغم من فشل الثورة العرابية في تحقيق الاستقلال للبلاد ، وعلى الرغم أيضا من أنها اقترنت باحتلال انجلترا لمصر ، إلا أنها كانت مثلا رائعا في الوطنية والبطولة وخطوة كبيرة في تقدم الوطنية المصرية ، وكانت هذه الثورة إلهاما لقرارات أخرى في المستقبل من أجل الحرية والاستقلال .

والذى يجب أن نلاحظه هنا هو أنه لم تحدث مقاومة شعبية لجيش الاحتلال الانجليزى كما حدث إبان المقاومة الشرسة التى جابهت الحملة الفرنسية ، وكان السبب في ذلك أن قيادة الأمة كانت قد نحيت على يد محمد على وانتقلت من أيدى الصفوة المتعلمة ، وأصبحت هذه المرة في الجيش ، فلما سقط الجيش في معركة التل الكبير سقطت مصر ، ونعم الانجليز فيها بهدوء دام أكثر من ربع قرن ، لأنها كانت بلا قيادة ؛ لأن قيادتها الطبيعية كانت قد نحيت وصفيت ، ولأن عملية التغريب كانت قد تمت بنجاح ، وأصبحت البلاد ناضجة لكى يتناولها السيد الغربى [١] .

تزعم الحركة الوطنية الزعيم مصطفى كامل الذى شهد آثار اليأس المدمر الذى أصاب نفوس المصريين عقب الاحتلال الانجليزى فأخذ يبعث الأمل في نفوسهم بقوله " لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة " ، وبدأ بإحياء الشعور الوطنى وتجلية روح المصريين التى ران عليها الخضوع المهلك ، فحارب ما أحدثه المستعمر من يأس في النفوس .

---

[١] محمد جلال كشك ، ودخلت الخيل الأزهر ، الدار العلمية ، لبنان ، بيروت ١٩٧٢م ، ص٩ .

وكان مصطفى كامل يعتمد على الكفاح في مجالين : المجال الخــــارجى لإبراز قضية مصر في المحافل الدولية وفي الصحافـــة الأوروبيـــة ، وفي المجـــال الداخلى ، حيث أسس نادى المدارس سنة ١٩٠٦م فجمع حوله صفوة المثقفين في مصر ، وأنشأ الحزب الوطنى سنة ١٩٠٧م الذى ساعد في جمع الاحرار تحت لواء هذا الحزب وزاد بذلك من ضغطه على الانجليز ، وتوفى مصطفى كــــامل رهو في ريعان الشباب سنة ١٩٠٨م ، وخلفه في تزعم الحركة الوطنية محمـــد فريد المحامى ، وتطورت الحركة الوطنية الى استعمال الســـلاح في المقاومـــة ، ونبتت في مصر فكرة إنشاء النقابات العمالية والنقابات المهنية .

قيام الحرب العالمية الأولى وإعلان الحماية الانجليزية على مصر :

قامت الحرب العالمية الأولى ين انجلترا وألمانيا في البداية سنة ١٩١٤م ، وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وأعلنت الحكومة الأحكام العرفية والرقابة على الصحف فلجئت الحركة الوطنية الى العمل السرى ، ولما كـــان الخديـــو عباس حلمى الثانى مناصراً للحركة الوطنية وللدولة العثمانية فـــإن الحكومـــة البريطانية أعلنت خلعه في ١٩ ديسمبر ١٩١٤م وأصدرت أمراً بتعيين السلطان (حسين كامل) على عرش مصر وكان أكبر الأمراء الموجودين من أسرة محمـــد على .

وتطورت الحركة الوطنية الى الثورة فوقعت محاولتان لقتـــل الســـلطان حسين كامل الذى عينه الانجليز .

ثورة ١٩١٩م :

تعتبر ثورة ١٩ مرحلة هامة في تاريخ النضال المصرى ودفعة الى الامـــام على طريق التحرر والثورة ، فحين انتهت الحرب العالمية الأولى هب الشـــعب يطالب بالاستقلال التام ، وبجلاء الانجليز طبقاً للمبادئ التى أعلنـــها الرئيـــس

الأمريكى (ولسون) والتى كانت تتلخص في حق كل شعب في تقرير مصيره بنفسه ، وكانت هذه الثورة في جوهرها ترجع الى تذمر المصريين من الاحتلال الاجنبى وزيادة التدخل الانجليزى في شئون مصر وإلغاء دستورها ، ومحاولة فصل السودان عن مصر ، فبدأت تتفجر الثورة حين أصرت بريطانيا على استمرار الحماية ويئس الشعب من الوصول الى حقوقه بالطرق السلمية ، كما كانت الثورة أيضاً بسبب سيطرة رأس المال الأجنبى على البلاد حتى ساءت الحالة في مصر .

وألف الوطنيون وفداً مصرياً الى مؤتمر الصلح في باريس في نوفمبر سنة ١٩١٨م برئاسة (سعد زغلول) متحدين بريطانيا ، وذهب الوفد كهيئة شعبية تتكلم باسم الشعب المصرى ، وتطورت هذه الهيئة فتحولت الى حزب سياسى ، ورئس هذه الهيئة سعد زغلول ، وكان أبرز زعماء مصر في هذه الفترة وكان يتمتع بقوة الشخصية والجرأة في التعبير ، وطلب من المعتمد الانجليزى في مصر إلغاء الأحكام العرفية وطالب بالاستقلال ، فرفضت بريطانيا سفر سعد وزملائه ، ولما أصر الوفد على السفر تم القبض عليهم في ٨ مارس ١٩١٩م ونفيهم الى (مالطة) فكان ذلك بمثابة الشرارة التى أشعلت الثورة .

وبدأت الثورة بمظاهرات سلمية تطوف أنحاء القاهرة مطالبة بالاستقلال ، هاتفة بسقوط الحماية الانجليزية ، فتصدت القوات الانجليزية للمتظاهرين وأطلقت النار عليهم فبدأ الثوار في استعمال العنف فقطعوا السكك الحديدية وأسلاك التليفونات وعطلوا المواصلات .

دستور سنة ١٩٢٣م :

وأمام إصرار الشعب على الثورة اضطرت بريطانيا الى السماح لسعد زغلول بالعودة الى مصر وبدأت تفكر في النظر الى مطالب المصريين ، فأعلنت

في ٢٨ فبراير ١٩٢٢م أنتهاء الحماية البريطانية على مصر ، وأن مصر أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة ، ووعدت بإلغاء الأحكام العرفية ، وأوشكت ثورة ١٩ أن تنجح لولا أن الانجليز ألهوا الشعب المصرى بدستور ١٩٢٣م .

ومع أن الدستور كان خطوة الى الامام في ذلك الوقت ، لأنه أكد بعض حقوق الشعب ، فقد نص على أن الاسلام دين الدولة الرسمى ، واللغة العربية لغتها الرسمية ، وأن مصر دولة ذات سيادة ، وحكومتها ملكية وراثية في أسرة محمد على ، وشكل الحكم نيابي ، والأمة مصدر السلطات ، والبرلمان يتكون من مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، ولهما حق اقتراح القوانين ، ويتولى السلطة التنفيذية الملك ، غير أن الدستور أعطى للملك سلطات كبيرة منها حق حل مجلس النواب وتأجيل انعقاده ، وحق إصدار مراسيم في غيبة البرلمان ، وتعيين الوزراء وإقالتهم .

وفي خريف عام ١٩٢٣م عاد سعد زغلول الى مصر ، فكان زعيم مصر الاول بلا منافس ، ونجح مرشحو الوفد في الانتخابات نجاحا تاما على جميع الاحزاب ورأس سعد زغلول الوزارة التى أطلق عليها (وزارة الشعب) ، ولم تكن تتمتع بثقة الانجليز ولا بثقة الملك ، لأن كلاً منهما يخشى الشعب المصرى ولا يريدان أن يكون الشعب مصدر السلطات .

غير أن الحياة السياسية في مصر سيطرت عليها الحزبية المتعصبة والتطاحن الحزبى ، فكانت هناك عدة أحزاب رئيسية هى :

١- حزب الوفد
٢- حزب الأحرار الدستوريين
٣- حزب الشعب
٤- حزب الهيئة السعدية
٥- حزب الكتلة الوفدية
٦- الحزب الوطنى
٧- حزب مصر الفتاة
٨- حزب العمل

٩- حزب الأحرار .

ونظرت هذه الأحزاب في كثير من الأحيان الى مصالحها الخاصة قبل كل شيء ، فعملت على البقاء في كراسى السلطة أكبر مدة بصرف النظر عن مصالح الشعب ومصالح الوطن ، وتحول كفاح الشعب المصرى الى خطب تلقى في البرلمان ، والتى أراد بها الانجليز امتصاص غضب الشعب .

وعلى كل حال فإن الأسباب التى أدت الى فشل ثورة ١٩١٩م هى نفس الأسباب التى حركت حوافز ثورة سنة ١٩٥٢م وهى ثلاثة أسباب :

أولاً : أغفلت القيادة الثورية مطالب التغيير الأجتماعى ، بسبب سيطرة طبقة ملاك الأراضى الذين كانوا هم مؤسسى الأحزاب السياسية .

ثانياً : أهملت قيادة الثورة خطورة التجهيز لإنشاء اسرائيل بتصريح بلفور سنة ١٩١٧م ، وهى الدولة التى كونت فاصلاً بين المشرق العربى والمغرب العربى وأصبحت قاعدة لتهديد العالم العربى ، ومن ثم حرم النضال العربى من الطاقة المصرية ، وتمكن الاستعمار من التعامل مع أمة عربية ممزقة .

وبذلك أنتهت ثورة ١٩١٩م بإعلان استقلال ناقص وحرية جريحة تحت حراب الاحتلال ، وأدخل الانجليز الشعب الى مرحلة دوامة المفاوضات ، حتى كانت معاهدة ١٩٣٦م التى أكدت الاحتلال .

معاهدة ١٩٣٦م :

دخل الانجليز مع مصر في سلسلة من المفاوضات ، منذ أول وزارة تشكلت برياسة سعد زغلول سنة ١٩٢٤م ، وانتهت المفاوضات في عام ١٩٣٦م بتوقيع معاهدة للتحالف والاستقلال بين مصر وبريطانيا في لندن ، وقع عليها من الجانب المصرى جبهة وطنية تضم كل الأحزاب السياسية في مصر ، وعلى رأسها الوفد بزعامة (مصطفى النحاس) ، وقد اشتملت هذه

المعاهدة على شروط مجحفة لمصر ، وربطت البلاد بعجلة بريطانيا ، ولم يكن لأحد الطرفين أن يطلب تعديلها قبل مضى عشر سنوات ، وكان أخطر ما فيها عدم الاعتراف بحرية مصر في علاقاتها الدولية في السلم والحرب ، وعليها دائما أن تتبع مشورة حليفتها بريطانيا ، وعلى مصر تقديم التسهيلات والمساعدات للقوات البريطانية في حالة الحرب ، واستخدام موانى مصر ومطاراتها وطرق المواصلات فيها ، وضرورة بقاء القوات البريطانية في منطقة قناة السويس مع بقاء القوات البريطانية في السودان بلا قيد ولا شرط .

ولقد جعلت هذه المعاهدة الاحتلال الانجليزى لمصر مشروعاً ، بموجب اتفاق ملزم للمصريين ، كما جعلت من السودان مستعمرة بريطانية تحرسها قوات مصرية ، تحت إمرة الحاكم العام البريطانى ، وعلى الرغم من ذلك فقد صدق عليها البرلمان المصرى .

ونشبت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩م ، وتم إعلان الأحكام العرفية في مصر ، والرقابة على المطبوعات ، وعندما زحفت القوات الألمانية الى العلمين بقيادة (روميل) سنة ١٩٤٢م ، خرجت المظاهرات في الشوارع منادية " الى الامام يا روميل " ، وإزداد استياء الشعب ضد قوات الاحتلال الانجليزى ، وتمنى المصريون هزيمة بريطانيا أمام الألمان ، فأنزعجت بريطانيا ففكرت في فرض إرادتها على مصر .

حادث ٤ فبراير ١٩٤٢م :

أرسل السفير البريطانى إنذاراً الى الملك في ٤ فبراير ١٩٤٢م يطلب منه أن يؤلف مصطفى النحاس الوزارة وهو موالى للإنجليز وإذا لم يفعل الملك ذلك فسوف يتحمل كل ما يترتب على ذلك من نتائج ، وجاءت الدبابات البريطانية

الى قصر عابد لتأييد الأنذار البريطانى ، وقبل الملك الانذار تحت التهديد بالخلع ، وقامت وزارة وفدية طوال مدة الحرب .[١]

وقد أثبت حادث ٤ فبراير أن استقلال مصر خرافة مادام هناك احتلال وجيش بريطانى ، ويعتبر مصطفى النحاس هو المسئول الثانى عـــن حـــادث ٤ فبراير ، وليس عمله من الاستقامة الوطنية في شيئ ، وكان المسئول الأول عـــن هذا الحادث هو الملك فاروق بطبيعة الحال .

وعلى كل حال فإن هذا الحادث كان بداية هزة اجتماعية في مصـــر ، وبعدها فكر ضباط الجيش في تشكيل جهاز الضباط الأحرار الســـرى الـــذى خطط لثورة ١٩٥٢م ، وانتهت الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٥م ، وجــاء قرار الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧م بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود وتم إعلان دولة إسرائيل في سنة ١٩٤٨م ، وتدخلت الجيوش العربية لإنقاذ فلسطين ومنها جيش مصر ، ولم تكن مصر مستعدة لهذه الحرب لفساد نظام الحكم ، وانتـــهى التدخل في فلسطين بالهزيمة ، وعقد هدنة دائمـــة في رودس ســـنة ١٩٤٩م ، وكانت الدول الكبرى تؤيد اسرائيل وتساندها في كثير من الأحوال .

وانقسم الشعب المصرى الى طبقتين رئيسيتين :

أولاً : طبقة الاقطاعيين والرأسماليين ، وهى التى تحتكر الثروة الوطنيـــة والدخل القومى .

ثانياً : طبقة السواد الأعظم من الشعب المصرى من العمال والفلاحـــين ، ويذهب نتاج عملها الى الطبقة الأولى من الرأسماليين والاقطاعيين .

وتحالف الاقطاع ورأس المال مـــع المصـــالح الاســـتعمارية ، وكـــانت الاحزاب غير قادرة على تحقيق مصالح الشعب .

---

[١] د . مصطفى صفوت ، مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ص١٥٦ .

فحزب الاحرار الدستوريين يمثل كبار الملاك ، أى الاقطاع المتصل بالاستعمار والبيت المالك في مصر ، وحزب السعديين واقع تحت سيطرة نفوذ كبار رجال المال الذين يمثلون كتلة واحدة مع الاستعمار .

وحزب الوفد يمثل الرأسمالية الوطنية في مرحلة متخلفة عن نموها ، كما أن قيادته أخذ يتسرب إليها بعض كبار الملاك ، وأخذت تقع تحت نفوذ كبار رجال المال ، فأصبحت أعجز من أن تقود المعركة الوطنية ضد الاستعمار .

كان هذا هو الوضع السياسى والاقتصادى والاجتماعى لمصر قبيل ثورة ١٩٥٢م ، وبدأت الحركة الشعبية تعبر عن نفسها في شكل انتفاضات شعبية للطلاب والعمال في سنة ١٩٤٦م وسنة ١٩٥١م ، وبدأت عمليات فدائية في منطقة قناة السويس ضد جيش الاحتلال الانجليزى .

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م :

بدأ تنظيم الضباط الأحرار في مصر عقب حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م ، واجتمعت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار في أواخر سنة ١٩٤٩م وكانت تضم في طليعتها جمال عبد الناصر ، وأنور السادات ، وكمال حسين ، وصلاح سالم ، وجمال سالم ، وحسن ابراهيم ، وعبد اللطيف البغدادى ، وخالد محى الدين ، وعبد الحكيم عامر .

وانتخبت هذه الهيئة جمال عد الناصر رئيسا لها بالاجماع سنة ١٩٥٠م و١٩٥١م و ١٩٥٢م ، وفي السنة الأخيرة أتفقوا على اختيار اللواء محمد نجيب لكى يكون قائداً للحركة ، وهذه الهيئة هى قوام ثورة ٢٣ يوليو وصارت فيما بعد مجلس قيادة الثورة .

وفي صباح ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م قامت ، وتم خلع الملك واجباره على مغادرة البلاد في يوم ٢٦ يوليو وتنازل قبل سفره عن العرش لولى عهده

الأمير أحمد فؤاد ، وأذعن لإرادة الثوار وغادر البلاد الى منفاه في ايطاليـا ، وتم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية بعد ذلك بعام سنة ١٩٥٣م .

وبذلك طويت صفحة أسرة محمد على التى حكمت البلاد نحـو ١٥٠ عاماً وكان فاروق هو العاهل الوحيد من أسرة محمد على الذى خلـع بـإرادة الشعب ، ولم يحدث تدخل أجنبى ضد حركة الجيش .

مبادئ الثورة :

كان من الضرورى على رجال الثورة إعلان مبادئهم للتعبير عن آمـال الشعب في نضاله الطويل ضد الاستعمار والاستبداد والفساد الداخلى ، ومـن ثم أعلنوا مطالب الشعب في مبادئ ستة هى :

١- القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين .
٢- القضاء على الاقطاع الذى يستبد بالأرض ومن عليها .
٣- القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .
٤- إقامة عدالة اجتماعية للقضاء على الاستغلال والاستبداد .
٥- إقامة جيش وطنى قوى للدفاع عن البلاد ضد أعداء الخارج والداخل .
٦- إقامة حياة ديمقراطية سليمة لكى يستقيم نظام الحكم ومن أجل القضـاء على الاستبداد السياسى .

بالنظر الى هذه المبادئ الستة بصفة عامة نجد أنها تنقسم الى قسـمين : فالمبادئ الثلاثة الأولى منها تتعلق بإزالة ما كان من نظم ، وهدم ما كـان مـن أوضاع فاسدة ، وهى القضاء على الاستعمار وأعوانه ، والقضاء على الأقطـاع والاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم ، ويمكن أن نقول بأن الثـورة قـد نجحت في هذا الى حد بعيد باستثناء ما شاب ذلك من أخطـاء في التطبيـق ،

كفرض الحراسة الجائرة على كثير من المصريين والتمادى في ظلمهم عن طريق لجنة تصفية الاقطاع التى كان يرأسها عسكريون .

والمبادئ الثلاثة الأخرى تتعلق بالبناء : وهى إقامة عدالة اجتماعية ، وإقامة جيش وطنى ، وإقامة حياة ديمقراطية سليمة ، أما بالنسبة لإقامة العدالة الاجتماعية التى يرنوا إليها الشعب المصرى منذ نضاله الطويل ، فمازالت هذه العدالة لم تتحقق بالطريقة المثلى حتى يومنا هذا .

وبالنسبة لإقامة جيش وطنى قوى فإن الثورة قد حاولت في هذا المجال كثيراً ، بيد أنها أخفقت وذلك بسبب تدخل الجيش في الحياة المدنية ، وترك العسكريين الخدمة في صفوف الجيش وهجره حباً لمكاسب المناصب المدنية التى أتيحت لهم ، الأمر الذى جعل الحياة العسكرية غير مستقرة ، هذا بالإضافة الى اعتماد الجيش على الأسلحة الروسية وحدها ، وعلى الخبراء الروس الذين ثبت عدم إخلاصهم لمصر ، وتكونت فيه شرذمة من عملاء الشيوعيين أخذوا ينشرون الفكر الماركسى في البلاد .

وعلى ذلك فقد أخفقت الثورة في بناء جيش وطنى قوى وجانبها الصواب في هذا المجال ، ومن ثم هزم ذلك الجيش في حرب ١٩٥٦م وحرب ١٩٦٧م ، من إسرائيل وحلت نكبة أليمة بالشعب المصرى حطمت أعصابه ولم ينقذه منها إلا ما حدث مؤخرا من نصر في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣م .

وأما بالنسبة لإقامة حياة ديمقراطية سليمة ، فإن هذه الحياة الديمقراطية السليمة لم تقم الى الآن سنة (١٩٩٩م) ، لأن جمال عبدالناصر قد ركز السلطة في يده في فترة حكمه التى امتدت من سنة ١٩٥٢م حتى وفاته سنة ١٩٧٠م . وكل من أتى بعده حاول تقليده .

عودة الأحزاب :

بعد وفاة عبد الناصر سنة ١٩٧٠م ، تولى محمد أنور السادات الحكم بعده ، وكان نائبا له قبيل وفاته ، وفي سنة ١٩٧٦م بدأ يخوض تجربة الديمقراطية من جديد وسمح بإنشاء الأحزاب فبرزت الى الساحة عدة أحزاب هى :

١- الحز ب الوطنى ، وهو حزب الحكومة . ٢- حزب العمل .
٣- حزب الأحرار . ٤- حزب الوفد الجديد .
٥- حزب الأمة . ٦- حز التجمع التقدمى .

وتم إلغاء الاتحاد الاشتراكى تماما ، وهو التنظيم الحكومى الذى ظل مسيطراً من أيام جمال عبد الناصر ، وتعثرت التجربة الديمقراطية في نهاية عهد السادات واضطر الى إيقافها بحجة استكمال تحرير سيناء . وعقد اتفاقية للسلام مع اسرائيل سنة ١٩٧٩م وسافر الى إسرائيل لعرض السلام عليهم .

وقام ضابط مصرى باغتيال محمد أنور السادات سنة ١٩٨١م ، وتولى بعده اللواء محمد حسنى مبارك مسئولية الحكم ، وأعلن أنه يسير نحو الديمقراطية وسيادة القانون ، ولكن مازالت الحياة الديمقراطية لم تستكمل بعد ، وفكرة تداول السلطة غير واردة لدى الحزب الوطنى وهو حزب الحكومة الذى يسيطر على مقاعد مجلس الشعب سيطرة تكاد تكون كاملة ، ولا يعطى للأحزاب الأخرى فرصة في الانتخابات .

سلبيات ثورة ٢٣ يوليو :

على الرغم من المكاسب التى حققها الشعب المصرى في فترة التحول الاشتراكى إلا أنه قد ظهرت عدة سلبيات أحاطت بالعمل الوطنى ، ونلخصها فيما يلى :

- إن بعض الكوادر المسيطرة على الاتحاد الاشتراكى كان لها صلة بالخـــارج وبالأفكار الماركسية التى أرادت أن تفرضها على أذهان شبابنا .
- عدم توافر الكوادر الواعية بتراث البلاد وحضارتها والتى يمكن أن تدعـــم هذه المواقع والأجهزة المسئولة عن عملية البناء الاشتراكى .
- أن بعض العناصر التى تولت مسئولية العمل فى عدد من المواقـــع لم تهتـــم بالقاعدة مما حدا بها حفاظا على مصالحها ، أن تبالغ فى رفع الشـــعارات ، وأن تتملق القيادة الثورية مما أدى الى شيوع جو من النفاق السياسى .
- أخذ العمل فى الاتحاد الاشتراكى أسلوب العمل المكتبى ، وذلك بدلا مـــن العمل وسط الجماهير .
- وجود بعض العناصر الانتهازية التى أثرت ثراء فاحشا مستغلة مناصبــها فى التنظيمات الشعبية .
- اعتمدت الثورة فى هذه الفترة على اسناد كثير من المناصب القياديـــــة الى أهل الثقة دون أهل الخبرة .
- عدم ولاء القيادة الكبرى فى القوات المسلحة للصالح الوطنى العـــــام ممـــا جعلها تشكل مراكز للقوى أسهمت الى حد كبير فى حدوث النكسة .
- تحول أجهزة الاعلام الى أبواق للدعاية الجوفاء بدلا من أن تكـــون منــــابر تقوم بالتوجيه والتوعية .

كانت هذه أهم السلبيات التى أدى تراكمها الى حدوث النكســـــة فى يونيو ١٩٦٧ م . وهى الهزيمة المرة التى تلقاها الجيش المصرى أمام اســـرائيل وتم احتلال سيناء وتعطيل الملاحة فى قناة السويس .

مراكز القوى في ظل ثورة يوليو :

ظهرت في الفترة منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م طبقـات جديـدة في الأجهزة التنفيذية والقطاع العام والمؤسسات السياسية والعسكرية ، وكـانت هناك عناصر عسكرية تركت مكانها في الجيش واشتغلت بالعمل السياسـي في المؤسسات والمصانع ، وشغلت كثيراً من المناصب الهامة في الحيـاة المدنيـة ، كوزراء ومحافظين ، ونظراً لعدم خبرتهم من ناحية وتوهمهم أنهم أصحاب حق في استغلال مراكزهم من ناحية أخرى استشرى فسادهم في البـلاد ، وكونـوا مراكز للقوى ، وحاولوا الحفاظ على مكاسبهم ، وكونوا تحالفا جديـداً مـن المنحرفين وتآمروا بذلك على تحالف قوى الشعب العامل ، وحـاولوا عرقلـة المسيرة الثورية ، وأشاع هؤلاء جواً من الذعر والخوف بين صفوف المعـارضين لهم من الشعب ، فكانت لهم سلطة في اعتقال الاحرار بدون أمر صـادر مـن القضاء أو حتى موافقته ، وهكذا زج بالاحرار في غياهب السجون والمعتقـلات بلا تهمة ، ولم تكن هناك مدة محدودة لذلك الاعتقال الأثيم ، وقضى كثير مـن هؤلاء نحبه إبان فترة الاعتقال . وهكذا استغلت مراكز القوى نقطة الحفـاظ على الثورة لتضرب كل صوت معارض حتى تحول الوطـن الى سـجن كبـير وأصبح كل من ينقد أو يناقش تنسب إليه تهمة عدم الولاء للثورة ، ويوضـع في قوائم الثورة المضادة ، وكبتت بذلك أصوات الأحرار .

ولقد أتضحت أخيراً هذه الوسائل ونشر عنها الكتاب كثيراً من الكتب والمقالات والصحف والجرائد وخاصة بعد أن رفعت الرقابـة عـن الصحـف والمطبوعات في عهد الرئيس محمد أنور السادات وعهد الرئيس محمد حسـنى مبارك [1] .

---

[1] الأخبار عدد ١٩٧٥/١١/٢٧م ، من مقال للكاتب أحمد حسين .

مصر بعد حرب رمضان ١٣٩٣هـ(اكتوبر ١٩٧٣م) :

بدأت مصر وسوريا حرب رمضان ١٣٩٣هـ (اكتوبر ١٩٧٣م) ضد العدو الاسرائيلى ، وكان الهدف من هذه الحرب من وجهة النظر العربية ، أن تكون معركة دفاع شرعى ، من أجل اقامة السلام العادل ، بمعنى أن تؤدى المعركة الى اندفاع شعوبنا ، وشعوب العالم كافة ، في الطريق نحو التوصل الى تسوية حقيقية وجادة ، لكل المشاكل التى تسبب التوتر ، وعلى رأسها انسحاب اسرائيل من كل الأراضى العربية التى احتلتها عقب حرب يونيو ١٩٦٧ ، والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ، وفي مقدمتها حق عودته الى وطنه ، الذى حرم منه ، وظل لاجئا طريدا ، في شتى بقاع العالم منذ حرب ١٩٤٨م ، وكما كان الهدف من هذه الحرب أيضا ، مجابهة التحدى الاسرائيلى وايقاف الغرور الاسرائيلى الذى بلغ مداه بعد هزيمة ١٩٦٧م .

وقامت الحرب وحققت القوات المصرية عبور قناة السويس واقتحام خط (بارليف) الحصين وتقدم الجيش السورى في أرض الجولان ، حتى هرع العرب يشاركون بإمكانياتهم في المعركة ، واستخدموا سلاح البترول في المعركة وهو الذى ثبت من التجربة أنه لا يقل شأنا في التأثير عن استخدام السلاح العسكرى في تحقيق الأهداف السياسية للامة العربية ، وفي يوم وليلة استعاد العرب ثقتهم بأنفسهم وفي امكانية اقامة سلام عادل ومشرف لكل الاطراف في الشرق الاوسط .

وكان من النتائج الرئيسية للمعركة أن بدأ تحرك جاد اشتركت فيه كل شعوب العالم التى أحست بأن الحرب في الشرق الأوسط تمس أمن العالم ورخاءه ، وتعطل المصالح المشتركة للمجتمع الدولى .

واستعادت مصر عقب حرب رمضان الكثير مما فقدته عقب في حـرب ١٩٦٧م ، فقد حررنا قناة السويس وأعيد فتحها في يونيو ١٩٧٥م واستعدنا حقول البترول المصرية في سيناء وخليج السويس ، وعاد المهجرون الى ديارهم في مدن القناة الثلاث : السويس والاسماعيلية وبورسعيد .

وكان لحرب رمضان أثر في رفع الروح المعنوية العربية ، وخفض الروح المعنوية الاسرائيلية ، وتحولت اسرائيل بعدها من الهجوم الى الدفاع لأول مرة ، وكان لحرب اكتوبر أثر طيب على الوحدة العربية ، فقد برزت الوحدة العربية أمام العدو الاسرائيلى وفي وجه من يقفون وراء العدو الصهيوني .

وكان لحرب رمضان تأثير في مجال ارتفاع اسعار البترول ، فقد ارتفعت اسعار البترول شيئا فشيئا الى أن وصلت الى أربعين دولاراً للبرميل وزادت الدخول العربية من صادرات دول البترول ، وترتب على هذا أن بلغت عائدات البترول للبلاد العربية ٦١مليار دولار عام ١٩٧٤م بعد أن كانت أقل من ١٢ مليار دولار في عام ١٩٧٣م .

اتفاقية كامب ديفيد :

كان لانتصار مصر في حرب رمضان نتائج طيبة في مجال السلام بين مصر واسرائيل ، فقد مكن الانتصار قيادتها من أن تمشى في طريق التفاوض ، وتجربه من عام ١٩٧٣م حتى عام ١٩٨٢م مع اسرائيل بحضور امريكا ، وقاد هذه الجولة بشجاعة وصبر نادرين الرئيس محمد أنور السادات ، وعقد في ٢٦ من مارس ١٩٧٩م اتفاقية (كامب ديفيد) مع اسرائيل ، وكانت ذات شقين :

الشق الأول : يتعلق بعودة سيناء لمصر واقامة علاقات سلام مع اسرائيل وتبادل التمثيل الدبلوماسى معها .

والشق الثانى : يتعلق بالحصول على الحكم الذاتى للفلسطينيين في غزة والضفة الغربية لنهر الاردن .

وقد وفت اسرائيل بالتزامها بالنسبة للشق الأول وانسحبت من سيناء وتسلمتها مصر على مراحل تم بعضها في عهد السادات حتى ٦ أكتوبر ١٩٨١م وهو تاريخ اغتياله ، فقد قام باغتيال السادات الضابط خالد الاسلامبولى الذى قاد بضعة رجال من الجيش في هجوم على الرئيس السادات بالمدافع الرشاشة من على ظهر إحدى دبابات الجيش أثناء الاستعراض العسكرى وكان السادات يجلس على منصة في مدينة نصر بالقاهرة لمتابعة العرض العسكرى بمناسبة الاحتفال بانتصار اكتوبر ١٩٧٣م .

وتم استراجاع بقية سيناء في عهد خليفته الرئيس محمد حسنى مبارك في عام ١٩٨٢م ، وتقديرنا للنتائج التى تمخضت عنها حالة السلام المؤقته بين مصر واسرائيل أنها مكنت مصر من إعادة بناء البلاد والتغلب على مشاكل التنمية ، ولا شك أن هذا أفضل حتى يتمكن العرب ومعهم مصر من توحيد الصف العربى ، والتغلب على شتى المشاكل الذاتية ، يومها ينقلب ميزان القوى لصالح العرب .

غير أن البعض يأخذ على مصر أنها مشت في طريق السلام وحدها وكان يجب أن يكون بالتنسيق مع سوريا التى نسقت معها في حرب اكتوبر ، فكان من الواجب الوقوف معها في معركة السلام لتقوية الموقف العربى ، لكن اسرائيل تريد أن تتفاوض مع كل طرف بعيداً عن الطرف الآخر ، وهكذا تنفذ اسرائيل نظرية الاستعمار فرق تسد ، ومازالت سوريا حتى الآن (١٩٩٩م) لم تحل مشكلة عودة هضبة الجولان .

الفصل الثانى

السودان والصومال وجيبوتى

السـودان

ترجع النهضة في السودان في القرن ١٩ الى رجل سودانى من أصل عربى هو (محمد بن أحمد بن عبد الله) الملقب (بالمهدى) نشأ في (دنقله) حيث ولد سنة ١٨٤٤م وبرع منذ صغره في التفقه في علوم الدين وأصبح تواقا لنشر معارفه بين العامة الذين تكاثروا من حوله وسماهم بالأنصار ولما رسخت قدمه تمركز في جزيرة (أبا) في النيل الأبيض التى اعتصم بها مع أنصاره وأخذ يحث الناس على معارضة ظلم الحكام في السودان من الأتراك الذين تعسفوا مع الأهالى وزادو من تجارة الرقيق [١] .

وطاف المهدى في بلاد السودان التى كانت ضمن ولاية مصر وحكامها من أولاد محمد على ، ولمس ما كان يقاسيه الناس من كثرة الضرائب ، وقسوة الحكم ، وسوء الحكم ، وسوء تصرف الموظفين ، الذين كان معظم كبارهم من عناصر غير عربية ، أى تركية وشركسية وألبانية ، مثل ما كان الأمر في مصر نفسها ، فسيطرت على نفسه فكرة القيام بحركة أنقاذية ، ووفد عليه رجل فقيه اسمه (عبد الله التعايشى) فقال له أن فيه علامات المهدى المنتظر ، الذى بشر به النبى عليه الصلاة والسلام ، الذى يملأ الدنيا عدلا ، كما ملئه الدنيا جورا ، فتفائل بذلك ، وقويت الفكرة في رأسه ، وكانت هذه النقطة هى الانحراف الفكرى والعقائدى في حركته ، والتى لو نحيناها جانبا لكانت حركته من أهم الحركات التى أيقظت الروح الاسلامية والعربية في أفريقيا .

---

[١] عبد الحكيم العفيفى ، ألف حدث إسلامي ، ص٣٦٧،٣٦٨ .

وقد بدأ المهدى نشاطه سرا في سنة ١٨٨١م ، زمن الخديو توفيق باشا ابن اسماعيل باشا ، وصار له أنصار كثيرون ، وكان يأخذ منهم البيعة على الجهاد في سبيل الله ، ثم أخذ يرسل الرسائل الى الناس يعظهم ويدعوهم إليه ، وكانت نصوصها تدل على أنه كان يؤمن بأنه المهدى ، ثم جهر بالدعوة وأرسل كتابا الى حاكم السودان (محمد رؤوف) باشا يدعوه فيه الى اتباعه ويحذره من الخلاف عليه ورد عليه (محمد رؤوف) باشا ينصحه ، وينذره ، فقال له المهدى أنه ولى الأمر الذى تجب طاعته ، على جميع الأمة الاسلامية .

فسير الحاكم إليه حملة ففتك بها فتكا ذريعا وكانت الحملة مسلحة بالأسلحة النارية ، وكان رجاله مسلحون بالسيوف والحراب والرماح ، ومع ذلك انتصروا على حملة الوالى ، فأزداد تعلق الناس وافتتانهم به ، وتوجه الى (كردفان) واستولى عليها .

وسير الحاكم إليه حملة أخرى وثالثة ورابعة ، فكان ينتصر عليها واحدة بعد الأخرى ، فانتشر صيته وكثر أنصاره ، وخاصة بعد احتلال الانجليز لمصر ، ووقوع مصر تحت الاحتلال الانجليزى ، وإعلان المهدى أنه سيقوم بتحرير مصر من حكم الخديو توفيق ، عميل الانجليز ، ومن الانجليز أعداء الاسلام ، ولذلك بدأ يزحف من غرب السودان فاحتل (الأبيض) وأصبح جيشه حوالى عشرون ألفا من الأنصار ، وغنم في معركة الأبيض كثيراً من السلاح والعتاد ، وأنضم إليه قسم كبير من حاميتها من السودانيين والمصريين ، وأخذ يرسل بعد ذلك كتبه ورسله الى مشارق السودان مغاربه مبشرا وداعيا الى الانضمام إليه وشق عصى الطاعة على الخديو توفيق عميل الانجليز . وبدأ يستعمل الأسلحة التى استولى عليها من الأبيض التى كانت مركزا لمقاومته وباستيلائه عليها تمكن من بقية السودان .

ولما سيطر الانجليز على مصر ارسلوا حملة بقيادة قائد منهم اسمه (وليم هكس باشا) فقابلها بجيش عدده ثلاثة أضعاف الحملة وكان هو في طليعة المهاجمين شاهرا سيفه مكبراً مهللا وكانت تهتز بتكبيره وتهليله جنبات الأرض وانتصر على الحملة انتصارا ساحقا حتى أنه لم يكد ينجوا من القتل إلا نحو ٣٠٠ شخص وقعوا أسرى وقتل قائدها وكثير من ضباط الانجليز والخديو واستولى المهديون على مقادير كبيرة من السلاح والعتاد والتموين والأموال وكان هذا النصر بعد النصر السابق دافعا الى انضمام كثير من زعماء السودان وقبائله إليه .

وأخذ الناس يغدون على المهدى أفواجا من كل صوب للمبايعة وأصبح سلطانه عاما شاملا لمعظم أنحاء السودان بل امتد الى مناطق مجاورة وانتشر صيته في العالم الاسلامى كله وجاءته وفود من الحجاز والهند وتونس ومراكش مؤيده مهنئة مما يدل على أن العرب والمسلمين كانوا يتطلعون بلهفة الى التحرك واليقظة ويستبشرون بمثل هذه الحركات الاصلاحية المنبهة والموقظة لشعورهم القومى والدينى [1] .

وبدأت الحكومة البريطانية تضغط على حكومة مصر لأخلاء السودان من الجنود والموظفين المصريين ، بحجة الخوف عليهم من الثوار ، ولكن الحكومة رغم ضعفها ، كانت لا تزال تأمل في إعادة تنظيم السودان التى كانت جزءا مكملا لمصر ، إلا أن بقايا الجيش المصرى في السودان انضموا الى الحركة المهدية ، عندما عجزت الحكومة المصرية على إعطائهم رواتبهم ، وبعد ذلك لم يهتم الانجليز فيما بين سنتى ٨٣-١٨٨٥م بأمر المصريين المنقطعين في السودان

---

[1] محمد عزة دروزه ، نشأة الحركة العربية الحديثة ، ص٧٩-٨١ .

، وكانت حكومة بريطانيا ترى أن مصر ينبغى أن تسحب رجالها من السودان ، لأن المهديين في نظرهم ، كانوا يقودون حركة قومية خاصة بالسودان .

وكان على الحركة المهدية أن تواجه القوى الانجليزية بأسلحتها الحديثة وعتادها ومطامعها ولو أن الحركة المهدية قامت قبل ذلك بقرنين من الزمان لكانت من كبريات الدول العربية الاسلامية ، لأن المهدى كان زعيما دينيا عظيما قادرا على تحريك الجماهير ، وكان يقود حركة دينية قومية تستهدف النهضة العربية الاسلامية وتحرير السودان والمسلمين .

وكان يحكم مديرية دارفور شخص نمسوى الجنسية بإسم الحكومة المصرية ، وكان قد أعلن إسلامه وجد أنه لا فائدة في المقاومة فدخل في طاعة المهدى ، وبذلك استولى الأنصار على دارفور ، وكان هذا الشخص النمسوى يسمى (رودف سلاتين) وأصبح سلاتين في حاشية المهدى مدة ١٢ سنة وبعد القضاء على الحركة المهدية عاد سلاتين باشا وكتب كتابه : المشهور " النار والسيف في السودان " [١] .

وأعتزم المهدى الزحف على الخرطوم عاصمة السودان للقضاء على آخر مركز للسلطان الاجنبى على السودان ، وأراد الانجليز خداعه فأعلنوا عزمهم على ترك السودان لأهله ، وعينوا حكاما على المناطق السودانية من أهلها ، وعينوا المهدى حاكما على كردفان ، لكن المهدى أدرك الخديعة فرفضها ، وزحف على الخرطوم التى كانت محصنة تحصينا قويا ، واقتحمها بحركة انتصارية باسلة ثم اقتحم أنصاره قصر الحاكم الانجليزى (غوردون) باشا وقتلوه وشردوا من بقى حيا من قوات الخديو ، وعماله واستتب بعد ذلك السلطان للمهدى على جميع أنحاء السودان .

---

[١] د . حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الاسلام ، ص٣٣٧ .

وأرسل المهدى بعد ذلك كتابا للخديو بدأه بعد البسمله بقوله : " من المعتصم بالله محمد المهدى الى والى مصر وجاء فيه : " إنه لا سبيل الى السلامة عند الله إلا بإحياء دينه وسنة نبيه وإماتت ما حدث من البدع والضلالات ومحاربة دسائس أهل الكفر التى أدت الى أندراس الدين وتعطيل أحكام كتاب الله وسنة رسوله وإباحة محارم الاسلام .. وإن الله قد أظهر طبق وعده الصادق رحمة لعبادة ولإنقاذ الناس من ظلمه الكفر الى نور الإيمان وطوقه بالخلافة الكبرى وخلع عليه حلل المهدوية وبشره النبى بأن من يقصده بعداوة يخذله الله ويقذف الرعب قلبه وأنه سيملك جميع الأرض وأن الله قد أيده بالملائكه والجن".

ثم دعاه الى الانضمام إليه والتضامن معه لإخراج الانجليز من بلاد المسلمين وقطع دابرهم وأنذره " بأنه إذا أبى فعليه الأثم ولابد من وقوعه في قبضته ولو كان في بروج مشيدة " .

وكتب الى سلطان (وادى) والى سلطان (سوكونو) يدعوهما إليه فأجابه بالاعتراف بإمامته ومهدويته وكتب إليه بعض المراكشيين المستوطنين في مصر بالبيعة والاعتراف له بالأمامة ورشحوا شخصا منهم اسمه (محمد الغالى) ليكون أميرا من طرفه على مراكش لنشر دعوته في بلادهم فأجابهم الى ذلك وأرسل الى محمد الغالى أمرا لتعينه وفيه تعليماته بالدعوة الى الله وإحياء دينه وسنة رسوله وجهاد أعداء الله الكفار .

وجاء شخص من أهل الشام اسمه الحج (عبد الله الكحال) مبايعا فعينه عاملا له على بلاد الشام وأمره بإعداد العده للسفر إليها ونشر دعوته فيها .

وكان يصدر مناشير الى الولاة والعمال والجباة الذين عينهم مؤكدا عليهم فيها بوجوب تقوى الله وتجنب البغى والجور والسير وفق كتاب الله وسنة رسوله ، وسك عمله ذهبية وفضية ونحاسية بأسمه .

ومن أعماله الطائشة أنه جمع ما وقع تحت يده من كتب التفسير والخلافات المذهبية وأحرقها في مشهد عام وفرض مذهبا جديدا اجتهد في إقامته على الأقوال والسنن التى صحت عنده وألغى الرتب والألقاب الرسمية وسوى في المراتب بين الغنى والفقير وحرم الأسراف في الأعراس والمغالاة في المهور وحرم أعمال السحر والشعوذة والتنجيم كما حرم شرب الخمر والدخان والحشيش وحرم خصاء العبيد والبكاء على الأموات .

ويمكننا القول بأن حركة المهدى لو استبعدنا منها مسألة المهدوية التى كان يعتقد بها هو وأنصاره لكانت إيذانا بدعوة إسلامية إصلاحية كبرى .

ووقفت منه الدولة العثمانية موقفا معاديا لأنه بجانب أنه كان يصف نفسه بالمهدى فإنه وصف نفسه أيضا بالخليفة ولما كان سلطان الخلافة القائم يومئذ هو السلطان (عبد الحميد الثانى العثمانى) الذى كان شديد الحرص عليها فأصدر منشورا كذب فيه دعوى المهدوية وحذر المسلمين من حركة المهدى وأصدر مجلس نظار الخديو في مصر منشورا مماثلا مستندا الى فتوى علماء الأزهر .

كما أصدر بعض علماء السودان رسائل في بطلان دعوة المهدى ورد عليهم المهدى بأن سماهم علماء السوء [1] .

ويذكر المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن سبب أستفحال الثورة المهدية "يرجع الى مطامع الانجليز الاستعمارية ذلك إن الاحتلال أضعف هيبة الحكومة

---

[1] محمد سليمان ، دور الأزهر في السودان ص٨٢-٨٣ .

المصرية وجعلها خاضعة للسياسة البريطانية وكان مما بادر إليه في أعقاب إخماد الثورة العرابية إلغاء الجيش الوطنى وتجريد البلاد من قوتها الحربية والبحرية ، مما ترامى صداه في نواحى السودان فأغرى بها الثائرين وقد حالت أنجلترا دون كبح جماح الثورة المهدية وأكرهت الحكومة على إخلاء السودان بحجة عجزها عن إخمادها على حين أنها كانت تستطيع لو تركت وشأنها أن تقضى على محمد أحمد وثورته .

" ومما لا مراء فيه أن سياسة انجلترا عقب الاحتلال كانت ترمى الى بث الفوضى وإثارة الفتنة في السودان لكى تتخذ من الثورة ذريعة لتسويغ بقائها في مصر ولكى تضعف من شوكة مصر من ناحية أخرى فلا تقوى على استرداد استقلالها وليس أفعل في إضعاف شوكتها من شبوب الثورة في السودان وتغلبها على قوات الحكومة فيه من أجل ذلك كانت انجلترا تنظر بعين الغبطة الى امتداد تيار الثورة المهدية ، ومن أجل ذلك أيضا عارضت رغبة الحكومة المصرية في وقف تيار هذه الثورة "[1] .

فالسياسة الانجليزية هى لا شك من أهم الأسباب التى ساعدت على استفحال ثورة المهدى تحقيقا لمطامعها الاستعمارية .

وفاة المهدى :

ولقد أصيب المهدى في شهر يونيو سنة ١٨٨٥م بحمى خبيثة من نوع الإلتهاب السحائى الشوكى لم تمهله بضعة أيام حتى أودت بحياته وهو في أوج عظمته وقوتة وكانت وفاته يوم ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥م ٩(من رمضان سنة ١٣٠٢هـ) وتولى الحكم من بعده خليفته (عبد الله التعايشى) وكانت هذه الوفاة السريعة للمهدى قبل أن يرسى قواعد ملكه سببا من أسباب زوال الثورة

[1] عبد الرحمن الرافعى ، مصر والسودان ، الطبعة الثالثة ، ص١١٢-١١٣ .

المهدية فلا شك أن المهدى كان روح هذه الثورة وكانت الانتصارات التى نالهـا قد رفعت من شأنه وزادت من مهابته في النفوس فكانت شخصية المهدى هـى دعامة الدولة المهدية المترامية الأطراف التى أسسها في السودان .

وتولى (عبد الله التعايشى) خليفة من بعده حسب وصيته وتلقى البيعـة من جميع أنحاء السودان ونشر منشورا وعد فيه بالسير في سبيل نصـرة الديـن والجهاد وإحياء كتاب الله وسنة رسوله والبراءة من كل مأرب شخصى وأخـذ يقوى جيشه ويوطد حكمه في نشر الدعوة الى الأفاق ، وكتب لأمراء نجد وأهل مكة ، والمدينة ومصر والخديو توفيق ، والسلطان عبـد الحميـد ، والى إمـام السنوسية ، وغيرهم ، مبشرا منذرا داعيا الى كتاب الله وسنة رسوله ، وداعيـا الى الانضمام إليه بل وكتب الى ملكة الانجليز وملك الحبشـة ، يدعوهمـا الى الاسلام ، ويبشرهما وينذرهما ، وأظهر عزمه على غزو مصر ، وطرد الانجليـز منها ، وهيأ حملة أولى وسيرها لهذا الغرض ، ولكنها منيت بالهزيمة ، ثم أخـذت تقوم بعض التمردات عليه في بعض أنحاء السودان ، بدسائس الانجليز ، ورجـل الخديو ، ثم بدأت المعارك الفاصلة بينه وبينهم في سـنة ١٨٩٦م واسـتمرت وتقلبت في أدوار بين النصر والهزيمة للطرفين الى أن كتبت الغلبـة في النهايـة للانجليز والخديو وأحتلت قواتهما المشتركة الخرطوم وانتقل التعايشى ومن بقـى حوله من قواته وأنصاره الى منطقة كردفان فلحقت به قوة تمكنت من الظفر بـه وقتله وقتل أكثر من كان معه سنة ١٨٩٩م .

وعقد الانجليز مع مصر ما عرف باتفاق الحكم الثنائى عـام ١٨٩٩م ولكنه كان تحت السيطرة الكاملة للإنجليز ، في ظل حـاكم إنجلـيزى تعينـه بريطانيا.

ولا شك أن عبد الله التعايشى ، خليفة المهدى ، لم يكن له المقام الـــذى كان للمهدى ، ولا نفوذه المعنوى ، وكان ينقصه كثيرا من المزايا والصفـــات ، التى أجتذب بها المهدى قلوب انصاره ، كالأناة والحزم والدهاء ، فالتعايشـــــى يشبه أن يكون وارثا لملك كبير تعوزه الكفاية للاضطـــلاع بأعبائـــه ، ووقـــع الخلاف بينه وبين كبار أنصار المهدى ، وأخذ يقرب إليـــه مـــن يـــرى فيـــهم الاخلاص لشخصه وينكل بمن يخشى منهم مزاحمته أو الخروج عليه وفى عـــهده كثرت المظالم ، ووقفت حركة التجارة ، وانتشرت الأوبئة والمجاعات ، فمـــات منها مئات الآلاف من الأهالى ، فلا غروى إن كانت ولايته أيذانـــــا بتداعـــى الدولة المهدية ولم يكن يطمع إلا في أستبقاء نفوذه في البلاد التى دانت للمـــهدى ، ولكن الانجليز أخذوا يبالغون في قوته ويظهرون القلق من اعتزامه غزو مصـــر لكى يسوغوا بقاءهم في مصر لحمايتها كما يقولون من غزوات الدراويش [١] .

ولقد أصبح الانجليز بعد القضاء على الثورة المهدية أصحاب الســـلطان في السودان وخططوا لإرساء حكمهم فيه ولكن أهل السودان لم يسكتوا علـــى ذلك فقاوموا ذلك بمختلف الصور منفردين حينا ومتعاونين مع مصر حينا آخر.

ويمكن أن نجمل أسباب الثورة المهدية فيما يلى :

١- احتقار غوردون الانجليزى حاكم السودان لرجال الدين الاسلامى وأماكن العبادة من زوايا ومساجد ، فقد أجاز ارتكاب المنكرات بجوار الزوايا .

٢- تعيين المسيحيين الأوربين حكاما على الســـودان مثـــل صمويـــل بيكـــر وغوردون وقاموا بدورهم بتعيين أوربيين حكاما للمديريات .

٣- زيادة نشاط البعثات التنصيرية واعطاء الحرية لها في تنصير السودانيين .

---

[١] عبد الرحمن الرافعى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦٠ .

٤- احتكار الحكومة لتجارة السودان وضرب تجار السودان بحجة أنهم يتاجرون في الرقيق .

ومن أسباب قوتها :

١- بعد الثورة العرابية وإبانها لم يهتم العرابيون بإرسال القوات اللازمة لضرب الثورة المهدية لأنه استبعاد لقوتهم وتشريد لقوات الجيش .

٢- بعد ضرب الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى كان الجنود المصريون لا يشعرون بأن هناك واجبا مقدسا يجعلهم يدافعون عن سلطان غير شرعى (توفيق) وأجانب دخلاء وهم الانجليز الذين أصبحت لهم سيطرة على مصر والسودان .

وعندما قامت ثورة ١٩١٩م في مصر أحدثت أصداء في السودان فشهدت مدن السودان كثيرا من المظاهرات المطالبة بالاستقلال لمصر والسودان وشارك فيها الضباط المصريون والمثقفون السودانيون ، وتأسست (جمعية الاتحاد السودانى) سنة ١٩٢١م من أعضاء ينتسبون الى كلية (غوردون) التى أنشأها الانجليز وكانت نواة لجامعة الخرطوم ، وكانوا يجتمعون في نادى الخريجين في أم درمان .

كما تأسست (جمعية اللواء الأبيض) في سنة ١٩٢١م برئاسة الضابط على عبد اللطيف التى كانت تسعى لإنهاء السيطرة على السودان وتنادى بوحدة وادى النيل مع مصر ، وقامت ثورة طلاب المدرسة الحربية بالخرطوم في أغسطس ١٩٢٤م وعلى أثرها تم اغتيال حاكم السودان على يد الوطنيين في القاهرة وهو (السردار السيرلى ستاك) الانجليزى في ١٩ نوفمبر ١٩٢٤م .

وظهر حزب الأمة السودانى بزعامة عبد الرحمن المهدى (إبن المهدى) الذى طالب باستقلال السودان عن مصر وبريطانيا ، كما ظهر حزب آخر

يطالب بالاتحاد مع مصر وهو حزب الاتحاد السوداني بزعامة (السيد على الميرغنى) زعيم طائفة الختمية وكانت أسرته معروفة من قديم الزمان بالغيرة الوطنية والحماس الدينى والاشتراك مع المصريين ضد الانجليز ، وظل هذا الوضع قائما حتى قامت ثورة ١٩٥٢م في مصر ، ففضل رجال الثورة منح السودان حق تقرير مصيره في استفتاء سنة ١٩٥٤م ففضل الاستقلال عن مصر وبريطانيا ولذلك منح الاستقلال . وفاز في الانتخابات اسماعيل الأزهرى .

ودخل السودان عدة تجارب ديمقراطية منذ استقلاله ودخل دوامة الانقلابات العسكرية التى قضت على الحكم الديمقراطى ، وكان آخرها انقلاب سنة ١٩٨٩م .

وزادت حرب الجنوب السودانى بزعامة (جارنج) وشكلت عائقا للتقدم في السودان ، وساعدها دول الجوار أوغندا وأثيوبيا وأريتريا ومن ورائهم بريطانيا وأمريكا وإسرائيل فزادت مشاكل السودان .

الانقلاب العسكرى سنة ١٩٨٩م :

في عام ١٩٨٩م قام مجموعة من الضباط السودانيين بقيادة الضابط (عمر حسن البشير) ، وأزاحت الأحزاب السودانية الحاكمة والتى وصلت الى الحكم عبر انتخابات ديمقراطية خاضتها سنة ١٩٨٥م ، وكان الحاكم يومئذ هو "حزب الأمة " الذى يترأسه (الصادق المهدى) الذى يستمد قوته من الحركة المهدية التى قادها في القرن الماضى جده (محمد أحمد المهدى) الذى حارب الانجليز في السودان ، وحارب الوجود المصرى المتعاون مع الانجليز الذين احتلوا مصر منذ عام ١٨٨٢م .

وأعلنت الثورة الجديدة بزعامة البشير أنها ثورة الجبهة الاسلامية لإنقاذ السودان من الطائفية التى تنشرها الاحزاب وأعلنت تمسكها بالشريعة الاسلامية

وتطبيقها في شتى أنحاء السودان فقامت قيامة الدول الغربية عليها بزعامة أمريكا وبريطانيا ، كما غضبت عليها مصر لأنها خافت من العدوى التى تأتيـــها مـــن السودان فهناك قطاع كبير في مصر ينادى بتطبيق الشريعة الاسلامية .

وهنا بدأت العلاقات تسوء بين السودان ومصر ، وزاد الأمر ســوءاً في اقام السودان زورا في حادث محاولة اغتيال الرئيس (محمد حسنى مبـــارك) في أديس أبابا سنة ١٩٩٣م وتم قطع العلاقات المصرية السودانية وخـــلا الجـــو لأمريكا لتفسد ما بقى من علاقات طيبة بين مصر والسودان ، وبدأ التحـــرش بالسودان من كل من أوغندا وأثيوبيا وأريتريا ، بتحريض وتمويل من أمريكـــا وإسرائيل ، لكن فشلت هذه الحرب الذى كان يقودها زعماء المعارضة الذيـــن خرجوا من السودان وعلى رأسهم الصادق المهدى وجون جرانـــج ، وذلـــك بسبب أن الله شغل دول الجوار بحروب مع بعضها ، حيث بدأت حرب الحدود بين أثيوبيا وأريتريا في عام ١٩٩٨م ، وحـــرب بـــين أوغنـــدا والكونجـــو في ١٩٩٧م.

واستثمرت أمريكا سوء العلاقات بين مصر والسودان مؤخرا للشـــروع في إعادة رسم خريطة التوازنات الاقليمية في شرق أفريقيا ، تواطئه لانـــتزاع جنوب السودان من منطقة حوض النيل ، وانخراطه في منظومة القرن الافريقى ، فشجعت مبادرة دول (الايجاد) لانها بصراحة تفتح الباب أمام انفصال جنـــوب السودان عن شماله ، وهى الدول التى توسطت لحل النـــزاع في السودان بـــين المعارضة المهاجرة ، وبين حكومة جبهة الانقاذ في السودان ، ودول (الايجـــاد) هى : اريتريا وأثيوبيا وأوغنده وكينيا .

وكانت هناك مبادرة مصرية ومبادرة أخرى ليبية لحـــل النـــزاع وتم ادماج المبادرتين في مبادرة واحدة عرفت بالمبادرة المصرية الليبية ، والواقـــع أن

هذه المبادرة تلكأت كثيراً في حل مشكلة السودان بسبب النـزاع بين مصـر والسودان بسبب خطأ السودان في القضاء على الـدور المصـرى الثقـافى في السودان ، بإستيلائها على جامعة القاهرة فرع الخرطـوم ، وجميـع المـدارس المصرية في السودان ، وتحريك جبهة الانقاذ لنـزاع الحدود المصرى السـودانى ، وغير ذلك من الخلافات التى لبدت أجواء العلاقات بين البلدين ، وعـاقت المبادرة المصرية .

لكن عندما وجدت مصر أن أمريكا تحاول جاهدة في فصـل جنـوب السودان عن شماله ، لإيجاد دولة بقيادة (جون جرانج) الذى يقـود المعارضـة المسيحية المدعومة من الغرب وأمريكا وإسرائيل في جنوب السودان لفصله عـن شماله ، عند ذلك تحركت مصر بقوة ونحت جميع الخلافات جانباً ، وحـاولت أن تتفرغ بدور إيجابى لإنقاذ السودان ، ونسقت مع ليبيا لتشكيل لجنة مشـتركة للإتصال بالفرقاء السودانيين والإعداد لجدول أعمال (مؤتمر الحوار الوطـنى) المرتقب .

فلما أدركت أمريكا أن بساط تسوية الأزمة السودانية وفـق رؤيتـها الاستراتيجية بدأ ينسحب من تحت أقدامها ، سارعت الى تسجيل اعتراضـها على المبادرة المصرية الليبية وإعلان إنحيازها فحسـب لمبـادرة الايجـاد عـبر التصريحات التى أدلت بها وزيرة الخارجية الامريكية (مادلين اولبرايت) خـلال جولتها الافريقية مؤخرا (أوائل نوفمبر١٩٩٩م) ، مما دعى المراقبين الى احتمـال جولة جديدة من صراع الإرادات بين مصر وأمريكا ، لا يحمد عقباه ، بـالنظر للهيمنة الامريكية على مقدرات العالم دون وازع من القانون الدولى ، وتسـخير مجلس الأمن لتحقيق مصالحهاالاستراتيجية ، تحت دعاوى ومبررات تتراوح بـين

الحفاظ على الأمن الدولى والإقليمى وحقوق الانسان ومكافحة التطهير العرقى[1] .

لكن وباللهجة نفسها والوتيرة المتسارعة في تصريحات (اولبرايت) ، قطع الدكتور اسامة الباز المستشار السياسى للرئيس (حسنى مبارك) الشك باليقين ، وقال في تصريح صحفى لا يحتمل اللبس والتأويل : " إن أى قوة في العالم لا يمكنها ممارسة حق الفيتو على السياسة المصرية إذا ما تعلقت بمنطقة الجوار الاقليمى وارتبطت على نحو وثيق بأمنها القومى ، خاصة وأن مختلف الفصائل السودانية في السلطة والمعارضة ، أكدت ثقتها وتمسكها وقبولها بالمبادرة المصرية" ، وأعلن مبارك تأكيدة معارضة مصر تقسيم السودان ، وبعدها هدأت تصريحات أمريكا .

وهنا تيقظت مصر الى إعادة الاعتبار لثوابتها التاريخية والسياسية تجاه السودان ، من منظور وحدة الأمن القومى لدولتى وادى النيل وعمقهما الاستراتيجى المتبادل ، وهو ما يفرض على مصر الالتزام المبدئى بوحدة السودان ، والاستعداد للتدخل لمجابهة الأخطار التى تواجهها السودان لأنها تمس الأمن القومى المصرى .

كما دافعت السودان من قبل ، بعد هزيمة الجيش المصرى سنة ١٩٦٧م ، حيث بادر السودان بزعامة رئيس وزرائه (محمد أحمد المحجوب) الى دعوة القمة العربية في الخرطوم ، التى قررت دعما مالياً عربياً لمصر ، مكنها من إعادة بناء قوتها المسلحة في الوقت الذى قامت فيه كتيبة سودانية بالدفاع عن مصر ، على الضفة الغربية لقناة السويس بقيادة الضابط (عمر حسن البشير)

---

[1] يوسف الشريف ، من مقال له في الاهرام عدد ١٠ نوفمبر ١٩٩٩م ، تحت عنوان "إعادة الاعتبار لثوابت مصر في الحفاظ على وحدة السودان " .

الرئيس الحالى للسودان ، وشاركت في معارك حرب الاستنـــزاف ، واستضاف السودان الكلية الحربية المصرية في الخرطوم ، كما استضاف طائرات الســـلاح الجوى المصرى وقطع من الاسطول البحرى المصرى ، لتكون بمنأى عن مرمـــى الطيران الاسرائيلى (١) .

---

(١) المرجع السابق .

الصومال

تقع الصومال على طرف القرن الأفريقى البارز في مياه المحيط الهندى وتطل سواحلها على خليج عدن في الشمال المحيط الهندى في الشرق يبلغ طول هذه السواحل ١٨٠٠كم وتجاور الصومال أثيوبيا في إقليم (أوجادين) الذى تتنازعه الدولتان ، كما تجاور الصومال في جنوبها الغربى كينيا ، ودولة الصومال تضم في أراضيها معظم الشعب الصومالى الذى كان مستعمرا من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وقد نالت (جيبوتى) استقلالها من فرنسا مؤخرا ويسكنها العفار والعيسى وكانت تسمى قبل استقلالها سنة ١٩٧٧م بالصومال الفرنسى .

نشأت علاقات تجارية بين سواحل شبه الجزيرة العربية في عمان وحضرموت واليمن ، من جهة ، وبين سواحل القرن الأفريقى من جهة أخرى ، وقد أنشأ العرب محطات تجارية ، على سواحل ذلك القرن ، ينفذون منها الى داخل شرقى أفريقيا ، وقد انتشر الاسلام في المنطقة بين جنوبى الحبشة وموزنبيق ، عن طريق هجرات عربية ، من منطقة عمان وحضرموت واليمن ، أو نتيجة للعلاقات التجارية التى لم تنقطع طوال العصور التاريخية بين بلاد العرب وشرق أفريقيا ، وهناك هجرات عربية ، نزحت من عمان الى شرق أفريقيا ، في عام ١٢٢هـ ، وهاجرت جماعة من الزيدية الى هناك ، وانتشرت حتى خط الاستواء ، وبعد أجيال خرجت هجرات أخرى ، الى إقليم الاحساء في سنة ٣١٣هـ [1] .

---

[1] د . نجوى أمين الفوال ، العلاقات الخارجية لأريتريا ، بحث ضمن كتاب أريتريا دراسة مسحية شاملة ، صدر عن معهد البحوث والدراسات العربية ، إشراف د . عبد الملك عودة ، ص٢٤٤ .

وانتشرت المراكز العربية الاسلامية في منطقةالسهل الساحلى بشـــرق أفريقيا فنشأت مدن هامة مثل (مقديشيو) و (كلوا) و (زنجبار) و (منباســـا) و (سفاله) وقامت المبادلات التجارية بين الطرفين .

ونشأت المجتمعات الاسلامية الأولى في مدن تحف بخليج عدن والبحــر الأحمر مثل (سواكن) و(مصوع) و(ذيلع) و(بربره) و(هـــرر) وقــامت هــذه المجتمعات بدورها في نشر الاسلام بين القبائل الحامية البدوية التى تقيم في المنطقة الممتدة من ساحل البحر حتى الهضبة الحبشية مثل قبائل (البجـــة) و(العفــار) و(الصومال) و(الجلا) انتشر الاسلام على سواحل البحر الأحمر ونفذ الاســـلام الى شرقى أفريقيا .[1]

ثم بدأ الاسلام يدخل أرض الحبشة نفسها وكان الاسلام ينتشر في تلك الجهات سلميا على مهل عن طريق التجار والدعاة في المنطقـــة الـــتى دعاهـــا الجغرافيون المسلمون (بر الزنج) .

وكان لمصر صلاتها التجارية بشرق أفريقيا وكانت هناك جماعـــة مـــن التجار المسلمين في مدينة (قوص) تتألف من مهاجرين من أهل التكرور وبعــض الهنود والعرب عرفت بإسم (الكارمية) أو (الكانمية) نسبة الى بـــلاد (الكـــانم) فأشتغل هؤلاء بتجارة التوابل ، وكانوا نشيطين في التجارة والدعوة الى الاسلام ، منهم قراء ، ومحدثون ، وفقهاء ، وإن اشتغلوا بالتجارة طلبا للرزق ، وأعـــان هؤلاء على جهودهم في نشر الاسلام ، أتصالاتهم التجارية ، وطول إقامتـــهم في البلاد ، ومعاشرتهم لأهلها ، ومعرفتهم لعاداتهم ، وقد أسلم على أيديهم الكثـير من أهل الحبشة ، وكان ملوك الحبشة إذا أرادوا أن يلتمسوا شـــخصا أمينـــا جديرا بالثقة اختاروه من بين التجار المسلمين ، وكان المسلمون من أهل شـــرق

---

(1) د . محمد السيد غلاب وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص٤٥٧ .

أفريقيا يرحلون الى مصر طلبا للعلم بالأزهر ، وكان لهم رواق بالأزهر ، يسمى رواق الجبرت ، وينتمي إليه عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصرى المعروف .[1]

وحين تطلع البرتغاليون الى محالفة الأحباش ، للقضاء على الاسلام في البحر الأحمر ، كان النفوذ العثماني قد أخذ يظهر ، في بلاد اليمن ، ومضيق عدن ، وشرق افريقيا ، وكان لهم أسطول قوى في البحر الاحمر ، وأعلنوا إغلاق البحر الأحمر ، أمام السفن الأوربية الاستعمارية ، بحجة أن البحر الأحمر تطل مياهه على الحرمين الشريفين ، حرم مكة المكرمة ، وحرم المدينة المنورة ، فلا يجب أن تدنس مياهه بالسفن الغربية المسيحية ، فحفظوا بذلك للبحر الأحمر عروبته وإسلامه، وجعلوه بحرا إسلاميا مغلقا ، ولم يتغير وضعه هذا ، إلا بعد ضعف الدولة العثمانية ، في مطلع القرن التاسع عشر الميلادى ، عندما بدأت السفن الاستعمارية تجتازه ، وبدأ النشاط الاستعمارى المحموم ، في مياهه بين فرنسا وإيطاليا وانجلترا .

وقد ظفرت بريطانيا (بعدن) أما فرنسا فأستعمرت (جيبوتى) التى كان يطلق عليها الصومال الفرنسى أما إيطاليا فاستعمرت أريتريا وجزءا من الصومال واحتلت القوات البريطانية جزءا آخر من الصومال سنة ١٨٨٧م وعندما احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢م أجبرت مصر في عام ١٨٨٤م ترك أراضيها في شرق أفريقيا وكانت مصر قد بنت لها مراكز في (مصوع) و(ذيلع) و(بربره) و(هرر) .

وقد واجه الصوماليون الاستعمار الانجليزى بالمقاومة وقاد الجهاد الشيخ (محمد ابن عبد الله) ضد البريطانيين والأحباش معا ولم تنته حركة الشيخ محمد ابن عبد الله في الصومال إلا في عام ١٩٢١م حيث كلف المحتلين البريطانيين

---

[1] المرجع السابق ، ص٤٥٨ .

خسائر فادحة وقد بدأ محمد ابن عبد الله يثير المتاعب في وجه المستعمرين بإعلانه الجهاد ضدهم وضد الحبشة وكان يتخذ أساليب المهدى ومن جاء بعده في السودان وقد جمع هذا الزعيم قوات كبيرة لمحاربة الانجليز ودعى قومه الى الوحدة لطرد الانجليز ومن هنا لقيت دعوته أذانا صاغية ولم يقو الانجليز إلا على السيطرة على السواحل وأخذوا في توجيه الحملات الحربية الى حركة محمد عبد الله لقمعها حتى توفى سنة ١٩٢١م وانتهت حركته بعد أن كلف الانجليز خسائر فادحة [١] .

وتنتشر الطرق الصوفية في المنطقة الصومالية وأهمها (الطريقة القادرية) التى سبق أن تحدثنا عنها في غرب أفريقيا وهى أقدم الطرق الصوفية التى دخلت الصومال بفضل اليمنيين الذين استقروا في (مقديشيو) وذيلع وغيرها استطاعت القادرية أن تتوغل الى داخل البلاد حوالى سنة ١٨١٩م عندما اسس الشيخ إبراهيم حسن جابرو موكزا لها مكان بلدة (برديرة) الحالية ثم نشر الشيخ عيسى ابن محمد البراوى هذه الطريقة في جوبا العليا وبنى مسجدا وزاوية في قرية (توجحلة) عام ١٩٠٩م وفي ذكرى مولده يقام احتفال كبير حول ضريحه كل عام في بلدة (بيولى) بالقرب من توجحله .

وتوجد طرق صوفية أخرى في الصومال مثل (الطريقة الأحمدية) التى أسسها أحمد بن أدريس الفاسى (ت١٨٣٧م) و(الطريقة الصالحية) التى تنسب الى محمد ابن صالح (ت١٩١٩م) وهى فرع من الأحمدية و(الطريقة الرفاعية) واتباعها قليلون في الصومال وغالبية الصوماليين على المذهب الشافعي .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وتأسيس هيئة الأمم المتحدة نظرت هيئة الأمم في وضع المستعمرات السابقة في الصومال ووضعت الصومال تحت وصاية

---

[١] د . عبد الرحمن زكى ، الاسلام والمسلمون في أفريقيا ، ص٢٤٦ .

الامم المتحدة وتم الاستقلال في سنة ١٩٦٠م بقسميها : الذى كان خاضعا لبريطانيا والذى كان خاضعا لإيطاليا وصارا يولفان دولة واحدة ، أما إقليم الصومال الفرنسى فقد تم استقلاله في سنة ١٩٧٧م عقب استفتاء شعبى لتقرير المصير تحت اسم (جيبوتى) ولم يبق سوى إقليم (أوجادين) الذى تسيطر عليه أثيوبيا .

جيبوتى

جمهورية جيبوتى تقع حول خليج (تاجوره) الذى يربط بينها وبين بـاب المندب والبحر الأحمر وخليج عدن ، وهى من أرض الصومال كما سبق أن ذكرنا ، ويطلق عليها الصومال الفرنسى ، ويسكنها قبائل (العفار) و(العيسى) ، ويسكن قبائل العيسى في الشمال وقبائل العفر في الجنوب ، ويدين هؤلاء جميعا بالاسلام . وهم من البدو والرعاة ، والرعى هو الحرفة الوحيدة للسكان ، وقد أقامت الدولة مشاريع للرى أعانت على تكوين واحات صغيرة للاستقرار.[1]

وكان الاستعمار الفرنسى قد اهتم بميناء (جيبوتى) العاصمة سنة ١٨٨٤م وهى ميناء بحرى وبداية لخط حديدى يربط بأديس أبابا عاصمة أثيوبيا ومن هنا جاءت أهميتها لأثيوبيا لأنه لا يوجد لأثيوبيا منفذ على البحر فهذا الخط الحديدى هو منفذ أثيوبيا الوحيد على البحر ، بعد استقلال أريتريا عن أثيوبيا وتدهور العلاقات بين أثيوبيا وأريتريا.

وأعلن وزير خارجية جيبوتى مؤخرا (١٩٩٩م) (على عبدى فرح)أن جيبوتى لن تستغل أثيوبيا فيما يتعلق باستخدام ميناء جيبوتى الذى يعتبر المنفذ البحرى الوحيد لأثيوبيا حاليا منذ نشوب الأزمة الحدودية (الأريترية - الأثيوبية) وتوقف الأخيرة عن استخدام ميناء (عصب) الأريترى . وأكد أن الجانبين اتفقا على إنشاء صندوق مالى مشترك لتجديد الطرقات وتطوير الميناء

[1] د . محمد السيد غلاب وآخرون ، ص٤٦٤-٤٦٥ ، مرجع سبق ذكره .

لتلبية متطلبات أثيوبيا ، وأشار الى اتفاق بين البلدين لإنشاء خط سكة حديد جديد وحديث بين البلدين[١] .

ولذلك كانت لها أهمية كبرى في المواصلات ، ويرتبط نشاط جيبوتي كثيرا بالملاحة في البحر الأحمر وقناة السويس ، ولذلك زادت أهميتها بعد فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م .

وقد دخل الاستعمار الفرنسي جيبوتي منذ عام ١٨٦٢م عندما كون مستعمرة " أوبوك " بتنازل بعض قادة قبائل (عفر) عن المنطقة ، وقد أضيفت أراضي (العيسى) الى المستعمرة الفرنسية بموجب اتفاقية فرنسية أثيوبية زمن الامبراطور (منليك) عامي ١٨٨٤/١٨٨٥م وفي سنة ١٨٩٢م صارت مدينة (جيبوتي) مقراً لحكومة المستعمرة ، وفي عام ١٨٩٦م عرفت باسم " الصومال الفرنسي " [٢] .

وتم بناء الخط الحديدى بين جيبوتي وأديس أبابا سنة ١٩١٥م بموجب اتفاقية بين فرنسا وامبراطور أثيوبيا سنة ١٨٩٧م ، ويعتبر هذا الميناء مصدرا هاما من مصادر الدخل القومي الجيبوتي .

وحاولت فرنسا ربط إقليم جيبوتي بها بعد الحرب العالمية الثانية ، ففي سنة ١٩٤٦م عينت فرنسا لجيبوتي ممثلا لها في البرلمان الفرنسي ، وفي سنة ١٩٥٧م تم انشاء جمعية محلية ، وفي سنة ١٩٥٨م وافق سكان جيبوتي على تبعيتهم لفرنسا باستفتاء مزور أشرفت عليه قوات الاحتلال الفرنسي .

---

[١] جريدة الحياة اللندنية ، عدد ١٩٩٩/١١/٦م .

[٢] د . رأفت الشيخ ، تاريخ العرب المعاصر ، ص١٠٦ .

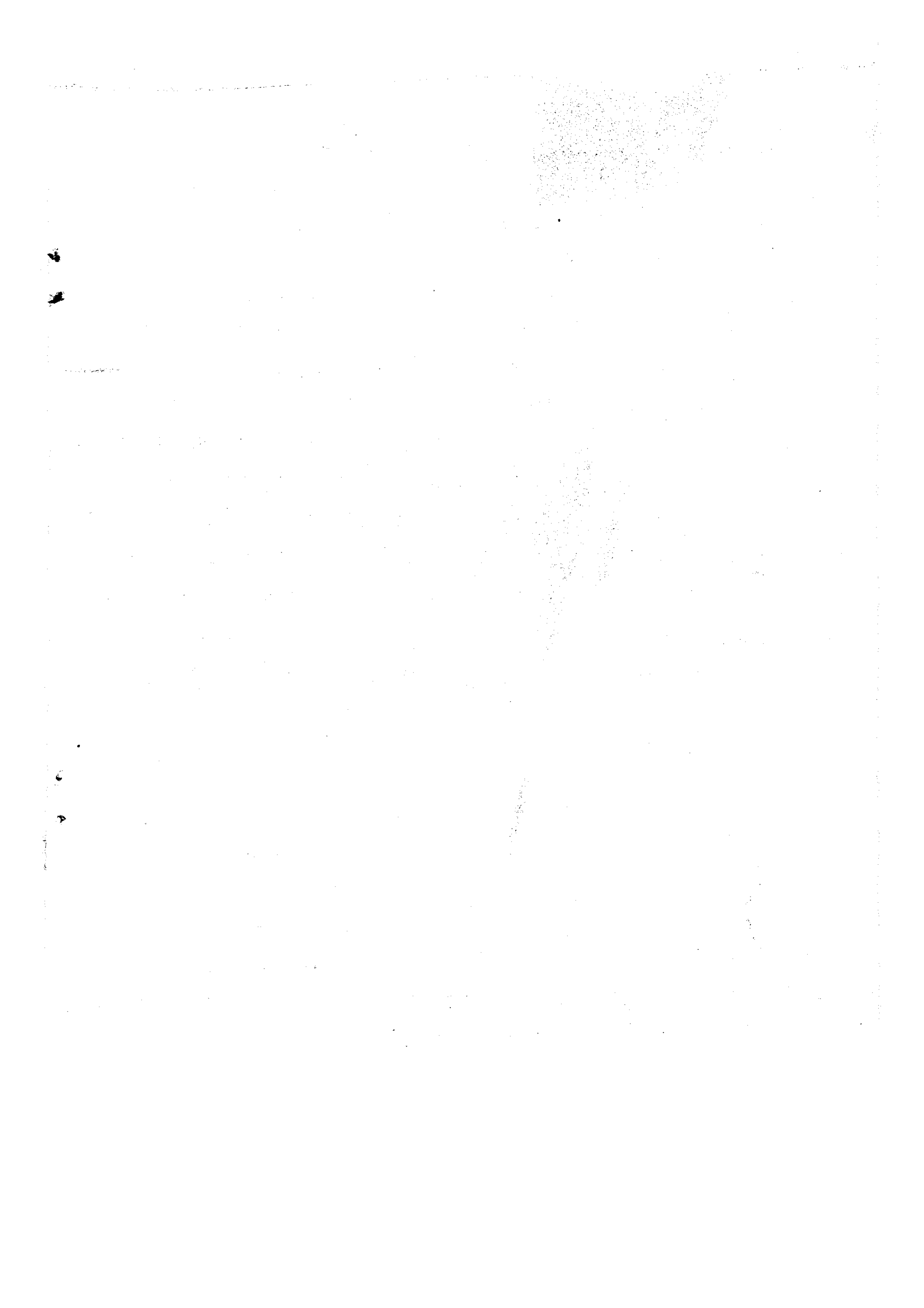
ولما كان العفر لهم امتداد في أثيوبيا ، والعيسى لهم إمتداد في الصومال فإن فرنسا قوت علاقاقا بالعفر على حساب قبائل العيسى الصومالية نظرا لأن الأخيرة نزاعة الى الاستقلال عن فرنسا أكثر من العفر .

وتزعم الحركة الوطنية (محمود حربي) من قبائل العيسى واشتدت حركته التي تنادى بالاستقلال وكان أول رئيس لنقابة عمال ميناء جيبوتي وأصبح رئيسا لحزب (الاتحاد الديمقراطي) وكشف تزييف استفتاء ١٩٥٨م ، وفرضت عليه سلطات الاحتلال مغادرة أراضي جيبوتي ، فلجأ الى القاهرة ، وتوفى سنة ١٩٦١م في حادث انفجار طائرة مصرية في الطريق بين جنيف والقاهرة .[١]

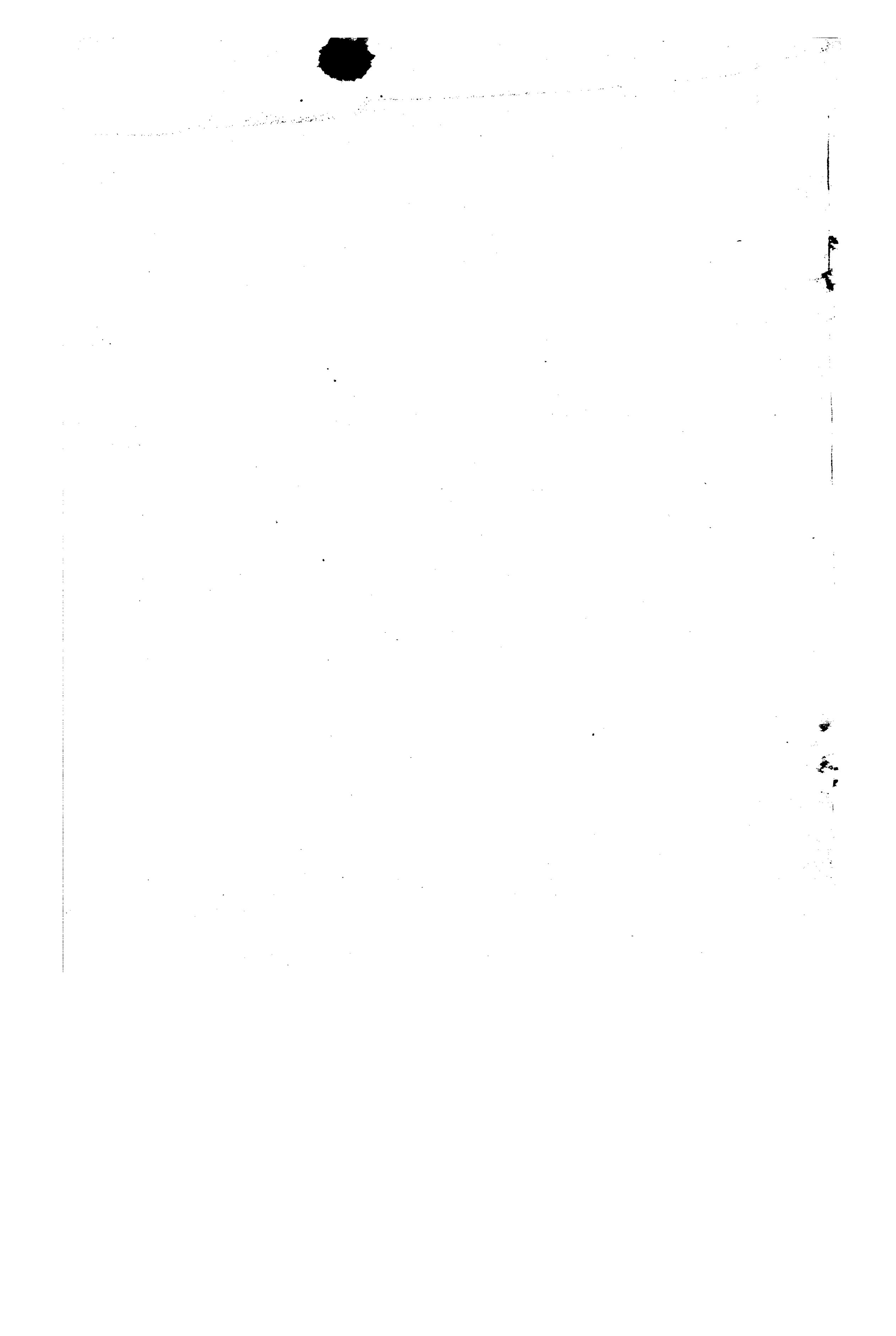
وظهر زعيم آخر موال لفرنسا من قبائل العفر هو (علي عارف) وأعلنت فرنسا عدة استفتاءات من سنة ١٩٥٨م الى سنة ١٩٧٤م كلها تؤيد ارتباط جيبوتي بفرنسا . وفي النهاية منحت فرنسا الاستقلال لجيبوتي سنة ١٩٧٧م مع ارتباطها بمعاهدات دفاع مشترك مع فرنسا فأعلنت جمهورية باسم (جمهورية جيبوتي) برئاسة حسن جوليد زعيم قبائل العيسى ، وفي ٣ من سبتمبر سنة ١٩٧٧م انضمت الى جامعة الدول العربية فاصبحت العضو رقم ٢٢ .

---

[١] المرجع السابق ، ص١٠٧ .



الفهـرس



رقم الإيداع بدار الكتب ٩٩/١٧٧٩٨